

حَارِثُ عَلِيِّ بْنِ هِشَامٍ

أَوْ

فِتْرَةٌ مِنَ الزَّمَنِ

لَمُنَشَأُهُ

مُحَمَّدُ الْمُوَلَّحِيُّ

﴿ الطبعة الرابعة مع الرحلة الثانية ﴾

كلمة النبي عليه الصلاة والسلام
بمصر ولا يقول إلا حقاً

الناشر

مكتبة الثقافة الدينية

٥٢٦ شارع بورسعيد القاهرة

ت : ٩٢٢٦٢٠ — ٩٣٦٢٧٧

اهراء الكتاب

ألف المؤلفون والكتاب أن يبدأوا كتبهم عند نشرها بإهداءها إلى بعض ذوى الشأن والفضل . والضعيف العاجز يهدي هذا الكتاب إلى كل من يقرؤه من أديب يجد فيه طرّفاً من الأدب ، وحكيم يرى فيه لمحة من الحكمة ، وعالم يبصر فيه شذرة من العلم ، ولفؤى يصادف فيه أثرًا من الفصاحة ، وشاعر يشعر فيه بمثل طيف الخيال من لطف الخيال

وأهديه إلى أرواح المرحومين : الأديب الوالد ، والحكيم جمال الدين ، والعالم محمد عبده ، واللفؤى الشنقيطى ، والشاعر البارودى .
وأولئك الذين أنعم الله عليهم وأولئك الذين تأدّبت بأدبهم وأخذت بهديهم

✽

وأهدى هذه الرسالة التى اختصنى بها المرحوم الأستاذ جمال الدين الأفغانى بخطه الكريم منذ خمس عشرة سنة إلى جماعة أهل الفضل والأدب لما تضمنته من الحث على طلب العلم وأدب النفس والحسن أسلوبها فى كتب المودّات . وهى لا تزال عندى إماماً يهدينى ونوراً أستضيء به ، فأردت أن أشاركهم فى هذه النخيرة التى يحق الضنّ بها

والحرص عليها ، ونقلتها هنا بصورة خطه الشريف تخليداً لأثر تلك
اليد الكريمة . وإذا قدّرنا أن الشرقيين يتنافسون تنافس الغربيين في
اقتناء الرسائل التي تكون قد صدرت عن بعض عظماء الرجال بخطوطهم،
ويتسابقون إلى الحصول على بعض أدوات كتابتهم، ويبذلون في سبيل
ذلك من الأموال والمساعي مالا يُقدّر ، فإنني أكون قد أهديت إلى
أهل الفضل هدية يمتدّون بها ويتقبلونها بالقبول الحسن إن شاء الله :

جبر مفاضل

تفکک فی شئون الکمال یشم مصدر الحجة من حرة
 و خوضک فی فنون کلا دایم قلوبا علق بک (اما لها
 و پس بعده اکرهای الله العجاز و لک یومئذ الحمد
 و لقد غنیت اللطیفة المویجة فی مصرکة اخری و هذا توفی من
 فاشد ازرک و ابرم بما اوتیت من حکیمه و الحق و امرک
 حتی تكون کلمة الحق فی علیا و لکن کالین غزمت انفسهم
 ابراهما و ساقتم مظلون الا سهوة شقاها و حبه اثم کبون
 صفا و یملون آرا و کن عزالقی و لوی غفک و لا تقف غیرک
 الا انفسک عند عجبک لانهیة للفضیلة و نهیة للکمال و لا توقف للفرق
 و انت بغیرتک می نه اوباهای غیرک و مدم جبال مدی بحینی مدحا

و انفسک

حيي الفاضل

تَقْلُبُكَ فِي شُؤْنِ الْكَمَالِ يَشْرَحُ الصُّدُورَ الْحَرْجَةَ مِنْ حَسْرَتِهَا
وَحَوْضُكَ فِي فَنُونِ الْآدَابِ يَرِيحُ قُلُوبًا عَلَقَتْ بِكَ آمَالُهَا وَلَيْسَ بَعْدَ
الْإِرْهَاصِ^(١) إِلَّا الْإِعْجَازُ وَلَكَ يَوْمَئِذٍ التَّحَدَّى وَلَقَدْ تَمَثَّلَتْ اللَّطِيفَةُ الْمَوْسُوِيَّةُ
فِي مَصْرُورَةٍ أُخْرَى وَهَذَا تَوْفِيقٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى فَاشْدُدْ أَرْزَاقَهَا وَأَبْرِمْ بِمَا
أُوتِيتَ مِنَ الْكَيْسَةِ وَالْحَذَقِ أَمْرَهَا حَتَّى تَكُونَ كَلِمَةُ الْحَقِّ هِيَ الْعَلِيَا .
وَلَا تَكُنْ كَالَّذِينَ غَرَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ بِبَاطِلِ أَهْوَائِهَا وَسَاقَتْهُمْ الظُّنُونُ إِلَى
مَهْوَاةِ شِقَاقِهَا وَحَسَبُوا أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صِنْعًا وَيُصْلِحُونَ أَمْرًا . وَكُنْ عَوْنًا
لِلْحَقِّ وَلَوْ عَلَى نَفْسِكَ وَلَا تَقِفْ فِي سِيرِكَ إِلَى الْفَضَائِلِ عِنْدَ عُجْبِكَ لَا نِهَايَةَ
لِلْفَضِيلَةِ وَلَا حَدًّا لِلْكَمَالِ وَلَا مَوْقِفَ لِلْعِرْفَانِ وَأَنْتَ بِفَرِيزَتِكَ السَّامِيَةِ
أَوْلىٰ بِهِمَا مِنْ غَيْرِكَ وَالسَّلَامُ

جمال الدين الحسيني

الأفغانى

(١) الارهاص الخارق الذى يظهر من النبي قبل البعثة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الواحد العدل . والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي
الأمي القرشي الأبطحي التهامي المكي المدني وآله الطيبين الطاهرين .
وبعد فهذا الحديث — حديث عيسى بن هشام — وإن كان في نفسه
موضوعاً على نسق التخيل والصوير فهو حقيقة متبرجة في ثوب خيال
لأنه خيال مسبوك في قالب حقيقة ، حاولنا أن نشرح به أخلاق أهل
العصر وأطوارهم وأن نصِفَ ما عليه الناس في مختلف طبقاتهم من النقائص
التي يتعين اجتنابها والفضائل التي يجب التزامها . وهذه الطبعة الرابعة
بعد نفاذ الطبعة الثالثة تعيدناها أيضاً بما تقتضيه معاودة النظر من اصلاح
مواضع النقص والإهمال ، ومداركة ما لا يخلو منه كل عمل من شائبة
السهو والإغفال . ومن الله التوفيق لكل حال . والتسديد في كل
مقال وفعال

العبرة

حدثنا عيسى بن هشام — قال رأيت في المنام . كأنني في صحراء
 « الإمام » . أمشي بين القبور والرجام ^(١) . في ليلة زهراء قراء . يستر
 بياضها نجوم الخضر ^(٢) . فيكاد في سنا نورها ينظم الدرّ ثاقبه . ويرقب
 الدرّ راقبه . وكنت أحدث نفسي بين تلك القبور . وفوق هاتيك
 الصخور . بغرور الإنسان وكبره . وشموخه بمجده ونفخه . وإغراقه في
 دعواه . وإسرافه في هواه . واستعظامه لنفسه . ونسيانه لرمسه . فقد
 شخ المتورر بأنفه حتى رام أن يثقب به الفلك . استكباراً لما جمع واستعلاء
 بما ملك . فأرغمه الموت فسدت بذلك الأنف شقاً في لحده . بعد أن وارى
 تحت صفائح ^(٣) صحائف عزه ومجده . وما زلت أسير وأتفكر . وأجول
 وأتدبر . حتى تذكرت في خطأي فوق رمال الصحراء . قول الشاعر
 الحكيم أبي العلاء :

خفف الوطاء ما أظن أديم الـ أرض إلا من هذه الاجساد
 وقبيح بنا وإن قدم المهد هوان الآباء والأجداد
 سر إن أسطعت في الهواء رويداً لا أخيراً على رفات العباد
 فقرعت سن الندم . وخففت وطاء القدم . وإن في دهما أولئك
 الأموات . وغمار تلك الرمم والرفات . لمباسم طالما حوّل العاشق قبلته

(١) الرجام ، جمع رجم وهو القبر (٢) الخضر ، السماء (٣) الصفائح ، حجارة القبور

لُقبِلَها . وباع عذوبة الكونر بمذوبتها . قد امتزجت بفبار الغبراء .
واختلطت ثناياها بالحصى والحصباء ^(١)

وتذكرت أن تلك الحدود التي كان يغارُ منها الورد فيسكي بدموع
الندى . ويشتمل الفؤاد منها بنار الجوى . ويقف الخال منها موقف الخليل
من النيران . أو ابن ماء السماء في شقائق النعمان ^(٢) . ويتفرق فيها ماء
الحياء وماء الشباب . قد طوى الدهرُ حسنَها طيَّ الكتاب . وصارت بحكم
القضاء . أديماً لوجه الفضاء

وأنَّ تلك العيون التي صادت بأهدابها الملوك الصيد ^(٣) . فكانوا
رُعاة الأمم رعايا الغيد . وسحرت بيابل هاروت وماروت . ووقفت موقف
الاستكانة ربَّ الجلال والجبروت . ياتمس - والتاج في يمينه . وعرق
الحياء فوق جبينه - من خلال لحظاتها قبولاً . كسائل يمدُّ لالتماس
الإحسان كشكولاً . قد أمست تواباً تحت الرمس . ^(٤) كأن لم تفتن
بالأمس

وأنَّ ذلك القاحم الأثيث من الشعر ^(٥) . الخاطف يبريقه سواد
القلب والبصر . قد حصدهُ من منابته يدُ الزمن . فنسيج الأجل منه
ثوب الكفن

وأنَّ تلك النهود التي كأنها حقائق من لجين ^(٦) تزينت بحب من

(١) الحصباء ، صفار الحجارة وأحدها حصبة (٢) ابن ماء السماء ، هو ابن المنذر وكان أسود ،
وشقائق النعمان زهر احمر (٣) الصيد ، جمع أصيد وهو الملك التكبر الزاهي (٤) الرمس ، القبر
(٥) شعر أثيث ، كثير عظيم (٦) اللجين ، النسمة

المرجان . أو كراتٍ من جليدٍ بثَّقَ فيها زهرٌ من الرمان . قد أصبحت
كالخَلْأَةِ على الصدر . تحمل الزادِ لدود القبر

كم صائِنٍ عن قُبْلَةٍ خَدَّهُ سُلَّطَتِ الأرضُ على خَدِّه
وحاملٍ يُقَلِّ الثرى جِيدُهُ وكان يشكو الضعفَ من عِقْدِهِ
وَأَنَّ تلكَ الرِّقَاتِ والعظامِ . من بقايا الملوكِ العظامِ . الذين كانوا

يستصغرون الأرضَ داراً . ويحاولون عند النجومِ جواراً . — وتلك الضلوعُ
التي انحنتْ على البطشِ والحلمِ . والشفاهُ التي طالما لفظتْ أمرَ الحربِ
والسلمِ . — وتلك الاناملُ التي كانت تَبْرِى القلمَ للكتابِ . وتَبْرِى
بالسيوفِ الرقابِ . — وتلك الوجوهُ والرؤوسُ . التي استعبدتْ الأبدانَ
والنفوسَ . ووُصِفَتْ تارةً بالبدورِ وتارةً بالشموسِ . — قد تساوى الرئيسُ
فيها بالمرؤوسِ . فلا تفريقَ اليومَ ولا تمييزَ . بين الذليلِ منها والعزیزِ :

هو الموتُ مُتَرٍ عنده مثلُ مُقْتَرٍ

وقاصدُ نهجٍ مثلُ آخرٍ ناكِبِ

ودرعُ الفتى في حِكمِهِ درعُ غادةٍ

وأَيَاتُ كسرى من بيوتِ العناكبِ

فرُجِلَ في غبراءٍ والخطبُ فارسٌ^(١)

وما زال في الأهليْنِ أشرفُ راکِبِ

وما النعشُ إلا كالسفينَةِ راميّاً

بِعُرْقَاهُ في بحرِ الردى المتراكِبِ

وبينا أنا في هذه المواعظ والمِبر . وتلك الخواطر والفكر . أتأمل
في عجائب الحدّاث . وأعجب من تقلب الأزمان . مستغرقاً في بدائع المقدور .
مستهدياً للبحث في أسرار البعث والنشور . اذا برجة عيفة من خلفي .
كادت تقضى بحتي . فالتفتُ التفاتة الخائف المذعور . فرأيت قبراً
انشقَّ من تلك القبور . وقد خرج منه رجلٌ طويل القامة . عظيم الهامة .
عليه بهاء المهابة والجلالة . ورواء^(١) الشرف والنبالة . فصعقتُ من هول
الوَهْل^(٢) والوجل . صعقة موسى يوم ذكَّ الجبل . ولما أفقتُ من غشيتي .
وانتهت من دهشتي . أخذت أسرع في مشيتي . فسمعت يناديني . وأبصرته
يدانيني . فوقفت امتثالاً لأمره . واتقاءً لشره . ثم دار الحديث بيننا
وجرّى . على نحو ما تسمع وترى . بالتركية تارة وبالعربية أخرى :

(الدفين) — ما اسمك أيها الرجل ، وما عملك ، وما الذي جاء بك ..
فقلت في نفسي حقاً إن الرجل أقرب العهد بسؤال الملكين فهو يسأل
على أسلوبهما ، فاللهم أنقذني من الضيق . وأوسع لي في الطريق . لأخلص
من مناقشة الحساب . واكتفي شر هذا العذاب . ثم التفتُ إليه فأجبتة :
(عيسى بن هشام) — لاسمى عيسى بن هشام . وعمل صناعه الاقلام .
وجئت هنا لأعتبر بزيارة المقابر . فهي عندي أوعظ من خطب المنابر
(الدفين) — وأين دواتك يا معلم عيسى ودفترك

عيسى بن هشام — أنا لست من كُتّاب الحساب والديوان . ولكني
من كتاب الإنشاء والبيان

(الدفين) - لا بأس بك ، فاذهب أيها الكاتب المنشئ فاطلب
لى ثيابى وليأتونى بفرسى « دحمان »

(عيسى بن هشام) - وأين ياسيدى يتكم فانى لا أعرفه
(الدفين) مشمراً - قل لى بالله من أى الأقطار أنت فإنه يظهر
لى أنك لست من أهل مصر لاذ ليس فى القطر كله من أحد مجهل بيت
أحمد باشا المنيكى ناظر الجهادية المصرية

(عيسى بن هشام) - اعلم أيها الباشا أننى رجل من صميم أهل
مصر ولم أجهل بيتك إلا لأن البيوت فى مصر أصبحت لا تُعرف
بأسماء أصحابها بل بأسماء شوارعها وأزقتها وأرقامها فاذا تفضلت وأوضحت
لى شارع بيتكم وزقاقه ورقه انطلقتُ اليه وأتيتك بما تطلبه
(الباشا) مغضباً - ما أراك أيها الكاتب إلا أن بعملك دخلاً فتى
كان للبيوت أرقام تُعرف بها ، وهل هى « إفادات أحكام » أو « عساكر
نظام » ، والأولى أن تناوانى ردائك استر به وتصلحبنى حتى أصل
الى بيتى

(قال عيسى بن هشام) - فنزلت له عن ردائى^(١) وقد كان المهود
أن سلب المارة لا يكون الا من قطاع الطريق فاذا هو أيضاً من سكان
القبور - ثم ارتداه مستنكفاً متردداً وهو يقول :
(الباشا) - للضرورة أحكام ، وقد لبسنا أدنى من هذا الرداء فى

مصاحبتنا لأفندينا المرحوم إبراهيم باشا على طريقة التنكر و«التبديل»
في الليالي التي كان يقضيها في البلد ليستطلع بنفسه أحوال الرعية. ولكن
كيف العمل وكيف يتسنى الدخول

(عيسى بن هشام) — ماذا تريد

(الباشا) — أنسيت أننا في الثالث الأخير من الليل وليس من
يعرفني بهذا الرءاء على أبواب مصر ولم يكن معي كلمة «سرّ الليل»
فكيف تفتح لنا الأبواب

(عيسى بن هشام) — كما أنك ياسيدي لم تعرف أرقام البيوت ولم
تسمع بها في حياتك فأنا لا أعرف «سرّ الليل» ولم أسمع به

(الباشا) مستهزئاً ضاحكاً — ألم أقل لك إنك غريب الديار ، ألم تعلم
أن «سرّ الليل» كلمة تصدر من القلعة في كل ليلة إلى «الضابطة» وإلى
جميع «القره قولات» والأبواب فلا يجيزون لأحد مشي الليل إلا
إذا كان حافظاً لهذه الكلمة يلقيها في أذن البواب فيفتح له ، وهي تُعطى
لمن يطلبها من الحكومة سرّاً لقضاء أشغاله بالليل ، وتتنير في كل ليلة .
فليلة تكون كلمة «عدس» وليلة تكون «خضار» وليلة تكون «حمام»
وليلة تكون «فراخ» وهلم جرا

(عيسى بن هشام) — يظهر لي من كلامك هذا أنك لست أنت
من أبناء مصر فما علمنا أن هذه الألفاظ تطلق فيها على غير الأطمعة ولم
نسمع أنها تدل على الإجازة للناس بالسير في ليهم . على أن الفجر قد دنا
ولم يبق بنا من حاجة لهذه الكلمات ولا غيرها

(الباشا) - الأمر في ذلك موكل اليك

قال عيسى بن هشام - فسرنا في طريقنا وأخذ الباشا يزيدني تعريفا
بنفسه وبقص على من أنباء الحروب وأخبار الوقائع التي شاهدها بعينه
وسمعا بأذنه، ويذكر لي ما شاء من مآثر «محمد علي» وشجاعة «ابراهيم».
ولما زلنا على تلك الحال حتى وصلنا في ضوء النهار الى ساحة القلعة،
فوقف وقفة المستكن الخاشع يقرأ سورة الفاتحة لضريح محمد علي
ويخاطب القلعة بقوله في بلاغة تركيته :

«إيَّيْهَ لَكَ يَامُصْدِرَ النِّعَمِ وَمُصْرِعَ الْجَبَابِرَةِ مِنْ عُنْتَةِ الْمَالِكِ، وَيَا بَيْتَ
الْمَلِكِ وَحَصْنَ الْمَمْلَكَةِ وَمَنْبَعَ الْعِزِّ وَمِهْطَةَ الْقُوَّةِ وَمُرْتَفَعَ الْمَجْدِ وَمَوْثِلَ
الْمُسْتَفِثِ وَحِمَى الْمُحْتَمَى وَكَنْزَ الرِّغَائِبِ وَمُنْتَهَى الْمَطَالِبِ وَمَثْوَى الْبَطْلِ
الشَّهِيمِ وَمَقْبَرَ الْمَلِكِ الْهَامِ، أَيُّهَا الْحَصِينُ كَمْ فَكَّكَتْ بِالْكَرَمِ عَانِيَا. وَقِيدَتْ
بِالْإِحْسَانِ عَافِيَا. وَكَمْ أَرْغَمْتَ أَنْوَفَا. وَسَلَّاتِ سَيُوفَا. وَجَمَعْتَ بَيْنَ الْبَأْسِ
وَالنَّدَى. وَدَاوَرْتَ بَيْنَ الْحَيَاةِ وَالرَّدَى»

قال عيسى بن هشام - ثم التفت الباشا الى وقال : أَسْرِعْ بنا نحو
البيت لا لبس ثيابي وأتقلد حسامي وأركب جوادى، ثم أعود الى القلعة
فألثم أذيال ولى النعم الداورى الأعظم

الشرطة أو البوليس

ولما غادرنا ساحة القلعة انحدرنا في الطريق ، وبيننا نحن نسير إذ
تعرّض لنا مُكاري يسوق حماره وقد راضه الخيـثُ على التعرض وسدَّ
الطريق على المارة ، فكلمنا سرنا وجدنا الحمار في وجهتنا والمكاري ينبـح
بصوت قد بُحَّ حتى أمسك بذيل صاحبي يقول له :

(المكاري للبasha) — اركب يا أفندي فقد عطلتني وأنا أسير وراءك

منذ ساعتين

(البasha للمكاري) — كيف تدعوني أيها الشقيُّ الى ركوب الحمار
وما رغبتُ فيه قط وما دعوتك في طريقى ، وكيف لمثلـى ان يركب الحمار
الناهى . مكان الجواد السابق

(المكاري) — وكيف تنكر إشارة يدك التى دعوتنى بها وأنت
تتكلم مع صاحبك في طريق « الإمام » وقد دُعيتُ مراراً من السائرين
فلم أقبل منهم ولم ألتفت اليهم لارتباطى معك بتلك الإشارة ، فأركب
معى أو أعطنى أجرى

(البasha) وهو يدفع المكاري بيده -- اذهب عنا أيها السفـيه فلو

كان سلاحى معى لقتلتك

(المكاري) متسافهاً في القول — كيف تجسر على هذا الكلام ، فإمّا
أن تعطينى أجرى وإما أن تذهب معى الى « القسم » ، وسترى هناك
ما يعاقبونك به على تهديدك إياى بالقتل

(الباشا لعبسى بن هشام) - إني لأعجب من صبرك على هذا الفلاح
السفيه الذى استرسل معنا فى سفاهته ووقاحته ، فلم فاضربه بالنيابة عنى
حتى تريحه من عيشته وتريحنا منه

(عبسى بن هشام) - كيف يكون ذلك وأين القانون وأين الحكام
(الباشا) - مالى أراك قد شقّ الخوف قلبك وقطعَ الهلع أنفاسك ،
أيعتريك الخوف وأنت معى ، انّ هذا لمعجبٌ منك

(المكارى) مستهيناً - العفو ! العفو ! من أنت ومن غيرك ، ونحن
فى زمن الحرية لا فرق بين الصغير والكبير ، ولا تفاوت بين المكارى
وبين الأمير

(الباشا لعبسى بن هشام) - ويحك هلم فاضربه أو دعنى أقتله
(عبسى بن هشام) - أنا لا أضرب أحداً وأنت لا تقتل أحداً
ما دمت معى . واعلم أنه لا تصدّرنا « مخالفة » أو « جنحة » أو « جناية »
إلا والعقاب من ورائها ، فلا تعجب من طول صبرى واحتمالى ، وأقول
لك ما قاله الخضر لموسى عليه السلام « إنك لن تستطيع معى صبراً
وكيف تصبر على ما لم تحط به خبيراً » ، والطريقة للتخلص من سفاهة
هذا السفيه أن أعطيه شيئاً من الدراهم فيتحول عنا إلى سوانا ، وأنا أسأل
الله أن يبلغنا بيتك بالسلامة

(الباشا) - لا تعط هذا الكلب الناحج درهماً واحداً ، وقد أمرتك
أن تضربه ، فإن لم تفعل فأنا أنزل إلى ضربه وتأديبه ، والفلاح لا يصلح
جلده إلا بمجلده

قال عيسى بن هشام — ثم أمسك الباشا بعنق المكارى وأوسعه ضرباً، وأخذ المكارى يستغيث وينادى يا « بوليس » يا « بوليس » ، وأنا أجتهد في إيقاظه من مخالبه وأستعيز بالله من شر هذا اليوم، وأقول للباشا : ليس هذا مما يُحمد عتباؤه، فاتق الله أيها الأمير في عباد الله . فإنا أتممت هذا القول حتى رأيته اشتد به الغضب وأغلقت عليه الحدة فتغير وجهه، وانقلبت حماليقه، وتقلصت شفته واتسع منخره وضاعت جبهته ، نغفت أن يحمله جنون الغضب على البطش بى مع المكارى فتداركت أمرى وقلت له : مثلك أدام الله عزك لا يتنزل لمثل هذا الفعل ، فأنت أرفع قدراً من أن تمس ييدك الشريفة . مثل هذه الجيفة . فسكنت بذلك من حدته ، وعمدت الى المكارى فوضعت فى يده دريهمات على غير علم من الباشا وطلبت إليه أن ينصرف عنا، فإزداد اللائم بذلك الاستغاثة بالشرطة واستنجاداً بالبوليس

(الباشا لعيسى بن هشام) — ألم أقل لك ان الفلاح لا يصلحه الا الضرب ، ألم تعلم أن غاية ما ينتهى اليه أمره فى رفع الألم عنه أن يعالو صياحه استغاثةً بالمشايخ والأولياء . ولكن قل لى بالله هل « بوليس » هذا الذى يناديه ويستغيث به ولىٌ جديد

(عيسى بن هشام) — نعم إن هذا البوليس هو ولى الأمر احتلت فيه القوة الحاكمة

(الباشا) — لست أفقه هذا المعنى، فأوضح لى حقيقة هذا البوليس (عيسى بن هشام) — هو « القواس » الذى تعرفه

(الباشا) - وأين هذا «القوَّاس» الذى لا يسمع النداء فأتى أرغب فى حضوره ليتأقَّى أمرى فى هذا الشقىّ

(المكارى) - يا بوليس ! يا بوليس !

(الباشا لعيسى بن هشام) - هلم الى مساعدته فى نداء القوَّاس .
قال عيسى بن هشام - فقلت فى نفسى كيف أنادى البوليس وأنا أحمد الله على سكوته وسكونه وهو بمقربة منا لا يكثرث بنداء المستغيث .
ثم التفت الى الباشا وقلت له : ان البوليس هو هذا الذى تراه أمامنا وليس يفيد فيه الآن صياحٌ أو نداء فانه مشغول ببائع الفاكهة كما ترى . ولما لمح المكارى البوليس أمامه أسرع اليه وتبعه من تجمّع حولنا من النظارة . فوجدوه واقفاً وفى يده منديل أحمر قد امتلأ بأصناف متنوعة مما جمعه فى صباحه من باعة الأسواق فى محافظته على « النظام » وهو لاه بصاحب الدكان يأمره أن يضع فى داخلها ما عرّضه فى خارجها من « عيدان القصب » وفى يده عود منها يهدده به ويهزه فى وجهه هزّة الرمح ، ثم هو يضاحك من جهة أخرى طفلاً على كتف امرأة ويناغيه ، حتى اذا أقبلنا نحوه أقبل علينا والمنديل فى يده « وعود القصب » فى الأخرى

(البوليس للجمع) - ما هذا الصياح فى الصباح ، وما هذا النداء . وما هذا العناء ، كأن كل واحد من الاهالى يجب أن يكون له واحد من البوليس خاص بخدمته

(المكارى) - أغفنى « يا سمادة الجاويش » فان هذا الرجل .

ضربني ولم يعطني أجرتي ، وأنت تعرفني في هذا «الموقف» وتعرف أنني
لست ممن يتشاجر أو يتخاصم
(الباشا) - خذ أيها القواس هذا السفينة وضعه في السجن حتى
يأتيك أمرى فيه

(البوليس للمكارى) - من أين ركب معك هذا الرجل
يا «مُرسى»

(المكارى) - ركب معى من جهة «الإمام»
(الباشا للبوليس) - ما هذا الإبطاء في تنفيذ أمرى . أسرع به
الى السجن

(البوليس) ضاحكاً هازئاً - أظنك أيها الرجل من «مجازيب
الحضرة» فى «الإمام» هلم معى الى القسم فان هيئتك تنبىء عن إفلاسك
وعجزك عن دفع الأجرة

قال عيسى بن هشام - وجذب الشرطى صاحبي من ذراعه فسكراد
يُغمى عليه من الدهشة فلم يدري ما يصنع . وأودع البوليس ما كان فى يديه
من الفاكهة وغيرها عند الرجل الذى أودع المكارى حمارة عنده ، وسار
صاحبي مسحوباً بذراع الشرطى ، والمكارى خلفهما ، والجمع على أثرهم
الى «القسم» فلما وصلوا اليه وصعدوا السلم بدأ المكارى يصرخ
ويصيح ، فقابله أحد عساكر «المراسلة» فضربه ليسكته لأن «حضرة
المعاون» غريق فى نومه ، فدخلنا جميعاً فى حجرة «الضؤل» لضبط

الواقعة فوجدناه يأكل والقلم في أذنه وقد نزع « طربوشه » وخلع نعليه وحلَّ أزرار ثيابه ، وبجانبه اثنان من الفلاحين أظنهما من أقربائه يشاهدان ما يتمتع به من لذة الأمر والنهي وسعة سلطانه على الكبير والصغير في عاصمة القطر وقاعدة الملك وما في قدرته من حبس أى شخص كائناً مَنْ كان وشهادته عليه بما يجرى في هواه . فَطَرَدَنَا جميعاً من الحجرة حتى ينتهى من طعامه ، ونخرجنا ننتظر ، وأراد الباشا أن يستند على الجدار من شدة ما ألمَّ به من الحزن نخافته يده فسقط فوق جنديّ كان يكذس الأرض هناك ، فأخذ الجنديّ في السب والشم ودخل الى حجرة « الصول » هاجماً فقال له إن المتهم الذى يشتكى منه المكارى نَعَدَى عَلَى « فى أثناء تأدية وظيفتى » فضربنى بكل جسمه . فأمر « الصول » بإحضاره ونادى كاتبه العسكرى فطلب منه أن يحرر « مُحَضَّرِينَ » محضر مخالفة ومحضر جنحة ، وأملَى عليه كلاماً مصطلحاً عليه لم أفهم منه حرفاً . وبعد أن شهد « البوليس » الذى جئنا معه فى محضر المخالفة بما ينفع المكارى فى تأييد دعواه وشهد « الصول » نفسه فى محضر الجنحة بأنه شاهد المتهم يتعدى على أحد عساكر القسم فى أثناء تأدية وظيفته ختم المحضرين وأمر بالمتهم أن يؤخذ الى « خشبة المقاس » وتحرير « ورقة التشبيه » ، فجاء العسكرى صاحب الدعوى وأخذ يمين صاحبه وأجرى ذلك عليه بنفسه وأذاته أنواعاً من الأذى فى مقاسه . كل هذا والباشا كالمغشى عليه من الدهشة والذهول ، حتى إذا أفاق من غشيته التفت الى يقول :

(الباشا) - أنا لا أتصور في هذه الحالة التي أنا عليها إلا أن يكون اليوم يوم حشر، أو أن أكون حاكماً في المنام، أو أن يكون الداوري الأعظم غضب على غضباً شديداً فأمر بإهانتى على هذه الصورة الشنيعة (عيسى بن هشام) - لا بد لك من التسليم والاحتمال على كل حال حتى نخلص من هذه النازلة بسلام

(قال عيسى بن هشام) - ولما وقفنا أمام السكاتب لتحرير « ورقة التشبيه » سأل الباشا هل له من ضامن يضمنه ، فقدّمت نفسى ل ضمانته فلم يقبلوا منى إلا بتصديق « شيخ الحارة » فخرت في أمرى ومن أين أجد « شيخ الحارة » في الحال . فالتقى بعض المساكين في أذن أن يخرج فإنك تجد « شيخ الحارة » بالباب فأعطيه عشرة قروش للتصديق على الضمانة ، فخرجت وحققت ذلك العسكرى فدلتنى على شيخ الحارة وتوسط بيننا في مناوله أجرة التصديق . ثم اشتغل عني بمشركة المساكين في ضرب أرباب القضايا الذين علا صياحهم وعويلهم ليخرسوهم خشية أن يوقظوا المعاون من رقاده ، ثم ما لبثوا أن رأيتهم قد امتنعوا عن الضرب في أقل من لمح البصر وتفرقوا مهرولين كأن نازلاً نزل عليهم من السماء ، ووجدت من كان من بينهم أشد إيداء ل عباد الله وأعظم حرصاً على راحة المعاون في منامه قد هجم على باب الحجرة فدفعه بكل قواه ففتحه وأخذ يهز السرير هزاً عنيفاً ، فاستيقظ المعاون فزعاً وعلم أن « المفتش » قد شوهد داخل من باب القسم ، فأمرع الى ثيابه فلبسها

فى لحظة وهَرَوَلَ الى استقباله ، فلما رآه وقف « وقفة النظام » . ولكن كان من نكدِ طالعه أَنَّهُ ذهل عند لبس « الطربوش » فلم يجعل زرَّه جهة اليمين بل تركه فوق الجهة ، وكان الشعر قد تجدد فى عارضيه لَأَنَّهُ لم يتمكن من حلقة فى يومه ، فأخذ المفتش عليه ذلك ودخل الى الحجرة مُغَضَّباً فاشتغل بكتابة تقرير لمحاكمة المعاون على مخالفته فى الزى « للأوامر المستديعة »

ولما رأى الباشا سكونَ الضرب والصياح مرة واحدة وما تولى العساكر من الخوف والاضطراب وما شاهده من حركات المعاون سألنى عن شأن هذا الداخل الذى أورث ذلك الانقلاب . فأعلمته بأنه « المفتش » جاء الى « القسم » للتفتيش والتنقيب فى « الأحوال » والنظر فى شكوى الشاكين وتطبيق أعمال العمال على ما يضى به القانون والنظام . فقال إذاً فلندخل اليه لنعرض عليه ما أصابنا من الأهانة . فدخلنا فوقفنا أمامه فوجدناه يكتب فى تقريره ، فالتفت الينا وسألنا عن أمرنا ، ولما بدأنا بذكر القصة أمر أحدَ العساكر بإخراجنا من حضرته . ثم رأيناه قد وضع التقرير فى جيبه بعد كتابته ونزل مسرعاً لم يلتفت فى التفتيش والتنقيب لغير زى المعاون . ولما انصرف عاد الضرب والصياح والضجيج فى أنحاء القسم الى أشد ما كان عليه قبل حضوره . وصاح أحد المضروبين فى شدة ألمه بأنه لا بد أن يشتكى عمال القسم الى « النيابة » ، فدخل أحد العساكر الى المعاون ليخبره بما يقول الرجل فوضعتُ أذنى عند الباب

فسمعت المعاون يحدث نفسه بقوله : « ما هذه الخدمة وما هذا الذل ، ولعنة الله على ضرورة الحاجة في المعاش . ومع ذلك فالحمد لله إذ كان هذا المفتش من الأجانب ولم يكن من « أولاد العرب » فهو خير منهم لأن عجزه في فهم اللغة وجهله بالعمل جعله يقتصر في التفتيش على طربوشى ولحيتى ، ولو كان من « أولاد العرب » لاطَّلَعَ على الاختلال الواقع في القضايا وما يرتكبه عمال القسم من مخالفة « الأصول » . ثم التفت الى العسكرى وسمع منه ما ينقله اليه من قول ذلك الرجل الذى عزم على الشكاية الى « النيابة » فازداد همه واشتد غضبه فأمر بحبس المتهمين جميعاً أربعاً وعشرين ساعة ، والباشا داخلٌ فيهم ، فذهبت الى المعاون وكلتُهُ فيه ليطلقهُ بعد ضمانتي له فَأَبَى ذلك وقال لى بوجه عبوس : الأَوَّلَى أَنْ يبقى فى القسم الى الغد حتى يُكشَف على « السوابق » ثم يرسل من هنا الى النيابة . فدخل الباشا الحبس مع الداخلين

النيابة

قال عيسى بن هشام — ولما تركت صاحبي في حبسه وذهبت الى دارى بئ طول لياتى في هم وأرق وقضيت رقادى في اضطراب وقلق لما أصاب الرجل من ضربات الدهر المتتالية وهو غريق في دهشته وحيرته لا يدرك مضى الزمن ولا يدري ما الحال ولا يعلم بتغيير الامور وما أحدثه الدهر بعد عهده وزوال دولته من تبدل الاحكام واتقلاب الدول. وكنت هممت أن أكشفه بشرح الأحوال وتفصيل الأمور عند أول مصاحبتى له لولا ما دهمنا به القضاء المحتوم فأوقعنا فيما ألم بنا. ثم فكرت بعد ذلك فكان من حسن التدبير وسداد رأى عندى أن يبقى الرجل جاهلاً بالأمر حتى ينتهى من خطبه ويكون جهله بتغيير الأحوال قائماً بعذره في التخلص من محاكمته. ثم عقدت العزيمة على أنى لا أفارق صحبتة بعد ذلك حتى أريه ما لم ير وأسمعه ما لم يسمع وأشرح له ما خفى عليه وغمض من تاريخ العصر الحاضر لأطلع على ما يكون من رأيه فيه عند مقابلته بالعصر الماضى ولأعلم أى المهدين أجلّ قدراً وأعظم نفعا وما الفضل الذى يكون لأحدهما على الآخر. فبكرت الى القسم فى اليوم الثانى وحملت معى ما يليق بصاحبي من الثياب ليرتديها عند خروجه من حبسه فوجدت المسكرى يستعد به للذهاب الى قلم «السوابق» فى دار المحافظة ، فلما بصّر بى نادانى بقوله :

(الباشا) - ما هذه الخطوب والملمات ، قد كنت أظن أن ما وقع
 لى أمس كان لسخط ولّى نعمتنا الداورى الأعظم وغضبه على عبده بمكيدة
 كادها لى أعدائى أو فرية اقترأها حسادى فلذلك صبرت لحكم الضرورة
 وامتثلت على تلك الصورة حتى أتمكن من التشرف بالاعتاب والمثول
 بين يدى مالك الرقاب فأزبل الشبهة وأنفى الزيبة وأبرأ لى مآرمانى به
 الساعى والواشى وأجلى لى حقيقة عبوديتى وإخلاصى فيضاعف على رضاه
 لحسن ما قمت به من الطاعة فى احتمال هذا الهوان

طال منى تحملٌ خلتُ أنى قابضٌ من أذاته فوق جبر

ثم لى أعمد بعد ذلك الى إفشاء العقاب عقاب القتل والصلب فى
 هؤلاء الأذنياء السفهاء والأشقياء الأغنياء جزاء ما اجتروا عليه فى
 معاملتى واقترفوه من جهل منزلتى ، ولكنى سمعت فى الحبس - وياسوه
 ما سمعت - وعلمت - ويا شر ما علمت - أن الدول دالت والأحوال
 حالت وأنكم أصبحتم فى زمان غير ذلك الزمان وفى حال من الفوضى يصح
 فيها قول ذلك المكارى : « انه هو والباشا فى المنزلة سواء » وتلك التى :

تُصِمُ السميعَ وتُصِمِ البصيرَ ويُسألُ من مثلها العافية

فاللهم عفوك وصفحك ، هل قامت القيامة وحان الحشر فانطوت
 المراتب وانحلت الرياسات وتساوى العزيز بالذليل والكبير بالصغير
 والمظيم بالحقير والعبد بالمولى ولم يبق لقرشيتى على حبشيتى فضل ولا
 لأمير مناعلى مصرى أمر . ذلك مالا يكون ولا تحتمله القانون . ثم

اعلم أيها الرجل ان ذنب أولئك السفهاء فيما جنوه على لا يُعذ في جانب
ذنبك عندى الا كالخردلة من الصخر والقطرة من البحر لكتمانك على
الأمر حتى دخلت بي بلاداً هذا حاله وذلك شأنه وأعوذ بالله منك ومن
شياطين الجن

(عيسى بن هشام) - انما أقول لك أيها الأمير أيضاً ما قاله موسى
للخضر عليهما السلام « لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي
عُسْرًا » ولقد نزل بي من الخوف والذهول عند انتشارك من القبر ما
أورثني التبلد والتعير ومنعني عن تبصرتك بالواقع وتنبيهك الى ما تغيرت
به الحال من بعد عهدك ، وما كدت أُنقبه الى تعريفك بها حتى دُهِنَا
بذلك المكاري ودُهِنَا بتلك الحادثة فلا ذنب لي فيما أتيت ، والمذرم مقبول
لديك ، فاصبر على ما تلاقيه . واحتمل ما أنت فيه . وتقبل القضاء . بوجه
الرضا ، ولا تأس على ما فات . لتكفر عنك السيئات

(المسكري للباشا) - هلم الى « السوابق »
(الباشا) - سبحان العزيز القادر أترى قد زال غنى يؤسى وانقشم
نحسى ورجع الى عزى فجاءونى بموكبى وخيلى
(عيسى بن هشام) - ليس المقصود « بالسوابق » تلك الجياد
الصفائات . والعتاق الصاهلات . وانما هو ديوان تقيّد فيه سحنة المتهم
وسيماء . ويكشف فيه عما جنته يده

(المسكري للباشا) وهو يسجبه - لا تُطِلْ فى الكلام وامش
معى ساكتاً ساكتاً

(الباشا) وهو يمتنع - ما الحيلة في القضاء ، وما العمل في المقدور ، وكيف الخلاص وأين النجاة ، ومن لى بالموت ثانية ليردنى الى راحة القبر (عيسى بن هشام) وهو يتضرع - أقسمت عليك بدفين القلعة ، وَوَقَّعَ سيوفك في الممعة ، إلا ما قبلت نصيحتى وعملت بمشورتى فلا تعارض ولا تعاند فإن الامتناع لا يفيد ولا يزيدنا فى ملامتنا الا شدة . والعقلُ يرشدنا ان نسلم للاقدار حيث لا عمل وأن نلبس لكل حالة لبوسها . إما نعيمها وإما بوسها

(الباشا) ممتثلاً - اللهم لا رأى مع القضاء

قال عيسى بن هشام - وِسْرْنَا مع المسكرى فوصلنا الى «قلم السوابق وتحقيق الشخصية» فرأى الباشا هناك من الشدة ما تنخلع له القلوب وتشيب منه النواصي ، فجردوه من ثيابه وخصوا بدنه عضواً عضواً وقاسوا وجهه وجسده وحدقوا فى عينيه، وصنعوا به ما صنعوا وهو يتنفس الصعداء حتى انتهوا من عملهم . ثم سألوا عن ضمانته فلم يجدوا له ضماناً لأن المعاون قاتله الله رد شيخ الحارة عن التصديق على ضمانتى ليجوز له الحبس ، فأرسلونا مع المسكرى الى النيابة . ولما دخلنا على النائب وجدنا أمانة قضايأ حجة وأصحابها مزدحمون ينتظرون نوبتهم، فانفردنا ناحية ننتظر نوبتنا أيضاً ، والتفت الى صاحبي يسأل ويستفهم :

(الباشا) - أين نحن الآن ومن هذا الغلام وما هذا الزحام

(عيسى بن هشام) - نحن أمام النيابة ، وهذا عضو النيابة ، وهؤلاء

أرباب الدعاوى

(الباشا) - وما النيابة

(عيسى بن هشام) - النيابة في هذا النظام الجديد هي سلطة قضائية مكلفة بإقامة الدعاوى الجنائية على المجرمين بالنيابة عن الهيئة الاجتماعية ، والفرض من إنشائها أن لا تبقى جريمة بلا عقوبة ووظيفتها أن تدافع عن الحق فتظهر ذنب المذنب وتكشف عن براءة البريء

(الباشا) - وما « الهيئة الاجتماعية » التي تنوب عنها

(عيسى بن هشام) - هي مجموع الامة

(الباشا) - ومن هذا الأمير العظيم الذي اتفقت الامة عليه

لينوب عنها

(عيسى بن هشام) - ليس هذا الذي تراه بأمر ولا بعظيم من عظماء الامة وإنما هو أحد أبناء الفلاحين أرسله أبوه الى المدارس فنال الشهادة فاستحق النيابة فتولى في الامة ولاية الدماء والأعراض والأموال

(الباشا) - نعمت المنزلة عند الله منزلة الشهادة ، وللشهيد في الجنة

أعلى الدرجات ، ولكن كيف تتصور عقولكم - وأظنكم فقدتموها - أن تجتمع الشهادة في سبيل الله والحياة في الدنيا لأحد من الناس . والذي يفوق ذلك عجيباً ويزيد العقل خيالاً أن يحكم الناس فلاحٌ وينوب عن الامة حرّاث . ويشهد الله أنني خرجت من شدة الى شدة وانتهيت من خطب الى خطب فسلمت وصبرت ، ولكن لاصبر لي على هذه الخارقة ، فما أعظم الفاجعة واشقّ النازلة ، لقد فني مني الصبر . ومن لي بفناء القبر

(عيسى بن هشام) - اعلم أن هذه الشهادة ليست بشهادة الجهاد بل هي ورقة يأخذها التلميذ في نهاية دروسه ليثبت بها أنه تلقى العلوم وبرع فيها . وقيمتها لمن يريد الحصول عليها ألف وخمسمائة فرنك في بعض الأحيان

(الباشا) - مؤممه كانتك تريد الإجازة التي يميزها علماء الأزهر لمن تلقى عليهم العلوم من الطلبة وفاق فيها ، غير أننا ما سمعنا في دهرنا بهذه الأثمان وما عهدنا أن الأزهر الشريف يعرف ما الفرنكات أو يفقه من العملة سوى الجرايات

(عيسى بن هشام) - ما هذه العلوم بعلوم الأزهر ولكنها علوم إفريقية يتلقونها في بلاد الإفرنج . والفرنك عملة تلك البلاد . ويقال لتلك القيمة عندهم رسم الشهادة . وهي قيمة لا تذكر بالنسبة الى كثرة فوائدها لأن القاعدة في هذا النظام « أن الشهادة بلا علم خير من العلم بلا شهادة » ، وصاحب الشهادة إذا قدمها للحكومة يكون له الحق في الاستيلاء على مرتب ووظيفة يزيد على الدوام ويرقى

(الباشا) - الآن كدت أفهم . وأظن هذه الشهادة تعادل « أوراق الالتزام » و « سراكي الروزنامجه » في أيام حكومتنا

(قال عيسى بن هشام) - وبينما نحن في هذا الحديث اذا بشاين رشيقين رقيقين قد أقبلا يخطران في مشيتهما والطيب ينشر في الجو من أردانهما وهما يصعران خديهما^(١) كبراً واختيالاً ، ولا يلتفتان الى

مَنْ حولهما تيهًا وإعجابًا ، أحدهما يشق الهواء بعصاه ، والثاني تلمب « بالنظارة » يده . فشخصت فيهما الأنظار . وتحولت نحوهما الأبصار . والحاجبُ من أمامهما يدفع الناس من طريقهما حتى وصلا إلى باب النائب ، فقام لهما عن مجلسه وأمر بأرباب القضايا أن ينصرفوا من حضرته ، واشتغل الحاجب بسحبهم وجرهم وطردهم ونهرهم . واشتغل النائب بطيِّ المحاضر ورفع المحابر . حتى خلا لصاحبيه من كل شغل وعمل

(الباشا لعيسى بن هشام) - يظهر لي أن هذين الشابين من أكبر أولاد الامراء أو أنهما مفتشان للنيابة كما رأينا المفتش للقسم (عيسى بن هشام) - ما أظنهما إلا زائرين من قرناء النائب في المدرسة كما يظهر لي من شمائلهما

(الباشا) - وهذا أعجب وأعجب
قال عيسى بن هشام - وأردت أن أخبر خبرهما وأكشف أمرهما فاتهزت فرصة التزاحم بين الناس واشتغال الحاجب بهم فانزويت عقيب الباب من وراء الستار بحيث أسمع وأرى ، فسمعت هذه المحاورة بينهم :
(الزائر الأول) بعد السلام والجلوس - لماذا تركتنا أمس أيها الخبيث من قبل أن ينتهي اللعب

(النائب) - لأنه كان قد مضى من الليل أكثره ، وعندي من القضايا ما يضطرني إلى التبكير .

(الزائر الثاني) - وهل سمع أحد أن القضايا تعوق إلا نسان . عن

مجالسة الإخوان . ومثل هذا العذر يُعْتذر به لغير الواقفين على أعمال
النيابة . وقضاياها . أو لم تعلم أن فلاناً وفلاناً وسواهما من أقرانك لا تستغرق
منه قضايا اليوم كله أكثر من ساعة واحدة . وأخص بالذكر منهم فلاناً
فانه يُكتفى بأن يمر عليها باحظة منه ويستغنى عن مطالعتها ويرتكب على
توقد ذهنه ونباهة قريحته وكثرة تمرنه للاحاطة بفهمها . وما دام الشقاق
والنزاع قد انتهى أمره بين النيابة والبوليس فلا أولى الاكتفاء
بمحاضر البوليس أو إعادتها اليه لاستيفائها ، ولا محل لتجديد التحقيق
بعده وتضييع الوقت سُدَى فيما عساه أن يولد الشقاق أو يعيد النزاع
مرة أخرى

(النائب) - ذلك ما أفعله ولكن لا بد من التمسك « بالظواهر
والأصول » على قدر الأمكان

(الزائر الأول) - أفا عندك الكاتب يقوم في ذلك مقامك ويكفيكهُ
(النائب) - صدقت إن الكاتب ليكفى . والقول الصحيح أن
السبب في مفارقتكم أمس وفي ترك اللعب هو أنني خسرت ما كان معي
من مرتب الشهر ونحن لا نزال في أوائله

(الزائر الأول) - تلك هي عادتك في ادعاء الخسارة دائماً مهما
ربحت ومهما كسبت ، وما سمعتُ منك في عمري إلا أنك خسران .
أفلم ترجح منى في « اليد الأخيرة » التي كانت يبتنا خمسة جنيهات
(النائب) - وحق شرفي وذمتي ومستقبلي أني قت من عندكم أمس

بالخسارة

(الزائر الثاني) - ماعليتنا . ولكن قل لى هل أنت لا تزال على وعدك معنا فى التوجه الى صاحبنا لمشاهدة الرقص البلدى من فلانة المشهورة (النائب) - أسألك المسامحة فانه لا يمكننى ذلك ، أولاً لأن هذا الرقص الذى يعجب أولاد البلد والفلاحين لا يعجبى ، وثانياً لاني دعوت « مادموازيل فلانة » المشخصة فى « الاوبرا » مع فلان وفلان المشخصين لتناول الغداء فى الازبكية عند « سانتى » ، وسنذهب بعد ذلك الى « خان الخليلى » و« قصبة رضوان » و« مقابر الخلفاء » وبعض الأماكن القديمة من البلد للتفكه والتسلى

(الزائر الاول) - دعواك الآن أنه لم يبق معك من مرتب الشهر شىء ، فكيف لك بما يلزم لمثل هذا من النفقات (النائب) - فاتنى أن أذكر لك ان معنا فلاناً المحامى ومعه صاحبه

العمدة

(الزائر الثاني) - وكيف يميل هذان الشخصان الى مثل هذا المجلس الا فرنجي أو يستريحان له وهما لا يعرفان شيئاً من اللغات والاصطلاحات الاوربية

(النائب) - ألم تعلم يا أخى أن أمنية المحامى أن يكون مصاحباً لأهل القضاء . وأمنية الفلاح أن يتحكك بنا . والرغبة عند أمثالهما عظيمة فى حضور المجالس الا فرنجية وإن كلهم ذلك ما كلهم وخرجوا منها على غير فائدة لهم

(الزائر الاول) مقتضياً - من أين اشتريتَ هذا « الكراقات »
(رباط الرقبة)

(النائب) - ما اشتريته يا « مونشير » (عزيزى) وإنما جاءنى مع
ملابسى من عند الخياط فى باريس وهو من آخر طرز

(الزائر الثانى) - هل بلغك زواج فلان بمشوقته

(الزائر الاول) - هل ركبته مع فلان فى « الاوتوموبيل »

(النائب) - قد وقفت لكما على سبب انتحار ابن فلان المتمول

(الزائر الاول) - أنا أعرفه ، فهو الغرام

(النائب) - لا

(الزائر) - المال

(النائب) - لا

(الزائر) - المرض

(النائب) - لا . وإنما هى سُنَّة جديدة فى شبان باريس اقتدى

المسكين بها

(الزائر الاول) - وأنا وقفت لكما على سبب استعفاء فلان من

وظيفته

(النائب) - سيرته

(الزائر) - لا

(النائب) - وطنيته

(الزائر) - لا

(النائب) - فرنسيته

(الزائر) - لا . وإنما هى « انكليزيته »

المحامى الرشلى

قال عيسى بن هشام - فسئمت من هذا الكلام الفارغ والحديث المقتضب وانتهزت دخول الحاجب فخرجت من مكنتى وعدت إلى الباشا صاحبي فوجدت بجانبه أحد سماسرة المحامين قد التصق به وهو يحاوره، فوقفت عن بُعدٍ أسمع ما يدور بينهما

السمسار - اعلم ان المحامى يدير القضاء في يده بما يريد فيعاقب من يشاء ويبرىء من يشاء ، وما أعضاء النيابة وقضاة الجلسات إلا طوع اشارته ورهن كلمته وكائنا ما كان في لمصبعه فلا حكم الا بقوله ولا قضاء الا بأمره ، وأنت على ما أراك رجل غريب حقيق بالرحمة والشفقة ولا يليق بالروية أن أدعك طعمة في أيدي بعض المحامين من أهل الطبقة السفلى الذين اعتادوا سلب أموال الناس بطرق الفس والاحتيال وكاذب الوعود والآمال ، ولى صاحب معروف بين طائفة المحامين بالصدق والأمانة وله مقام سام بين القضاة والحكام ، فهو صديق الناظر وجليس المستشار ونديم القاضى وخدين النائب ووكيل «البرنس» ، ولو شاهدته ياسيدى مرة واحدة فى اجتماعه معهم فى السهر والسمر ورفع الكلفة بينه وبينهم فى ساعات الانس وأوقات السرور يشاربهم ويؤاكلهم ويمازحهم ويفاكهم وينظرهم ويقامرهم لأيقنت فى الحال ان كل طلب له يجاب وليس لأمره من راد ، فالجزم برىء والبرىء جان على حسب المراد . فقل لى حينئذ

عن مقدار ما تستطيع دفعه من «مقدم الاتعاب» في تبرئتك من
تهمتك والانتقام لك من عدوك

(الباشا) - أنا لا أعرف المقدم ولا المؤخر ولم يخبرني صاحبي عن
هذا الحاكم القادر الذي تصفه لي فاذا استفهمت عنه

(السمسار) مقاطعاً - لا لزوم للاستفهام من أحد فها هو ذا حضرة
المحامى قد أقبل لمقابلة «النائب العمومى» فانا أستوقفه لحظة للنظر في شأنك
(ويسرع السمسار الى مكالمه المحامى بعد أن يوسع له في الطريق
ويسلم عليه بسلام الامراء حتى يصل به الى جانب الباشا)

(المحامى) بصوت عال - انا لا أستطيع قبول التوكيل عن أحد في
هذه الايام لتراكم الأعمال وتزاحم القضايا ، فلم يبق عندى وقت للطعام
والشراب فكيف تكلفنى أن أقبل التوكيل عن صاحبك في هذه القضية
الصغيرة وقد رفضت في صباحى هذا خمس قضايا لها شأن عظيم
(السمسار) - سألتك بحق الانسانية وحرمة المروءة وبما جبت
عليه من الخنو والشفقة على الضعفاء أن تأذن لأحد عمال مكتبك بمباشرة
هذه القضية ان لم تتنازل لمباشرتها بنفسك فان المقصود هو تأثير اسمك
وصيتك فى المحكمة

(المحامى) - لا أرى فى ذلك بأساً للعناية بك والشفقة على صاحبك .
(وينصرف المحامى بعد مصاحته للباشا)

(السمسار للباشا) - هلم فادفع عشرين جنيهًا
(الباشا) - ليس عندى الآن شيء من الدراهم

(السمسار) - أعطني تحويلاً

(الباشا) - أنا لا أفهم لك كلاماً فاذهب عني فقد ضقت بك ذرعاً

(السمسار) - كيف أذهب عنك وقد تم لك الاتفاق مع حضرة

المحامى أمامي

(الباشا) - أنا لم أتفق مع أحد فاتركني وانصرف

(السمسار) - كيف تنكر اتفاقك مع المحامى بعد ان وضعت يدك

في يده

(الباشا) - عفوك اللحم ولطفك ! ومن يصبر على هذه الحال .

أشرت يدي في حديثي مع صاحبي فوقعت في حادثة المكارى . وصاغت

المحامى فصرت مديناً بعشرين جنيتها . ففي أى العوالم أنا وبين أى

المخلوقات

(قال عيسى بن هشام) - ولما رأيت لوائح الغضب بدت على وجه

الباشا خشيت أن يقع مع السمسار في حادثة أخرى ، فأدركته ووبخت

الرجل على احتياله وتوعدته بالشرور فرفع الأمر الى النائب العمومى إن

لم ينته عنا . تخلفنا وانصرف . ونادى الحاجبُ أربابَ القضايا فدخلنا

فوجدنا النائبَ لازال لاهياً في حديثه مع زائرٍ به وأشار لنا بالتقدم الى

الكتاب فتقدمت مع صاحبي وشرعت في بسط القضية وبيان ما قاسيناه من

سوء معاملة البوليس وقبح افتراءه فالتفت النائب إلى الكتاب وقال له :

لا تقبل كلاماً في البوليس ولا تسمع فيه طعناً بل خذ بأقواله واستمسك

بتحقيقه . ثم نظر في الساعة فوجد الميعاد قد حل فأخذ عناءه ولبس

طربوشه وخرج يهرول مع صاحبيه . فقلت لصاحبي الآن وجب أن
أذهب للبحث عن أحد المحامين الصادقين من أصحابي للمدافعة عنك

(الباشا) - قل لي بالله ما هو المحامي عنكم

(عيسى بن هشام) - هو وكيل الحكم والمخاصمة يتكلم مكانك بما
تعجز عنه ويدافع عنك بما لم تعلمه ويشهد لك بما لم يخطر ببالك ، وصناعته
هذه صناعة شريفة يمارسها كثير من الفضلاء اليوم بيننا ولكن قد دخل
في الصناعة جماعة ليسوا من أهلها فاتخذوا الخداع والاحتيال بضاعة
للتكسب مثل هذا المحامي وسمساره . وهؤلاء بعينهم هم الذين يعينهم علاء
الدين الكندي بقوله :

ما وكلاء الحكم إن خاصموا الآ شياطينُ أوّلُ باس
قومٌ غدا شرُّهم فاضلاً عنهم فباعوه على الناسِ

المحكمة الأهلية

قال عيسى بن هشام — ولما حلّ يوم الجلسة رافقت الباشا الى المحكمة فوجدنا في ساحتها أقواماً ذوي وجوهٍ مُكفَّرةٍ . وألوانٍ مُصْفَرةٍ . وأنفاسٍ مقطوعة . وأكفٍ مرفوعة . وشاهدنا باطلاً يُذكر . وحقاً يُنكر . وشاكياً يتوعد . وجانياً يتودد . وشاهداً يتردد . وجندياً يتهدد . وحاجباً يستبد . ومحامياً يستعد . وأماً تنوح . وطفلاً يصيح . وفتاةً تلهف . وشيخاً يتأفف . وممعناً ألفاظاً متناقضة . وأقوالاً متعارضة . ورأينا المحاميين عن الخصمين . يشحذ كلٌ منهما لسانه . ويقدر جَنَانَهُ . استعداداً للنزال . في ميادين المقاتل . وتأهباً للدفاع . في مواقف النزاع . ليُخرج كلاهما بنغمة البراءة في الحكم . ورفع التهمة والجُرم . فانزوت بصاحبي . ومحامينا بجانبني . يذكر لنا «أصولاً مرعية» . و«مسائل فرعية» وظروفاً وأحوالا . وشروحا وأقوالا . وموادٍ وفقرات . في الجنج والمخالفات . ثم يتصفح محاضره . ويقلب دفاتره . ويُقسم لنا بوكيد الأيمان . أن الباشا من تهتمته في أمان . وأنا أجيب صاحبي عن كل سؤال . بما تقتضيه الحال . ولما سألتني عن هذه الملحمة . قلت له هي المحكمة

(الباشا) — قد كان العهد بالمحكمة الشرعية وبيت القاضي على غير

ما أرى فهل أصابها الدهر فيما أصاب بالتغيير والانقلاب

(عيسى بن هشام) — هذه هي المحكمة الأهلية لا المحكمة الشرعية

(الباشا) — وهل للقضاء بين الناس غير المحكمة الشرعية

(عيسى بن هشام) — للقضاء في هذه البلاد على ما تشتهي محاكم متعددة ومجالس متنوعة . فمنها المحاكم الشرعية والمحاكم الأهلية والمحاكم المختلطة والمجالس التأديبية والمجالس الإدارية والمجالس العسكرية والمحاكم القنصلية دَع المحكمة المختصة

(الباشا) — ماهذا الخلط . وما هذا الخبط . وسبحان الله هل أصبح المصريون فرقاً وأحزاباً . وقبائل وأنفاذا . وأجناساً مختلفة . وفئات غير مؤتلفة . وطوائف متبددة . حتى جعلوا لكل واحدة . محاكم على حدة . ما عهدناهم كذلك في الأعصر الأول . مع دولات الدول . وهل انطمست تلك الشريعة الفراء . واندرست بيوت الحكم والقضاء . اللهم لا كفران . ولعن الله الشيطان

(عيسى بن هشام) — ليس الأمر على ما توهم وتخيّل فلم يتفرق المصريون فرقاً ولم يتوزعوا شعوباً بل هم أمة واحدة ولهم حكومة واحدة يقضى نظام الأمور فيها بهذا النسق والترتيب في القضاء والحكم ، وأنا أشرح لك جملة الحال شيئاً قليلاً

أما المحاكم الشرعية فقد جُرِّدت من النظر والحكم في عامة الخصامات واقتصرت العمل فيها على الأحوال الشخصية أعنى مسائل الزواج والطلاق وما يدخل في هذا الباب

(الباشا) — تالله لقد فسد الحال وانحل النظام وكيف يعيش الناس ويستقر لهم حال بغير شرع الله وسنة نبيه ، وهل أصبحتم في الزمن الذي يعنيه القائل بقوله :

قد نُسِخَ الشرعُ في زمانِهِمْ فليتهم مثل شرعِهِمْ نُسِخُوا

(عيسى بن هشام) — لم يُنسخ الشرع ولم يرتفع حكمه بل هو باقٍ على الدهر ما بقي في العالم إنصاف وفي الأُمم عدل، ولكنه كنز أهمله أهله ودرّة أغفلها تجارها، فلم يلتفتوا الى وجوه تشييده وتمكينه وتمسكوا بالفروع دون الأصول واستغفروا عن اللب بالقشور واختلفوا في الأحكام وعكفوا على الاشتغال بسفاسف الأمور وتعلقوا من الدين بالأغراض الخفيرة والأقوال الضعيفة وتركوا الحقيقة الى الخيال وتعدوا الممكن الى المحال، فكان من أكبر همّ العالم العلامة فيهم والخبر الفهامة منهم أن يُبدع في التفنن للإغماض في الحق الأبلج والتعقيد في الحنيفية السمجة. ولم ينتبهوا يوماً الى ما تجرى به أحكام الزمن في دورته، ولم يفقهوا أن لكل زمن حكماً يوجب عليهم تطبيق أحكام الشرع على ما تستقيم به المصاحبة بين الناس، بل ظلوا واقفين عند الحد الأدنى لا يتزحزحون ولا يتحللون معتقدين أن الدهر دار دورته ثم وقف وأن الزمن تحرك حركته ثم سكن فلا أمل فيه ولا عمل، فكانوا سبباً في تهمة الشرع الشريف بمخلل الحكم ووهن العقْد وقلة الغناء فيه لإنصاف الناس في معاشهم ومرافقهم على حسب ما تتجدد به حالات الزمن وتتخالف عليه أشكال العصور. ومن هنا تولدت الحاجة إلى إنشاء المحاكم الأهلية بجانب المحاكم الشرعية

(الباشا) — ما أظن الا أن يكون لأهل الشرع وأصحاب التفقه في الدين عذرٌ واضح في النزول الى هذه الحال السيئة من مغارضة معارض

ومنازعة منازع أو جَوْر سلطان قاهر وعسفِ حاكم قاسر فصدّم عن
سواء السبيل، وأراعهم هذا المرعى الوبيل ،

(عيسى بن هشام) — لم يكن من ذلك شئ، على الإطلاق فالإرادات
مختارة والأفكار مطلقة والنفوس مطمئنة والأرواح آمنة ، وليس الفساد
ناشئاً عن طوارئ الزمان وطوارق الحداثان ولكنه فساد في الترتيب عمّ
أمره وانتشر ، وانحطاط في الأخلاق عَظُم بلاؤه واشتهر، سكنت إليه
نفوسهم وارتاحت به ضمائرهم ، وقد تمكن منهم داء التحاسد والتباغض
ودبت بينهم عقارب التشاحن والتضاغن ، واستولى على قلوبهم الجبنُ
والخَوَرُ وعلى عقولهم الضعفُ والخللُ وعلى نفوسهم الفتور والكسل
فوصلوا الى الحال التي يرون بها السنة بدعة والبدعة سنة ، والفضيلة نقيصة
والنقيصة فضيلة ، وأقاموا يتعسفون في الحكم ولا ينصفون . ويتفكّهون
في الدين ولا يتفقهون . وصَرَفَهُم حب المال . عن صالح الأعمال . وألهام
ما يدخرونه من زخرف الحياة الدنيا . عما يُدخِر لهم في الدار الأخرى .
فنحن الذين فعلنا كل هذا بأنفسنا، منا الإثمُ والوزر . وعلينا الذنب والإصر
وأما المحاكم الأهلية فهي القضاء الذي يَقْضِي على الرعية اليوم في

جميع الخصومات طبقاً لنص القانون

(الباشا) — « القانون الهمايوني »

(عيسى بن هشام) — القانون « الامبراطوري »

(الباشا) — ما عهدت منك ان تُعْجِم وتُبْهِم

(عيسى بن هشام) - لإعجام ولا إبهام ، فهو قانون نابليون
امبراطور الفرنسيين

(الباشا) - وهل عاد الفرنسيس فأدخلوكم تحت حكمهم وسلطانهم
مرة أخرى

(عيسى بن هشام) - لا . وإنما نحن الذين أدخلنا أنفسنا في حكمهم
فاختارنا قانونهم ليقوم عندنا مقام شرعنا

(الباشا) - وهل هذا القانون ينطبق حكمه على حكم الشرع الشريف
والسنة المطهرة وإلا فإنهم يحكمون فيكم بغير ما أنزل الله

(عيسى بن هشام) - المسألة فيها خلاف - فالإجماع تام عند علماء
الشريعة في السر والنجوى على أنه مخالف للشرع وأن كل من يقضى به
داخل تحت نص الآية الشريفة : وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ
الْفَاسِقُونَ . ولكن يظهر أنه مطابق عندهم للشرع في حالة الجهر
والعلن بدليل ما أعلنه أحد كبارهم عند نشر هذا القانون وهو يومئذ
مفتى نظارة الحفائية ، فقد أقسم الأيمان المغلظة على فتواه التي أفتاها بأن
هذا القانون الفرنسي غير مخالف للشرع الاسلامي ، وإن كان لاعتقاب
في هذا القانون على الفسق والواو اط مع رضا المفسوق به إن تجاوز عمره
الثانية عشرة يوم واحد ، ولا اعتقاب فيه على من يزني بأمه اذا هي رضيت
وكانت غير متزوجة . وهو الذي يعد الأخ مجرمًا جانيًا اذا تعرض لحماية
عرض أخته والمدافعة عنه ، وكذلك بقية أهلها ما عدا زوجها . وهو الذي

يقبل شهادة المرأة الواحدة على الرجل . وهو الذى لا يعاقب الزوج اذا سرق من امرأته ولا المرأة من زوجها ولا الولد من أبيه ولا الأب من ابنه وأما المحاكم المختلطة — وقضاها من الأجانب — فهي تختص بالنظر فيما يقع من الخصومات بين الأهالى والأجانب وبين الأجانب وبعضهم فى الحقوق المدنية أعنى فى قضايا المال . ولما كان الأجانب هم أحق وأولى بالغنى لسعيهم وجدّهم وكان المصريون أخلق بالفقر وأجدر لإهمالهم وتوانهم كان معظم القضايا التى تحكم فيها هذه المحاكم لا بد أن تنتهى بسلخ المصرى من ماله وعقاره

وأما المجالس التأديبية فهي تختص بالنظر فى عقاب الموظف الذى يخل بتأدية وظيفته — وهى تتألف فى الغالب من نفس الرؤساء الذين يتهمونه — وحدثها فى العقاب الرفىة والحرمان من المعاش . وما بقى من درجات العقاب فالنظر راجع فيه الى المحاكم الأهلية

وأما المجالس الادارية فهي تختص بعقاب من يخالف الموائع والأوامر والمنشورات . وشرح ذلك يطول

وأما المحاكم العسكرية فهي تختص بالنظر فى عقاب المتهمين من الضباط والجنود وتحكم أيضاً على الأهالى فى مسائل القرعة وما شاكلها وأما المحاكم القنصلية فهي تختص بالنظر فى الجنح التى تقع من الأجنبي على المصرى ومن الأجنبي على الأجنبي من جنس واحد . فاذا وقعت جناية من أجنبي على مصرى فليس لها فى مصر من حكم أو عقاب

ولا تختص أى محكمة من كل هذه المحاكم التى عدتها لك بالنظر فيها بل يرتدّ الجانى بالقضية الى وطنه ومسقط رأسه وديار قومه فينظر قضاته هناك فى أمره ، والغالب فى مثل هذه الحال عندم أن ينتهوا بتبرئة المجرم بعمل معلومة مثل : « عدم ثقتهم بتحقيق البوليس المصرى ، وضياع معالم القضية ، وعدم توفر الشهود »

وأما المحكمة المخصوصة فهى تختص بمعاينة الاهالى عند تعدّيهم على الجنود الاجنبية

(الباشا) -- ما زالت تسمعى الغريب وتفهمنى خير مفهوم ، ومن أعجب ما سمعت أن المصرى يتعدى على الجندى

قال عيسى بن هشام -- وبينما نحن فى هذا الحديث إذ ارتجّ المكان وتماوج الزحام وأقبل القاضى وهو فى عنفوان شبابه وصبا أيامه يتألق وجهه حسنا . ويشاكل فى القد غصنا . وكأنه طائر فى مشيته . من نشاطه وخفته . ولما دخل الجلسة ذهب أسأل عن نوبة القضية ثم عدت الى صاحبي ، ومكثنا فى الانتظار زمنا طويلا الى أن جاء وقتنا ونودي الباشا فدخل مع المحامى فى الجلسة وقام النائب فطلب الحكم على المتهم بمقتضى مادتي « ١٢٤ » و « ١٢٦ » عقوبات لتعديه بالضرب على أحد رجال « الضبطية القضائية » فى أثناء تأدية وظيفته ، وبالمادة « ٣٤٦ » مخالفات لتعديه على المكارى بالإيذاء الخفيف

(القاضى للمتهم) -- « هل فعلت هذه التهمة »

(المتهم) -- لم أفعل

قال عيسى بن هشام — وجاؤا بي شاهداً فسألني القاضي عما أعلمه في هذه الواقعة فأجبته :

(عيسى بن هشام) — إن لهذه الحادثة قصة عجيبة وحكاية غريبة وهي أنه

(القاضي) مقاطعاً — لا لزوم لتفصيل القصة والحكاية . قل لي « معلوماتك » فيها

(عيسى بن هشام) — « معلوماتي » هي انني كنت أزور المقابر ذات ليلة وقت الفجر أبغى الموعظة وأنشد الاعتبار . . .

(القاضي) مستثقلًا — لا لزوم لكثرة الكلام . أجبني عن النقطة التي سألتك عنها فقط

(عيسى بن هشام) — ذلك ما أفعله من حكاية الواقع وهو أنني رأيت رجلاً خرج من . . .

(القاضي) متمملاً — قلت لك إني لا أقبل التطويل ولا الشرح في الواقعة ، ولكن هل ضرب المتهم العسكري والحمّار

(عيسى بن هشام) — ما ضرب المتهم الحمّار وإنما دفعه عنه من شدة إلحاحه ، وما ضرب العسكري وإنما سقط عليه مما غشيّه بغير عمد ولا قصد ، وهو يجهل

(القاضي) — يكفي . يكفي . هلمّ « النيابة »

(النائب) — « ان هذا الباشا متهم بتعديّه بالضرب على أحد رجال

البوليس في أثناء تأدية وظيفته بالقسم ومتهم بالتعمدى بالإيذاء على مرمى
الحرار . والتهمة ثابتة من شهادة الشهود التى فى الأوراق وإطلاع المحكمة
عليها كافٍ وبناء عليه النيابة تطلب الحكم على المتهم بالمادة ١٢٤ و ١٢٦
عقوبات وبالفقرة الثانية من المادة ٣٤٦ مخالفات وتطلب من عدالة المحكمة
التشديد فى العقوبة لأن حالة المتهم تستدعى ذلك فإنه يتخيل ان رتبته
تجعله خارجاً عن سلطة القانون وتخوله الحق فى اعتباره بقية الناس أصغر
منه شأنًا فيؤدبهم بنفسه مع عدم مراعاة حقوقهم وحرمة القانون ولا
شك ان تشديد العقوبة عليه واجب لا اعتبار أمثاله به والمساواة فى العدالة
وأفوض الامر الى المحكمة »

(القاضى المحامى) - المحاماة . مع الاختصار

(المحامى) - بعد أن يتنحى ويقلب فى أوراقه - « اننا نتمجب
من ان النيابة العمومية استحضرتنا اليوم بصفة متهمين . ونقول ان أصل
وقوع الجرائم يا حضرة القاضى فى وضع الشرائع والقوانين فى هذا العالم
منذ البداوة وعصور الهمجية كان يُقصد منه

(القاضى) مشتملاً - اختصر يا حضرة المحامى وادخل فى الموضوع

(المحامى) - . . . ومن المعلوم ان نظام الترتيب يا حضرة القاضى فى

طبقات الهيئة الاجتماعية يقضى

(القاضى) متضجراً - اختصر . يابك .

(المحامى) - الموضوع يقتضى ذلك

(القاضى) متأففاً - لا لزوم له

(المحامى) متحيراً - قالت النيابة العمومية (ويسرد شيئاً من أقوالها)
ونحن نقول اننا لو سمحنا جدلاً . . .

(القاضى) مفضباً - يكفى يابك . الموضوع

(المحامى) متلعثماً مضطرباً - ان هذا المتهم يحاضرة المحكمة الواقف
الآن بين يدى القضاء هو رجل عظيم وأمير خطير من أهل العصر القديم
وله حديث منشور فى الجرائد - وهذه أعداد جريدة «مصباح الشرق»
تطلعون عليها - وقد اعترضه فى طريقه أحد المكارين فدفعه عن نفسه
والناس يعامون إلحاح الحمارة وسوء أدبهم ومثل هذه الطبقات التى ليس
فيها تربية . . .

(القاضى) نافداً صبره - قلنا اختصر . يابك

(المحامى) وهو يتصبب عرقاً - . . . ولما توجه المتهم الى القسم
أغمى عليه فسقط بدون تعمد على عسكرى كان يكمنس أرض القسم بغير
ملابسه الرسمية. وعدالة المحكمة تقضى بدمم الالتفات الى دعوى البوليس
ولا عقاب على المتهم أثبتة لانه كان فى عصر غير عصرنا وفى نظام خلاف
نظامنا ولم تبذره دعوة القانون فهو يجهل أحكامه وحضرة القاضى الفاضل
أدرى بالاحوال . وان . . .

(القاضى) منفعلاً ضارباً يده على المكتبة - المحكمة تنورت يابك
ولا لزوم للكلام مطلقاً فيلم طلباتك

(المحامى) ساخطاً فى نفسه - طلباتنا هى « اننا نطالب من باب أصلى الحكم ببراءة المتهم وإن رأيت المحكمة غير ذلك فترجو استعمال الرأفة بالمادة ٥٣٢ عقوبات »

قال عيسى بن هشام - وبعد ذلك نطق القاضى بالحكم فحكم على الباشا بالجلس سنة ونصفاً بمقتضى المادتين المذكورتين من قانون العقوبات اوبخمسة قروش والمصاريف بالمادة المذكورة أيضاً من المخالفات . فضاقت الارض بى وأظلمت الدنيا فى عيني وكنت اشترك مع صاحبي فى الدهول والإغماء لولا أن المحامى أكد لى كل التأكيد أنه لا بد من البراءة فى محكمة الاستئناف لعدالة رجالها ولكن يجب مع ذلك ان نرفع عريضة شكوى الى « لجنة المراقبة » لحسن التأثير فى القضية عند نظرها فى الاستئناف ، ثم قال لى اعلم ان السبب فى كل ما صدر عن هذا القاضى من المقاطعة والمعاكسة والاستعجال هو لأنه مدعو فى وليمة بعض رفاقه عند الظهر تماماً وأمامه فى جدول القضايا ثلاثون قضية يريد أن يأتى عليها كلها حكماً قبل حلول الميعاد

وأطعنا إشارة المحامى فقدمنا عريضة الى لجنة « المراقبة » ، ولما طلبنا منه أن يتوجه معنا للسؤال عما تم فى أمرها تنحى عن استصحابنا وقال إنه كان يود مباشرة ذلك بنفسه ولكن يمنعه أن يعلم القاضى بسعيه فى التظلم منه فيتعهد فى المستقبل أذاه وينصرف همه الى نكايته بسبب شكايته ، والمحامى فى حاجة دائمة الى اجتلاب رضا القاضى واجتناب غضبه ، فقبلت

عذره ، ودعوت الباشا الى التوجه والسؤال فأعرض ونأى بجانبه وخاطبني وهو يشتد في الإباء ويلج في الامتناع بقوله :

(الباشا) - يكفيني ماقد وصلت اليه من الذل والهوان وما قاسيته من تزول القدر وحلول الضيم بحكم القضاء من رافع السماء وأنا أربأ بنفسى أن يجتمع عليها ذلّان في سلك واحد ، ذلّ التحمل للظلم المستكن للجور وذلّ المشتكى المضارع والمتظلم الخاضع . فأليك عنى لا تكن عوناً للخطوب . ومفتاحاً للكروب . وصدق ابن يعقوب : « ربّ السجن أحبُّ إلىّ مما يدعوّنني اليه » . ولعلم الله لولا عذاب النار . لفرجت عن هوى بالانتحار . وبودى لو يبدل حكم الحبس بالاعدام . لأخلص من هذه الأوصاب والآلام . وقد عشت دهرى ما علمت أن السجن يكون في عقاب الكبراء والامراء وانما هو يجرى عندنا في عقاب الفوغاء من الناس والسفلة من العامة ، وللأمرء الامتياز على كل حال ، فان كان ثمّ لنا عقاب . فضرب الرقاب . وعندنا أن لقاء المنون . أليق بنا من ظامة السجن

(عيسى بن هشام) - ما كنت أعهد من مثلك هذا الجزع والفرع ولا أتوقع منك مثل هذا الخور والهلع . وأنت البطل الجرىء والشجاع المقدم ، وما الشجاعة الا في التصبر على المكروه والتجلد للخطوب تتلقاها بوجه طلق وصدر رحب وتترقب الفرغ منها بعد الضيق :

ربما تجزع النفوس من الأمر له فرجة كحلّ العقال

وأنت عندى الحازم الأرشد . والعاقل المُسَدَّد . وما العقل الآ نفاذ
الرأى فى كشف المِلِّمة . وتسديد الحيلة فى إزاحة الغُمة . وأماننا اليوم
طرق مسنونة ووسائلُ مشروعة لا غضاضة علينا فى ولوجها ولا مضاضة
فى سلوكها . واعلمْ أن تبدلَ الأزمان وتقلبَ الحدَثان يغير من مبانى الأمور
ويكيف فى اعتبار الأشياء فما كان يُعتبر بالأُمس فضيلة يُعتبر فى الغد
وذيلة وما كان يمدّه الناس فى الزمن الماضى تقيصة يعدونه فى الحاضر كمالاً .
وان كان الشرف فيما مضى يستمدّ رونقه من السطوة والمنّعة ويقوم ركُنُه
على البأس والبطش فان الشرف اليوم كل الشرف فى الاستكانة للأحكام
والخضوع للقانون . فهِلمْ نسلك سبيله ونأخذ طريقه عسانا أن ننتهى
بالخلوص والنجاة . ومن القواعد المقبولة لدى العقلاء والحكماء أن يقبل
الانسان نظام الاحكام فى البلد الذى اتخذهُ داراً واختاره مُقاماً

(الباشا) - لَطِمْ الموت الزُّؤام .^(١) أهونُ من هذا الكلام . وللشرب
من حميم أن^(٢) . آتُرُ من احتمال هذا الهوان

(قال عيسى بن هشام) - فاعتأت على وجوه الآراء . فى صرف
صاحبى عن الامتناع والإباء . وكدت أياُس من بلوغ الغاية . فى باب
النصيحة والهداية . لولا أن سمعنا منادياً من باعة الجرائد ينادى فى طريقنا
بصوت نكير . دونه صوت الحمير :

(١) الموت الزؤام ، الكريه أو المجهز (٢) الحميم ، اناء الحار ، وآن ، شديد الحرارة

حديث عيسى . م - ٧

المؤيد والمقطم !! الاهرام ومصر !!

الاربعة بقرش

(الباشا) - ماذا أسمع من الاعاجيب ! أأصبحت المساجد والجبال
والآثار والبلاد تباع في الاسواق بالميزاد

قد اختل الانامُ بغير شكٍ فجدوا في الزمان أو العبود
(عيسى بن هشام) - ما هي بالآثار ولا بالبلاد ولكنها اسماء
انتحلت أعلاماً لهذه الجرائد اليومية

(الباشا) - لعلك « تعنى جرائد الصيافة ويومياتهم » أو « جرائد
الانزام » ولكن ما وجه هذه التسمية في التسمية

(عيسى بن هشام) - ليس الامر كما ذهبت اليه ، ولكن الجرائد
هي أوراق تُطبع كل يوم أو كل أسبوع أو كل شهر تُجمع وتُسرد فيها
الأخبار والروايات العامة ليطلع الناس على أحوال الناس ، وهي أثر من
آثار المدنية الغربية انتقل اليها منها فيما انتقل . والأصل في وضعها انتشار
الحمد للفضيلة والذم للرديلة ، والنقد على ما قبح من الاعمال ، والحث على ما
حسن من الأفعال ، والتنبيه على مواضع الخلل ، والتحضيض على إصلاح
الزلل ، وتعريف الأمة بأعمال الحكومة النابتة عنها حتى لا تجرى بها الى
غير المصلحة ، وتعريف الحكومة بمحاجات الأمة لتسعى في قضائها .

وبالجملة فإن أصحابها هم في مقام الآمرين بالمعروف والنهي عن المنكر الذين أشارت الشريعة الإسلامية إليهم

(الباشا) - قد كنا نسمع في زماننا بشيء من هذا القليل يقال له «غازيته» وكانت تصدر عندنا واحدة منها بالتركية اسمها «رُوزنامِه» وقائع وأخرى بالعربية اسمها «الوقائع المصرية» تدون فيهما المدائح والتهاني ويذكر فيهما انتقال الركاب العالي . ولكن إن كانت الجرائد قد ارتفعت اليوم إلى ما نزعم فلا بد أن يكون قد اشتغل بها واهتم بأمرها كبراء العلماء الأعلام وعظماء المشايخ الكرام ، ولَنِعِمَّتِ الوسيلة وحَسُنَتِ الطريقة في تبليغ الناس ما يصلحهم في معاشهم وينفعهم في معادهم . فعلى بواحدة منها

(عيسى بن هشام) - علماؤنا ومشايخنا - يغفر الله لهم - هم أبعد الناس عن اجتياز هذه الطريق وممارسة هذه الصناعة، وهم يرون الاشتغال بها بدعة من البدع ويعتبرونه فضولاً تنهى عنه الشريعة وتدخلها فيما لا يعنى فلا يأبهون بها وربما اختلفوا في كراهة الاطلاع عليها أو إباحته . وقد مارس هذه الصناعة قوم آخرون غيرهم فيهم الفاضل وغير الفاضل واتخذها بعضهم حرفة للعيش بها والتكفف على أية حالة كانت فلا تجد بينهم وبين أهل الحرف وباعة الاسواق فرقاً في الغش والخداع والكذب والنفاق والمكر والاحتيال للاستلاب والاعتيال

عمروا موضع التصنع فيهم ومكان الإخلاص منهم خراب فذهب منها الغرض المقصود وسقط شأنها بين العامة بعد أن سف

قدرها عند الخاصة وأصبح ما كان يُرجى فيها من النفع دون ما تجلبه من الضرر. ومن العقلاء من لا يزال يرجو من الأيام أن تدور يوماً بهذيب هذه الحال ورفع هذه الصناعة الى الدرجة اللائقة بها من الشرف وعلو القدر. والحكم كله للقارئ في الإقبال على ما ينفع والانصراف عما يضر « فأما الزبد فيذهب جفاءً وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض » ثم ناديت البائع فاشتريت منه أربعاً ، وفتحت واحدة أقرأ على صاحبي تُنفك من أخبارها فوق نظري فيها على كلام طويل عن الحكم على أحمد سيف الدين ، فأسمته ما جاء فيه من وصف ما يقاسيه هذا الأمير من خشونة العيش في سجنه واستدراار الدموع لما يلاقيه هذا الغلام من ضيق السجن وهو من سلالة الولاة والأمرء . ثم قلت له بعد أن انتهيت من أقوال الجريدة في استعطاف القلوب والتماس العفو :

(عيسى بن هشام) - أنظر أيها الباشا كيف وصلت بنا الحال في المساواة وقد علمت ما أصاب « البرنس » أحمد سيف الدين من حكم المحاكم عليه ، فكيف ترفع نفسك بعد ذلك وتأبى الخضوع للقانون والامتنال لأحكامه والتوسل بطرقه للخلاص مما وقعت فيه (الباشا) - ما « البرنس » ومن أحمد سيف الدين

(عيسى بن هشام) - أما « البرنس » فهو لقب أجنبي قديم كان يتلقب به رؤساء الدولة الرومانية قبل أن يجترئوا على الأمة بالتخال لقب « امبراطور » ، ثم صار يُطلق بعدهم في أوربا على أعضاء بيت الملك وعلى رؤساء الحكومات الصغيرة . ويُطلقه اليوم على أنفسهم أعضاء

« العائلة الخديوية » ذكوراً وإناثاً وإن كان لا ذِكر له بين الألقاب الرسمية في الدولة العلية. وأما أحمد سيف الدين هذا فهو أحمد بن إبراهيم بن أحمد ابن إبراهيم بن محمد علي جد الأسرة الخديوية وعميدها، وقد ارتكب جناية فسحبوه إلى المحاكم واستحق العقاب الذي يقضى به القانون فحكمت عليه المحكمة الابتدائية بالسجن سبع سنين فاستأنف ياتمس الشفقة والرأفة من قضاة الاستئناف فأنقصوا المدة إلى خمس ثم استغاث بمحكمة النقض والابرار فلم تُعفه. وقد انصرفت المساعي لاتفاق أعضاء الأسرة الخديوية على التماس العفو عنه وذهبت أمه يمينا وشمالاً فلم تُبق وسيلة من وسائل الاسترحام إلا سلكتها، ولكن لا وسيلة مع القانون فان سيفه ماضٍ في كل الرقاب وسلطانة نافذ في كل الرؤوس. فهل يليق بك حينئذ أن تكبر وترفع عن التوسل والتظلم وتأنف نفسك من السعى وراء « لجنة المراقبة » و« محكمة الاستئناف » وقد عامت من تاريخ الأمراء وأولياء النعم ماعدت (الباشا) - نعم كيف لاتخز الجبال الشم. اذا استزلوا منها الاراوى العُصم^(١). وكيف لاتشق القبور. ويُنفخ في الصور. وقد انحط المقام وسفل القدر. وحققت كلمة ربك على مصر: « جعلنا عاليها سافلها ». وما دام حفيد محمد علي في السجن على ما تروى يخضع لحكم القانون ويتوسل بتلك الوسائل وتتشفع أمه بتلك الشفاعات فما على من عار فيما تدعوني اليه، فاذهب بي الى حيث تريد. وليتهم كانوا يقبلون مني أن أكون فداء لابن سادتي وأولياء نعمتي فتضاف عقوبته الى عقوبي

(١) الاراوى، جمع أروية وهو الوعل، والاعمى ما في ذراعيه يابض وسائر أسود

لجنة المراقبة

قال عيسى بن هشام - فسرّني من الباشا مطاوعتهُ إِيَّايَ وقبوله
لنصيحتي ورضيَ بالتوجه إلى نظارة الحفانية فسار معي وهو محتقن
بدمعه متعثر بقدمه . ولما وصلنا إليها قصدنا مكان «لجنة المراقبة» وهمنا
بالدخول في حجرة المفتشين فمنعنا الحاجب وطلب منا «الكارت»
(الباشا) مستفهما - مامعنى هذا اللفظ الأعجبي

(عيسى بن هشام) - «الكارت» بطاقة صغيرة يُطبع عليها الاسم
والعمل أو الحرفة والصنعة يقدمها الزائر قبل الدخول ليكون المزورُ
بالتحيار في قبول الزيارة أو التماس منها

(الباشا) - لقد كانت أبواب التظلم مفتوحة في أيامنا لكل من
يطرّقها . وكيف ينطبق هذا التضيق على ما تنصفهُ لى من المساواة في الحقوق
والإنصاف في الأحكام

(عيسى بن هشام) - لا يسلم الحال من زيارة زائر بغير شغل أو من
لجاجة صاحب حاجة ، فوُضعت هذه الطريقة ليتفرغ الحكام لأعمالهم
(الباشا) - ألم تكن هيئة الحكام وعزتهم بكافية لصدّ من ذكرت
عن الدنوّ منهم والتجرؤ عليهم

قال عيسى بن هشام - وبادرت الى القلم فكُتبتُ وُريقة باسم
الباشا وسلمتها للحاجب ، فجاءنا بمد الانتظار بالاذن فدخلنا فوجدنا

ألمنا فتى من أجل الفتیان . قد أرسل لحيته قبل الأوان . يتموج تحتها ماء الشباب . كما يتموج الضوء وراء السحاب . ولما اقتربنا منه بعض الاقتراب . رأيت في يده جريدة حساب . يجمع في أرقامها ويضرب في أعدادها . ثم يضع يده على جيبته . كمن يتذكر رقاسقط من حسبته . وعن يمينه كتاب أعجمي . وعن شماله كتاب عربي . فكتاب اليمين « لقولتير » الفرنسي الملحد . وكتاب الشمال لابن العربي المتصوف الموحد . ولما تقدمنا نحوه سألنا عن حاجتنا ، فذكرت له العريضة التي قدمناها وقصصت عليه القصة وشرحت له ماعاملنا به القاضى من سوء المقاطعة في الشهادة والمرافعة . وهنا انبرى الباشا يخاطبه بقوله :

(الباشا) - وأدهى ما في القضية وأمر ما في الامر أن الذى تسمونه « النائب » اعتبر رتبتي سبباً لأهانتي ، وما كنت أتخيل في الاحلام ان الرتبة التى نالتها باقتحام الاختطار واحتمال المشاق تكون جريمة لا تغفر وبرهاناً قاطعاً لديه في تشييد دعواه يطلب به تشديد العقوبة . فقولوا لى بالله متى كانت هذه الرتبة الشريفة تستوجب العقاب والانتقام . ومن أى صنف أنتم بين صنوف الأنام

قال عيسى بن هشام - ودخل أحد الزائرين في هذه الأثناء خدمت الله على انقطاع الكلام بسبب دخوله ، والآ فقد كان الباشا اندفع فيه . بما يتعذر تلافيه . وبعد أن سلم الزائر سأل عما حدث من الأخبار . في وجه النهار . فنالوه المفنش خطبة يتفكه بقراءتها . بعد أن بالغ له في

بلاغتها. وما كاد يلتفت إليها ثانية حتى وافاه أحد المفتشين من الأجانب فأطلعه على رسم في ورقة زعم أنه نقشه في أثناء مناقشة قانونية اشتد فيها الخصام واحتد الجدال ، فنظر الشاب فيه نظرة وضحك له ، ثم تخلص منه للاشتغال بأمرنا ، فخطب الباشا بكلام لطيف عذب ينبىء عن كرم نسه وحسن أدبه وختم كلامه بقوله :

(المفتش للباشا) - قد اطلعت على ظروف القضية كلها في «مصباح الشرق» ، فأما القاضى فقد يكون له العذر في مقاطعة المحامى لأن منهم من اعتاد أن يأتى في مرافعاته بتاريخ نشأة الخليفة وتكوين الجمعية البشرية وما يجرى هذا المجرى مما يطول شرحه ويمكّل سماعه ولا يكون له أقل ارتباط بجوهر القضية ، وهم يستعملون ذلك في أيسر القضايا وأدناها ليقنع صاحب القضية أن المحامى لم يدخر لديه كلاماً يقال فى الدفاع عنه بقطع النظر عن ربح القضية أو خسارها . فترى أرباب القضايا يعتقدون أن المحامى لا يستحق أجره من المال . الا بكثرة ما يقال . كالسلة يكون تقدير ثمنها . على كمية وزنها . وقد توقف بعضهم مرة عن دفع المتأخر من الجمالة لمحاميهم بعد أن ربح له القضية بدعوى أنه لم يسمع منه كلاماً مطوّلاً فى المرافعة يستحق عليه الأجر سواء أكان مفيداً أم مضراً بها ، وليس يخفى أن وقت القاضى قصير ثمين فلا يسهل الا المقاطعة على المحامى المكثّر فى كلامه . وكذلك تكون المقاطعة على الشاهد لتوجيهه الى وقائع الحادثة لتلايفوتها بالخروج عنها . وحاصل الامر أن القاضى لم يخالف القانون بشيء فيما أتاه معكم

(الباشا) - ليت شعري إذا اعتذرت عن القاضي في مقاطعته فما
المذر في وضعه لي في « قفص المتهمين » وتقييده لي بالقيام عند كل سؤال
وأنا رجل شيخ معمر وقد قضيت عمري في الناصب العالية بالحكومة
المصرية وبذلت دمي في خدمة الأسرة الخديوية فهلا كان وقرني لسي
واحترمني لقدرى ، وأى قانون في الدنيا يمنعه من ذلك ، وتوقير السن
طبيعى واحترام المقامات أمر أصلى ، والله تعالى يقول : « وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ
فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ »

(المفتش) - ذلك ما يقضى به القانون أيضاً فإنه قائم على المساواة
بين الناس ولا فرق عنده في المقامات والأعمار ، وهذا عين ما يأمر به
الشرع الشريف وعين ما يجرى على أعضاء الأسرة الخديوية وخاصة
الحكام إذا ارتكب أحدهم ما يؤاخذ به القانون عليه . ولا معرفة عليك
ولا غضاضة في وقوفك أمام القاضي فانما تقف أمام النائب عن الحضرة
الخديوية وهى أكبر الدرجات

(الباشا) - ان كان هذا حكمكم في القاضي فما الحكم في عضو النيابة
الذى غيرنى بشرف رتبتي

(المفتش) - أنا لم أطلع بعد على أوراق القضية وتفصيل المرافعة
ولكن ما انتشر في « مصباح الشرق » من كلام « النائب » لا يؤخذ
منه معنى التعبير بالرتبة بل كان غرضه أن يثبت أن الرتبة مهما عظم شأنها
لا يكون من حقها هضم حقوق الضعفاء والامتياز بها على الناس أمام

القانون فانها قاصرة على صاحبها لا تجعل له سبيلاً على محروم منها .
ولا بأس عليكم من كلام النائب في هذا الباب فانه جرى بيننا مجرى
العادة في هذا العصر

(الباشا) - إذا كان للقاضي العذر وللنائب الحق فما فائدة تظلمى
لكم وحضورى أمامكم ، أفما كان من اللائق أن ترجعوا القاضي وتؤنبوا
النائب وتفحصوا القضية وتثبتوا من بطلان التهمة وتنقضوا ذلك
الحكم أمامهما

(المفتش) - ليس ذلك من اختصاصنا . وإذا وقع من أحد رجال
المحاكم ما يخالف واجب وظيفته فالنظر في أمره موكل الى « مجلس
التأديب » ولا سبيل لرئيس على مرءوس إلا بحكم من المحكمة . وأنا
آسف غاية الأسف لمجزنا عن التصرف في قضيتك . والحكم فيها
راجع إلى محكمة الاستئناف وحدها

قال عيسى بن هشام - وكنت أشاهد في أثناء هذه المحاورة شاباً
آخر بجانبنا من المفتشين يسطع « طربوشه » احمرارا . ويقلب طرفه
ازورار . تلوح على وجهه مخايل الإمارة . ولا تنفك يده في رفع وخفض
« للنظارة » . وتشهد عليه سيماهُ بالتفنن في التديير . وتدل على قوة الدِّهاء
والتفكير . فلما وصلنا الى حيث وقف بنا الكلام رأيناه ينادى الحاجب
ويقول له :

(المفتش الثانى) - على « بدالووز » و « جارو »

(الباشا لعيسى بن هشام) - هل هذان الاسمان يُطلقان على القاضى والنائب ، وهل ترى هذا الشاب هباً للانتصاف لى منهما

(عيسى بن هشام) - هذان اسمان لكتابين فى فقه القانون بدل « ابن عابدين » و « الهداية » فى فقه الشرع

وحضر خازن الكتب بالكتابين فردّ المفتش له أحدهما وقال له : ما طلبت « بودرى » بل طلبت « جارو » . ولما جاءه به أخذ يبحث فى الكتابين طويلاً ثم نظر للخازن نظرة اليأس وقال : ائتنى « بفوستن هيلى » فأتاه بكتاب آخر فخرج منه بعد النظر الطويل الى المناقشة مع زميله باللغة الفرنسية وانتهى الامر بينهما أن قالوا للباشا معاً : لعل لك عذراً فى القانون يمكنك ان تدلى به الى الاستئناف فى قضيتك ، وأما ما يختص بالقاضى والنائب فنسضع له « نوته » (مذكرة) ونقدمها الى اللجنة عند انعقادها فاذا تبين لها أقل خلل فى تصرفهما أصدرت منشوراً الى جميع المحاكم بعدم اتباع ذلك فى المستقبل

ثم ودّعانا بالاحترام والتعظيم وخرجنا والباشا يقول : (الباشا) - قد كتب علىّ ان لا أخرج من ههنا الا الى ههنا ولا أنتهى من كدر الا الى كدر حتى كاد يصفو بالى ويخلو خاطرى لكثرة ما تراكم علىّ من الهموم والاحزان :

فانى رأيتُ الحزنَ للحزن ماحياً كما خطّ فى القرطاس رسمُ على رسيم ومن البديع الغريب فى أمر هذه الحكومة الحاضرة اننى ما وضعت قدمى فى دائرة من دوائرها الا رأيتُ أُممى غلماناً وفتياناً يتولّون أمورها

ويتصرفون في أعمالها ، فهل خلق المصريون خلقاً جديداً أم صاروا في
الجنة استوت فيها الأعمار

(عيسى بن هشام) — لا تعجب من تقلد الشبان لمناصب الحكومة
فإن نظام هذا العصر يقضى بذلك ، وهم يزعمون أنه ليس في استطاعة
الكهول والشيوخ ان يقوموا بأعباء المناصب خلوهم عن علومها الجديدة
وجهلهم بفنونها الحديثة

(الباشا) — كيف يدعون ان العلم ينحصر في الشبان دون الشيب
وماعدناه الا في من أحت السنون ظهورهم ويبيضت التجارب مفارقةهم
فابتسم فيها يياض الرأى والادب

(عيسى بن هشام) — هم يقولون ان العلم والمعرفة لا يختصان بسن
دون سن ولا عمر دون عمر وربما كان الشاب أنفذ سهماً في حلبة العلوم
وأجمع لشتات الفنون لما يختص به من حدة الذهن وسرعة الإدراك ، فاذا
أنصرف بهمته الى الدرس كان نصيبه منها أبلغ من نصيب الكهول
والشيوخ وأغناء ذلك عن طول الممارسة وكثرة التجارب التي يمتاز بها ذوو
الأسنان والأعمار :

ليس الحداثة عن علم بمائة — قد يوجد العلم في الشبان والشيب
(الباشا) — ولترجع الى شأننا فقد اتبعت آراءك وامثلت نصائحك

وعرضنا أمرنا للجنة المراقبة فخرجنا منها بالخيبة كما ترى فليس لنا بعد
هذا التعب الا الركون الى راحة اليأس ، ولم يبق لك بعد اليوم وجه في أى
احتجاج وجيه توجهنى به وتسجنى معك للسعى والتظلم أمام الحكام

(عيسى بن هشام) - لا تيأس ولا تقنط فإن أماننا محكمة الاستئناف
ولى اعتماد عظيم على إنصافها فى الأحكام. ولو خاب فيها الأمل على الفرض
والتقدير فلا يزال عندنا باب العفو مفتوحاً نلتئمسه بوساطة ناظر الحقانية
(الباشا) لا تذكر لى من الآن حاكماً ولا ناظراً فقد سئمت من
وقوفى أمام هؤلاء الغلمان والشبان مهما بالنت لى فى الوصف واستشهدت
فيهم بالشعر

(عيسى بن هشام) - ليس ناظر الحقانية الذى اذكره لك من صف
هؤلاء الشبان وطرازهم بل هو رجل كهل عاكف على العبادة منكبٌ على
الأوراد منصرف الى الأذكار . يمسى ليله قائماً . ويصبح نهاره صائماً .
فبين السبحة وأصابه عهد وميثاق . وبين السجادة وجهته ارتباط
والتصاق . وبالجملة فهو يُذكرنا فى هذا العهد الجديد بعمهكم القديم . وأبوه
رجل من أكابر رجالكم اسمه حسن باشا المناسترلى

(الباشا) - حسن المناسترلى !! ذاك خليلي وقريني ، وصاحبي
وخديني ، ورفيقي فى الخدمة وأخى فى الحكومة ، ولماذا لم تخبرني عن
ابن أخى هذا من أول الأمر فتكون قد حقنت ماء وجهي وأنقذتني
من كل هذه الإهانة وذلك التحقير

(عيسى بن هشام) - ما غاب عني أن أذكرك به فإنه لم يكن له
أقل نفع يدفع عنا ما تقلبنا فيه من المصائب ، وإنما نفعه يكون فى آخر
الدرجات ولا عمل نرجوه منه فى مساعدتنا إلا بعد صدور حكم الاستئناف
والسمى فى التماس العفو من ولى الأمر

حكمة الاستئناف

وَأَن أَوَّانُ الْجُلُوسَةِ فِي الْإِسْتَنْفَافِ . فسرنا في طلب المدل والإنصاف ،
وكل واحد منا مشغول بحاجته . لاهٍ بنازلته . فالباشا يفكر في مصيئته .
ويتألم من بليته . والمحامي يدبر في أمره . ويتطلع لأجره . وأنا أسأل الله
لنا النجاة . من مكايد الحياة . ولما وصلنا الى حى « الاسماعيلية » ورأى
الباشا دُورَها ومبانيها . وشاهد قصورَها ومغانيها . واستطاب رياضها
وحدائقها . واستنشق رياحِها وشقائقها . استوقفنا سائلاً مبهوراً .
واستنطقنا بعد أن كنا سكوتاً . فقال ألا تخبراني عن موضع هذه الجنة
الزاهرة . من مدينة القاهرة . فقلت له هذه « الاسماعيلية » اختطها
اسماعيل . فيما اختطه لزيينة وادى النيل : يسكنها اليوم جماعة من العظماء .
ذوى الغنى والإثراء . وقد كانت في أيامكم خراباً قفراً . لا تحمل بيتاً ولا
ترفع قصراً . ولا ترى فيها من النبات غير الطلح والضال^(١) . ولا من
الأزهار غير شوك القتاد أو شوك السيال^(٢) . ولا من الطير غير البوم
والغربان . أو الرخم والعقبان . ولا تجد فيها من الإنس إلا لصاً سالباً .
أو مغتالاً ناهباً . أو فأنكاً متأهباً . أو كامناً مترقباً

(الباشا) — لله در المصريين لقد ابتسم لهم الدهر . فأبدلهم من
الشوك الزهر . وأسكنهم هذه القصور العالية . بعد تلك الأطلال البالية .

(١) الطلح ، شجر عظام يرعاها الابل ، والضال الدربرى

(٢) القتاد ، شجر صلب له شوك كالابر ، والسيال ، جمع سيالة نبات له شوك أبيض

(الحامى) — أيها الأمير لا تغبط المصرى على نعمته. وتعال فأبئك
معنا من تقمته. فليس له فى هذه الجنة من دار. يقر له فيها من قرار.
وكل ما تراه من هذا الجانب. فهو ملك للجانب

(الباشا) — لله أبوك كيف يختص الأجنبى دون الوطنى بهذه
الجنان الناضرة. ويستأثر دونه بهذه المساكن الفاخرة. ولعلك تلغز فى
قولك وتُحاجى. وتُعَمَّى فى تعبيرك وتُداجى

(الحامى) — لا تحجية ولا تعمية، بل هكذا قدر المصرى لنفسه.
وتبدل سعده بنحسه. واقتنع من دهره بالدون وبالطفيف. ورضى بالقسم
الخبس الضعيف. فبات محروماً تحت ظل إهماله وخوله. وغدا بالأسا
فى سباته وذلوله. وما زال الأجنبى يسعى ويكد. ويعمل ويجد.
وينال ثم يطمع. ويسلب ثم يجمع. والمصرى يذر بجانبه ويسرف.
ويبدد ويتلف. ويتحسر ثم يلهو. ويعجز ثم يزهو. ويفتقر. ثم يفتخر.
فتساوى السيد والسود. ونشابة الحاسد والمحسود. وتعادل الرفيع والمنيع.
بالحقير والوضع. واشتركنا كلنا على السواء. فى منازل الشدة والبلاء.
وأصبح نصيب القوى المكين. مثل نصيب الضعيف المستكين.
وكذلك تكون عاقبة من يُلقى للأجنبى يديه. ومن أعان ظالماً سلط عليه:
ومن يحمل الصرغام بازاً لصيده تصيده الصرغام فيما تصيداً
قال عيسى بن هشام — وما كاد ينتهى رفيقائى من خطابهما. ويفرغان
من سؤالهما وجوابهما. حتى مر بنا رأكب دراجة تنساب به كالصلال^(١)

في بطون الرمال . ويتمايل بها تمايل النشوان . مالت به نشوة الحر . وينشئ
 إنثناء الاغصان . هزها نسيم الفجر . فامتلاً الباشا . تعجباً واندهاشاً .
 وسألنا الشرح والبيان . عن أمر هذا «البهلوان» . فقلت هذه عجلة حادثة
 يختارها بعض الناس . على المركبات والأفراس . ومما يرغبهم فيها انها
 لا تأكل ولا تشرب . ولا تهزل ولا تتعب . وهذا الراكب رجل من
 أهل القضاء . يركبها لرياضة الأعضاء . فأتبعه الباشا نظره فوجده قد
 سقط فجأة من فوق دراجته ، فانفرط عقد الهيئة على سطح الارض الى
 ثلاثة أقسام : الراكب والعجلة والطربوش . ثم رأيناه تماثل للقيام فلم
 شعثه وحاول أن يعلو الدراجة ثانية فلم يقدر عليها فسحبها بيده يجرها
 ويماشيها . وأخذ الباشا يخاطبنا فيه وفيها :

(الباشا) يا حيدالو عدنا من حيث أتينا . وكنا مُطلقين لا لنا ولا
 علينا . وكيف يكون شأن القاضى أو الحاكم اذا كان هذا منظره وذاك
 مركبه أمام أعين العامة . وهل حُكيم الناس يوماً بغير أبهة الحجاب
 وعظمة المناظر ونغامة المواكب ، وقد كان الحاكم أو القاضى لا يركب في
 عصرنا الا في موكب تحف به الحشم والأعوان . وتقدمه الجنود
 والفرسان . فترتجف منه القلوب رعباً . وتخزله الأعناق رهبة . وقل من
 يجترئ من الناس على ارتكاب ما يقفه أمامه يوماً موقف التهمة والارتياب
 (عيسى بن هشام) - ذاك عصر مضى . وحكم انقضى . ولقد تقنن
 أهل العصور الماضية في وصف ما تذكره من منظر الأبهة والجلال

وهيئة العزة والوقار حتى أدخلها الشعراء في مخالصهم البديعة كقول أبي الطيب في ممدوحه مثلاً :

جَمَعَ الزمانُ فما لَذيذُ خالِصٍ مما يَشوبُ ولا سرورٌ كَاملُ
حتى أبو الفضل ابنُ عبد الله رُوِيَ يَتُهُ المُنَى وهى المَقامُ الهائلُ

(المحامى) - قد آن أن نفرغ من هذا الحديث فقد اقتربنا من المحكمة

(عيسى بن هشام) - ولعلنا نجدها بإذن الله في مكانها، فقد تعودت

التنقل من مكان الى مكان حتى أشبهت خيام العرب :

يوماً مجزوى ويوماً بالعقيق وبالأ مَذْيَبٍ يوماً ويوماً بالخليصاء

ثم اقتربنا فوجدناها، وأقناني ساحتها ننتظر نوبتنا بين أرباب القضايا

حتى نودى علينا، فتقدمنا للجلسة أمام ثلاثة من القضاة، فأخذ الاجنبي

منهم يقرأ « ملخص القضية » بلهجة أعجمية وحروف لم تستوف مخارجها

فقال : « ان هذا الرجل متهم بالتعمدى على فلان العسكري بالضرب في

أثناء تأدية وظيفته في يوم كذا من شهر كذا والمتهم أنكر، وشهد المجني

عليه ودل الكشف الطبى على وجود علامات فيه للضرب والمحكمة

الابتدائية حكمت عليه بالحبس سنة ونصفاً بالتطبيق على مادتي ١٢٤

و١٢٦، عقوبات فاستأنف المحكوم عليه »

ولما سألت المحامى عن هذا التلخيص الغريب قال لى هكذا تجري

المادة هنا يأخذ مثل هذا القاضى الأجنبي عبارة الديباجة المذكورة في

الحكم الابتدائي فيجعلها تلخيصاً للقضية ثم يكتبها بعريتها بحروف أجنبية ليقرأها أمام الجلسة على نحو ما رأيت

ثم التفت رئيس الجلسة إلى الباشا وسأله عن اسمه وسنه وصناعته ومحل إقامته، وأشار إلى النيابة بالكلام فشرع النائب في شرح القضية على ما يوافق هواه . ولم نسمع من الرئيس مقاطعة له في كلامه كما يكون في المحاكم الابتدائية (والسفر في ذلك أن بعض القضاة الذين لم يكونوا اطلعوا على أوراق القضية في الاستئناف هم في حاجة إلى العلم بها من أقوال النائب فيتركوه وشأنه في التطويل والإسهاب) ثم أذن الرئيس بالكلام للمحامى مع الإيجاز، فابتدأ المحامى يسرد أقواله في أوجه الدفاع عن المتهم ، وكما وصل إلى النقطة المهمة في دفاعه قال له الرئيس : «الموضوع» « طلباتك » . ولما تكرر منه وقوع ذلك رأيت أحد القضاة ينبه الرئيس إلى أن كلام المحامى في عين «الموضوع» (وللرئيس العذر لأنه لم يطلع على تفصيل القضية ولم ينصت لأقوال النيابة) ثم نطق الرئيس بعد ذلك بقوله : « سمعت القضية والحكم بعد المداولة » فانتقلت الجلسة إلى حجرة المداولة ، وخرجنا ننتظر ، وسألت المحامى عن المدة التى تنقضى فى المداولة فأجابنى :

(المحامى) - لا تزيد مدة المداولة فى الغالب عن ساعة واحدة

(عيسى بن هشام) - وما هو متوسط عدد القضايا فى الجلسة

(المحامى) - متوسطها عشر قضايا

(عيسى بن هشام) - وهل تكفى هذه المدة للاطلاع على ماتحتويه القضايا الجنائية من كثرة الأوراق

(المحامى) - نعم تكفى عندهم وطالما اطلعنا على القضايا التى تعود من عند القاضى « الملخص » الى قلم الكتاب لاطلاع المحامين فنجد عليها رمزا بأحد هذه الأحرف : « ب » « ع » « ت » . فالباء إشارة الى البراءة والعين إشارة الى العقوبة والتاء إشارة الى تأييد الحكم الابتدائى . وانما يضع القاضى هذه الرموز حتى لا ينسى رأيه فى القضية عند عرضه على زملائه فى المداولة ، فاذا عرضه عليهم لم يضع الوقت بينهم سدى فى البحث والمناقشة ولكن لما كان القاضى الجنائى له الاستقلال المطلق فى الحكم بما يرتاح اليه ضميره وتطمئن به نفسه كان من الواجب عليه ان يسلك غير هذا الطريق ويفحص أدلة الثبوت وأدلة البراءة بنفسه فيعرضها على ضميره وهو خالٍ من كل اعتقاد خاص للبراءة وللتهمة حتى اذا استقامت لديه الأدلة حكم بما يغلب عليه منها لا أنه يجرى فى طريق التسليم لرأى غيره ولا أن يكون الحكم مبتوتا فى القضية بأحد هذه الأحرف الثلاثة التى عنت للقاضى الملخص وهو يمر عليها فى انفراده بيته مرة السحاب

قال عيسى بن هشام - وبينما نحن فى هذا الكلام اذ عادت الجلسة الى انعقادها فدخلنا لسماع الحكم فنطق الرئيس ببراءة الباشا لان التهمة وان كانت ثابتة عليه الا أنه قد حالت دونه ودون دعوة القانون قوة قاهرة . فخرجنا مسرورين بهذه النعمة ، وخرج الباشا وهو يقول :

(الباشا) — لا أنكر اليوم أن العدل موجود ولكنه بطيء، لا يتحمل أعباء بطنه البريء. وكان الأولى في هذه المحاكمات أن تكون النهاية في البداية، فلا يلحق من كان مثلي هذا الهوان والصغار، ويقع به ما وقع من الحبس والعار، بعد أن يقف موقف التهمة والإجرام، ويحل به ما يحل من التعذيب والإيلام

(المحامى) — انى أهنتك بهذه البراءة وأسأل لك دوام العافية من مصائب الاتهام، ولا زلت تخرج من كل قضية خروج السهم من قوسه والسيف من غمده. وقد مضى منى الدفاع وبقي عليك الدفع

قال عيسى بن هشام — وما زال المحامى عاكفا علينا يطالبنا بالأجر. والباشا يمدّه لآخر الشهر. حتى يأتيه بمض خدمه وأتباعه. بمال من عقاره وضياعه. والمحامى يأبى التسوية والامهال. وإلا الدفع في الحال (المحامى للباشا) — أظن أن هذه الوعود. تقوم لدينا مقام النقود.

في بلد كثر فيه الاتفاق وزادت الضرورات. وقلّ فيه الربح كما قلت المروءات. وصار الدرهم أعزّ عند الأب من بنيه. وعند الابن من أبيه. ولقد تعبت في القضية تعبتي باللسان وبالجنان. ولا أستريح منها الا بنقد الأصفر الرنان. وإنك لا تصرفنى — وإن كنت محمود الخاق — بالوعد. ولكنك تصرفنى — وأنا أحمد — بالنقد. وإنى لا أريد أن أسكن في بيت المتنبي:

أنا الغنى وأموالى الواعيد

فلا نجعل الخلاص من قضية بقضية. والفكاك من باية بيلية. فذلك مالا يأتيه العقلاء. ولا يرتضيه الأمراء

قال عيسى بن هشام — ولما رأيت الباشا لم يقدر على التلفظ . من
شدة الحنق والتغيظ . وقفت بينهما وقفة الأريب . وتوسطت توسط الليب .
فملت بلطف الالتماس والرجاء . رضاء المحامى بالمهلة والإرجاء . إلى أن ينتقل
الباشا من العوز والمسر . إلى الغنى واليسر . وقلت له ما يقال له في باب
المروءة والهمة . من وجوب الحنو على من يقع في مصيبة أو مُلمة . وأنَّ
مَنْ تَذَكَّرَ الدَّهْرَ وَغَيْرَهُ . وَالزَّمَانَ وَغَيْرَهُ . لَانَتْ عَرِيكَتَهُ . وَطَاوَعَتْ
مُشْكِمَتَهُ . وليس بين صعود المرء ونزوله . وإشراق سعده وأفوله . وبين
غناه وفقره . وصفوره وكدره . إلا مسافة انتقاض القضاء . من رب
السماء . فنظر إلى الباشا نظرة الاحتقار والازدراء . وخاطبني بالأنفة
والكبرياء :

(الباشا) — لَبِئْسَ الْخَلْدَيْنُ أَنْتَ وَالْقَرَيْنَ . كَيْفَ تَسْمُنِي بِسِمَةِ
الْفُقَرَاءِ . وَتَسْتَعْطِفُ عَلَى قُلُوبِ الضُّعَفَاءِ . وَأَنَا الْأَمِيرُ السَّرِيُّ . وَالغَنِيُّ
الْمُتْرِيُّ . وَأَيْنَ مَا ادْخَرْتُهُ فِي عَمْرِي . وَاکْتَنَزْتُهُ فِي عَصْرِي . مِنْ مَالٍ
وَعَقَارٍ . وَفُضَّةٍ وَنُضَارٍ . وَقُصُورٍ وَضِيَاعٍ . وَزُخْرُفٍ وَمَتَاعٍ . وَلَقَدْ كَانَ
يَضْرِبُ بِغَنَائِي الْمَثَلَ ، فَإِنْ كُنْتَ جَاهِلًا بِي فَسَلِّ . اذْهَبْ فَأَتِنِي بِخَبْرٍ مَا
خَلَفْتَ وَأَبْقَيْتَ . وَأَثَرٍ مَا جَمَعْتَ وَاقْتَنَيْتَ . وَكَيْفَ يَخْفَى عَلَيْكَ وَعَلَى الْحَامِي
مَالِي مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْعَقَارِ . وَمَا قُضِيَتْ فِيهِ الْعُمُرُ مِنَ الْجَمْعِ وَالْإِدْخَارِ . فَإِنِّي
يَشْهَدُ اللَّهُ مَا تَرَكْتُ حِيلَةً . وَلَا أَغْفَلْتُ وَسِيلَةً . فِي الْحَصُولِ عَلَى الْإِثْرَاءِ
وَالْغَنَى . حَتَّى جَمَعْتُ مِنْهُ كَثِيرًا مِمَّا تَفَرَّقَ عَلَى الْوَرَى . فَجَعَلْتُهُ عُذَّةً لَشَدَّةِ

أُزْرِى . وأمانا لى من مصائب دهرى . وتركته ذخيرة لأبنائى وحفدى .
وميرانا لأعقابى وذريتى . ليكونوا من ذل الحاجة فى جنة .^(١) ومن نعيم
العيش فى جنة . وتركتم على ذلك مطمئن القلب مستريح الفؤاد . رفيع
الذكرى رفيع العباد

(الحامى) — إنا لنعلم ، يا معشر الأمراء والحكام ، أنكم قضيتم
الاعمار فى جمع الخطام ، واتخذتم الحكم والسلطان تجارة من التجارات
وبضاعة من البضاعات تربحون منها الفنى والثروة ، ولم تكونوا تعلمون
للحكم من مزية سوى اكتناز الاموال واستلاب الحقوق وابتزاز الدراهم
من دماء الأراذل والأيامى ، وانتراخ الأوقات من أفواه الاطفال واليتامى ،
وكنتم سواء عليكم أحرزتم المال من حله أم غير حله لم تبالوا بالضعيف المسكين
ولم ترثوا للعاجز المستكين بل ظلمتم البرى ووراثتم الظالم فجمعتم لديكم من أثر
ذلك ما لا يقدر من الأموال ، ورضيتم بالوزر وطوقتم أعناقكم بالإصر ، ثم
حرمتهم بعد ذلك على أنفسكم التمتع بما جمعتموه وحرمتموها من كل ما حزنموه
ولم تكونوا من الذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم ، ولم
تؤدوا ما فرضه الله عليكم فيها من الحقوق ، ولم تطهروها بركة ، ولم
تزكوها بإحسان ، وأطربكم رنين الدرهم فوق الدرهم وصنت الدينار مع
الدينار ، وأبدعتم ما شئتم فى وسائل وطرائق يأبأها الله لعباده ويعقها ،
ويستبشعها الألسان ويستفظمها ، لسلب ما سلبتموه وكنز ما كنزتموه
بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ، واجترأتم على الله فى أوامره ونواهيه

وكلفتم العلماء بتأويلها على أهوائكم فأولوها لكم لانهصار الارزاق في
أيديكم واحتياجهم الى ما يقتاتون به من فضلات عيشكم ، فالوزر عليكم
وعليهم ، ولكنه عليكم أعظم وفوقكم أثقل . حتى اذا انقضى العمر وحل
الأجل تركتم ما خلقتموه لغلة من أولادكم وصبايا من جواريتكم
نشأوا بينكم على الحرمان ولم تُثقفوا بالتعليم ولم تتركوا للزمن يؤدبهم
وللأيام والليالي تهذبهم ، فكنتم في أعينهم كالرصد الذي يكون على
باب الكنز — كما يقال في الأقاصيص — يحتالون لنقله بقتله . فاذا
استراحوا منكم بالموت أو القتل مزقوا أموالكم انتقاماً منها ومنكم وفرقوا
شملها في أدنى من لمحة جهلاً منهم بوجوه التصرف وأبواب التمتع ، فاهو
الا أن يتسابق الدود والورثة في أحشائكم المدفونة . وأحشائكم المخزونة .
فيسبق الورثة الدود . في الصدور والورود . فتذهب البذرة وراء البذرة
والضيعة بعد الضيعة والدار عقب الدار ، حتى اذا لم يبق الا بيت السكن
أثوا على ما فيه من الأثاث يبعوا وما في أعناق الجوارى من الجواهر
والقلائد رهنًا ، ولا يزالون يخلون من البيت حجرة إثر حجرة والدائنون
يدخلون فيه خطوة إثر خطوة الى أن يندك بناؤه ويمحو أثره ويزول
اسم بانيه الذي ارتكب ما ارتكب من الذنوب لتشيده ودوام بقائه
وهو يُشيع منهم باللمتين في الحالتين حالة الخلاص منه بالتشييع الى القبر
وحالة أسفهم على إهماله إياهم من تشيف العلم بما كان ينفعهم في خشونة الفقر
هذه أيها الأمراء عاقبة ما صارت اليه أموالكم ومقتنياتكم من بعدكم
ويا ليت أولادكم وأحفادكم خففوا عليكم من الإثم في جمعها من دماء

المصريين بإنفاقها بينهم وتبذيرها فيهم فيكون ذلك منهم كدّ بعض الحق إلى أهله ، ولكن البلاء كل البلاء أنها ذهبت جميعها إلى أيدي الأجانب والغرباء . وكأن الدهر سلط المالك على المصريين ينهبون أموالهم ويسلبون أقاتهم ثم سلطكم الله عليهم لسلب ما جمعه ثم سلط عليكم أعقابكم فسلموا بجامع ذلك للأجانب يتمتعون به على أعين المصريين ، والمصريون أوّل بالقليل منه . وما دفع بأعقابكم إلى هذا اللين والتسليم إلا ما ورثوه عنكم من الاحترام لشأن الأجنبي والاحتقار لجانب المصري وأنكم لم تكتفوا بأن تكونوا أرباباً للمصريين حتى شاركتهم معكم الأجنبي في تلك الربوبية فغلبكم عليها وأشرككم مع المصريين في العبودية وتشابهت الموالى بالعبيد . وقد آن أن تعلم أيها الأمير بأن جميع أقرانك وإخوانك من ذوى الثروة واليسار في أيامكم قد أصبحت بيوتهم خاوية على عروشها وأبصار أعقابهم شاخصة إليها ، فإن أردت أن تبحث عن أموالك وضياعك اليوم فابحث عنها تحت ثفال (١) تلك الرحى ، وقلْ معي ما يقوله الشاعر الحكيم :

يقول الفقى ثَمَرْتُ مَالِي وَإِنَّمَا لِيَوَارِثُهُ مَا ثَمَرَ الْمَالُ كَاسِيَهُ
يُحَاسِبُ فِيهِ نَفْسَهُ فِي حَيَاتِهِ وَيَتَرَكَ نَهْبًا لِمَنْ لَا يَحَاسِبُهُ

فيا عبث المدخر الجامع . ويا غبن المكنز الطامع . ما كان أغناكم

عن الجمع والادّخار . وعن الحرمان في الدنيا والخلود في النار

(الباشا) - أراك قد تجاوزت أيها المرشد الواعظ حدك في اللوم

والتعنيف وخرجت عن طورك في العذل والتعزير ، وكان بودى أن

(١) الثفال ، جلد يبط تحت الرحى والحجر الأسفل من الرحى

أعطيك أجرك مضاعفاً ولا أشاهد منك هذه الجراءة علينا بسوء التقريع والتوبيخ . وربما قلتَ حقاً في بعض ما تقول ، والرجاء في غفران الله عظيمٌ وفي رحمته متسعٌ ، ولعل ما تخلل أعمالنا في أيامنا من الحسنات يشفع لنا في ما اقترفناه من السيئات . ولكن كيف التدبير الآن في اكتساب المعيشة والاحتياال للتماس الرزق بعد أن ضاعت الأموال وذهبت من أيدينا الأحكام على نحو ما تروى وتحكى . وما أرى لضيق من الفرج الا أن أورد نفسي حتفها وأعيد لها حامها فما أزوح ما كنت فيه من ظلام الرمس ^(١) . وما أقبح ضياء هذه الشمس

(عيسى بن هشام) - ليس لمثل حالتكم غير الاسف منا والتوجع لكم فقد تمكن الاعتقاد في رؤوس الحكم أن ما يقع بالاتفاق لهم أحياناً من ولاية الأحكام هو قياس مطرد وصراط مستقيم لا ملجأ لكم سواه في وجوه المساعي وممارسة مطالب الحياة . وقامت الولاية عندكم مقام بقية الآلات والصناعات التي يجتني أهلها منها ثمر الارزاق والتكسب ، فاذا خلت أيديكم منها واعتزلتم الأحكام تقطعت بكم الاسباب وضاعت بكم السبل في وجوه المعاش كما تصاب يد الصانع بالشلل ، فيتمطل عن العمل ، ويصبح كلاً على كاهل الجميع يرجو الموت كما رجوتَ ويتمنى راحة العدم كما تمنيتَ . وكأنكم أيها الحكم صنف فوق أصناف الخلق لكم نصيب من العيش دون سائر الخلق فلا تكونون الا فوق ذهاب العرش

أوفوق خشب النعش . وقد قال مسكين من رؤساء صناعكم هذه
وهو في ضيق الحبس . وضيق النفس :

ونحن أناسٌ لا توسطَ عندنا لنا الصدرُ دون العالمين أو القبرُ
ومعلوم لك ما في هذه الصناعة صناعةِ الولاية والحكيم من قلة ما
يرفعه الصدر وكثرة ما يضمه القبر . وكان الأولى بكم ان تكونوا كالناس
في معاشهم لكل إنسان آلة يئنه من صناعة أو حرفة أو مهنة يُحسن بها
التعيش والارتزاق حتى اذا أتم نزلتم عن تلك العروش دخلتم في بقية
الأحياء من أفراد الجمعية تنفعون وتنفعون

(الباشا) - تالله ان ما قاسيتهُ من الآلام أمام البوليس والنيابة
والمحكمتين واللجنة كان أقلّهما وأدنى شجناً من مرارة هذا النصح والوعظ.
وما الرأي عندكما وقد فات وقت التحصيل والطلب ولم يبقَ وقت
للصناعة والعمل . والموعظة صالحة نافعة ولكنها لمن يحىء لا لمن يعصى
قال عيسى بن هشام - فأحزنتني حالة الرجل وأشفقت عليه فأخذت
أتدبر له وأتفكر في طريقة يتعيش بها ، وكلما خطر لى في ذلك خاطر
خاب رجائى فيه حتى كدت أياس من الحيلة ، والباشا ينظر الىّ وأنا فى
تفكرى تارة ويُطرق للتفكير فى نفسه تارة أخرى . ثم رأيتهُ قد انتفض
من مكانه وأخذ ييدى يقول لى :

(الباشا) - قد وجدت والحمد لله باباً لسدّ العوز وكفاف العيش

(عيسى بن هشام) - ماذا وجدت

(الباشا) — كان من عادة الحكام أمثالنا في الأزمان السالفة أن يأتوا فيما يأتونه من أعمال الخير التي تقرّ بهم من الله وتمتق رقابهم من النار بعمل صالح اتفقوا عليه كافة وهو إقامة بناء للجامع أو كتاب أو «سبيل» وكانوا يخصصون له أرضاً أو ضيعة وقفاً عليه للاتفاق من ريعها على طول الزمان، وقد سلكت مسلكهم واتبعت سنتهم وخلفت لذلك وقفاً عظيماً لا تناله أيدي الأعقاب بالإتلاف والتبذير، فهل معي نبحت على ما شيدته ووقفته

الوقف

قال عيسى بن هشام - وظللت أنا والباشا نواصل الطواف بالطواف للوقوف على تلك الاوقاف . ونسائل العابر وابن السبيل . عن المسجد و « السبيل » . ولا سؤال المجذب عن الروض . والظمان عن الحوض . فلم نجد من يرشد . إلى ما ننشد . وأخذ الباشا يتذكر الطرق وأما كتبها . والأزقة ومساكنها . ويقول كان هنا وكان هنا . وجل ما يقضى به لهننا . وما زال يقاصر في خطواته . ويطاول من آهاته . ويكي لرسوم الأطلال والديار . بكاء صاحب عزة^(١) أو صاحب نوار^(٢)

فأسألنّها واجعل بكاء جواباً تجمد الدمع سائلاً ومُجيباً حتى وصلنا بعد طول التجوال والتجواب . وترداد المجيء والذهاب . الى منعطف مضيق . في منتهى الطريق . فوق الباشا هناك قبالة دور مهدمة . وجدران محطمة . ومسجد في ناصية منه حانوت خمار . وفي زواية منه دكان عطار . وبجانبهما حوانيت متباينة الأوصاف . مختلفة الأصناف . فطفق الباشا يصعد نظره فيها ويصوبه . ويُخطئ حذسه تارة ويصوبه . فهده طول النظر والتدقيق . وشدة الإمعان والتحقيق . أن رأى شيخاً قانياً متربماً في دكانه . متحيزاً بمكانه . عليه علامات الانحلال والسقوط . وشارات الخذلان والقنوط . وسيم الرضاء بالمقسوم . والتسليم

(١) عزة ، هي التي كان ينتهب بها كثير الشاعر

(٢) نوار ، هي امرأة الفرزدق التي كان ينتهب بها

للقضاء المحتوم . له جبهة كأنها من ورق البرديّ العتيق . تنلو فيها مادونه
الدهر من آيات الشدة والضيق . نخرج الباشا في الحال من حال المتحير
المتردد . الى حال الوائق المتأكد . فننادى صاحب الدكان عن بُعد . نداء
السيد للعبد . فانتفض الرجل انتفاضاً عجيباً ، وقصده ملبياً ومُجيباً . فاشككت
من هيئة النداء وأدب التلبية . إلا أن ملكاً ينادى أحد الحاشية . ووقف
الرجل أمامنا وقفة الممثل الخاضع . والمطيع الخاشع . فقال له الباشا بعد أن
حدّد فيه نظره . واستجمع فكره :

(الباشا) — ألسنت أنت أحمد أغا الرّكّبيّدار الممدود من أهل
حاشيتي ، ألا تعرفني من أنا

(صاحب الخانوت) — لولا أن الموت حجاب كثيف وحجاز منيع
بين ظهر الأرض وبطنها لقلت إنك سيدى وأميرى ، ويشهد الله اننى
كلما أمعنتُ في وجهك وسمعت لصوتك كاد يطير عقلى ويندهش لى
لامتحكم الشّبّه بينك وبين سيدى المرحوم

(الباشا) — انى أنا ميدك وهذه هى العلامة التى تعلمها فى جسمى
من أثر اللعب بالجريد على مشهد منك فى يوم من أيام السباق والرهان
(وكشف الباشا عن ساقه فأراه العلامة ، فوقع الرجل مُنكبّاً على
الأرض من شدة الدهشة يُقبّل قدم الباشا ويُغسلها بمنحدر الدموع ويقول
فى بكائه وشقيقه) :

(صاحب الخانوت) — كيف بالحياة بعد المات ، لحقّ أنت احدى

المعجزات . وليس ما أراهُ بغريب فقد شاهدت في هذا العمر الطويل ما لا تحيط بوصفه الأقلام ولا تتسع له بطون الدفاتر من عجائب الانتقال وغرائب الانقلاب ، فلا يبعد بعد ذلك ان تشرق الشمس من مغربها وتُخرج الارضُ أمواتها من مقابرها

قال عيسى بن هشام — فقلت للرجل لا تكثر من الدهشة والحيرة ولا تغرب في الاستغراب والتعجب :

على أنها الأيامُ قد صرْنَ كلها عجائبَ حتى ليس فيها عجائبُ واعلم أن القدرة لا تعجز عن شيء في الوجود ولا تحيط بها العقول ، ثم قصصت عليه قصة الباشا منذ البداية ، فصاح الرجل يبكي ويتضرع ويقول ليت أُمي لم تلِدني وليت القدرة التي بعثت الأمير من بعد موته نُشرت معه زمنه وأعادت عصره ، وإلا فكيف له بالعيش في هذا الزمن ، وما أولاهُ بالعودة الى أدراج الكفن .

ثم التفت الى الباشا وشرع يقص عليه ما مرَّ به من الحوادث والكوارث وما جرى لبيت الباشا ولأهل طبقته من النوازل والخطوب :

(صاحب الحانوت) - ولم يبقَ لك أيها المولى من أثرٍ يُذكر في ثروتك ومتاعك ، وأموالك وضياعك ، وقد عشتُ دهرًا وأنا متمتع بربع ما وقفتهُ أيها الأمير على حاشيتك وأتباعك وعلى هذا المسجد والسبيل والكتاب لتخليد ذكرك وإحياء اسمك ، فما لبث الوقف أن تهدمَ وتخرَّب بطول الترك والإهمال فوقعنا كلُّنا في الفاقة والاحتياج

واتقلب الكتاب مخزناً والسبيلُ خماراً والمسجدُ مصبغةً كما تشاهد وترى ، وأصبحت أنا يطاراً بعد أن كنت « ركبداراً » وأخذتُ هذه الخانوت من الوقف لممارسة صناعتي فيها والتعيش منها ، وسبحان مقلب الأحوال ، ومبدل الأشكال

(الباشا) - ألم يبق من ذريتي أحد يباشر هذا الوقف بنظره (البيطار) - آخر العهد عندي كان بواحدٍ منهم ذهبْتُ إليه لأجل هذه الخانوت وأعلمتهُ بمكاني من أهل الحاشية فاتهرنى وطردنى ، وأبعدنى وزجرنى ، ولكن الحاجة دفعتنى إلى الإلحاح فترددت عليه مراراً فتخلص من ثقل إلحاحى بإحالتى على رجل أفرنجى عندهُ يدبر له مابقى لديه من ثروة نصبتُ عينيها ، ونزحتُ بثرها ، فأحالتى الأفرنجى على صاحب الخمار لأنهُ أصبح صاحب الأمر فى أرض الوقف بوضع اليد عليها وليس يحسراً أحد أن يعمل فيها شيئاً بغير إرادته خوفاً من الخصومة فى المحاكم ، فقصدت الخمار وافقت معه على أجرة معينة ، وأقمت فى هذه الخانوت أصرع الدهر وبصرعنى ، وأطلب القوت ويعوزنى ، وأتعجل الأجل ويمهلنى وتعالى الله المتفرد بعزته ، المبدع فى حكمته

(الباشا) - وأين هذا الولد العاق المخالف لإرادتى ، وهو يعلم أن

شرط الواقف كنص الشارع

(البيطار) - هو مقيم الآن فى « الاوتيل »

(الباشا) - وما الأوتيل

(البيطار) - « اللوكاندة »

(الباشا) - وما « اللوكاندة »

(عيسى بن هشام) - « الأوتيل » هو بيت معروف بمدونه

لتزول مَنْ لا بيت له من الغرباء على أجر معين ، وهو في المعنى كالتخان الذي تعرفونه في زمانكم

(الباشا) - هل وصل التدن بهذا الخائن إلى سُكنى الخان، وسبحان

مصرف الأحوال ومغير الأزمان . وكيف يطيب للمسكين عيش على هذه الحال . بعد عز النعمة ووفرة المال . أفكان رجوعى الى الحياة على ما لا أرغبه ولا أرضاه . تعذيباً لى على ما فرطت فى جنب الله . أو لم يكن عنده سبحانه فى الآخرة من عذاب النار . ما يغنى عن التعذيب بالعار . فى هذه الدار . ربّ إن الجحيم لأهونُ علىّ فى العذاب والنكال . مما ألقىه من الرزية فى المال والعيال :

فليت وليداً مات ساعة وضعه ولم يرتضع من أمّه النفساء

(عيسى بن هشام) - ليست السكنى فى « الأوتيل » اليوم عن ذل

وفقر . بل هى عن عز ويسر . فان النفقة فيه عن بضعة أيام تكفى لنفقة شهر . على أكبر قصر . بجواريه وخدمه . وأتباعه وحشمه . وقد دعا أولادكم الى ذلك ولوعهم بإحكام التقليد للأجانب وإتقان الاقتداء بهم ، والسعيد المنعم من أولاد الأمراء اليوم من يبيع عقاره ويرهن ضياعه لتيسر له الإقامة فى هذا الخان ، ومنهم من يتعذر عليه مفارقة أهله

فِيؤْتِي لَهُ بِالطَّعَامِ مِنْ « الْأُوتِيلِ » إِلَى الْبَيْتِ ، وَعِنْدَهُ الطَّبَاخُ فِي أَسْفَلِهِ
وَالْجَوَارِي الطَّاهِيَاتُ فِي أَعْلَاهُ

(الباشا للبيطار) - أَرْجُوكَ أَنْ تَصِفَ لِصَاحِبِي مَكَانَ « الْأُوتِيلِ »

الَّذِي يَسْكُنُهُ ذَلِكَ الْغُلَامُ فَإِنَّ بِي حَاجَةً إِلَى لِقَائِهِ

(البيطار) - كَيْفَ تَخَاطِبُنِي أَيُّهَا الْأَمِيرُ بِلَفْظِ الرَّجَاءِ وَأَنَا أَنْتَظِرُ

فِي خِدْمَتِكَ أَنْ تَأْمُرَنِي بِمَا تَشَاءُ وَهَلْ تَظُنُّ أَنَّي أَفَارِقُ رُكَّابَكَ أَوْ أَزِيلُ

مَعِيَتِكَ مَهْمَا تَقْلِبْتَ الْأَحْوَالَ وَتَبَدَّلْتَ الْأَزْمَانَ ، فَهَلْ مِنْكَ الْأَمْرُ وَالْإِشَارَةُ

وَعَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ

ابناء الكبراء

قال عيسى بن هشام - ودعاني الباشا للسير معه . وهو يكفكف
أدمعه . وتبعنا البيطار من خلفنا بخطاه الثقيلة . وعصاه الصقيلة . فقد
صقلها طول التوكأ والاستعمال . وتَمَزَّى بها في السير والانتقال . عن
ظهور الخيل ومتون البغال . إلى أن وقفنا عند أحد القصور الكبيرة .
من الفنادق الشهيرة . فهاهنا الباشا ما رآه من ضخامة البناء . وغمامة المنظر
والرؤاء . وما لقيه من أدب الخدم والأعوان . ورشاقة الوُصفاء والعلمان .
فتخيل أننا أخطأنا الابواب والمداخل . فدخلنا بيتاً من بيوت الوكلاء
أو القناصل . وتقدمتُ للسؤال والاستخبار . وقد خَافَنا البيطار في
الانتظار . فدلنا أحد الخدم على رقم المكان الذي يسكنه الأمير . بعد
طول التردد والتفكير . فما وصلناه حتى دَفَعَ الباشا بيديه دَفَتِي الباب .
لم يلتفت لطلب إذن ولا لرجع جواب . فوجدنا أمامنا جماعة من أولاد
الأمراء . وأعقاب الكبراء . مختلفين في الجلوس . حاسرين عن
الرؤوس . ففريق منهم عاكفون على لعب القمار . وفريق ينظرون
في صور خيل المضمار . ومنهم جماعة قد استداروا بامرأة نَصَفَ
لا عجوز شوهاء ^(١) . ولا فتاة حسناء . تجتلب الحسن بإفراط التناق
والتفنن . في وجوه التصنع والتزين . فيكاد يضيء وجهها بسنن العقود
والقلائد . ويتلألأ جبينها بلألأ الجواهر والفرائد . وفي وسط

(١) النصف ، المرأة الوسط بين الحديثة والمسننة

المكان مائدة عليها صنوف الراح . فى الأباريق والأقداح . وبجانبيها
مِنْضَدَةٌ ^(١) . عليها آنية مِنْضَدَةٌ . وفوقها الدواة والقرطاس . وبراءة
مرصعة بالماس . وكتبٌ أعجمية موشاة بالذهب . لأدرى إن كانت
فى اللهوأم فى الأدب . وعلى الأرض أوراقُ أحكامٍ منشورة . وجرائدُ
تحت الأقدام منشورة . لم يفضض عنها «ظرف» . ولم يُقرأ منها حرف .
وسمناهم يتراطنون جميعاً بلغات أجنبية . دون اللغة التركية أو العربية .
الآ ما كان من أسماء الخيول العربية . بعد أن يبدلوا القاف . بالكاف .
وينطقوا بالحاء . كالهاء . ولما رأونا ظهرَ منهم العبوسُ والقطوب . وبدا
عليهم اقتباضُ الصدور والقلوب . وانبرى من جانب المرأة شاب فأسرع
نحو الباب . مخاطبنا بعبارة فرنسية . ولثقة باریسية :

(الشاب) — كيف ساغ لكما الدخول بغير إذن

(عيسى بن هشام) — دعا الى ذلك شوقُ الوالد الى رؤية ذريته

(الشاب) — لست أفهم لك كلاماً فصَّرَحَ لى وبَيَّنَّ

(عيسى بن هشام) — فلان يسأل عن فلان

(الشاب) — إني أنا فلان ولكن من فلان الذى يسأل عنى

(عيسى بن هشام) — هو جدك الأكبر أحياء الله بعد مماته

وبمته من رقادته وكان من أمره انى كنت أزور المقابر ذات يوم من
الأيام

(الشاب) (مقاطعاً مستهزئاً) — اذهب عنى فليست أسمع لهذا الكذب

(١) المنضدة ، شئ له أربع قوائم يوضع فوقه متاع البيت

والخرف وليس لي اليوم من جدّ ولا والدٍ ولا أنا ممن يصدق بحديث
البعث في الآخرة فكيف يرجوع الموتى الى الدنيا . تعالوا أيها الاخوان
فاعجبوا معي واضحكوا مما أسمعُ من هذا الرجل الذي يخاطبني وانظروا
الى هذا « الباشبوزق » الغليظ الذي يجانبه فهو يدّعي انه من آبائي
وأجدادي بعثه الله ليطلبني فيما أظن بما ورثته من الأموال وينازعني
في نظارة الأوقاف . فهل سمعتم بأعجب مما أصبحنا فيه اليوم لم يكتفِ
الدهرُ بتكدير عيشنا وتكبير حياتنا بمطالبة أرباب الديون حتى بعث
الأموات من قبورهم ليطالبونا بموارثهم وأموالهم ، ألا ترونها أيها
الخللان انها أبدع نكتة في أواخر القرن

قال عيسى بن هشام - فاستغرق الجميع عند ذلك في الضحك
وامتلقوا من القهقهة وكما سألتني الباشا عن مكان حفيده واستفهم مني عما
يجري معي من الكلام استمهلته لتمام الحديث حتى لا يقف على شيء مما
يقال ولا يحس بوقع تلك السهام والنبال . ولما انتهى الشبان من ضحكهم
نادوا بالخادم ليأمره بطردنا وإخراجنا . وحانت في هذه الاثناء إلتفاتة
من الحفيص بين دورانه وحركاته فلمح أحد قرنائه واخوانه قد انزوى
بتلك الخلية . التي هي عندهم كالخليلة . يلاعبها وتلاعبه . وينازلها وتداعبه .
فانقضّ عليهما كالصقر الأجدر فاستقرّ بينهما الجدل واشتد الخصام
والتفّ حولهم الجمع ، وسمعت الحفيد يعتب ، والصاحب يعتذر ، والمرأة
تبكت وتوثر تب وتقول لعاشقها : « ليس لك مثل هذه الجرأة في

العتاب والملام ، ولا يأتى ما نأثيه من الحدة والتهور فى الغيرة إلا مَنْ كان قائماً بحاجتى محبباً لرغبتي ، وقد طلبت منك بالأمس أن تشتري لى ذلك العقد الذى حضر لتاجر الحلى من أوروبا فى البريد الأخير فسوّفت وماطلت بعد ان أجبته ووعدت ، واعتذرت بالإعسار والضيق ، ثم بلغنى اليوم انك اشتريت فرساً جواداً بمقدار عظيم من المال ، فكيف تقصّر فى حاجتى مثل هذا التقصير وتبغى منى الاقتصار عليك والاختصاص بك دون بقية من يذل ماله وروحه فى سبيل مرضاتى من أصحابك وإخوانك »

ثم سمعتُ الحفيد يجاوبها والعرق يتساقط من جبينه والوجد يقطع أنفاسه : « تالله ما اشتريت شيئاً ولكن بعتُ أشياء لأشتري لك العقد بثمنها ، ولا يفرّئك ما يقال لك عن ثروة هذا الصاحب الدنى الخائن وعن قلة أموال ورهن أطياني فانت تعامين بمقدار الأموال التى ستأتينى من اكتساب القضايا المعلقة لى فى المحاكم كما ينبئك به المحامى فى كل حين »

وما سمع ذلك الصاحبُ سبّةً بهذين النعتين حتى اضطرم واضطرب . وثارت به سورة الغضب . فتقدم فلعنه وشتمه . ودفعه ولطمه . فوعده الملعون الملطوم . بالمبارزة فى يوم معلوم

ثم علا هناك صياحٌ أيضاً فى مجلس القمار بين صديق وصديق . أحدهما فى يسر والآخر فى ضيق . وأخيراً ينفى الاقتراض من أخيه :

ومفلس يطالب مُيسراً بدَيْن لا يؤدّيه . وانكشف الجدال كذلك
عن الضرب واللكم . وانهى النزاع بالصفع واللطم

واشتبك خصام آخر فى ركن المكان . بين أهل السبق والرهان .
هذا يقول فرسى سابق . وفرسك لاحق . وذلك يقول « ركبدارى »
حاذق وابن حاذق . وجوادك قصير وجوادى شاهق . وأنت الآن مقرّر
معترف . بأن الوزن بينهما مختلف . واشتدت المنافسة والمنابرة . وجرى
بينهم حديث للمبارزة . كل هذا والمرأة تتسحب من حلقة الى أخرى .
تسحب الحية والأفعى . فتطفىء نار الجدال مرة على حسب بغيتها .
وتشعلها طوراً تلجث نيتها

ورأيت الأجدد بنا أن تتركهم على هذه الحال ، فغذبت بضبع
الباشا وخرجنا من ذلك المكان ، وأسرعت به منحدرّاً الى الطريق .
فسألنى عن تفصيل ما كان وجرى ، فترجعت له شرح الحال والمآل ،
فاحتدم غيظه واضطرم حنقه فلم يطفئه إلا ما قلته له فى آخر الحديث من
عزم القوم على المبارزة فيما بينهم بالسلاح . فقال وهو يتابع زفراته : لعل
القدرة تكشف عنى هذا المصائب . وتريحنى المبارزة من الأبناء والأعقاب ،
فقلت فى نفسى إن أبناءكم لم يرثوا منكم اخلاقكم ، كما ورثوا عنكم أموالكم
وليس عندهم من الشهامة ما يدفعون به عن الأعراض والأحساب .
ولا من الشجاعة ما يؤنسهم بالطعان وبالضراب . ولا يابھون لكشف
العار . وأخذ الثار . والمبارزة عندهم كلمة تقال بالليل وتُحجى بالنهار

وتَذَكَّرَ الباشا في طريقه شدة حاجته الى وفاء ما عليه من الاجر
للحامي فالتفت الى البيطار يسأله :

(الباشا) - هل بقي أحد ممن كانوا حولي من الخُلطاء والأقرانِ
أهل النجدة والفتوة وأصحاب الهمة والمروءة

(البيطار) - لم يبقَ منهم إلا فلان وفلان وفلان

(الباشا) - إبدأ بالذهاب معنا الى بيت الأول منهم

قال عيسى بن هشام - فسرنا الى حيث أشار والهموم تُفرسنا .
والنعموم تُمخرسنا . والا كدارُ لا تفارقنا . والاقدار لا توافقنا

كبراء العصر الماضي

قال عيسى بن هشام - ومضينا نقصد أحد الثلاثة من قرناء الباشا ورفقائه . وبقية أخلائه وأصدقائه . فاتتهى بنا طول المسير . الى بيت ذلك الأمير . وكأنه ميدان فى اتساعه . وحصن فى ارتفاعه . ووقف بنا البيطار . عند باب الدار . فسلم على الخدم وحيّاهم . ثم سألهم عن سيدهم ومولاهم . فأجابوه بالتجهم والعبوس . أنه فى قاعة الجلوس . نخطونا فى بحبوحة الميدان . فرأينا فى وسطه شجرة كثيفة الأغصان . حتى قوامها تقادم الأزمان . كأنها التكلّى حلت شعورها فى مأتم الأحزان . وفى ظلها فرس يحنّ من النشاط والمرّاح . ويحانيه كبش ضأن للنطاح . وحوّلها ديكٌ نزال وضراب . ظلنا يديها مسنونة كالخراب :

فُخْمَرٌ وَسُودٌ حَالِكَاتُ كَأَنَّهَا

سَوَامُ بَنِي السَّيْدِ ازدهتهُ القوَامُ^(١)

يُرَانُ لَدَيْهَا الطَّعْنُ فى حومةِ الوَغَى

إِذَا زُيِّنَتْ لِلْعَاجِزِينَ الهِزَامُ

وفيهما إذا ما ضيَّعَ النِّكْسُ غَيْرُهُ

نُصَانُ بِهَا الْمُسْتَصْحَبَاتُ الْكِرَامُ^(٢)

ثم وصلنا إلى قاعة مشيدة البنيان . فسيحة الأركان . فى أحد

(١) السوام ، الابل الراعية ، وبنو السيد ، قبيلة تكثر فيها الابل السود والحمر

(٢) النكس ، الرجل الضعيف الدنى

جوانبها سلسبيل . يسيل مأوه من أفواه التماثيل . والارض مفروشة
بالبسط الفارسية . وبجلود الضواري الوحشية . والحيطان مستورة
بأنواع السلاح . من خناجر وسيوف ورماح . وفوقها عدة صفوف .
من الرفوف . تحمل الطرائف الكريمة . والأواني الصينية القديمة .
مع عيدان للتدخين : من أغصان الياسمين : نخلنا نعلنا . وتقدمنا أمامنا .
فوجدنا الأمير ومن معه جلوساً متربعين . مُصْصِتين مستمعين . يُضِيء
في وجوههم نور الشيب والوقار . وتزدهيهم هيئة العزة والاستكبار .
فاتقطع الحديث عند دخولنا . برد سلامنا . ولكن ما لبث أن اتصل
ما انقطع من الكلام . بعد رجوع التحية ورد السلام

ولما استقربنا المكان همست في أذن البيطار أن ينبثنى بأسماء
الحاضرين ، فقال لي : هذا المتصدر فيهم هو الأمير فلان رب الدار وهو
رفيق مولانا الباشا في البيت الكريم الخديوي ، وقد اعتزل الأعمال
واعتكف في آخر عمره يتعبد وتهجد ويسلك طريق النسك والزهد
ويتقرب الى الله بدوام القيام والقعود ، وطول القنوت والسجود ، وله
أموال عريضة ينفق منها فيما ينفق على قعدة المشايخ وقوائم أهل
الطريقة وطوائف الآفاق من سكان الأماكن المقدسة رجاء أن يغفر
الله له ما تقدم من الذنوب وأن يلحقه بالصالحين من أوليائه . وأما الذي
عن يمينه فهو فلان باشا كان عضواً من الأعضاء الكرام ، في « مجلس
الأحكام » . والذي عن جانبه عالم من جلة العلماء الأعلام والمشايخ العظام .

وأما الجالس عن شماله فهو فلان الفريق الجهادي المشهور في الوقائع
والفتوح. والذي بعده هو فلان من كبار المديرين السابقين. وأما الذي
تراه في أخريات المجلس فهو فلان التاجر من تجار خان الخليلي
قال عيسى بن هشام — ولما وقفت من البيطار على معرفة
ماعتنيهِ نظرت إلى الباشا فأدركت أنه لا ينبغي المبادرة إلى كشف أمره
قبل انتهاء الحاضرين من حديثهم، فانصتُ مع المنصتين فاذا الفريق
الجهادي يقول في اتصال حكايته وروايته :

(الفريق) — وكان « جتتمكان » محمد علي باشا الكبير معجزة
دهره وآية عصره في الذّهاء وعلو الهمة وبُعْدِ النظر وإحكام عقدة
التدبير واجتذاب القلوب وتريّة النفوس على الوفاء والأمانة لخدمته ،
فكان له من الكفاة مَنْ خدموه بالصدق وافتدوه بالأرواح ، وأذكرُ
منهم المرحوم « محمد بك لاظ أوغلي » فهو الذي دبر له قطع دابر المالك في
ساعة واحدة . وقد حكى لي المرحوم أخي وكان حاضراً في تلك الواقعة
المائلة أن المالك لما رأوا أن المكيدة في استئصالهم قد استحكمت عقدها
واشتد رباطها وأنهم أحيط بهم من كل مكان تقدموا للبحث عن محمد
علي في كل حجرة وزاوية من زوايا القصر للفتك به والتخلص منه فلم
يقفوا له على أثر وأعيام البحث والتنقيب لأن « لاظ أوغلي » أخفاه
عنهم شديداً الإخفاء وقام له في ذلك الوقت — إن جاز التشبيه —
والتمثيل — قيام علي بن أبي طالب مقام الرسول عليه السلام ليلة الهجرة.

(عضو الأحكام) — نعم وكان المرحوم محمد على فوق ما يقال وما يُصوّر في دقة سياسته لتربية الرجال في خدمته فكانوا كلهم طرازاً واحداً في حسن الولاء وجميل الإخلاص وربما كان يجذب الرجل منهم بكلمة واحدة تطبعه له على الصدق في خدمته طول حياته . ومن ذلك ما حكاه لى صديقنا المرحوم راغب باشا قال : « كنت أقرأ بين يدي المغفور له أوراقاً وأنا يومئذ كاتبٌ من كتبة معيته فدخل علينا سامى باشا في أثناء القراءة ووقف معنا ، فسأله محمد على عما يريد ، فقلتم تلتمس المتطلع لخروجى حتى ينفرد به فيعرض عليه ما عنده ، فقال له : قل ما عندك في الحال فاني لا أخفى عن « راغب » سراً من أسرارى ، ولا فرق عندي في المنزلة بين نسلى وذريتي وبين كتبة معيتى »

فهل تعلمون يا قوم انه يقوم مقام هذه الكلمة في جلب النفوس وجذب القلوب الى النصيح والولاء في الخدمة إنعامٌ بضيايح أو إحسانٌ بأموال أو تقليدٌ لرتبة أو نشان . وانظروا الى ذلك الرجل العظيم كيف أتقن صناعة الألفة في تربية رجاله . وما للملوك صناعة غيرها فاذا أتقنها أحدهم فاز بالتسلط على النفوس واحتكر مودات القلوب فيصفو له الملك ويطيب له الحكم

(الشيخ العالم) — أصبتَ وصدقتَ وقد اطلعتُ في التاريخ القديم على واحدة في هذا الباب للنصور العباسى تدل على براعته ودقته في صناعة الملك وهى أنه كان يأكل ذات يوم ويحانه ابنه مع شيخ من

قواد جيشه ذهبَ أسنانه لكبر سنه فكان يسقط من فيه بعض الفُتات وهو يأكل والأُميران يتغامزان عليه ، فالتفت اليهما الخليفة فرأى ما بينهما ، فدّ يده فجَمَعَ ما سَقَطَ من ذلك الفُتات فأكله ، فقام القائد يقول له : لم يبق إلا ديني أقدمه لك يا أمير المؤمنين فأمرني بما تريد »

(المدير السابق) — وأنا أقص عليكم واحدة أخرى للمعفور له

محمد علي تشهد بلطف سياسته وحسن عطفه على الأهالي وشفقته على الرعية وهى أن أحد المديرين أراد أن يفوق اخوانه فى الخدمة لينال مكانة عالية من أميره فجده فى تحصيل الأموال وتعالى فى طريقته فأخذ ما عند الأهالي من المال جملة واحدة ، فضجّ ضجيجهم واشتدّ صياحهم حتى بلغ مسامع وليّ النعم ، فأمر بإحضار المدير فلما وقف فى حضرته قال له : اذنُ منى . فلما دنا منه أخذ بعنقه فى قبضة يده وصار ينتزع من رأسه شعرة ومن قفاه شعرة ومن عارضه شعرة ومن حاجبه شعرة حتى جمع فى قبضته خُصلة من الشعر والمدير لا يجد لذلك من الألم الا أثراً خفيفاً ، ثم ان الأمير انتقل الى لحية الرجل فانتزع منها خُصلة دفعة واحدة من جهة واحدة بمقدار تلك الخُصلة المتفرقة فنبعّ من تحتها الدمُ وصرخ المدير من شدة الألم ، فقال له محمد علي « هكذا تختلف المعاملة مع الرعية فى جباية الأموال ، اذا أنت أخذت من ههنا درهماً ومن ههنا درهماً آناً بعد آنٍ خفّ الوقع على الاهالى ولم يدركوا الألم وحصلت منهم على مثل المقدار الذى تأخذه جملة واحدة فى وقت واحد مع شدة الألم

كما رأيت الفرق بين انتزاع الشعرات متفرقات وبين انتزاعها مجتمعات
والكمية واحدة والألم بينهما مختلف ، فإياك أن تعامل الناس بعد اليوم
بما يلجئهم الى الشكوى ويبعثهم الى الاستغاثة
(الشيخ العالم) منشدًا - :

. فلا تُسكثوا ذكرَ الزمان الذى مَضَى

فذلك عصرٌ قد تَقَضَّى وذا عَصْرُ

ورحم الله الماضى وأعاذنا من الحاضر وأجارنا من المستقبل وانى
لأراكم أيها الأمراء مهما أسهبت في محاسن المنفور له وأفضاله . وأظنتم
في حميد أخلاقه وخصاله . فليست بيالى حق الشكر . ولا موفين بحميل
الذكر . ويكفيه من الحسنات التى يُعْنَى ذكرُها عن الإجمال والتفصيل .
وتحکم له بالسبق في باب التميز والتفضيل . أنه كان يقرب العلماء
ويعظمهم . ويدنيه منهُ ويكرمهم . ثم يَقْضِي حاجاتهم . ويتبرك
بدعواتهم . ولقد رأيت له رؤيا صالحة تحکم له في أخراه . بأن له جانبًا
مع الله . وأنه نال جزاء الاحسان . بسكنى فراديس الجنان

قال عيسى بن هشام - وأقبل في أثناء هذا الحديث رجل من أهل
مكة المعروفين بالطوفين أو الزورين فتقدم الى رب الدار فقبل يده والى
الشيخ العالم فلم ذيله ثم وضع عن يده صرة فأخرج منها قطعة من الحرير
الأخضر وجزءًا من التمر ومشطًا ومكحلة وسُبحة وشيثًا من الحناء ، ثم
قرأ الفاتحة وخاطبَ الأمير بقوله :

(المكي) - قد جئتكم أيها الأمير بالقطعة التي أمرتني بإحضارها
من الكسوة الشريفة وأتيتكم بجزء من تمر النخلة المباركة التي غرسها
الزهراء البتول بيدها الكريمة

(الشيخ العالم) - بعد أن ذاق التمر واستطابه - إليه إليه صدقت
أيها الرجل ومن كان صائماً فأفطر على تمر المدينة كتبت له الجنة

قال عيسى بن هشام - فرأيت الباشا يتأفف بجانبه ويذبح .
ويتململ ويتضجر . ويهم بأن يتكلم ، فالتفت صاحب الدار عند ذلك
إلى البيطار يسأله عن شأن هذا المتأفف المتضجر . فتقدمت له بشرح
القصة على الحاضرين وذكرت خروج الباشا من القبر ورجوعه إلى الدنيا
فمنهم من صدق ومنهم من كذب فتنحى الشيخ العالم وأشار فيهم
بإشارة الاستماع ثم اندفع يقول :

(الشيخ العالم) - اعلموا أنه ليس للمعجزات حد ولا للخوارق
حصر ، ولا تنكروا على الرجل حياته بعد موته . فليس من حسن
اليقين . أن ننكر بعث الدين . والرجوع إلى الدنيا بعد الفناء . أمر
معلوم بلا امتراء . تخص القدرة به من نشاء . ببركة الأصفياء والأولياء .
وأقرب ما أستشهد لكم به على ذلك من كتاب « مناقب تاج الأولياء
وبرهان الأصفياء للقطب الرباني والغوث الصمداني السيد عبد القادر
الكيلاني » ما أرويه لكم بحرفه ونصه :

« ذكر في « رسالة حقيقة الحقائق » أن امرأة غرق ولدها في

اليَمَّ وجاءت الى النوث الأعظم وقالت : ان ولدى غرق في البحر واعتقادي جازمٌ بأنك تقدر على رد ولدى الى حيا . فقال لها رضى الله عنه : ارجعى الى بيتك تجدى ولدك فى بيتك ، فراحت ولم تجده . فجاءت ثانية وتضرعت فقال لها النوث أيضاً ، ارجعى الى بيتك تجدى ولدك فى بيتك ، فراحت ولم تجده فجاءت ثالثة بالبكاء والتضرع ، فراقب النوثُ وانحنى برأسه ثم رفع رأسه فقال لها : ارجعى الى بيتك تجدى ولدك فى البيت . فراحت ووجدت ولدها فى البيت ، فقال النوث الأعظم بطريق المحبوبة : ياربَ لِمَ أخجلتنى مرتين عند تلك المرأة . فجاءه الخطاب من الملك الوهاب : ان كلامك حين قلتَ لها كان صدقاً ، فى المرة الأولى جمعت الملائكة أجزاء المتفرقة وفى المرة الثانية أحييته وفى الثالثة أخرجته من اليَمَّ وأوصلته إلى دارها ، فقال النوث : يارب خلقت الاكوان بأمر « كُنْ » ولم يسبق زمان ولا آن وفى وقت البعث تجمع أجزاءها المتفرقة التى لانهاية لها وتحشرهم فى طرفة عين ، وجمعُ أجزاء جسد واحد وإحيائه وبعثه الى دارها شئ جزئى فما الحكمة فى هذا التأخير ، فجاء الخطاب من الرب القدير . اطلب ما تطلب فقد أعطيناك عوضاً من انكسار قلبك ، فتضرع النوث ووضع وجهه على التراب وقال : يارب أنا مخلوق فبقدر خلوقي يلىق بى الطلب وأنت خالق فبقدر عظمتك وخالقيتك يلىق بك العطاء ، فجاءه الخطاب . كل من يراك يوم الجمعة يكون ولياً مقرباً ، وإذا نظرت الى التراب يكون ذهباً . فقال . يارب

ليس لي نفع من هذين أعطى شيئاً أعظم منهما ويبقى بعدى لينفع في الدارين . فجاء الخطاب من الله العزيز القدير : جعلتُ أسماءك مثل اسمائى فى الثواب والتأثير ومن قرأ إسماً من أسمائك فهو كمن قرأ اسمائى من اسمائى »

وروى فيه أيضاً عن السيد الشيخ الكبير أبى العباس أحمد الرفاعى رضى الله عنه قال : «توفى أحد خدام الغوث الأعظم وجمات زوجته الى الغوث فتضرعت والتجأت وطلبت حياة زوجها فتوجه الغوث الى المراقبة فرأى فى عالم الباطن ان ملك الموت عليه السلام يصعد الى السماء ومعه الأرواح المقبوضة فى ذلك اليوم ، فقال ياملك الموت قف وأعطى روح خادمى (وسماه باسمه) فقال ملك الموت : انى أقبض الأرواح بأمرى آلهى وأؤديها الى باب عظمته كيف يمكنى ان أعطيك روح الذى قبضته بأمر ربى ، فكرر الغوث عليه إعطاء روح خادمه اليه فامتنع من إعطائه وفى يده ظرف معنوى كهيئة الزنبيل فيه الارواح المقبوضة فى ذلك اليوم . فبقوة المحبوبة جرّ الزنبيل وأخذه من يده ففرقت الأرواح ورجعت الى أبدانها ، فنادى ملك الموت عليه السلام ربه وقال : يارب أنت أعلم بما جرى بينى وبين محبوبك ووليّك عبد القادر فبقوة السلطنة والصولة أخذ منى ما قبضته من الأرواح فى هذا اليوم . فخاطبه الحق جل جلاله : ياملك الموت إن الغوث الأعظم محبوبى ومطلوبى لم لا أعطيتُه روح خادمه وقد راحت الأرواح الكثيرة من قبضتك بسبب روح واحد ، فتندم هذا الوقت »

قال عيسى بن هشام - وما انتهى الشيخ من روايته حتى رأيت
الباشا قد انتفض قائماً يقول لهم والغضبُ بادٍ على وجهه والغيظُ يتقد
في صدره :

(الباشا) - اعلّموا أيها الاخوان أن مغفرة الرحمن وسكنى الجنان
لا تُنال بكثرة الصوم وأكل التمر أو التبرك بالآثار والتحصن بالأوراد
وما تُكتسب الدرجة الرفيعة عند الله إلا بالعدل والاحسان وفعل الخير
 واجتناب الشر والرحمة بالضعفاء والمساكين من عباد الله . وقد غرني
 في دنياي ما يفرمكم الآن فكنت أسمع قبل مماتي من مثل هذا الشيخ العالم
 ما يهون على ارتكاب المخزيات وفضائح الشرور في معاملة الناس ارتكباناً
 على نهار أصومه . وليل أقومه . وحرز أحمله . وأثر أقبله . فمنت عن
 عمل الخير وغفلت عن بذل المعروف ، فلما توفاني القدير العليم وسكنت
 في حفرة القبر علمت ما لم أكن أعلم فلم يفنى ذلك وحده من الله شيئاً
 وما خفف على أهوال القبر وهوّن على سؤال الملك الاحسن واحدة
 كنت أتيها في إغاثة مظلوم استجارني فأجرتُه وهو في يد الجلاد بين
 السيف والنطع ^(١) . فعليكم بالعدل والاحسان وتقوى الله في عباده
 وإفشاء البر والمعروف في خلقه ، ولا تطيعوا النفس الأمارة بالسوء
 فتركبوا إلى الاغترار بالأمل . وتطلبوا المغفرة بلا عمل . بل استكثروا
 من الخير قبل حلول الأجل . وتذكروا قول الله الأجل : « ومن »

(١) النطع بالفتح والكسر . باط من الجلد يفرش تحت المحكوم عليه بقطع الرأس

يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ » واعتبروا بقول علي رضي الله عنه :
« كم من صائم ليس له من صيامه الا الجوع والظماء وكم من قائم ليس له
من قيامه الا السهر والعناء » . واسمعوا لقول حكيم الشعراء :

ما الخَيْرُ صَوْمٌ يَذُوبُ الصَّائِمُونَ لَهُ
ولا صلاةٌ ولا صَوْفٌ عَلَى الْجَسَدِ
وانما هو تركُ الشرِّ مُطَرَّحًا
ونَفْضُكَ الصَّدْرَ مِنْ غِلٍّ وَمِنْ حَسَدٍ

ولا يستقيم امر المسلم الا اذا جمع بين فرائض العبادات وحسن
المعاملات

(الشيخ العالم) - إني لَا إِخَالَكَ أَيُّهَا الرَّجُلُ شَيْطَانًا فِي زِيَّ انْسان
وزنديقًا يتستر بدعوى النشور من القبور . نَسَا لِهَذَا الزَّمَنُ مَا أَكْثَرَ
أَضَالِيلَهُ ، وَبُؤْسًا لَهُ مَا أَعْظَمَ أَبْاطِيلَهُ ، وَلَمْ يَبْقَ عَلَيْنَا مِنْ مُدْخَرَاتِ عَجَائِبِهِ إِلَّا
أَنْ يَخْرُجَ الْمَيِّتُ مِنْ قَبْرِهِ فَيُخْبِرُنَا بِمَا رَأَى وَبِمَا سَمِعَ

(صاحب الدار للبasha) - سألتك بالله أَنْ تُخْبِرُنِي بِأَيَّةِ لَفَةٍ كَانَ سُؤَالُ
الْمُلْكَيْنِ لَكَ ، أَلْعَرَبِيَّةُ أَمْ التُّرْكِيَّةُ أَمْ السَّرْيَانِيَّةُ فَإِنَّ هُنَاكَ اخْتِلَافًا وَأَقْوَالَ
بَيْنَ الْعُلَمَاءِ

(الشيخ العالم) - نَاشَدْتُكُمْ اللَّهَ أَنْ تَقْصُرُوا عَنْ هَذَا الرَّجُلِ وَلَا
تُخَاطِبُوهُ فَإِنَّهُ فِتْنَةٌ مِنْ قِتْنِ إِبْلِيسَ اللَّعِينِ وَلَنُعَوِّذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ
قال عيسى بن هشام - فلم يسع الباشا إلا الخروج من هذا المجلس

وهو يهدر وَيَغْلِي وَيَسْتَعِيد وَيَسْتَعْدِي ، فأنخرطُ وراءه وأنا أذكر قول عمر رضي الله عنه في مثل هذا الشيخ الغليظ البدن : « ان الله يكره الحَبْرَ السمين » وأردد قول أبي تراب كرم الله وجهه : « أشكو الى الله من معشر يعيشون جهالاً ويموتون ضاللاً لا ليس فيهم سلعة ابْنُ وَرَّ من كتاب الله اذا تُلِيَ حقُّ تلاوته ولا سلعة أنفقَ يِعاً وثمناً من الكتاب اذ حُرِّفَ عن مواضعه ، ولا عندهم أنكر من المعروف ولا أعرف من المنكر »

ولحق بنا البيطارُ في خروجنا ومعه التاجر الذي كان مقبياً في المجلس ينادياننا ، فوقفنا لهما فتقدم التاجر الى الباشا ومال على يده يقبلها ويقول له :

(التاجر) - أشهد الله أيها المولى أنني مصدق بأمرك وليس بعد العيان من برهان وما أخطيء نظري فيك فأنت سيدى الباشا بعينه وأنت صاحب اليد التي أتذكرها طول عمري . وما بي من نعمة فنك ، وما أصبحت فيه من ثروة فيمينك وفضلك ، ولست أنسى أن أصل شهرتي واتساع تجارتي هو أنك جلست في دكانى مرة عند ما عثرت بك رجلك وأنت تقصد زيارة الحسين فارفع بتلك الجلسة قدرى واشهر ذكرى وأقبل على الناس من دون التجار لتوهمهم في أن لى برحابك صلةً وبجانبك نسبةً فأصبحتُ والله الحمد فى غنى ومال كثير ، وقد بلغنى من أحمد أغا هذا ما أنت فيه من الحاجة الى الدراهم لأجرة المحامى التي

جاءت بك الى هذا المجلس ولسكنك أنفت من ذكرها عند ما غضبت
لله . وأنا أنضرع بخالق الخلق أن تتنازل فتقبل منى ما تسد به حاجتك
وتتخلص به من مطالبة المحامين

(وأخرج التاجر كيساً مملوياً فقدمه الى الباشا وهو يرتعد من خيفة
الرد ، فأخذ الباشا وقال له) :

(الباشا) - إني أشكرك جميل الشكر لحسن صنيعك وأسأل الله
لك حسن الجزاء فلم أكتب لك صكاً بالمال لأردّه اليك عند استرداد
أوقافى

(التاجر) - حاشا لله ان أكون من أهل هذا الزمن الذين أصبحوا
لا يثق بعضهم ببعض ، فلا يأمن الأخ أخاه ولا الوالد ولده ولا
الصاحب صاحبه ولا الجار جاره على درهم واحد الآ بعقود وصكوك ،
بل أنا لا أزال من أهل ذلك الزمن الذى لم يكن يتعامل التجار فيه بينهم
بغير الثقة والائتمان دون احتياج الى تحرير الأوراق وتسطير الصكوك .
وما يكون الاستيثاق الا عند توهم الخيانة والعياذ بالله

قال عيسى بن هشام - فكرر الباشا شكره للتاجر مضاعفاً وقال
لى : انصرف بنا الى المحامى نستنقذ رقابنا من أسره ثم نذهب الى المحكمة
الشرعية للمطالبة بالوقف . فقلت له لا بد لنا من محام شرعى يطالب لنا
بحقنا . فأنخرج من قبضة محام . الآ الى قبضة محام . ونأل الله السلامة
فى الختام

المحامى الشرعى

قال عيسى بن هشام - وأخذتُ طريقى . مع رفيقى . أنشدُ صاحباً
أسترشده . فى محام شرعى أقصده . وبيننا نحن نسير . ونسأل الله التيسير .
إذا بصاحب لى عرفته . فاستوقفته . قال ما خطبك ، قلت قضية . فى
المحكمة الشرعية . فاطرقَ الخبرُ سمعه . حتى أجرى دمه . وهولَ
الامرَ وهولت . وحوقلَ وحوقلت . ثم قال لقد وقعتُ قبلك فى هذا
البلاء . ولمّا تيمَّ لى النقاهاةُ من الداء . وأنا أنصح لك إن كنتَ مدّعياً
أن تترك دعواك . وتصبرَ على بلواك . أما إن كانت الدعوى عليك .
فليس الخيار اليك . ولا مردّ لحكم القضاء . بتدبير الآراء . فقلت
للضرورة أحكام . فأرشدنى لانتخاب محام . يكون مشهوداً بعدالته .
مشهوراً بطهارته . بعيداً عن خُلف الوعد . بريئاً من خُلق الوغد ^(١) .
لا يتفق مع الخصم . ولا يسرق من « الرسم » . قال اطلب من أنواع
المحال . أن يحمل الذرُّ الجبال . ولا تطلب فى محام اجتماع هذه الشروط .
فينتهى بك الأمر الى اليأس والقنوط . ولمحاولة الارتقاء . فوق متن
العناء ^(٢) . أيسرُ من ذلك مطلباً . وأوسع مذهباً . وأقسم لك بخالص
الود . أنى لا أثق منهم بأحد . وكيف تكلفنى أن أنتقى لك ذنباً من
الذئاب . وأحمل على كاهلى عبء اللوم والعتاب . فأعفى من هذا الاختيار
والانتقاء . عافاك الله من جميع الأسواء . ثم ما لبث أن خلفنى ومضى .

(١) الوغد ، الرذل الدنى (٢) العناء ، طائر مجهول الجسم لم يوجد

وتركني على مثل جهر الغصّي . فسرت كثيراً حزينا . أبغى سواه مرشداً
ومُعِيناً . ولما لم أجد من أصحابي مَنْ يتكفل على عهدي . باختيار محام
يُوثِقُ بدمته . قصدت أحد العلّامين عندي بكثرة الخصومات . وطول
المحاكمات . فكاشفته بطلبتنا . ليكشف من مصيبتنا . فقال اعلم ان
الحامين الشرعيين أجناس وصنوف . فمنهم المبصر ومنهم المكفوف .
وفيهـم - كتب الله لك السلامة - صاحب « الطربوش » وصاحب العمامة .
وأنا أدلك على أهونهم شراً . وأقلهم ضراً . وأخفهم رزيةً وبليّةً .
وأكثرهم علماً بالحيل الشرعية . فعليك بفلان وبيته معلوم . في منتهى
« حارة الروم » . فقصدنا البيت نشق طرُقاً مُعْجِبةً . ونحترق ثيابات
مزدوجة . الى أن انتهينا الى باب دار . كأنها مطلية بالقار ^(١) . تسوّرت
بأكوام من الاقدار . وتلفعت بتلالٍ من الأوضار . ورأينا عند مدخل
الباب . صبيّةً يلعبون بالتراب . ومن بينهم طفلة تجمّع على وجهها من
الذباب . مثل البرقع تنقبت به قبل أوان النقاب . ولما تخطينا غشيتنا
رائحةً المرحاض . فاستندنا هناك على هضبةٍ اتقاض . بجوانبها مِذوداتان .
يزاحما عليه إوزتان وبطتان . ثم اهتدينا الى حجرة في جهة اليمين . فرأينا
أمامها قرناً ينادى : « المجين » « والأجرة » . فسألناه عن رب الدار
فأشار الى الحجرة . فدخلنا فوجدنا فيها حصيراً تغطّى بالغبار والحصباء .
ومُتَكِّئاً تمرى من الفراش والغطاء . وفي زاوية من زوايا المكان .
سراجٌ لا ينفذ نوره من تكاثف الدخان . وفي أعلى رفوف الرواق .

أَحْمَالُ كُتُبٍ وَأُورَاقٍ . قَامَ لَهَا نَسِيجُ الْعُنَاكِبِ مَقَامَ الْوَقَايَةِ وَالتَّجْلِيدِ .
وَأَلْصَقَتَهَا الرُّطُوبَةُ خَفِظَتْهَا مِنْ التَّوْزِيعِ وَالتَّبْدِيدِ . وَفَوْقَ الْأَرْضِ
زَجَاجَاتُ مَطْرُوحَةٍ مِنَ الْمَدَادِ . وَفِي بَيَاضِ الْحَائِطِ تَسْوِيدٌ وَتَخْطِيطٌ مِنْ
لَعِبِ الْأَوْلَادِ . وَبَصُرْنَا بِرَجُلٍ :

تُعَيِّرُ خِثَاؤُهُ شَبَبَهُ فَمَلَّ غَيْرَ الظَّهْرِ لَمَّا انْحَنَى

وَوَجَدْنَاهُ جَالِسًا عَلَى سَجَادَةِ الصَّلَاةِ . وَعَنْ يَسَارِهِ امْرَأَةٌ كَأَنَّهَا
السَّعْلَاءُ ^(١) . فَسَمِعْنَاهُ يَقُولُ لَهَا فِي تَسْبِيحِهِ : « أَتَسْتَكْثِرِينَ - أَدْرَاكَ اللَّهُ
عَلَيْكَ خَيْرَهُ . وَأَبْدَلَكَ زَوْجًا غَيْرَهُ . مَا أَخَذْتَهُ مِنْكَ لِمَسْتَبَاطِ الْحِيلَةِ
فِي التَّفْرِيقِ . وَاسْتَخْرَاجِ الْحُكْمَ بِالتَّطْلِيقِ . فَأَبْعَدْتُ عَنْكَ زَوْجًا
تَكْرِهِيَنَّهُ . لِتَبْدُلِي مِنْهُ زَوْجًا تَحْبِيَنَّهُ » . ثُمَّ إِنَّهُ أَحْسَنَ بِدُخُولِنَا مِنْ
وَرَائِهِ . فَارْتَدَّ إِلَى اتِّصَالِ تَسْبِيحِهِ وَدَعَائِهِ . وَانْتَفَضَتِ الْمَرْأَةُ فَتَنَقَّبَتْ
بِخِمَارِهَا . وَتَلَفَعَتْ بِإِزَارِهَا . وَخَرَجَتْ وَتَرَكْتُنَا مَعَ رَجُلٍ يَخْدَعُ الْإِنَامَ
بِطُولِ صَلَوَاتِهِ . وَيَتْلُو سُورَةَ الْأَنْعَامِ فِي رُكْعَاتِهِ :

إِذَا رَامَ كَيْدًا بِالصَّلَاةِ مُقِيمُهَا فَتَارَكُهَا عَمْدًا إِلَى اللَّهِ أَقْرَبُ

وَجَلَسْنَا مَدَّةً نَنْتَظِرُ خُلَاصَةً مِنْ هَذَا الرِّيَاءِ . وَخُلَاصَ الْمَلَائِكِينَ
مِنْ صَحِيفَتِهِ السُّودَاءِ . وَخُلَاصَنَا مِنْ هَذَا الْكَرْبِ وَالْعَنَاءِ . وَكُنَّا نَشَاهدُ
مِنْهُ فِي خِلَالِ ذَلِكَ نَظَرَاتٍ مُخْتَلَسَاتٍ نَحْوَ الْبَابِ . كَأَنَّهُ هُوَ أَيْضًا فِي
اِنْتِظَارٍ وَارْتِقَابٍ . إِلَى أَنْ دَخَلَ عَلَيْنَا غَلَامٌ يُصَبِّحُ بِهِ : إِلَى مَتَى هَذِهِ الْعِبَادَةُ .
فَقَدْ بَلَّيْتَ السَّجَادَةَ . وَحَاجَاتُ النَّاسِ مَوْكُولَةٌ إِلَيْكَ . وَقَضَاءُ مَصَالِحِهِمْ

موقوف عليك . وهذا دولة « البرنس » ينتظر ك في القصر . منذ العصر .
دَعُ مَدِيرَ الْأَوْقَافِ . وَتَقِيبَ الْأَشْرَافِ » . فَلَمْ يَعْأِ الْمَصْلَى بِهَذَا الْكَلَامِ .
بَلْ جَهَرَ بِالْآيَةِ مِنْ سُورَةِ الْأَنْعَامِ : « قُلْ إِنْ صَلَّاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ
وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ »
فَجَلَسَ غَلَامُ الشَّيْخِ وَهُوَ يَمْسَحُ الْعَرَقَ . وَاشْتَدَّ بِنَا الضَّجَرِ وَالْقَلْقِ . فَقَلْنَا
مَنْ يَضْمَنُ لِهَذِهِ الصَّلَاةِ انْتِهَاءً . وَلِهَذَا التَّسْبِيحِ انْقِضَاءً . وَهَمَمْنَا بِالْقِيَامِ .
فَالْتَفَتَ الشَّيْخُ لِلْغَلَامِ . وَأَشْبَعَهُ مِنَ التَّائِبِ وَالْمَلَامِ . ثُمَّ حَيَّانَا بِالطَّفِ
سَلَامٍ . وَقَالَ بَارَكَ اللَّهُ فِيكُمْ وَعَلَيْكُمْ . وَأَنَا فِي الْخِدْمَةِ بَيْنَ يَدَيْكُمْ . فَقَلْنَا
عَلِمْنَا أَنَّكَ رَجُلٌ عَدْلٌ عَفْ . فَجِئْنَاكَ لِقَضِيَّةٍ فِي وَقْفٍ . فَقَالَ الْغَلَامُ
أَنْتُمْ تَطْلُبُونَ رِيعَهُ . أَمْ تَرِيدُونَ يِعَهُ . فَقُلْتُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَهَلْ تُبَاعُ الْأَوْقَافُ .
قَالَ نَعَمْ وَيَبَاعُ جَبَلُ قَافٍ . ثُمَّ تَنَحَّضَ الشَّيْخُ وَسَمَلَ . وَبَصَقَ وَتَقَلَّ .
وَتَسَعَّطَ . ثُمَّ تَمَخَّطَ . وَاقْتَرَبَ مِنَّا وَدَنَا . ثُمَّ قَالَ لَنَا :

(المحامى) - دَعُونَا مِنْ هَذَا الْغَلَامِ وَقُولَا لِي مَا حَقَّقَ فِي الْوَقْفِ ،
وَمَا شَرَطَ الْوَاقِفُ ، وَكَمْ يُقَدَّرُ ثَمَنُ الْعَيْنِ لِقَدَرِ « قِيَمَةِ الْأَنْعَابِ » بِحَسْبِهِ
(عيسى بن هشام) - إِنْ لَصَاحِبِي هَذَا وَقَفَاعَتَهُ عَنْهُ الْعَوَاقِقُ
فَوَضِعَ سِوَاهُ عَلَيْهِ يَدَهُ وَنَزِيدَ رَفَعَ الدَّعْوَى لِرَفْعِ تِلْكَ الْيَدِ

(المحامى) - سَأَلْتُكَ مَا قِيَمَةُ الْعَيْنِ

(عيسى بن هشام) - لَسْتُ أَدْرِي عَلَى التَّحْقِيقِ وَلَكِنَّا تَبْلُغُ الْأُلُوفِ
(المحامى) - لَا يُمْكِنُ أَنْ يَقِلَّ مَقْدَمُ الْأَنْعَابِ حِينَئِذٍ عَنِ الْمِائَاتِ

(عيسى بن هشام) - لا تَشْطُطْ أَيْهَا الشَّيْخُ فِي قِيَمَةِ الْإِتْعَابِ
وَارْفُقْ بِنَافَتِنَا الْآنَ فِي حَالَةِ عَسْرِ وَضِيقِ

(الغلام) - وَهَلْ يَنْفَعُ فِي رَفْعِ الدَّعَاوِي اعْتِذَارُ بِإِعْسَارٍ . أَلَمْ تَعْلَمْ
أَنْ هَذَا شَغْلٌ لَهُ « اشْتِرَاكَاتٌ » وَلِلْكَتَبَةِ وَالْمُحْضَرِّينَ « تَطْلُعَاتٌ » وَأَنْ
لِكُلِّ بَمَثَلِ مَوْلَانَا الشَّيْخِ يَضْمَنُ رِيحَ الدَّعْوَى وَكَسْبَ الْقَضِيَّةِ بِمَا يَهْوَنُ
مَعَهُ دَفْعَ كُلِّ مَا يَطْلُبُهُ فِي قِيَمَةِ إِتْعَابِهِ . وَهَلْ يَوْجَدُ مِثْلَهُ أَبَدًا فِي سَعَةِ الْعِلْمِ
بِالْحِيلِ الشَّرْعِيَّةِ وَلَطْفِ الْحِيلَةِ فِي اسْتِمَالَةِ مُحَامِي الْخَصْمِ وَاسْتِجْلَابِ عُنَايَةِ
الْقَضَاةِ

(عيسى بن هشام) - دُونَكَ هَذِهِ الدَّرَاهِمُ الَّتِي مَعْنَا نَخْذُهَا الْآنَ
وَنَكْتُبُ لَكَ صَكًّا بِمَا يَبْقَى لِحَيْنِ كَسْبِ الْقَضِيَّةِ وَلَيْسَ يَفُوتُكَ شَيْءٌ مِنْ
ذَلِكَ مَا دَامَ رِبْحُهَا مَضْمُونًا لَدَيْكَ عَلَى كُلِّ حَالٍ
(المحامى) - بَعْدَ أَنْ اسْتَلِمَ الدَّرَاهِمَ يَعْدُهَا - أَنَا أَقْبَلُ مِنْكَ هَذَا الْعَدَدَ
الْقَلِيلَ الْآنَ ابْتِغَاءَ مَا أَدَّخَرَهُ اللَّهُ لِعِبَادِهِ مِنَ الْأَجْرِ وَالثَّوَابِ فِي خِدْمَةِ
الْمَسَامِينِ . وَعَلَيْكَ بِشَاهِدَيْنِ لِلتَّوَكِيلِ

(عيسى بن هشام) - وَبِأَيَّةِ طَرِيقَةٍ يَكُونُ التَّوَكِيلُ
(المحامى) - يَجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَسْتَحْضِرَ شَاهِدَيْنِ يَشْهَدَانِ أَمَامَ
الْمَحْكَمَةِ بِأَنْ فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ وَكُلُّ فُلَانٍ بْنُ فُلَانٍ وَفُلَانُ بْنُ فُلَانٍ « فِي
الْمُرَافَعَاتِ وَالْمُدَافَعَاتِ وَالْمُخَاصِمَاتِ وَالْمَصَالِحَاتِ وَالْقَبْضِ وَالْإِسْتِلَامِ وَالتَّسْلِيمِ
وَفِي الْمَطَالَبَةِ وَالِدَفْعِ وَالْإِقْرَارِ وَفِي كُلِّ مَا يَصِحُّ فِيهِ التَّوَكِيلُ شَرْعًا وَفِي أَنْ

يوكل عنه في الدعوى غيره وأن يعزله وإن يفعل ذلك مراراً وتكراراً
كلما بدله فعله المرة بعد المرة والكرة بعد الكرة « وأنا أنتظر
حضوركما غدا مع الشاهدين ومستند الوقف
(عيسى بن هشام) - ليس لدينا الآن إلا شاهد واحد يعرف أصل
الباشا ونسبه

(غلام المحامى) - هذه أول خطوة في تكاليف القضية ومشاقها
ولعلك تعرف قيمتها ونحن نجد لك بتيسير الله من يعرف أصل الباشا
ونسبه ويشهد به بين يدي الحق

(عيسى بن هشام) - وليس في يدنا أيضاً مستند للوقف
(المحامى) - أما من جهة المستند فينبغى استخراج صورة من
السجل « المصان » (كذا) وهذه خطوة ثانية في متاعب القضية
قال عيسى بن هشام - وعند ذلك قطع الشيخ المحامى كلامه معنا
واستقبل القبلة بوجهه يتنفل ويتبتل، فقمنا للانصراف وسرت مع صاحبي
وأنا غريق في الأفكار أتدبر وأعتبر وأعجب مما رأيت من سكون
الباشا وسكوته وحسن احتماله وصبره بعد أن كان شديد الحدة سريع
الغضب، يرى القتل واجباً لأدنى هفوة وأقل سبب، فأصبح بفضل
وقوعه في هذه الخطوب المتتالية والرايا المتتابعة ليل العريكة واسع
الصدر مؤطاً الكنف كثير الاحتمال حتى انه لم يأنف ولم يتأفف من
كل ما رأيناه في يومنا هذا بل كانت حالته حالة الفيلسوف الحكيم

الذى يجعل دأبه البحث والتأمل فى أخلاق الناس أثناء التعامل معهم ، وازدادت يقيناً بأنه لا شىء أسرع فى تهذيب النفوس وتربيتها على التخلق بالأخلاق الفاضلة مثل ممارسة الخطوب ومصارعة النوائب وأن أسوأ الناس أخلاقاً وأنكدم عيشاً هم هؤلاء الأغمار^(١) المنعمون المترفون الذين لم يأخذوا العيش عن تجارب الحداث ولم تهذبهم صروف الأزمان ، ولم يزدنى الباشا فى كلامه أثناء الطريق على أن قال :

(الباشا) — قلت لى أن المحامين الشرعيين فيهم صاحب «الطربوش» وصاحب العمامة فهل تراهم جميعاً على هذا النمط الذى شاهدناه أم بين الفريقين فرق

(عيسى بن هشام) — اعلم أن الخيرة فى الواقع ، والحمد لله على كل حال فإن فيهم تحت «الطربوش» من هو أشد فتكاً من ضواري الوحوش . وأعرف طربوشاً منهم أقسم أمى بالطلاق ثلاثاً من زوجته ومن كل زوجة يتزوج بها فى حياته على إنكار كلام نطق به فى مجلس كنت حاضره إرضاء لأحد أرباب القضايا ، وإغضاباً لخالق البرايا ، واستهانةً بحكم الشارع ، واعتماداً على قول الشاعر :

وإن أحلفوني بالطلاق أتيتها

على خير ما كنا ولم تنفرك

وإن أحلفوني بالعاق فقد درى

عبيد غلامى أنه غير معتق

قال عيسى بن هشام — ومضت علينا الأيام ونحن نقصد الشيخ

(١) الأغمار ، جمع غمر وهو الجاهل الأبله

المحامى فى كل يوم فلا تتمكن من لقائه ، فان ذهبنا اليه فى البيت قيل لنا إنه فى المحكمة ، وإن ذهبنا الى المحكمة قيل لنا إنه فى القصر الفلانى أو القصر الفلانى من قصور الامراء والكبراء حتى حَفَيْت الأقدام ، ومللنا الاصطبار ، فاخترنا أن نربط له أمام بيته عند الثلث الأخير من الليل فسطاده عند خروجه ، وقعدنا بعيداً عن الباب حتى خرج علينا راكباً أثنائه ، فتقدمت اليه فقال لى أرجو المسامحة فى هذا التأخير فالذنبُ فيه لكثرة مشا كل الأمراء ودعائهم فتقبلنا عذره وتوجهنا معه الى المحكمة ، فذهب بنا الى « كاتب الإشارات » فوجدناه جالساً يلمع فى ثيابه : من سُحرة الخذاء فى رجله وزُرقة الجبة على كتفه وصُفرة الحزام فى خصره وياض العمامة فوق رأسه :

تعددت ألوانه كأنه قوسٌ قزحٌ

وكان الشيخ المحامى قد تركنا مع الغلام والشاهد الذى اختاره لنا ، فنظر الكاتب الى الشاهد نظرة المتوقف وقال إنه شاب صغير السن وإنه وإنه . . . قال عليه غلام المحامى وألقى فى أذنه بعض القول فقام معنا من فوره الى قاضى الجلسة لسماع الإِشهاد بعد أن قال لنا الغلام : وهذه الخطوة الثالثة فى تكاليف القضية . ثم انتهى الإِشهاد بحمد الله وحسن العناية بنا فى أثناء يوم واحد . وقال لنا الغلام عند الانصراف يجب بعد هذا أن تقدم عريضة لحضرة القاضى بطلب الكشف من الدفترخانة عن الوقفية فى السجل وأن نوضح فيها نمرة الوقفية وتاريخها ومن « عملية » مَنْ هى (يعنى اسم الكاتب الذى كتبها فى زمانها) فخرجنا نبحث عن

أحمد أغا البيطار لعله يعرف طريقة توصلنا الى مطلوبنا ، فعثرنا عليه وأعلمناه
بغرضنا ، فقال إن عندى ورقة فيها نمرة الوقفية كنت تحصلت عليها
بطريق مختلفة بعد الجهد الشديد والزمن المديد لإثبات حقى فى ربيع
الوقف . ثم ذهب الى بيته وعاد الينا بالورقة فوجدناها قاصرة على ذكر
النمرة والتاريخ ولم يذكر فيها اسم الكاتب الذى عمل « العملية » ، فقصدنا
غلام المحامى وتوجهنا معه الى المحكمة فكتبنا العريضة وقدمناها لحضرة
القاضى فوضع عليها اشارة لحضرة الباشكاتب ليتحرى عن مسألة
« الشأن » وطلبوا منا شهوداً يُشترط فيهم أن يكونوا من أهل جيل الباشا
ليثبتوا شخصيته ويشهدوا بأنه صاحب الوقف وأن سواه وضع يده عليه ،
فأدركتنا الحيرة فى الأمر فتكفل لنا الغلام باستحضار أولئك الشهود
أيضاً بعد أن قال لنا : وهذه الخطوة الرابعة فى تكاليف القضية . ولما
نظر الباشكاتب فى العريضة ووجد أننا لم نبين فيها اسم الكاتب صاحب
« العملية » قال لنا إنه لا يمكن الاهتداء فى الدفترخانة بدون ذلك ، وإنه
لا بد لنا من انتظار السنين والاعوام حتى يمكن العثور على صورة الوقفية
فى السجل بالنمرة والتاريخ وحدهما . فعلاودتنا الحيرة فقال لنا الغلام : لا
تخزنا فأنا أساعد على سرعة الإنجاز وأتوجه معكم الى الدفترخانة ان شاء
الله . وهذه هى الخطوة الخامسة فى تكاليف القضية . وما زال الخبيث
يعد لنا الخطوات . ونعمد له فى كل خطوة دريهمات . ونحن نسأل الله أن ينقذنا
مما أصابنا من حُكم الدهر . وأن يعجل بانقضاء القضية قبل انقضاء العمر

المفترضة الشرعية

قال عيسى بن هشام - وعكفنا زمناً نشد في الطلب . والمحامي
يشد منا في الهرب . فلما طال علينا الأمد في ارتياده . ويئسنا من
لحاقه واصطياده . انتقلنا للبحث عن غلامه . حتى قبضنا على زمامه .
فرأينا الخبيث يصعب في الأمور والأحوال . لنسترضيه بالمطاء والنوال .
وقال لنا أقول لكما الحق والحق أقول . إنه ليس من المتصور المعقول .
أن نهتدي في هذه القضية . الى صورة الوقفية . بمجرد تاريخها أو اسم
صاحبها . دون الوقوف على اسم محررها وكاتبها . ولا يحول في الخواطر
والأوهام . أن يعمّر عليها كاتب السجل بين تلك الآكام . من غير
وحي أو إلهام . الأ بعد كرّ السنين ومرّ الاعوام . وإن اعتراكم بعض
الشك أو الريب . ولم تُصدّقاً بظهر الغيب . فهلما معي أطلعكم على
ما يزول معه اللبس . وتقتنع به النفس . فقيّدناه بقيود الترغيب والتأويل
وأعطيناه ما يحضرنا من كثيرٍ وقليل . فانطلق أمامنا يثب ويحجل .
حتى دخلنا بيت السجل . فلما جاوزنا الباب . حيث يجلس الكتاب .
ألّفينا خشباً مُسنّدة . على خشبٍ موطّدة . وهياكل تفرش الفراء .
فوق الأقدار والأقذاء . لتمييز منهم وجه إنسان من إنسان . لعشوة
البصر من ظامة المكان . فتذكّر الباشا عند ذلك ظلام الرمس . وكرّ
راجماً ينتظرنا في ضوء الشمس . ثم مال الغلام الى أذن أحدكم يكلمه .

بما لا أعيه ولا أفهمه . فبادر الرجل بالنهوض والقيام . وسار بالغلام وأنا
 في عقب الغلام . فما خطونا بضع خطوات حتى حِيلَ بيننا وبين ضوء
 النهار . وتَجَلَّلْنَا من حِندِسِ الليل بِحَجَبٍ وأستار^(١) . فوقفت لا أبصر
 ولا أتهدى . فأخذ الغلام يدي . وقد غميت على وجوه المسالك .
 في هذه المخاوف والمهالك . وسرت فوق أرض تهش تحت القدم وتلين .
 كأنها مفروشة بالهشيم تَلَبَّدَ في الطين . وما زلنا نمشي في أنحاء تلك
 المظمورة^(٢) . على هذه الصورة . حتى تخيلت أني في قبور قدماء
 المصريين . أو في هياكل الأسرار بمعابد الرومانيين . أو في طريق
 الامتحان عند أحرار البنائين . فَوَجَبَ القلب^(٣) . من شدة الرعب .
 خشية أجولة نُصِبَتْ . أو مكيدة رُبَّتْ . وَوَجَتْ . ثم أحجمت .
 وقلت للغلام ليس بيننا ما يوجب الاحتيال . أو يدعو للاغتيال . وماذا
 تريد مني في هذا الغيب^(٤) . وليس معي من فضة ولا ذهب . ولا من
 شيء يُسْتَلَبُ أو يُنْتَهَبُ . ففقهه الفاجر ثم أقسم بالله وثني بالطلاق . أنا
 نسير في أمان بين غرائر الدفاتر ولقائف الأوراق^(٥) . وقال كُنْ آمناً
 مطمئناً على نفسك . وسترى الحقيقة بعيني رأسك . وما كاد الشقي
 يتم لي هذه العبارة . حتى عثرت قدمي في لفافة فوقعت على غرارة .
 وإذا بصائح يصيح من تحتها متبرّما متأففا . ويقول لي متعظاً متعجباً:

(٢) المظمورة ، المفيرة تحت الارض

(٤) الغيب ، الظلمة

(١) الحندس ، الليل الشديد الظلمة

(٣) وجب القلب وحيياً ، رجف وصفق

(٥) الغرائر ، جمع غرارة ، وهي الجوالق

ما هذه المشاة يا عديم الإبصار . ونحن لانزال في أديم النهار . فقلت
متشاقلاً متسانداً . وقلت في نفسي منشداً :

دُجِيَ تشابهُ الأشياءِ فيه

فَيُجْهَلُ جنسُها حتى يصيحاً

ثم تأملت فإذا أنا بخيال ينفذ الغبار عن رأسه ولحيته . بذيل مئزره
أوجبته . فتولّاه الخوف والوجل . وقلت من الرجل . فقال الغلام :
كاتب من كتبة «السيجلات» . ينبش عن أوراق في «سجل الأيلولات» .
فقلت وكيف يهتدى لذلك . وسط الظلام الحالك . فقال أولئك قوم
اعتادوا العمل مع احتجاب الضياء . فصاروا كخلفاء يبصرون في سواد
الظلماء :

ولوسار كلُّ الورى هكذا

لما حَسَدَ العُمى مَنْ يُبْصرون

ثم انعطفتنا من ذات اليمين الى شبه قاعة . يلوح فيها من الضوء
مثل جناح يراعة ^(١) . واذا هو لعابُ الشمس يسيل من ثقب ^(٢) . في
سقف ذلك الجب . وهو يتموج بأنواع الجراثيم . تموج الماء بالهشيم ^(٣) .
نخلتُ أن عجوز الفلك الدوّار . — أريدُ بها شمسَ النهار . — خَشِيتُ
أن تَضِلَّ في ظلمة هذه المفازة . فاتخذتُ لها من لعابها عكازة . تتوكأ

(١) البراعة الذبابة

(٢) لعاب الشمس شيء كأنه ينحدر من السماء إذا قام قُم الظهيرة تراه مثل نسج العكبوت

(٣) الهشم نبت يابس متكرر

عليها للاهتداء . وتدبّ بها في هذا الماء . فسحتُ على بصري .
وأحدثتُ بنظري . فأبصرتُ وماذا أبصرت . ونظرتُ وماذا نظرت :

ما إن سمعتُ ولا أُراني سامعاً

أبدأً بصحراء عليها بابُ

نعم رأيتُ فضاءً متسعاً تراءى لكم فيه من الأوراق الرقيقة والدفاتر
البالية . مثلُ الرُّبى الشاهقة والأكمات العالية . غير أن هذه تُثمر
وتُجنّي . وتلك تمثُ وتبلى . هذه تكون مخضرة مخصبة . إن جادها
الحياة أينمتُ بالغض من النبات . وتلك سوداء مجذبة . إن بلّتها الرطوبة
اهتزت باليابس من الحشرات :

فالأرض تبسطُ في خد الترى ورقاً كما تُنثرُ في حافاتها البُسُطُ
والريحُ تبتُ أنفاساً معطرةً مثلَ العبيرِ بجاء الوردِ مُختلطُ
وهذه بسطتْ فوق الترى ورقاً لكنه للبلَى والعُثُّ مُبْسِطُ
وريحها تورثُ الاسقامَ ناشقها كأنه من ترابِ القبرِ يَسْتَعِطُ (١)

وما لبث أن استبان لى شخص الكاتب المرافق لنا . فى لحظة ذلك .
السَّنَا . فاذا هو قصير القامة . كبير العمامة . ذو وجهٍ مقنّعٍ بالاصفرار .
وعينٍ مكتحلة بالاحمرار . وقد طوى من خلفه الجبّة . ورفعها على ظهره .
كالجعبة . وفى حزامه دواة من نحاسٍ أصفر . وبين طيات العمامة أوراق .

(١) استعط الدواء ، أدخله فى أنفه

بالتواريخ « و النمر » . فاستعنتُ بالله من الشيطان الرجيم . وقلت لذلك الغلام اللئيم :

(عيسى بن هشام) - هلم بنا أيها المراءغ الى الباب لنعود الى ضياء الحياة فقد يئستُ من أمرنا . وائني لهذا الكاتب أن يهتدى للبحث في هذا اللُجج القامس^(١) . والليل الدامس^(٢)

(غلام المحامى) - لا تنكرن على مثله الاهتداء فى دياجى الظلماء ولا يهولنك تشتت الدفاتر وتراكم الاوراق فى مرتبة فى حافظته ترتيباً انطبع فيها من طريق الوراثة عن أبيه وعن جدّه فلا تخفى عليه مواقعها كما يتوارث رؤساء « البوفاز » فى الاسكندرية هداية السفن عند دخولها بما علموه عن آبائهم من مواقع الأرض فى قاع البحر . ولو كان معنا اسم الكاتب لسهل البحث ولوصلنا الى الغرض

(الشيخ الكاتب) - نعم لا تنكر علينا بارك الله فيك اهتداءنا للبحث فى هذه الأوراق . والله يعلم أن هذه الدفترخانة مرسومة فى ذهنى منذ الصغر على أحسن ترتيب وتبويب ، فى مقسمة الى عدة سجلات منها « سجل الباب العالى » ، تسجل فيه الأعيان المبيعة غير الموروثة . ومنها « سجل القسمة العسكرية » ، تسجل فيه الاعيان المبيعة الموروثة . « ومنها سجل الأيلولات » ، تسجل فيه الأعيان المحصورة من تركة مُنْخَصص أو تباع بالزاد . ومنها « سجل الاعلامات » ، تسجل فيه المواد التى تصدر فيها أحكام من المحاكم الشرعية من أى نوع كان

ومنها « سجل التقارير » ، تسجل فيه تقارير النظار وفقاً وغيره ، ومنها « سجل الوقفيات » ، وتسجل فيه نفس الوقفيات ويدخل فيه التوكيلات والوصايا والتصادق

(عيسى بن هشام) - سبحان الفاتح الوهاب . ومن يهدينى الى طريق الباب !!

(الشيخ الكاتب) - . . ومنها « سجل الديوان العالى » ، تسجل فيه الفرمانات المتعلقة بتولية القناصل وعزلهم . والاعلامات الصادرة من مجلس استئناف مصر فى الهيئة التى يحضرها القاضى الشرعى أو النائب عنه مع جملة من كبار العلماء من المذاهب ، ومنها « سجل القسمة العرية » ، تسجل فيه الأعيان الموروثة المختصة بالذمين . .

(عيسى بن هشام) - اللهم ارفع عنا الأذى والمقت . وهلم فقد ضاق بنا الوقت

(الشيخ الكاتب) مسترسلاً . . ومنها « سجل إسقاط القرى » ، يسجل فيه ما يأخذه الامراء ويعطونه من الاطيان والقرى . وليس يخفى أنه كان فى مدينة مصر محاكم شرعية سياسية وكانت السيطرة عليها للقاضى من قبلى السلطان ، وكان لكل واحدة سجل تسجل فيه جميع الأنواع (وقد حُفظت تلك السجلات كلها بهذه الدفترخانة) وكانت مراكزها فى جهات « باب الشرعية » و « قناطر السباع » و « جامع طولون » و « جامع قيسون » . .

(عيسى بن هشام) - يكفى أيها الشيخ فقد وجب الرحيل . ولا حاجة بنا الى هذا التطويل والتفصيل

(الشيخ الكاتب) مُعَدِّداً - . وفي جهات « درب سعادة » و«باب الخلق» و«الصالحية» و« النجمية » و« أحمد الزاهد » و« البرشمية » و«مصر القديمة» و« بولاق » و« جامع الصالح » و« جامع الحاكم »...
(عيسى بن هشام) - تبارك مَنْ له الاسماء الحسنى . وَمَنْ يُعِيدُنِي الى الحياة الدنيا

(الشيخ الكاتب) - ... ثم « محكمة الباب العالى » ، وهى المحكمة الكبرى وقاضيهام هو المسيطر على الجميع المُوَلَّى من القسطنطينية . و« محكمة القسمة العسكرية » ، وقاضيهما يعيّن كل سنة من دار السعادة كقاضى المحكمة الكبرى ويسمى «القَسَّام» وشغله المواريث بأنواعها فقط، و...
(عيسى بن هشام) للغلام - لقد ملّ سمعى . وضاق ذرعى . فإخرج بنا وأتقضى من شر هذه الدار . ومن ثروة هذا الشيخ المهدار

(الغلام) - لا تضجر ولا تقنط وأنظرنى قليلاً حتى أستنير برأى الشيخ لعلنا نجد عنده حلاً للمقعدة، وفرجاً للكربة، (ثم مال على الشيخ منفرداً به فسمعه يقول له) :

(الغلام) - مثلك لا يعجز عن استخراج الوقفية بدون الوقوف على اسم كاتبها ، وأنت لا تأبى الربح والكسب لنا جميعاً ، وأصحاب القضية من كبراء الناس أهل السباحة والكرم

(الشيخ الكاتب) - مهلاً فقد كدت أذكر اسم كاتب الوقفية على ذكر الساحة والبذل فان لكتابها حكاية مشهورة في الجود والعطاء منذ ذلك العصر ولا يزال للخلع التي خلعت على كاتبها بقايا الى اليوم عند أهله وذريته وهو المرحوم الشيخ فلان ، فدونك وأصحاب القضية فاتفق معهم لوضع هذا الاسم في ورقة النمرة والتاريخ ، وجثني بها نافعة تشفع لنا أجمعين ، والله ينفعنا بنفع المسلمين

(الغلام لعيسى بن هشام) - قد تبسرت الحال بإذن الله ووصلنا الى معرفة اسم الكاتب الذي تُستخرج به الصورة . والرأى لك في هذه الخطوة السادسة

قال عيسى بن هشام - ثم انطلق الغلام أمامي يسحبني وراءه حتى خرجنا بحسن صنع الله من الظلمات الى النور فجهرت^(١) عيني وسدّرت^(٢) فلم أبصر في الشمس عند الباب الا بعد التردد مراراً بينها وبين الظلام . ولما التقيت بالبasha في الموضع الذي كان ينتظرني به سألتني عن طول هذا الغياب فلم أُرِدْ أن أضيف الى مصائبه مصيبة أخرى بوصف ما كنت فيه بل كتمته لياه وأخبرته بتيسير الحاجة . ثم اتفقنا مع الغلام على أن يباشر وضع اسم الكاتب في الورقة ويعود في اليوم الثاني الى الشيخ الكاتب لياطينا بصورة الوقفية ، بعد أن نقدناه ما نقدناه ثم دارت بعد ذلك علينا الأيام ومضت الشهور ونحن نتردد على

الدفترخانة تارة في حجة الغلام وتارة بدونه الى أن حل الأجل وآن الأوان
بجاءنا الغلام ذات يوم يبشرنا بالوقوف على الوقفية فقرحنا فرح النواص
بدرة التاج . تحت تلاطم الأمواج . ونهضنا معه الى الدفترخانة
فرأينا الشيخ الكاتب عند الباب يتيه إعجاباً بمهارته في الاهتداء عليها مع
قصر الوقت ويحمد الله على حسن الطالع وسعود الجدة فخدمناه على همته
العالية وصنعه الجليل ، فأخرج من تحت إبطه أوراقاً بالية متخرقة
متأكلة لا تستوى منها ورقة مع أخنها فيها سطور متقطعة وخطوط
متوزعة لا يستطيع أن يحلها إلا من كان عريقاً في كشف الرموز وفك
الطلاسم . فقلت له ان الاهتداء الى نقل صورة مفهومة من هذه الاوراق
لأعظم مشقة وأدهى بلية من الاهتداء على موضعها من تلك الصحراء
المظلمة ، فقال لي إن كثرة التعمود تيسر المسير وتهون الصعب وقد ورثت
عن المرحوم والدي أيضاً قراءة هذه الخطوط وتلفيق مارت من أواخر
السطور . والعبارة واحدة لا تتغير تقريباً في كل باب من أبواب
السجلات . ورأيت أنه يستعد ليسترسل في أبواب الشرح والوصف
وخفت أن تشتد به نوبة الهذر والإكثار فودعناه وانصرفنا ، وكلفنا
غلام المحامى أن يأتي لنا بالصورة من عنده بعد انتهائهما ، فطلب منا ان
ندفع « رسمها » وأن نأتى بشاهدين يشهدان علينا باستلامها ووعدنا
بأنه ينوب عنا في اجتلابهما بعد أن طالبنا بالكفاة الواسعة . على
هذه الخطوة السابعة

المحكمة الشرعية

قال عيسى بن هشام - ولما صارت في يدنا الصورة . بعد تلك
المواقف المذكورة . خطأ غلامنا الثامنة من خطواته . في بعض رَوَحاتِهِ
الى المحكمة وغدواته . فذهب الى كاتب « الطلبات » . لتحديد إحدى
الجلسات . ثم عاد فبشرنا بأن الكاتب اتفق مع الرئيس . على أن تكون
الجلسة في يوم الخميس . وأنه حرر « طلباً » لحضور الخصوم . في
الوقت المعلوم . فأقننا أياماً نعلل النفس بالأمل . حتى حل هذا الأجل .
وسمح لنا الطالع بطلمعة الشيخ المحامي ولقائه . بعد طول احتجابه عنا
واختفائه . ورَضِيَ أَنْ يتوجه معنا الى المحكمة . ليكشف عنا بيمينه كل
مظلمة . فسرنا جميعاً نقصد بيت القضاء الشرعى . والحكم المرضى .
والعدل المقضى . بوحى الآله وسنة النبى . حيث تقام منابر الهدى .
وتشاد منائر التقى . وينبليج نور الحقيقة والعدالة . وتكشف ظلمة
البدعة والضلالة . ويُؤخذُ من الظالم المظلوم . ويُنتصف من الحاكم
للمحكوم . ويُسارُ على الصراط السوى . في الحكم بين الضعيف
والقوى . - حيث تتحد المواقف والأقدام . وتستقيم الأوامر والأحكام .
وتغدو فيه الشكلى ربة الأيتام . أعزَّ من الفارس ربَّ الرمح والحسام .
ويصبح الأعزل الشاكى . أقوى من المدجج الشاكى ^(١) . ويتساوى

(١) المدجج ، اللابس للاحه وكأنه تغطى به . والشاكى ، التام السلاح

لديه ربُّ الشَّوْهِةِ والبعير ^(١) . ربّ التاج والسرير . - نعم حيث
 يكون المقعد الموروث . عن النبي المبعوث . وحيث يُعمل بالسنة وآي
 الكتاب . فيُنْتَصَر للذليل على العزيز . ويُقْتَدَى فيه تارةً بسيرة عمر
 ابن الخطاب . وأخرى بسيرة عمر بن عبد العزيز . وحيث يكون مقرُّ
 المهابة والجلال . ومصدر الوقار والكمال . وموضع الطهارة والأمانة .
 ومنبع العفة والصيانة . وقبلة القنوت والخشوع . ومقام الطاعة والخضوع
 ولما وصلنا الى هذه المحكمة وجدنا ساحتها مزدحمة بالمركبات . تجرّها
 الجياد الصاهلات . وبجانبها الراقصات من البغال والحمير . عليها سُرجُ
 الفضة والحريير . فحسبناها مراكباً للعظماء والأمرأ . في بعض مواكب
 الزينة والبهاء . وسألنا إِمْرَنَ هذى الركاب . فقل لنا لأنها لجماعة الكتاب .
 فقلنا سبحان الملك الوهاب . وَمَنْ يرزق بغير حساب . ونحوُنا نحو الباب .
 في تلك الرحاب . فوجدنا عليه شيخاً حَنَنْتْ ظهره السنون . فتخطّته
 رُسُلُ المُنُون . قد اجتمع عليه العَمَشُ والصَّمَمُ . ولجَّ به الخَرْفُ والسَّقَمُ .
 وعلمنا أنه حارسُ بيت القضاء . من نوازل القضاء . ثم صيدنا في السَّلمِ
 فوجدناه مزدحماً بأناس . مختلفي الأشكال والأجناس . يتسابئون
 ويتشائمون . ويتلاكمون ويتلاطمون . ويُبْرَقون ويُرْعَدون . ويتهددون
 ويتوعدون . واكثرهم آخذٌ بعضهم بتلايب بعض . يتصادمون بالحيطان
 ويتساقطون على الارض . وما زلنا نزاحم على الصعود في الدَّرَجِ . والعمائمُ
 تتساقط فوقنا وتندحرج . حتى مَنَّ الله علينا بالفرج . ويسّر لنا المخرج .

في وسط هذا الجمع المتلاصق . والمأزق المتضايق . ووصلنا الى القاعة
السفلى . فوجدنا عندها امرأة حبلى . تنقلب على الأرض كالثعبان . وتستشهد
بالأهل والجيران . أن بعلها . أنكر حملها . وحاولنا أن نخطو خطوة
الى الأمام . فلم نستطع من شدة الزحام . وكيف بالتقدم فى عباب موج
ملتطم . ومنحدر نيل مرتطم . من نساء صائحات مؤلولات . ونائحات
مؤولات . ونادبات باكيات . وصارخات شاكيات . كأنهن قائمات فى
مأتم على مدافن الأموات . تفرحت فيه العيون ونحت الأصوات .
وفيهن المسفرة والمتقنعة . والمضطجعة والمتربعة . والحاسرة عن الذراع
والرأس . وأختها تقلبها فى وهج الشمس . ومنهن الكاشفة عن ثدييها .
ترضع طفلاً على يديها . وغيرها ترضع طفلين فى حذاء . وزوجها يضرب
رأسها بالحذاء . وأخرى آخذة بصفيرة ضرتها . ورضيعها يتلف على
ضرتها . ومن ينهن من يتقدمها طليقها . ويتبعها عشيقتها . تُشيع الأول
باللعن والسباب . وتغمز الثانى بكفٍ مزدانة بالخضاب . ورأينا العقيلة
المحدرة مع « الأغا » . لا يستطيع أن يحمىها فى حومة هذا الوغى .
وشاهدنا فى الجمع جماعة من فجّار الخلاء . وتبّاع النساء . يغازلون كل
غانية هيفاء . ويغامزون كل غادة غيذاء .^(١) ويتعرضون لفيض النزاع .
بين ذوات القناع . وفصل العناد والشقاق . بين الطاعنات بالأحداق .
فتختلط غمزات الطرف . بهمزات الكف . فيزول ما هنالك من

(١) النداء . المرأة الثنية لنا

الجدال والخصام . ويصرون جميعاً الى الحسنى والرفيق من الكلام .
ورأينا فيما رأينا من غرائب البشاعة . وعجائب الشناعة . رجلاً وأمرأة
يتسابقان في الفاظ الفحش والهجر . ^(١) ويتباذران في أقوال البذاءة
والنكر . وهما يتجاذبان في أيديهما غلاماً . كأنما يحاولان له اقتساماً .
ليأخذ كل منهما من أعضائه بنصيب . والغلām يبكى من شدة الألم
والتعذيب . فاستعذنا بالله السميع العليم . من موقف هذا الجحيم .
وسمعنا من أفظع ما سمعناه امرأة تنحب وتقول . وتقابها بقاء العين
مطلول : « لو كان للنساء قضاة من النساء . لما وصلنا الى هذه الحالة
التماء . فان الرجال يميلون لجنس الرجال . ويتناصرون لبعضهم على
ذوات الحجال » . فاستعنا برب المثاني . ^(٢) وصعدنا في السلم الثاني .
فاذا هو كالأول يتموج بالناس كبيوت النمل . أو خلايا النحل . واتهينا
منه الى قاعة . ممتلئة بصنوف الباعة . هذا يصيح « الخبز والجبن » .
وذاك ينادى « الدخان والبن » . وآخر يقول « الزبدة والعسل » .
وبعضهم يردد « الفول والبصل » . وبائع الضأن يفتت بسكينه جماجم
الرؤوس . والثلاج يصفق بالكواز « المرقسوس » . وهناك « قهوة » يدب
فيها الشهود بالعشرات . كديب الحشرات . فيعرضون أنفسهم على الخصوم .
للسهادة أو التزكية بأجر معلوم . وغلمان المحامين يروحون بين الجموع
وينفدون . فيمكرون بهم ويكيدون . ويتقلبون بين الخصوم ويحتالون .

فيخدعون وينتالون . ودخلنا حجرة صغيرة من حُجرات الكتّاب .
فثار في وجهنا ما على أطباق الباعة من جيش الذباب . فرجعنا على
الأعقاب . ونجونا من الأوصاب . ثم انحدرنا مع غلام المحامي الى حجرة
كبيرة الساحة . فقال اجلسوا هنا للاستراحة . فأجلسنا في صدر المكان .
بين الكتبة والفلمان . ولا بد لكل كاتب هناك من غلام . يقوم
مقامه في تدوين الاحكام . فسمعت الكاتب الجالس عن اليمين . يُقسِم
على أقواله بكل يمين . بأنه لولا اعتراض مركبات الكهرباء وضيق
الميدان . لما تأخر حماره عن حمار فلان . وسمعت صاحبه يجانبه . يخلف
بجده وأعز أقاربه . أنه لولا حبسه للعنان . لسبق كل الحمير في يوم
الرهان . ويقول له وهو يتلفف في العباء : « قد بلغنا عن الاجداد والآباء .
أنه اذا صحّت الشعرة الخضراء . لم يتعلق بذيل الحمار الهواء » . ثم التفت
ذات الشمال فوجدت كاتباً منهم غصّ الشباب . عظيم التألق في لبس
الثياب . فهو يتلأأ ويتألق . في سندس وإستبرق . كأنما خاطوا له
قباة من أزهار بستان . مختلفة الأشكال والألوان . يُفعم الانوف بعطره .
ويُبعق الجو بنشره . وأمامه رجل في يده صرة ثياب ينشرها ويطويها .
فيأخذها « السيد » منه ويرميها . ويقول له في حدّته . وشدة سؤرته :
(السيد) — هذه ثياب لا أرضاها ولا أقبلها . وبئس المفصل
مُفصلها

(الخياط) — كيف ترى ذلك أيها السيد وأنا أقسم لك بالقرآن
المجيد . أنها أوسع من ثياب السيدين عبد العزيز وعبد الحميد

(السيد) - كذبتَ وربَّ الكعبة فإن استدارة الكمِّ ضيقة
والرقبة لا تنطبق على الزيّ الحاضر

(الخياط) - وماذا أصنع وذلك كل ما في عرض الحرير، ولو كنا
عل الزيّ القديم لدَخَلْنا مع السيد في طيّ ثيابه . إثنان أو ثلاثة من أصحابه
(أحد أصحاب القضايا) - صَبَّحَ الله السيد بالخير والإِنعام
(أحد الكتبة الظرفاء) مُكْتَنًّا - لا بل بالخليل والأَنعام
(صاحب القضية) - أرجو سيدي أن يعطيني «الإعلام»
(السيد) - اذهب حتى يأتي الغلام

(الكاتب الظريف) مُوَرِّيًا - عليك به في شارع أم الغلام . تجده
جالسًا نصًّا تحت الأعلام

قال عيسى بن هشام - وعافت نفسي هذه النكت الباردة . والمعاني
الساقطة . فأعرضتُ عن الإصغاء . وسرحتُ طرفي في بقية الأنحاء . فرأيت
الكتبة كلَّهم يتفاهون ويتسامرون . هذا يَلْتُ في يده أفيونه . وذلك
يكوّر بين أصابعه معجونه . والنلمانُ يشتغلون تارة بأوراقهم . وطورًا
يتباحثون في أذواقهم . وأرباب الحاجات بين أيديهم يقاسون سوء الرد .
ومطل الوعد . وسمعت أحد الكتبة يخاطب صاحب قضية . بألفاظٍ بذية .
ويقول له : « كيف تعطى الغلام هذا المبلغ الزهيد . أتظنه كان لك من
العييد . أتريد أن يكتب لك ويتمب . (وهو لا أجره له في المحكمة
ولا مُرتب) بغير ربح ولا مكسب . إن هذا لَمِنْ أعجب العجب » وجاء

رسول القاضي يطلب أحد الكتبة الرؤساء . فوجده راقداً كالنفساء . فبعضهم أشار بتنبيهه من غفلته . وقال بعضهم لا بل أتركوه في رقدته . أنسيتم حكم عاداته . بأنه لا يفيق من غفوته . قبل أن يسيل الأفيون مع الدم في دورته . ثم اتفق معهم الرسول . على أن يرجع فيقول : « اننى لم أجد الشيخ مكانه . وعلمت أنه نزل الى الدفتر خانه » . ثم استيقظ الراقد بعد مدة فتأهب وتمطى . ثم تدثر وتغطى . ثم عاد الى ما كان فيه من السبات . وهو ينشد للمعترى من أبيات :

وفضيلة النوم الخروجُ باهله
عن عالم هو بالأذى مجبول
ثم جاءه بالبع كتب وأوراق . فصاح به حتى أفاق . وقام بعون الله وحوله . يخاطب البائع بقوله :

(الكاتب) — هل أحضرت ما طلبتُه من الكتب

(البائع) — نعم جئتُك بكتب قديمة . لا تقدر لها قيمة . منها كتاب «حل الرموز . لفتح الكنوز» . ومنها «أصول المراسم . في فك الطلاسم» . ومنها «حسن إرشاد الناس . في استخراج الذهب من النحاس» . ومنها «القول المأثور . في تأثير البخور» . ومنها

(الكاتب) — ألم تعثر لى على كتاب فى (الاستحضار)

(البائع) — نعم معى كتابان أحدهما «قلائد اللؤلؤ والمرجان . فى

استحضار الجان» . والآخر «خير المواقيت . لرؤية العفاريث»

(الكاتب) — بارك الله فىك وجزاك خيراً فإن عندى نسخة محرقة

من هذا الكتاب الأخير فاصحبني الى البيت لنقابلها ونصحها

قال عيسى بن هشام — وقام هذا الكاتب مع البائع . وأقت
أسخط على هذا الجهل الشائع . والعمل الضائع . وبيننا أنا كذلك اذ
أشار علينا غلام المحامي بالقيام ، فقد آن نظر قضيتنا ، فخرجنا فوقنا عند
باب الحجرة التي تنعقد فيها الجلسة ، فرأينا الزحام خارجها وداخلها على
أشد حالاته ، وسمعنا الحاجب ينادى تارة بصوت عالٍ وتارة بصوت
منخفض ، فسألتُ الغلام عن ذلك فقال إنه يخفض الصوت حتى لا
يسمع أربابُ الدعاوى النداء فتسقط القضية وهو من باب الشفقة والحنو
بالمدعى عليه ، وفوق ذلك فإن للحجَّاب ان يُدخلوا الجلسة من أرادوا ،
ويحجبوا عنها من أرادوا . ثم نودى علينا فدخلنا مع شهود المعرفة الذين
استحضرهم الغلام لنا ، فوجدنا الجلسة مؤلفة من ثلاثة أعضاء برئيسهم
وهم جلوس كل واحد منهم بمعزل عن الآخر . وقد تعمس على أن أفهم
كلام الباشا وهو بجانبى يخاطبني لشدة الضوضاء وعلو الأصوات . ثم
دخل كاتب الجلسة يرقص في مشيته . وكأنه الطاووس في هيئته .
فجلس ووقفت عنده بحيث أبصر ما يسطره ، فوجدته قد تناول القلم
بأطراف بنانه يضعه في الدواة تارة ويضعه في أذنه أخرى ، ثم يلهو بتفقد
ثيابه ويشغل بلمس الإبر التي تشبك بها العمامة ، ثم ابتدأوا في سماع
القضية ، وتقدم الباشا مع الشهود فلم أسمع شيئاً مما قالوه أو قيل لهم
لكثرة الجلبة والصياح وانما رأيت الكاتب يكتب في دفتر الضبط —
وكانما يكتب من عنده — ما أنقله بحرفه وهو :

« استحضَرَ أمامَ الجلسة المدعى والمحامى والشهود فتقدم المدعى وعرف انه فلان بن فلان بن فلان وسمى شاهدي معرفته وهما فلان بن فلان بن فلان، وفلان بن فلان بن فلان الساكنان بالجهة الفلانية شياخة فلان بن فلان بن فلان. وشهد كل منهما على انفراده بأنه يعرف المدعى المذكور وأشار اليه بيده وهو فلان بن فلان بن فلان المذكور. ثم قال المدعى المذكور إنلى قبِل فلان بن فلان بن فلان دعوى نظر على وقف ومعى مستند دعواى والمدعى عليه لم يحضر مع استلامه علم الطلب المحدد له فيه الحضور فى هذه الجلسة »

ثم أمرت المحكمة بانصرافنا للمداولة والنظر فى المستند، ووقفنا ناحية من الحجرة ننتظر مع من ينتظر، ثم نودى علينا بعد مدة فقالوا لنا ان المحكمة تعلمنا بمضمون المادة ٧٢ من اللائحة وهى تقضى - على ما أخبرنا به المحامى - بالإعذار الى المدعى عليه، وقال لا بد ان نطلب ذلك من المحكمة لانه لا يسوغ لها ان تُعذر الآ بناء على طلب المحامى، فقدمنا الطلب، فقرر إصدار الإعذار . والله يكفيك شرًا ما فى هذه الدار. من الأفضية والأقدار . وكثرة الموم والأكدار

قصر مفيد الباشا

قال عيسى بن هشام - ودخلنا - لا أدخل الله عليك طوارق النعم .
ولا أخرجك من طرائق النعم . - في دَوْر الإِنْذار يتبعه الإِنْذار . والإِعْذار
يتلوه الإِعْذار . ومندوبُ المحكمة يعود إلينا بالخيرة . في كل أَوْبة . زاعماً
ان خدم الخصم لا يقابلونه الا بالازدراء . كغيرهم من خَوَلِ أبناء الأُمراء .
حتى وصلنا الى حد الإِعْذار الأخير . ورَمِينا المندوبَ بالإِهْمال والتقصير .
فراينا ان نَحْبِر خبره . وتقتنى أثره . ونتحقق بأنفسنا كيف يتسع الذرع .
للاستخفاف برسول الشرع . فسرنا وراء المندوب ومعه الشاهدان .
يشهدان بأنه أعذر فلان بن فلان بن فلان . وقد أمسك الواحد منهم
بكتف الآخر . على هيئة تستفز كل هازيء وساخر . وكلُّهم يخذ
الأرض بجدائه . ثم يُعْفَى الأثر بفضل ردائه . وهم ينتقلون في المشي من
الذَمِيل الى الرسيم الى الوخيد .^(١) كأنهم مسرعون الى جفنة ثريد . ونحن
من خلفهم نَحْب ونُهرول . ونُحْسِلُ ونُحَوِّقِل ، الى ان كادوا يغيبون عن
البصر . وكدنا نفقد منهم الأثر . لولا أن عثر أحدهم بقضبان مركبات
الكهرباء . فطاحت العمامةُ وانتقلت الحذاء . فاقفل يلمسها ويلتمسه .
فلم يرَعهُ إلا السائق وجرسه . فما تحرك ولا انتقل . حتى أدركته
العجل . وكاد يداس ويُقْضَى عليه . لولا أن جذبه رفيقه اليه . فحِيلَ

(١) الذميل والرسيم والوخيد ، ضروب من السير

بين الرجل وبين عمامته ونعله . ووقف مخبولا لا برأسه ولا برجله .
وهو يستنجد لهما ويستغيث فلا يغاث . حتى مرت عليهما المركبات
الثلاث . فأدركناه وهو ممتنع اللون من اليأس والوجل . فبشرناه
بسلامتهما فاعتمَّ بهما وانتعل . وحمد الله على هذا اللطف في القضاء .
وحمدناه على ما أتيح من التعويق والابطاء . اذ تمكنا من اللحاق بهم .
وقدرنا على استئناف السير في عقبيهم

وقد انتهى السير بنا الى قصر في سُرّة بستان . يُررى في الحسن
بقصور بغداد وغمدان . وقد ترصع البستان بأنواع الأزاهر . كأنه مُحلى
بصنوف اليواقيت والجواهر : والقصر في وسطها كأنه الدرة البيضاء .
أو البدر بين نجوم السماء :

كَأَنَّهُ جَيِّدٌ وَبِستانُهُ مِنْ حَوْلِهِ عِقْدٌ بَدِيعُ النِّظامِ
وما عسَى أقول في وصف روض . قد نسجت يد الارض . لتزدان
به يوم عيدها ويوم زينتها . وغنمته رداؤها تحتال به في حسن رونقها
وبهجتها :

مُؤَزَّرَةٌ مِنْ صَنَعَةِ الْوَبْلِ وَالنَّدَى
بِوشِيٍّ وَلَا وَشِيٍّ وَعَصَبٍ وَلَا عَصَبٍ^(١)
قد أغنى الغواني نسيمة العليل . عن المسك الأذفر . وكفاها
ريحه البليل . تَطَرُّها بالطيب والعنبر :

(١) المصّب ، ضرب من البرود

بِغَرَسٍ كَأَبْكَارِ الْجَوَادِي وَتُرْبَةٍ كَأَنَّ ثَرَاهَا مَاءٌ وَرَدٍ عَلَى مِسْكٍ
وَمُنَى الْعَرَائِسِ أَنْ لَوْ اتَّخَذَتْ مِنْ نَوَارِ الْأَزْهَارِ . فَصَوْصًا لِلخَوَاتِمِ .
وَمِنْ أَكْثَامِ الْأَشْجَارِ . مُعَاقِدَ اللَّتَائِمِ . وَوُدَّهَا أَنْ لَوْ تَأَزَّرَتْ مِنْ سِنْدَسٍ
أَرْضُهُ بِأَبْهَى إِزَارٍ وَمِرْطٍ ^(١) . وَتَحَلَّتْ مِنْ جَوْهَرِ نَبَاتِهِ بِأَزْهَى شَنْفٍ
وَقُرْطٍ :

إِذَا مَا النَّدَى وَافَاهُ صُبْحًا تَمَاطَيْتَ أَعَالِيهِ مِنْ دَرٍّ نَثِيرٍ وَجَوْهَرٍ
إِذَا قَابَلَتْهُ الشَّمْسُ رَدَّ ضِيَاءَهَا عَلَيْهَا صَقَالُ الْأَقْحَوَانِ الْمُنَوَّرِ
وَقَامَتْ فِيهِ مَشْرَاتُ الْأَغْصَانِ قِيَامَ الْكَوَاعِبِ الْأَتْرَابِ . سَاقِيَاتٍ
بِالْأَبَارِقِ وَالْأَكْوَابِ . سَاكِبَاتٍ مَوَرَّ الطَّلِّ مِنْ تِلْكَ الْإِقْدَاحِ .
مَائِسَاتٍ مِنْ رَحِيقِ النَّدَى وَمِدَاعِبَةِ الرِّيحِ :
شَقَائِقُ يُحْمِلُنَ النَّدَى فَكَأَنَّهُ دَمُوعُ التَّصَابِي فِي خُدُودِ الْخِرَائِدِ
فَمَا تَحْيِلُنَا فِي هَذَا الرُّوضِ مَذْرَأِيْنَاهُ إِلَّا أَنَا فِي حَفْلَةِ عُرْسٍ . جَمَعَتْ
أَسْبَابَ الْلُحُورِ وَأَطْرَافَ الْأَنْسِ . قَدْ نَصَبَ النِّعَمَ عَلَيْهَا سُرَادِقَهُ . وَمَدَّ
مُلْتَفَّ النَّبَاتِ فِيهَا تَمَارِقَهُ ^(٢) . وَأَشْرَقَتْ فِي الْأَغْصَانِ الْأَنْوَارِ .
إِشْرَاقَ الْمَصَابِيحِ بِالْأَنْوَارِ . وَقَامَتْ الْأَطْيَارُ عَلَى الْأَعْوَادِ . تَتَسَابَقُ فِي
التَّرْنَمِ وَالْإِنْشَادِ . فَهِيَ تَفَرَّدُ بِالْحَانِ يَقْطَعُ السَّمْعَ لَهَا حَبْلُ النَّفْسِ .
وَيَأْنَسُ إِلَيْهَا مُسْتَنْفِرُ الْوَحْشِ الْمُفْتَرَسِ :

رَأَتْ زَهْرًا غَضًّا فَهَاجَتْ بِمَزْهَرٍ ^(٣)

مَثَانِيهِ أَحْشَاءُ لَطْفَنَ وَأَوْصَالُ

(١) المرط ، كساء من خز يؤتزربه (٢) الفمق ، الوسادة (٣) المزهر ، العود

وللنسيم بين الشجر نغماتٌ بالهفيف والخفيف . من ثقیلٍ في
الضرب أو خفيف . تصفق لها أكفُ الأوراق . وتقوم الأفتان
للرقص على ساق . مترنحة الأعطاف من خمر الندى . مهتزة القدود
بغمز الصبّا . تبسم عن أفاجٍ نضيد . يزرى بثنايا الغيد . ثم تميل برشيق
القوام . فتلتقط ما ينقطعها به النعام . والجدولُ يجري تحت أذيالها ويتعثر .
وينساب الماء في ظلالها ويتكسر . كأن حصباء اللؤلؤ والمرجان . في
نحور الحسان . أو قلائد العقيان . في أجياد القيان :

تَرُوعُ حَصَاةُ حَالِيَةِ الْمَذَارَى فَلَئْسَ جَانِبَ الْعِقْدِ النَّظِيمِ
ولمّا ملئنا من هذه الجنة طرباً . وقضينا عجباً . قلنا ما شاء الله لا
قوة الا بالله . ما أعجز الخلق عن شكر نعماء . واذا بقوم عند باب
القصر . كأنهم أفراخ في مخلب صقر . تملو وجوههم قنرة . ترهقها
غبرة . وهم بين بالكٍ ومتحجب . وصارخ ومضطخب . فتفرست في هيثاتهم .
وهم يذكرون حاجاتهم . فاذا هم جميعاً في يأس وقنوط . وخيبة وحبوط .
واذا الصيرفي يقول . بصوت المقهور المخدول :

(الصيرفي) — تسعاً لي لقد ضاع مالي . وذهبت آمالي
(التاجر) — وبؤساً لي لو كنت أعلم بهذه المآل . لم أقم في تلك
الجال

(البائع) — يا ويح نفسي اغتررت بالمقام العالي . نفست
رزق عيالي
(الجوهري) — ويل لمن خدعته الظواهر . فضاعت عليه الجواهر .

(الصيدلاني) — أقسمتُ لا يضيع عنده ثمن الدواء . ولو تعلق
بأطراف السماء

(الحمّار) — تَبَّأَ لَهُ مِنْ مُحْتَالٍ مَالٌ عَلَى دَنِي . ثم اخْتَفَى عَنْ عَيْنِي
(القصاب) — أَنَا لَا يَضِيعُ عَنْدهُ حَقِّي . ولو وضعوا السكين على حلقِي
(الخطاط) — وَأَنَا لَا أَتْرُكُ هَذَا الْبَابَ . حَتَّى أَمْرُقَ مَا عَلَيْهِ مِنَ الثَّيَابِ
(الاسكاف) — وَرَأْسُ أَبِيهِ وَجَدَهُ . لَا أَخْذُنُ ثَمَنَ الْأَحْذِيَةِ
من جلده

(الحلاق) — أَنَا ابْنُ جَلَّاءٍ وَطَّلَاعِ الثَّنَائِيَا . وَكَمْ لَصْنَعْتِي مِنْ مَنَافِعٍ
وَمَزَايَا . وَلِيَتَنَّى كُنْتَ شَوَّهْتَ خَلْقَتَهُ . وَمَسَخْتَ سَخْنَتَهُ . فَتَفَتَّ شَارِبُهُ .
وَحَلَقْتَ حَاجِبَهُ . تَاللَّهِ لَا أَخْذُنُ بِنَاصِيَتِي هَذَا الثَّقِيلَ الْبَارِدَ . وَلَا سَدَنَ
عَلَيْهِ الْمَصَادِرَ وَالْمَوَارِدَ . وَلَا لُزْمَتَهُ صَبَاحَ مَسَاءٍ . وَلَوْ حَاقَتْ فِي الْمَوَاءِ

كُلُّ هَذَا وَالْخَدْمُ يَكْتُمُونَ وَجُودَ صَاحِبِ الدَّارِ . وَيُتَسَمَّوْنَ أَنَّهُ
لَمْ يَبْقَ لَدَيْهِ دِرْهَمٌ وَلَا دِينَارٌ . وَإِذَا هُمْ أَحَدُ الْفُرَمَاءِ بِالْخُودِ مَنَعُوهُ . أَوْ
دَافَعَهُمْ أَحَدُهُمْ دَفَعُوهُ . وَبَيْنَمَا نَحْنُ نَتَأَمَّلُ وَنَتَعَجَّبُ . وَنَتَقَلَّبُ عَلَى الْجُرْ
وَنَتَقَلَّبُ . وَنَقَابِلُ بَيْنَ سَعْدِ الْمَكَانِ . وَنَحْسِ السَّكَّانِ . إِذَا بَرَجَلِ لِأَفْرَنْجِيٍّ
قَدْ خَرَجَ مِنَ بَيْتِ الْحَرَمِ . وَهُوَ يَلْتَهَبُ غَيْظًا وَيَضْطَرُّمُ . وَيَقُولُ لِلْبَوَابِ
بِرطاته . وَسَوْءُ عِبَارَتِهِ : لَقَدْ طَالِبْتُهُ فَأَبَانَ الْإِفْلَاسَ وَالْعَجْزَ . فَلَمْ يَبْقَ
إِلَّا تَوْقِيعُ الْحِجْزِ . وَالْيَكْ قَائِمَةُ الْبَيَانِ . وَحَذَارٍ مِنَ التَّالِفِ وَالنَّقْصَانِ . وَمَا
كَادَ « مُحَضَّرُ الْمُخْتَلَطَةِ » يَنْتَهِي وَيَذْهَبُ . حَتَّى حَضَرَ « مُحَضَّرُ الْإِهْلِيَةِ »

يلهث من التعب . فسلم البواب ورقة إنذار . فاخذها وهو يدعو بالثبور والدمار . وبعقب ذلك انصرف المحضر . وتبعه جميع من حضر . لاشتداد حر الظهيرة وأوارها^(١) . ولَفَّحَ الشمس للوجوه بنارها . فانهزنا هذه الفرصة فتحرك مندوبنا وتقدم . وخاطب البواب وهو يتلثم . فقال له أنا مندوب المحكمة الشرعية . فقال له لم يكن ينقصنا الا هذه البلية . ثم دفعه في صدره . فردّه الينا بظهره . بعد أن أخرجنا من الجنان . وأغلق باب البستان . فأخذ المندوب بيد الشاهدين وهو يتظلم ويتضرر . ووقف بينهما ينادى في الهواء بالنداء المقرر :

« يا فلان بن فلان بن فلان إن مولانا تاضي مصر يأمر بك بأن تحضر الى المحكمة في يوم الخميس الآتى للنظر في دعوى اغتصاب الوقف الموجهة عليك من قبل فلان بن فلان بن فلان وإن لم تحضر في اليوم المذكور يتصبّ عنك وكيلنا ويسمع الدعوى في وجهه ويحكم عليك غيائياً »
ثم ودّعنا المندوب والشاهدين وانصرفوا الى سبيلهم وبقيت أنا والباشا في دهشة وذهول وحزن وأسف مما رأينا وسمعنا . ثم استند الباشا الى سور البستان ، وشرّع يقول لى وهو فى تأمله وتفكره :

(الباشا) - مازالت بواطن الأمور وحقائق الاشياء تتجلى لى على وجهها منذ غمرنى الدهر فى هذه المشكلات والخطوب حتى تحققت اليوم بأن أمور هذه الدنيا انما تجرى كلها على التضليل والبهتان ، وتدور على التمويه والبطلان ، وتنطوى على النش والتدليس . فبالله عليك من ذا

الذى يرى هذا القصر بزينة وبهجة وخدمه وحشمه ولا يتولاه الحسد
لساكنيه والتطلع الى حسن حظهم وسعادة عيشهم ثم يرجع الى نفسه
فيستخط على حظه من الدنيا ويندب نصيبه من الحياة وسوء قسمته في
العالم !!

(عيسى بن هشام) - لا زلت ترى الحق وتقول الضد بما يتسع
لك من سبيل الهداية والحكمة . نعم ان جلّ من نراه من المنعمين المترفين
والأغنياء الموسرين لو كشفت عن باطن أمرهم وحقيقة أحوالهم وخبايا
معيشتهم من وراء الجدران لوقفت على ما يوجب الأسى والأسف ،
ويدعو الى الرحمة والشفقة لا ما يدفع الى الحسد والغبطة . ولأيقنت ان
ان الرجل الأجير الذى يستخرج قوت يومه منغمساً بعرق جبينه هو
أسعد منهم حالاً وأنعم بالآ . والغالب انه كلما كان مظهر العيش زاهياً
زاهراً كان باطنه مقْتِماً مظلماً . وأشد ما يكون من البلاء على أهل هذه
الطبقة أنهم يقضون أوقات حياتهم فى الظهور بين الناس على أغرب حالات
التصنع ، فيكون الواحد منهم غريقاً فى بحور الهوم والاكدار وتراه يقسر
نفسه بين الملأ على التظاهر بالسرور والانشراح . وأكثر ما يكون فى
الضيق والافلاس تراه يتعرض للتبذير والإففاق ، فهو على الدوام يتقلب
بين الضيقين ضيق العيش وضيق النفس وان كان عظيم الثروة كثير الغنى ،
فانه لا غنى مع ازدياد الحاجات ، ولا مال يكفى مع تجمد الرغبات
(الباشا) - قد كانت الحال فى أيامنا على العكس . إن كان لا يسرك

من الرجل ظاهر حاله فانه يرضيك باطن أمره ، وربما كان يجتهد في التظاهر بلباس الفقر اذا بلغ حد الغنى ويؤدى الشكوى اذا أَسْرَّ الرضى قال عيسى بن هشام - وقضينا مدة في مثل هذا الحديث وأنا مهمل مستبشر بما أراه ينمو ويشرف في نفس الباشا من التعلق بالمباحث العقلية والتعمق في معرفة الأخلاق النفسانية حتى صار من دَيْنَدِنِه أن يستنبط من كل حادثة يشاهدها ما يرتقى به الى عالم الفضيلة والحكمة وازددتُ يقيناً بأن الرجل المرتفع القدر لا يزال غرّاً بالأُمور غافلاً عن حقائق الأشياء فاذا وقع في أشراك الخطوب استنارت بصيرته واستضاءت قريحته وعَلِمَ بطلان ما كان فيه بحقيقة ما وصل اليه

ثم حانت منا التفاتة الى ما وراء السور فرأينا خدام البيت وحشمه قد اجتمعوا حلقة وهم يتحاورون ويتجادلون فسمعنا البواب يتدىء فيقول :

(البواب) - ليت أُمى لم تلدنى وليت أبى لم يعلمنى رسم الخط، فقد كَلَّتْ يَدٌ وَحَفِيَ قَلْبٌ مِنْ طَوْلِ التَّوْقِيعِ بِالاسْتِلامِ عَلَى الْإِنْذَارَاتِ وَالْمَحَاضِرِ فَقَلَّمَا يَمُضِ يَوْمَ الْأَوَّلِ فِيهِ مِنَ التَّوْقِيعَاتِ مَا لَيْسَ لِرَئِيسِ قَلَمٍ فِي دِيْوَانٍ، فَبُئِستَ الْمَعِيشَةُ مَعِيشَتِي وَبُئِسَ الْحَظُّ حَظِّي، وَلَيْتَنِي كُنْتُ قَادِرًا عَلَى الْإِنْضِمَامِ إِلَى صَفِّ هَؤُلَاءِ الْمَطَالِينِ وَالنُّرَمَاءِ فَأَخْلَصَ بِجِزءٍ مِنْ أَجْرَةِ الشُّهُورِ الْمَتْرَاكَةِ، وَمَنْ لِي بِالتَّبَاعِدِ عَنْ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي انْتَشَرَ فِيهِ جَرَادُ الْحَبْزِ وَأَزْعَجَتْ مِنْ فِيهِ أَصْوَاتُ النُّرَمَاءِ وَأَزْعَجَنِي تَرَدُّدُ الْمُحْضَرِّينَ عَلَى صَنْدُوقِ ثِيَابِي

(الكاتب) - لست أدري والله ما يصنع صاحب البيت وماذا تحتمل حالته وكيف لنا بالمعبشة معه ولم يبق عنده كثير ولا قليل . وإن صدق ظني كانت عاقبته من أقبح ما تتصورونه في سوء العواقب ، فقد أحسست من كثرة حركته واضطرابه في هذه الايام أنه يدبر لنفسه أسوأ تدبير للخلاص من ضيقه ليختتم أمره بأقبح الخواتم . ويعلم الله أنه لولا ما ألتقطه في أشغاله من هنا ومن هناك لما تيسر لي القيام بقوت عيالي بعد أن انقطعت عنا أجور الشهور . وقد دعاني هذا الامير أمس وأعطاني خاتماً من الياقوت لأبيعه فذهبت به الى الجوهري الذي كنا اشتريناه منه بأكثر من مائة جنيه فلم يدفع لي فيه الا خمسة وعشرين ، فبعته إياه وُعِدت للامير بالدرهم فكانما فككت الأسير من القيد وأتقذت الغريق من الأبح

(الوصيف) - الآن انحلّ ما كان مشكلاً وانكشف لي ما كان غامضاً فاني رأيت معه أمس ذهباً كثيراً لم أهتد الى مورده أعطاني منه عشرة جنيهات وأمرني أن ابتاع من أخيه هذا الكلب الذي تروونه مؤلماً بعلاعبته منذ الصباح

(الفرّاش) - وأنا اشتريت له من صهره تلك البيّنة بخمسة جنيهات ، وأخذت له غرفة في « تياترو الاوبرا » بثلاثة ، وزجاجة عطر باثنين

(الكاتب) - فعلى هذا لم يبق معه الا خمسة جنيهات ولا بد أن

أبادر في الحال لمطالبته بإيجاز الوعد الذي وعدهُ لصاحب الجريدة المعلومه حتى يسكت عنه ويكفّ عن التعرض له

(السائق) — وأنا أذهب اليه أيضا لأخذ منه عن الريش والإسفنج

الذي وعدني به ما دام معه من الدراهم بقيمة

(الخصي) — انكم لفي نعمة وغبطة بما تناولونه من وراء هذا البيع

وهذا الشراء من الريح، ولكن غيركم من الخدم في الحرم قد اقتنعوا من العيش بيسير الاكل والشرب من غير أجر، وصبرنا على هذه الحال وفاء بالعهد لأهل البيت . وباليات هذه النعمة تدوم فقد سمعتم اليوم وعيد حضرة البك الجزار، كما سمعتم أمس بانذار البك الخباز

(السقاء) — ما أظن أن لنا حيلة نلجأ اليها في آخر الامر الا أن

نطلب منه إحالة أرزاقنا على ريع الوقف الذي سلّم وحده من الحجز

(البواب) — لقد خاب ظنك وضاع أملك، فان هذا الوقف الذي

كنّا نرتكن عليه قد دخل في دور القضايا والدعاوى، وجاء اليوم مندوب المحكمة الشرعية بالإعذار الأخير، ومنّ يعلم ماذا يكون من أمره

وسمنا الجرس يدق من جانب الحرم فتشنت الجمع نحو المطبخ لحلول

وقت الغداء، فانصرفنا من موقفنا واكتفينا بما شهدنا

قال عيسى بن هشام — وحلّ اليوم الموعود لجلستنا في المحكمة

الشرعية فتوجهنا اليها ولم يحضر المدعى عليه كعادته، ولما فتحت الجلسة تقدمنا اليها وشهد أمامها شهود المعرفة ثم اطلع الاعضاء على الإعذارات

الثلاثة ، فوجدوها جامعة للشروط المقررة ، فأمروا بأن يُنصَب للمدعى عليه وكيل يكون موثوقاً بأمانته معروفاً بالمحافظة على حقوق الغائبين ، فاختاروا من اختاروه وكلفوه شرح دعواه مكان المدعى عليه ، ثم أخذ محامينا ينظر في صورة الوقفية التي استخرجناها من الدفترخانة ليعدّد الأعيان ، فلم يجد فيها جميع ما عددناه له ، بل وجد منها جزءاً قليلاً لا يقوم بالتعب في إقامة القضية وخشي أن المحكمة لا تحكم لنا بغير الميّن في « الصورة » من المقارفتضيع علينا بقية الحقوق ، فطلب من الجلسة تأجيل سماع الدعوى زمناً يتمكن فيه من البحث عن بقية تلك الأعيان الموقوفة ، فوافقهُ الوكيل المنسوب للغائب ، فتأجلت القضية الى مابعد الفسحة القضائية من العام

وخرجنا من الجلسة مع المحامي وقد فُتح له ولغلامه باب احتيال جديد . ولما سألناه عن المظان التي تُنبثنا عن بقية أعيان الوقف تلكا في الجواب ، ثم أحالنا على الغلام وتركنا معه وانصرف . فقال لنا الغلام لامظنة عندنا غير ديوان الأوقاف ، لأنه يوجد بهذا الديوان سجلات تسجل فيها مثل هذه الأعيان ، وطلب منا أن نتفق معه على أجر معلوم للسعى وراء هذا الغرض . فوافقنا على هذا المطلب الجديد . والله يفعل بنا ما يريد

الطب والاطباء

قال عيسى بن هشام — ولما حال أمرنا من المحكمة الى الأوقاف .
وعلم الباشا بما هنالك من قلة الأنصاف . وأنه لا بد لنا من أن نطيل
الالتماس والرجاء . ونكرر الدعاء والنداء . ونكثر من الغدو والرواح .
في كل مساء وصباح . فنَبِلَ في هذا الديوان جِدَّة الزمن . وتقف عليه
وقوف العاشق على الدَّمن . لما هو مستفيض من اختلال أعماله . واعتلال
عماله . وفساد إدارته . وسوء نظارته . نَزَلَ به من الهم والنم . ما أورثه
الضِّي والسَّقم . وحلَّ به من الحزن والكمد . ما أخلَّ بنظام الجسد .
فقدًا هزيلًا نحيلًا . ووقع مريضًا عليلًا . فأشرتُ عليه بالطبيب . قال
بخطيء ولا يصيب . وماذا يُجدي العلاج وما يفيد . وللآجال توقيت
وتحديد . فأقنعتُهُ بأن الاعتقاد بتحديد الأجل . لا يمنع من مداواة العلل .
وسبحان من أرشدنا الى الدواء . عند حلول الداء . لالتماس الشفاء .
فقبل إشارتي بعد طول الإباء . جئت له بأحد الأطباء . من ذوى الشهرة
بالبراعة . في ممارسة الصناعة . فجلس بجانبه يحس نبضه ويُقرع صدره .
ثم استلم قلمه وولاه ظهره . وأخذ يرقم أصناف العلاج . بيدٍ دأبة
الاختلاج . ثم قال دونكم هذا الدواء . جرعة في الصباح وأخرى في
المساء . ولا تأخذوه الا من صيدلية فلان فإنه صادق مؤتمن . لا يفتش
في التركيب ولا يغلي في الثمن . ثم وقف عند المرأة يسوَّى مفرق شعره .

ويصقل ما استطال من ظفره . ويرسل اللحظات تباعاً نحو الباب . بنظر مستراب . كأنه يريد أن يستشف ما وراء الحجاب . من آنسة في الخدر أو كعاب . ولما أعوزَهُ ما تفقده . طلب أن يغسل يده . وقال انى أرى حالة المريض شديدة . تقضى بعميادته أياماً عديدة . حتى ينتهى المرض من شدته . ويتلطف من حدته

ومضت مدة والطبيب يذهب ويعود . ودرجة الحرارة لا تفتأ في صعود . والمريض يَهْدَى في شدة حُمَاه . وأنا أنضرع وارْتَحَاه . حتى كدت أياأس من الشفاء . وأسلم لحكم القضاء . ولكن زارنى أحد الأصدقاء . ممن يولعون بالطب والأطباء . فقال لى وهو يبصر حالته : مَنِ الطيبُ الذى يعالج علته . فقلت هو الشهير فلان . قال لى علمتُ السبب الآن . وأنا أنصحك أن لا تعتمد فى الطب . الا على أطباء الغرب . أولئك قوم قد برعوا فى معرفة الامراض . وتشخيص الأعراض . وأحاطوا بكل جليل وحقير . من البسائط والعقاقير . فالأ دواء لا تستعصى فى أيديهم . وليس بين الوطنيين من يماثلهم أو يدانيهم . وأنا آتيلك بمن هو فيهم أوسع معرفة وعلماً . وأشهر صيتاً وإسماً . وقام فعاد بأجنبي يَهْدُ الأرض بخطواته . ويكثر من إشاراته ولَفَاتِهِ . فتقدم نحو المريض فجسّ ولمس . ثم قطب وعَبَسَ . ووضع طرف منديلِهِ على أنفه . وقال لنا فى صلفه وعُنفه . إن هواء الغرفة فاسدٌ قتال . وداء المريض داء عضال . ولا رجاء الا باتباع إشارته . فى تواتر زيارته . ثم هَزَأ بما رآه من دواء الطبيب الأول . بعد أن

كتب علاجه بوصفٍ مطوّل . وقال لا يُحسن تركيب هذه الأجزاء .
 الا صاحب «صيدلية الشفاء» . وما زال هذا الطبيب أيضاً يذهب
 ويحضر . والعلاجُ يتجدد ويتكرر . والمريضُ يتألم ويتضجر . والمرضُ
 باقٍ لا يتقدم ولا يتأخر . حتى جاء في خاطري أن أجمع منهم جماعة
 للاستشارة والمداولة . فنخلص من هذه المراوغة والمطاولة . فلما اجتمعوا
 وقعوا في الحِجَابِ واللجّاج . ولم يتوافقوا على تشخيص الداء أو تقرير
 العلاج . وأقام كل واحد منهم منفرداً برأيه . لا يهتدى إلا بهديه .
 وسمعتَ ينهم مَنْ يقول لرفيقه . لا ينبغي أن نوافق فلاناً في تحقيقه . كما
 أنه لم يوافقنا على رأينا في الاستشارة الماضية . وأنكر علينا جميع أدويتنا
 الشافية

ثم خَلَفُونِي ونزلوا على الخلاف . وإن كانوا اتفقوا في تناول الاجرة
 عند الانصراف . وكنت شاهدتَ بينهم طبيباً يُظهر نفوره من طريقتهم .
 ويجري معهم على غير حالتهم . فأرسلتُ في أثره مَنْ دعاه . وكاشفتهُ بأنني
 اخترته على سواه . فقال لي إن علة المريض بسيطة فيما أراه . لا يجب فيها
 هذا الاختلاف والاشتباه . ولعلها ناشئة عن انفعالات نفسانية . من
 هومٍ بخافية . فقلت له نعم أصبتَ في النظر . ثم أخبرتهُ بحملة الخبر . فقال
 الآن تَبَيَّنَ أن معالجة الأطباء . كانت بغير اهتداء . ولا يلزم لعلاجه الا
 الامتناع عن هذه المركّبات . والاكتفاء ببعض البسائط من النبات . مع
 جودة الغذاء . وتبديل الهواء . فأيقنَّا حينئذٍ بمهارته . وسأمتنا لإشارته . فلم

يعض الا بضعة أيام حتى انتقلنا من دَور السقم والاعتلال الى دَور النقاهة والإبلال . وجلس الباشا ذات يوم الى الطبيب يشكره على حذقه وبراعته . ويحاورنا في الحديث على حسب عادته :

(الباشا) - كيف اهتديتَ أيها الطبيب الى ما لم يهتد اليه سواك من الأطباء فأدركتَ سبب علتي وأحسنْتَ تشخيص مرضي وأصبحت في اختيار العلاج فكان الشفاء . لاشك عندي أنك نادرة عصرك وناطقة زمنك

(الطبيب) - لافضل لي يستحق كل هذا المدح والثناء ، والسبب في خطأ الأطباء أن العدد الأعظم منهم يسرون في ممارسة صناعتهم على طريقة معينة ودائرة محدودة قررتها العادة فيهم فهم لا يتخطونها ولا يتعدونها ، فترى كل واحد منهم يحرص في ذهنه عدة أمراض معلومة وعلى معروفة فيطبق عليها كل ما يراه من الأعراض التي تظهر له في حياة المرضى - والأعراض تختلف وتشتبه - فيحكم بمعرفة الداء ويأمر بالدواء المعين لذلك المرض المعين بقطع النظر عن الفحص والتأمل في حال المريض أو البحث والتدقيق في معرفة الأسباب المادية والأديية التي يرجع منشأ المرض اليها ، ولا يكلف ذهنه التبصر أو التصرف على حال من الأحوال ، فيعيش في أسر العادة وقيد الطريقة لا يعبأ بالبحث في اختلاف الأمزجة وتباين الغرائز وتفاوت المعاش وتغاير القوى في البنى فلذلك يكثر منهم الخطأ ويقل الصواب

(عيسى بن هشام) - كأنك تريد أنهم يكونون على مثل حال أهل
الصناعات الآلية الذين يحل فيهم مجرى المادة محل أعمال الفكرة فتنتقل
أيديهم على وجه واحد وتنصرف أفكارهم عن التصرف أو التفنن في
وجوه شتى

(الطبيب) - نعم لقد أصبت في التشبيه . وغير ذلك فإن بين
هؤلاء الأطباء من لا يرى في صناعته إلا آلة لا اجتلاب الرزق واصطياد
الربح واستدراار الدرهم والدينار حتى يصلوا الى اكتناز الأموال ويصبحوا
في مصاف أهل الغنى والثراء لا يبالي أحدهم أى باب طرّق ولا أى
سبيل قصد للتوصل الى هذا الغرض المطلوب فكل الوسائط لديه مقبولة
وكل الطرق عنده مسلوكة ، فهو يدخل على المريض طامعاً في ماله لا
طامعاً في شفائه ، فيحتال له أنواع الحيل لتطول مدته في المرض فيتسع
نصيبه في الأجرة ، فيعطيه من أصناف الادوية مالا ينفع ولا يضر ،
أستغفر الله بل ما يضر ولا ينفع . ليبقى المريض في حاجة دائمة الى تجديد
العيادة والزيارة ، وفي كل مرة يصف له نوعاً حديثاً وصنفًا جديداً من
المركبات التي يعظم ثمنها بمقدار ما يقل نفعها ، وينفسح له بذلك طريق
للكسب والربح فوق أجر العيادات يرصده له الصيدلى في دقتر شركتها
ليقاسمه أرباح تلك الأثمان الفادحة لتلك الادوية المتكررة . فيضرب
الطبيب في صناعته بقدر حين . ويصيب في الكسب بسهمين . بمد
أن يملأ جوف العليل من كل دواء ضار . ويُنحلي كيسه من كل فضة
ونُضار

ومن أولئك الأطباء مَنْ يجعل همه منصرفاً الى الإبداع والتفنن .
 في وجوه التزيين والتزين . ويسلك سبيل التصنع والتكلف . في أبواب
 النظرف والتلطف . ثم يتفنن ما استطاع في حسن المحاضرة . ويتعمد رقعة
 الحديث والمسامرة . ويتقلب في أساليب المؤانسة والمجاملة . وأفانين
 المغامرة والمغازلة . ليقوم له بين النساء بضاعة رائجة . وسوقاً رابحة . فيحل
 من أهل الحرم محل الجلوس المحبوب . والأأنيس المطلوب . وينزل من
 ربات الخدور . بمنزلة المحبِّ المكرَّم . ويكون بين مقصورات القصور .
 أكرم زائر في أرحب منزل . والنساء لا يعدمن العلات . على العلات .
 ولا تموزهنَّ الملل . في اختراع الملل . لاسيما إن كانت دعوى المرض .
 تُدنى من نيل الغرض . فيكون للطبيب ينهن زيارات وعيادات .
 وروحات وغدوات . والطبيب كما يعلم الناس مؤتمن الجانب . يؤتمن فوق
 الأهل والأقارب . تُفتح أمامه الأبواب . ويُكشف من دونه الحجاب .
 فترى له زيارات بين كل صباح ومساء . تُكتب له بوافر الأجر وسوء
 الجزاء . بوافر الأجر في دفتر حسابه . وبسوء الجزاء يوم عرضه وحسابه .
 ومنهم من يتطلع الى ما فوق ذلك فيطعم في ثروة البيت بأكملها وفي
 حيازة الأموال بأجمعها فيديم التردد ويؤالى العشرة ويحكم الصلة ويلحم
 الخلطة ، حتى اذا تآربت عقدة الحبل تم الاتفاق بينه وبين ربة البيت
 وصاحبة المتاع على التأهل بها ، لا التفات هناك الى تفاوت الأقدار ولا
 عناية بوجوه الكفاءة ، فتصبح له حليلة . بعد أن كانت خلية ، وينتهى ما
 كان من أمر الداء والعلاج . بما تم من أمر العقد والزواج

(عيسى بن هشام) — الآن تَبَيَّنَ لى ما كان على غامضاً واتضح ما كان مبهماً من أمر الطيبين الذين كانوا يعالجون الباشا في كثرة الزيارة وقلة نفع الدواء وشدة التدقيق في تعيين الصيدلية وطول استراق النظر لما وراء الحجاب

(الطبيب) — أجل . هذا هو حال بعض الأطباء مع الأعلام وأشباه الأعلام . فاما حالهم مع الأصحاء وذوى السلامة من بعض الخلق فهو أعجب وأغرب . وما يَعْزُبُ عنك أن كثيراً من الموكعين بسوء التقليد للغريبين والمناهلكين على حب التظاهر بمظهر الرفه والترفع يتغالون في الاحتياط لأبدانهم ويبالغون في التوقى لأجسامهم ، فينمو فيهم وسواس المرض والسقم فتراهم يتوجسون من كل أكلة شرا . ويتوقعون منى كل شربة ضرا . ويتخيلون أن فى كل لقمة تحمة . وفى كل جرعة غصة . فلا يتناولون قدحا من الماء . أو يستنشقون نفسا من الهواء . الآ وفى اعتقادهم انه لا يخلو من كل هامة سامة . أو جرثومة ضارة . ولا يزالون على هذه الحال حتى يمتنعوا عما فيه صلاح أبدانهم من المأكول والمشرب ويُبعدوا ما استطاعوا فى طرق الحمية من غير علة ولا داء فيبدلوا الماء الزلال بالماء المعدنى ، ويهجروا الأغذية المناسبة لتركيب الجسم وقوام البدن الى الأطعمة الغريبة عن أذواقهم المنافرة لنسيج أبدانهم ، فيضطرب نظام التركيب وتضعف البنية ، ويصبح كل واحد منهم جازما بأن به داء دفيناً وما به من داء وعلة . كامنَةً وما به من علة ،

فيشكو أمره الى الطبيب فيكون الطبيب حينئذٍ أسرع من وهمه وخياله في اختلاق علة له واختراع مرض دون أن يفحص أمره أو يبلو خبره ، فينزل به ما ينزل من بوائق الخوف والفرع ، ويؤالي عليه الطبيب ما يؤالي من صنوف الخلاصات المعدنية والجواهر السامة والمركبات الحادة فيترصف على مآذته من ألوان العلاج والدواء أضفاف ما يترصص عليها من ألوان الطعام والغذاء ، ويتقيد المسكين بعميشة لا تناسب غريزة البنية ولا فطرة المولد ولا طبيعة الإقليم ، ولا توافق الآمن جمدت عروق آبائه تحت جليد لوندرة ، لا من ذابت مفاصل أجداده تحت هجير القاهرة ، فلا يلبث أن يأتي على ما بقي في الجسم من قوة ، وما في البدن من صحة ، ويميش إن عاش في يد الطبيب حياً كيت . ويكون بين الاموات والأحياء . لا من هؤلاء ، ولا من هؤلاء . الى أن يلتحد في لحده . شهيد طبيبه وقتيل يده . وهناك يخلق بأهله أن يكتبوا بنجيم الدمع لا بسواد المداد . ما كتب على قبر عظيم من قدماء القواد : « لم تمتنى قوة الاعداء ، وانما أهلكنى قوة الاطباء »

ولقد سرى هذا البلاء فينا مسرى العادة فأصبحنا لا نرى في جمهور من نراهم من المترفين المقلدين الا شاكياً من ألم أو متألماً من مرض ، فراجت سوق الطب وعظم عدد الأطباء وغدت حوانيت الصيدالة في الاسواق أكثر عدداً من حوانيت الخبازين والقصابين . وصار من متاع البيت وجهاز العروس صناديق الدواء وآنية العلاج ، وقتل أن تجد اليوم بيتاً خالياً من مريض ولا مجلساً ليس فيه من سقيم

(عيسى بن هشام) — كأنك تحاول أيها الطبيب الآسى أن تقنعنا بقوة البرهان وجلّى البيان ان لا فائدة من الطب ولا منفعة في الأطباء (الطبيب) — حاشا لمثلك أن يشتبه عليه القصد أو أن يذهب بقولى خلاف مذهبه ، وما قصدت بكلامى هذا كله الا أن أظهر عيب بعض الأطباء فى ممارسة صناعتهم دون التعرض لصناعة الطب فى ذاتها ، على انه يمكننى أن أضيف الى ما قلته ما قد قيل من قبل وهو أن العلم عِلْمَان علمٌ تستنير به البصائر وتهتدى به العقول فهو جميل الاثر . محمود الورد والصّدَر . وعلمٌ تصدأ منه الأفهام . وتضلُّ به الأحلام . فهو ونبى المرعى . سبيء العقبى . وكذلك الطبُّ طبَّانٍ طبٌّ يصحح الأجسام . ويشفى الأسقام . فهو عظيم النفع جليل القدر . وطبٌّ يورث الأمراض ويولد الأدواء فهو شديد الوطء عظيم الضرر . ومدارُ الأمر كله على حسن الاهتداء للتمييز بين النافع والضار والتفريق بين الطبيب والحديث . ولا تتوهمن أيضاً اننى أتناول بكلامى جماعة الاطباء قاطبة فان فيهم الصالح كما أن فيهم الطالح ولكنى أعنى من بينهم أولئك الذين يطلبون مجرد الربح من مباشرة الصناعة مع الجهل بها ، أو يتعمدون الحيل وينصبون الأشرار حتى يعتل جسم الصحيح ويُزمن مرضُ المريض ليكون لهم من وراء ذلك ما يسدُّ بعض شرهم فى الفنى واليسار . وما أولى سائر الناس بأن يُثبتوا بينهم عادة أهل الصين فى معاملة مثل هؤلاء الاطباء . وذلك أنهم يجرون على أطبائهم العطاء ما داموا أصحاء ، فاذا نزل بأحدهم المرض انقطع العطاء

عن الطبيب حتى يعود المريض الى سلامته ، فيكون من مصلحة الأطباء
على الدوام ان تطول مدة السلامة وتقصّر مدة العلة ، على خلاف الحال بيننا
وما ينبغي أن ينصرف شيء مما قلته الى بقية أهل الصناعة من ذوي
الحذق والامانة الذين يوفون الصناعة حقها ويؤدون الواجب عليهم فيها
حق أدائهم ، والذين يراعون في ممارستها ما يكون من تفاوت الأحوال
في العلل والامراض وما تقضي به أحكام البلاد والعادات واختلاف
الأمزجة والطبائع ، والذين يعملون لأنفسهم من حسن تبصرتهم وكثرة
تجربتهم عُدّة حاضرة لمقاومة الأمراض وصحة تشخيص الأدواء ولطف
تناسب العلاج وحسن الإرشاد لرفع الوسواس ودفع الخيال وما يجرى
هذا الجزى من استعمال ما يليق بأهل الإقليم الحار مما لا يليق الا بأهل
الإقليم البارد واجتناب ما لا يوافق أمزجة أهل البلاد الشرقية من المركبات
المجهّزة لطبائع أهل البلاد الغربية . ولقد طالما سمعت عن أشياخي في
الصناعة أنه يجب على الطبيب في مصر أن يختار ما يكون من الأدوية
وغيرها ألينَ قوة حتى لا يكون على طبيعة المصريين فيها كلفة ولا يلحق
أبدانهم منها مضرة وأن لا يقدم على كل الادوية المسطرة في كتب
أهل الغرب ، فان أكثرها عُمّت لا بدان قوة البنية عظيمة الا خلاط
على خلاف المهود في أهل مصر ، فيتمين على الطبيب حينئذ أن يتوقف
في إعطاء هذه الأدوية للمرضى ويختار ألينها وينقص من مقدار
تركيبها ويبدل كثيراً منها بما يقوم مقامه ويكون ألين منه ، وأن لا يهمل

الاعتماد على الأدوية الطبيعية وهي البسائط واللين والحمية والنصد والاستحمام والرياضة والهواء ، وأن يكون على الجملة مولعاً بلذة الصناعة في ذاتها لا يمدادها لديه سواها من سائر اللذات ممتلىء النفس بجلال قدرها وشرف منزلتها من بين الصناعات والفنون ، فتعظم عنده نفسه ويشرف في عينه قدره فيترفع عن سفالة الطمع ورحطة الشره ويزهد في نيل الغنى من طريق التحايل على اقتنائه من وراء هذه الصناعة الجليلة ، وكيف تزدهيه لذات العالم أجمع من مال وجاه أو زخرف ومتاع في جانب لذة الإتقان في الصنعة والإحسان في العمل . وأية رتبة من مراتب الخلق تماثل رتبة الطبيب العامل ، وهو القيم على قوام الأبدان والكفيل بصحة الأجسام والقيب على اعتدال الأمزجة والمشف على سلامة الجوارح . لا بل أية صناعة في الوجود تفضل صناعته وهي أمس الصناعات بمخلقة الصانع الفاطر وتكوين المبدع القادر ، وإذا كان قد بلغ عجب الصناعة بأحد النحاتين المصورين في الزمن السابق لما ازدهاه جمال الإتقان والإحكام في صورة إنسان تحتها من المرمر أن استخفه الطرب واستفزه لذة الصنعة فمضى عليه فأتمى على التمثال بمنحاته يثيره على نطق اللسان بمد أن أحكمت فيه خلقة الإنسان ، ويكلف الجهاد ، وقد أقتنت فيه الصنعة ، أن يخرج من الجمود إلى الحركة ، حتى أطار عنه بعض أجزائه وبقي التمثال قائماً إلى اليوم يفصح بما فيه من التلف عن نهاية الكمال في جمال الإتقان ومقدار لذة الإحسان في عمل الإنسان . فإياك بلذة

الطبيب ومقدارِ طريقه في صناعته إذا هو شاهد أجسام الأحياء أمامه وقد استخلصها من شوائب الأمراض واستنقذها من آفات العاهات ، وردّها الى سواء التكوين ، وأعاد نظام الخلقة الى أصله وانتساق التركيب الى شكله . فهل يجوز في العقل لمن يدرك كنه هذه الصناعة من الأطباء أن يرغب عن تلك الدرجة الرفيعة الى الدرجة الوضيعة فينزل بصناعته الى مصاف أهل التجارة والسلع لا يفقه فيها من معنى سوى اصطیاد الدرهم ، ولا يعلم لها من مزية سوى الاحتيال على اكتساب الأموال ، لاجرم أن الطبيب المدرك يفضل لذة صناعته في ذاتها على كل لذة ويسلو عندها أعظم مزية في العالم وأعلى رتبة . وفصل الخطاب . في هذا الباب . أن يكون مَبْلَغُ همته . وَجَمْعُ لذته . أن يرى المريض بعد شفائه . بوجه لامع كالدينار . لا أن يراه في طول شقائه . بنظر طامع في درهم أو دينار

(قال عيسى بن هشام) — فأعجبني من هذا الطبيب صدقه في مقالته . وحسن نظره في صناعته . وسألت الله لجماعة الأطباء . أن يهتدوا مثل هذا الاهتداء . ثم إنى ودعته بعد أن عيّن لنا البقعة المناسبة لتبديل الهواء . وقرّر ما يناسب حال المريض من العلاج والغذاء . الى أن يتدرج من النقاهة الى تمام الشفاء

الطاعون

(قال عيسى بن هشام) — فَطَاوَعْنَا الْقَدْرَ . وَعَزَمْنَا السَّفَرَ . التَّمَاثُا
لِبَرِّ الدَّاءِ . بِتَبْدِيلِ الْهَوَاءِ . وَنَزَلْنَا مِنْ ضَوَاحِي الْأَسْكَندَرِيَّةِ قَصْرًا إِذَا
رَوْضَةٌ غَنَاءُ . فِي بَقْعَةٍ فَيَحَاءُ . لَا تَسْمَعُ فِيهَا إِلَّا هَدِيلَ الْوَرَقَاءِ . إِمْقَاعًا عَلَى
هَدِيرِ الْمَاءِ . فَإِذَا بَلَغَ الْمَوْجُ جَنَاحَ النَّسِيمِ . فَفَرَفَرَ عَلَى ذَلِكَ الرُّوضِ
الْبَسِيمِ . تَنَزَّاهُ الْمَاءُ دَرَا عَلَى تَيْجَانِ الزَّهَرِ . وَرَقْرَقَهُ دُمُوعًا فِي أَحْدَاقِ
الْعَبَّهِرِ^(١) . هُنَاكَ يَتَمَنَّى الْعَاشِقُ لَوْ اسْتَعَارَ هَذِي الدُّمُوعَ لِمَاجِرِهِ . فَيَسْتَأْنِ
بِهَا قَلْبَ شَاجِيهِ وَهَاجِرِهِ . وَتَوَدُّ الْغَانِيَةُ لَوْ نَظَّمَتْ مِنْ ذَلِكَ الدَّرِّ عَقْدًا
لِنَحْرِهَا . أَوْ نَطَاقًا لِنَحْصَرِهَا :

إِنَّ هَذَا الْمَكَانَ شَيْءٌ عَجِيبٌ تَضْحَكُ الْأَرْضُ مِنْ بَكَاءِ السَّمَاءِ
ذَهَبٌ حَيْثُ مَا ذَهَبْنَا وَدُرٌّ حَيْثُ دُرْنَا وَفُضَّةٌ فِي الْفُضَاءِ
أَوْ قُلْ إِنَّهُ الْمَجْرَةُ قَامَتْ فِيهِ زَوَاهِرُ الزَّهَرِ . مَقَامُ الْكُؤَاكِبِ
الزُّهَرِ . وَعُنَاقِيدُ الْكُرُومِ . مَقَامُ ثَرِيَا النُّجُومِ . وَأَنْوَارُ الْأَثَارِ . مَقَامُ الشُّمُوسِ
وَالْأَقَارِ . فَأَقْنَا فِي ذَلِكَ الظِّلِّ الْوَرِيفِ . مَدَّةً مِنْ أَيَّامِ الْخُرَيْفِ . وَمَكْنَا
نَقْطَفِ الْقَطُوفِ الدَّانِيَةِ . بَيْنَ تِلْكَ الْأَعْيُنِ الْجَارِيَةِ . فِي عَيْشَةٍ رَاضِيَةٍ .
لَا تَسْمَعُ فِيهَا لِأَغْيَةٍ . آخِذِينَ بِمُسْتَنِّ النَّحِيزَةِ^(٢) . وَمُجْتَنِّ الْغَرِيزَةِ . فِيمَا
يُوَافِقُ صِحَّةَ الْبَدَنِ مِنْ طَعَامٍ شَهِيٍّ . وَغَذَاءٍ مَرِيٍّ . وَرِيَاضَةٍ لِلْأَعْضَاءِ .

دون تعب أو شقاء . وتطهير للنفس من أدران الكدر . بلطف البحث وحسن النظر . وتجريد للصدر من عوامل الهواجس : وغوائل الوسوس . بالتبصر في حقائق الوجود . والتمن في صنعة الخالق المعبود . وأفضت بصاحبي طيب هذه الإقامة . الى المقصود من تمام العافية والسلامة . لولا أن راعنا شيطان من الإنس بخبر الطاعون . فقلنا إنا لله وإنا اليه راجعون . وسبحان الله والحمد لله ما زلنا نعلل النفس . بزوال النحس والنكس . وما زالت تناوبنا النوائب والأحزان . وتراوحنا النوازل في كل منزل ومكان . وانبرى الباشا يسألني عن هذا الطاعون وأخباره . وما يتوقعه من هول أفعاله وآثاره . فأجبتُهُ بأنه لا يلبث أن يصبح أثرًا بعد عين . وما أصاب إلى اليوم الا عدد أصابع اليدين . وقريباً يفرّ من أماننا هذا العدو المناجز . ورُدّد في أثره قول الراجز :

قد رَفَعَ اللهُ رِمَاحَ الجِنَّ وأَذْهَبَ التعْذِيبَ والتَّجَنِّيَ

(الباشا) - كيف تدعى ذلك وترعّمه ، وما عهدت منك إخفاء للحقائق ولا تمويهاً للوقائع . وللطاعون في مصر أفاعيلُ تدوب لها المآقي والأحداق وتنفطر منها القلوب والا كباد ، وهو عندنا من أمراض مصر الموضعية التي تحدث عند اختلاف الفصول . والمصريون يتوقعونه لكل ربيع حتى أطلقوا عليه كلمة « الفصل » ، فيقولون جاء « الفصل » عند ظهور الطاعون ، فترتاع النفوس وتنخلع القلوب وتخور القوى وتذهل العقول ، ثم يصول صولته ويفتك فتكته فلا يقف سبيله عند

حاجز ولا يمنع اندفاعه مانع ، ولا تنفيض قرارته حتى يخرب القصور .
ويعمر القبور . فتصبح الاطفال يتامى . والنساء أيتامى . ويمسى الخلق بين
ثاكل ومشكول . وحامل ومحمول : هذا يبكي أباه . وذاك يندب أخاه .
وهذه تؤكول على أهلها . وتلك تنوح على بعلها . وقد سمعتُ عنه فى زمانى
من أحد المعمرين يقول فى وصفه عند وقوعه فى سنة ١٢٠٥ :

« ابتدأ الطاعون فى شهر رجب سنة ١٢٠٥ ودَاخَلَ الناسَ منه وهم
عظيم واشتد بطشه وقوى بأسه فى رجب وشعبان ومات به من لا يُحصى
من الاطفال والشبان والجوارى والعبيد والماليك والأجناد والكُشَاف
والأمراء ، ومات من الصناجق أمراء الألوف اثنا عشر صنjqاً منهم
اسماعيل بك الكبير . وقد أفنى عسكر القليونية والأرنؤوط المقيمين
بمصر القديمة وبولاق والجيزة وكانوا لكثرة الموتى يحفرون حفراً
بالجيزة بالقرب من مسجد أبى هريرة ويلقونهم فيها . وكان يخرج من
بيت الامير فى الجنائز الواحدة الخمسة والستة والعشرة ، وازدحم الناس
على الحوانيت يلتمسون ما يجهزون به موتاهم وبطلبون من يحملون
النومر فلا يجدونهم ، ويقف الناس يتشاحنون ويتضاربون على ذلك .
ولم يبق للناس شغل الا الموت وأسبابه فلا تجد الا مريضاً أو ميتاً أو
عائداً أو معزياً أو مشيعاً أو راجعاً من صلاة جنازة أو دفن أو مشغولاً
بتجهيز ميت أو باكيًا على نفسه موهوماً . ولا تنقطع صلاة الجنائز من
المساجد والمصليات ولا تقام الصلاة الا على أربعة أو خمسة ، وتَدَرَّ من

يصاب ولا يموت ، وقلّ ظهور الطمن على الجسم فيكون الإنسان جالساً فيرتمش من البرد فيتدثر فلا يفيق الا مغلطاً أو يموت في غده إن لم يمت في نهاره. واستمر فسكه الى أوائل رمضان فأت الأغا والوالى فى أثناء ذلك فولوا خلافيهما فأتا بعد ثلاثة أيام فولوا خلافيهما أيضا . واتفق أن الميراث انتقل ثلاث مرات فى سبعة أيام . وأغلق بالمفتاح بيت أمير كان فيه مائة وعشرون نفسا فأتوا جميعا »

(عيسى بن هشام) - اتى لأظنك تصف لى موقعا شاهدته من مواقف الآخرة وأهوال القيامة

(الباشا) - وما كان الامر ليقصر فى الطاعون بعد ذلك على فسكه بل كان يزيد عليه من البلاء مادسة الإفرنج للولاية من وجوب إزعاج الناس بأمور تشق على نفوسهم يزعمون انها تدفع الطاعون فيفصلون بين الناس بعضهم عن بعض ويفرقون بين الأب وابنه والأخ وأخيه والمرء وزوجه ، ثم يهدمون الدور ويحرقون الثياب وينشرون البخور كأنهم لجهلهم يظنون أن هذه الأعمال التى تؤذى النفوس وتعطل مصالح العباد تشتت شمل الجن وتكسر أسنة رماحهم فيزداد الناس وبلاء على ويل وحزنا على حزن وخرابا فوق خراب . وقد شاهدت بعينى ما تشيب له النواصى فى سنة ١٢٦٠ ، وقص على أخى مارآه منه فى سنة ١٢٢٨ وهو فى خدمة المرحوم محمد على باشا الكبير ، قال :

« أمر جنتم كان محمد على بعمل « كور نيله » بالجيزة فى اليوم العاشر

من ربيع الثانى وعزم على الإقامة بها إذ اشتد عليه الوم من الطاعون
لوقوع القليل من الإصابات بمصر . ومات به الطبيب الفرنسى
وبعض من نصارى الأروام وهم يعتقدون صحة الكورنتيله وأنها تمنع
الطاعون . وقاضى الشريعة الذى هو قاضى العسكر يحقق قولهم ويسير
على مذهبهم ، واتفق أن مات بالطاعون شخص بالحكمة من أتباع
القاضى فأمر بحرق ثيابه وغسل المكان الذى فيه وتبخره بالأبخرة
المتنوعة وكذلك الأوانى التى كان يحسبها وأمروا أصحاب الشرطة انهم
يأمرون الناس وأصحاب الأسواق بالكنس والرش والتنظيف ونشر
الثياب فى كل وقت . واذا وردت عليهم مكاتبات خرقوها بالسكاكين
ودخنوها بالبخور قبل تسليمها اليهم . ولما عزم الباشا على كورنتيلة
الجيزة أمر فى ذلك اليوم أن ينادوا بها على سكانها بأن من كان
يملك قوته وقوت عياله ستين يوما واختار الإقامة فليمكث بالبلدة
والا فليخرج منها ويذهب فيسكن حيث أراد ، وأعطوا مهلة أربع
ساعات ، فازعج سكان الجيزة وخرج من خرج وأقام منهم من أقام
وكان ذلك فى وقت الحصاد وللناس مزارع ومرافق مع مجاورهم من
أهل القرى ، ولا يخفى احتياج الانسان لبيته وأهله وعياله وأسباب
رزقه فيحرمونه من ذلك كله حتى لقد سدوا خروق السور والابواب
ومنعوا مرآكب المعادى من السير . وأقام الباشا فى بيت الازبكية لا
يجتمع بأحد من الناس الا يوم الجمعة ثم قصد الجيزة وقت الفجر من

ذلك اليوم وصعد الى قصره ووقف مركبين الأولى ببر الجزيرة والأخرى في مقابلتها ببر مصر القديمة فاذا أرسل الكتخدأ أو المعلم غالى مراسلة ناولها المرسل للمقيّد بذلك في طرف مزراق بعد تبخير الورقة بالشيخ واللبان والكبريت فيتناولها منه الآخر بمزراق آخر على بعد منهما ويعود راجعاً فاذا قرب من البر تناولها المنتظر له أيضا بمزراق وغمها في الخل وبجرّها بالبخور المذكور ثم يوصلها الى حضرة المشار اليه بكيفية أخرى ، وأقام الباشا على ذلك أياما وسافر الى الفيوم ثم عاد وأرسل مماليكه ومن يخاف عليه الموت الى أسيوط . »

(عيسى بن هشام) — لعلم أن ما كان يعترض عليه عامة الناس في الازمان الغابرة — ولا يزال يبيننا الى اليوم بقية منهم — من الأخذ بأسباب التوقى والاحتياط لدفع غائلة الطاعون لجهلهم بحقيقته وأسباب انتشاره هو الذى يحميننا اليوم من فتكاته وسطواته التى قصصت على طرفاً منها ، وقد كان جمهور الناس فى أزمانكم ينكرون هذه الوقاية ويسخرون منها

(الباشا) — قل لى بالله أية علاقة بين إحراق الثياب وتلك الوخزة التى تأتى بالأجل ، وأى ارتباط بين هذا البخور وحُمى الطاعون ، اللهم الا أن يراد به تلطيف أمزجة الجن

(عيسى بن هشام) لا يفوتنك أن كثيراً من الحقائق كانت مكنونة فى خفاء الجهل عند عامة الناس لاختصاص بعض الافراد بالعلم

ولبعد تناوله على بقية الطبقات ، فلما انتشر العلم وأضاء برهانه كَشَفَ للناس ما كان مكنوناً عنهم وأظهر من العلل والاسباب ما كانت تقف دونه الأفكار حَيْرَى . فان كان الناس في زمانكم يمتقدون أن الطاعون من وخزات الجن برماحها وأن لا شيء يَقْوَى على رد تلك الرماح الخفية عن العيون فان البحث أوصلهم اليوم الى اليقين بأن للطاعون جنوداً لا تدرکها العيون المجردة وأن لها وخزاً خفياً دونه وخز الأُسنة وعوَالِي المَرَانِ ^(١) ولكنهم استعانوا بالعلم فصنعوا آلة تجسّم الأشياء الدقيقة وتمظّمها وتبرزها مَرِيَّةً للعين فوقفوا بها على حقيقة تلك الجنود واستنبطوا طرق الوقاية منها فتدروا بها لدفع أذاها ورفع غائلتها

(الباشا) - وماذا تُجِدِي الوقاية والحذر من القضاء والقدر

(عيسى بن هشام) - حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء ، إن الوقاية من السنة الشريفة وأحكام الدين المبين فقد ظاهرَ عليه الصلاة والسلام في الحرب بين درعين . وقال الله تعالى « وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ » وَلِطُرُق الوقاية اليوم أنواع مختلفة لدفع هذا العدو الخفي الذي يسمونه « الميكروب » وهو دُويَّة دقيقة من عالم الذر ينطبق عليها أحد أوصاف الجن في سرعة التولد وكثرة التعدد في أيسر مدة من الزمن . وهم يتخذون البخور في الوقاية لينحل تركيبه ويحرقون الثياب والأمتعة حتى لا ينتقل بها عدواهُ

(١) المَرَان ، شجر يتخذ منه الرماح

(الباشا) - لقد كشفت لى معنى دقيقاً فى رماح الجن المسمومة
ما كنت إخال أن أحداً يدركه فى عصرنا الماضى ، وهل لك فى أن تطلبنى
على تلك الآلة العجيبة المجسمة للأشياء الدقيقة لازداد تبصرة وهدى
بالنظر فى عجائب المخلوقات

قال عيسى بن هشام - فذهبت الى معمل كيمائى وأريته نقطة من
الماء تحت « المكروسكوب » فلما رآها كأنها غدير ورأى ألوف الألوف
من الهوام ساجدة فيها سجد سجدة التقديس لقدرة الخالق والتجيد لعظمة
الصانع وتلا قوله عز من قائل : « وما يعلم جنود ربك إلا هو »
فحمدت الله إذ آمن بالبرهان الساطع ولم يفعل ما فعله ذلك الهندى مع
العالم الألمانى حيث آراه مثل هذه النقطة وما فيها من الحيوانات ليقنعه بأن
ماء الشرب مشحون بما يحرم أهل الهند قتله وأكله من الحيوانات فسخر
الهندى منه وكسر الآلة لإصراراً على الباطل وعناداً للحق . ولما أيقن
الباشا بصدق ماقلته وما رآه وأن العلم هزم جنود الطاعون وحطم رماحه
ولولاه لمات به اليوم مئات الألوف مكان العشرات سألتنى يقول :

(الباشا) - ومن المخترع لهذه الآلة التى تدل بغير واسطة على عظمة
الخالق وقدرة الصانع من مشايخ الموحدين وعلماء الدين . وفى أية بقعة
من بقاع المسلمين كان مولده لتردد الثناء عليه ونذكر اسمه بالحمد

(عيسى بن هشام) - أقسم لك بالله وملائكته وكتبه أن أكثر
مشايخنا لا علم لهم بها وأنهم لا يزالون كالعمه بهم فى معزل عن هذه

العلوم النافعة والمخترعات المفيدة ، وما نشط لرؤيتها أحدٌ منهم وهم الى اليوم ينفرون من الأخذ بوجوه الوقاية ويفضلون التعرض لنيران البنادق في معارضتهم لأوامر الحكومة دين الاذعان لوجوب الاحتياط من هذه الحيوانات الدقيقة ولا يعرفون منها الا ما نَحَرَ كَتَبُهُم من الأَرْضَةِ (الباشا) — ومع هذا كله فلا مُقام لنا اليوم في هذه البلدة التي أُصِيبَت بالداء وقد وجب علينا الفرار من قَدَرِ الله الى قَدَرِ الله ، فَعُدُّ بنا الى مصر إن شاء الله آمين

قال عيسى بن هشام — فأجبت الى سُؤله وقفلنا الى القاهرة . بعد أن ودَّعنا تلك المناظر الباهرة

الرباء

قال عيسى بن هشام — وأقنا في مصر مدة وقد أبلّ الباشا من علته
وسقمه . وتمت له العافية والسلامة في جسمه . فاخذتُ أهنته ذات يوم
بالشفاء والإبلال . من المرض والاعتلال . وأذكر له أن صحة الابدان .
هي ملكُ السعادة للانسان . وانك لو جمعتَ نعم العالم كلها
للمريض . من مالٍ واسعٍ وجاهٍ عريض . لانصرفتَ نفسهُ عنها
انصرف الضب عن الماء . والأرمد عن الضياء . والمعمود^(١) عن شهي
الغذاء . وأن خاتم الياقوت في الإصبع التي أصيبت بدُمْل . لا يساوى عند
صاحبه حبة من خردل . وأن ما اجتمع في سرير الملك من العزة والبأس .
لَيَهُونُ عند مفقور الظهر أو مصدوع الرأس :

وَمَنْ يَكُ ذَافِمٍ مَرِيضٍ يَجِدُ مَرًّا بِهِ الْمَاءُ الزُّلَالَا

وكننت كلما زدته من هذه الموعظة والحكمة . أراه قد زاد في
الإعراض عن شكر تلك النعمة . فتحققت أن المرء انما يذكر النعيم في
البؤس ولا يذكر البؤس في النعيم . وينسى المرض في الصحة ولا يذكر
الصحة الا وهو سقيم . وقل من يحمد النماء في لبسها . ويدرك سعادة
الحياة الا في نحسها . فهذا معنى من معاني الآية الشريفة : « وَإِذَا مَسَّ
الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَا لِحُجْنِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ

(١) المعمود ، الذي يعمدته وجع من مرض

كَأَنَّ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضَرِّ مَسَّةٍ « فَسَأَلَتْهُ عَمَّا دَهَاها . وَأَذْهَلَهُ عَنْ شُكْرِ اللَّهِ .
فَأَجَابَنِي يَقُولُ . فِي حَالِ الْخَبَلِ وَالذَّهْوَلِ :

(الْبَاشَا) - فِيمَا الْهَنَاءَ بِكَشْفِ الْبَلَاءِ وَالضَّرَرِ . وَمَا انْتَقَلَتْ مِنْ
خَطَرٍ إِلَّا إِلَى خَطَرٍ :

فَإِنْ أَسْلَمَ فَمَا أَبْقَى وَلَسَكُنْ سَامَتْ مِنْ الْحِمَامِ إِلَى الْحِمَامِ
أَلَمْ تَسْمَعْ مَعِيَ بِخَبَرِ انْتِشَارِ الْوَبَاءِ فِي مِصْرَ بَعْدَ أَنْ خَلَقْنَا الطَّاعُونَ
فِي الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ . فَمَا هَذِهِ الرِّزَايَا الْمُنْسَاقِطَةُ . وَمَا هَذِهِ الْبَلَايَا الْمَتَلَحِّقَةُ . أَوْ
كَلِمَاتِنَا مِنْ بَلَاءٍ دَخَلْنَا فِي بَلَاءٍ . وَانْصَرَفْنَا مِنْ شِقَاءٍ إِلَى شِقَاءٍ

(عِيسَى بْنُ هِشَامٍ) - أَرَاكَ لَا تَزَالُ كَأَمْثَالِكَ مِنْ سَائِرِ النَّاسِ . يَغْلِبُ
عَلَيْكَ الْفِرْعُوعُ وَالْوَسْوَاسُ . وَإِنْ كُنْتَ جَرَّبْتَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ شِدَّةَ
الْأَلَمِ . وَذُقْتَ فِي الْقَبْرِ رَاحَةَ الْعَدَمِ . وَأَنْ مَا كُنْتَ تَتَمَنَّى عَلَى دَهْرِكَ .
مِنْ الرُّجُوعِ إِلَى قَبْرِكَ . عِنْدَ اشْتِدَادِ الْكُرُوبِ . مِنْ وَقْعِ الْخَطُوبِ .
لَمْ يَكُنْ لَشَجَاعَةٍ فِي النَّفْسِ . تَسْتَهِينُ بِسُكْنَى الرَّمْسِ . بَلْ كَانَ لَضَمْفِكَ
عَنْ اِحْتِمَالِ الْآلَامِ . مِنْ نَوَازِلِ الْأَيَّامِ . وَأَرَاكَ لَا تَزَالُ مَعَ صِحَّةِ الدِّينِ .
وَقُوَّةِ الْيَقِينِ . تَرْهَبُ الْمَوْتَ وَتَخْشَاهُ . وَتَعْتَوِرُكَ الْأَهْوَالُ مِنْ ذِكْرَاهُ .
وَهَذَا دَاءٌ فِي النَّاسِ قَدِيمٌ . عَزَّ شِفَاؤُهُ عَلَى كُلِّ مُرْشِدٍ وَحَكِيمٍ :

وَخَوْفُ الرَّدَى آوَى إِلَى الْكَهْفِ أَهْلُهُ
وَعَلَّمَ نُوحًا وَابْنَهُ عَمَلِ السَّفِينِ

وما استعذبتُهُ رُوحُ موسى وآدمِ
وقد وُعِدَا مِنْ بَعْدِهِ جَنَّتِي عَذَنِ

ولكنني لا أزيدك في الموعظة ولا أخفف عنك من ويلات
الهواجس والوساوس بأحسنَ مِنْ أَنْ أقرأ عليك مقالة نافعة اطلعت
عليها اليوم في بيان أحوال الناس وتقسيم طبقاتهم في أهوال هذا الوباء ،
فإن أردتَ ، تلوئها عليك ، ثم ضع نفسك بعدها حيث شئت

(الباشا) - هاتِ أسمعني لازلتَ للحق راويا . وللهدي داعيا

(عيسى بن هشام) قارئاً - « إنما النوازل العظيمة والخطوب
الجسيمة محكّ الطباع وميسبار الأخلاق ، فهي لشدتها وهولها تكشف
عن الناس ما يخفونه عن الناس ، وتهتك سجوف التمويه والتزويق عن
حقائق الصفات ، فلا تمالك النفوس أن تبقى على التظاهر بما ليس فيها
ولا التطاول بما هو مفقود لديها بل تتجلى للناظر بما اشتات عليه
ضمائرُها واحتوته سرائرها من قوة أو ضعفٍ ومن فضيلةٍ أو قبيصةٍ ومن
علم أو جهل . وهنا يتمكن الباحث في الاخلاق من النظر فيها نظرة
التثبت والتحقيق وهي مجردة أمامه من كل غشاء ، عاريةً من كل غطاء

» وليس في باب النوازل والخطوب ما يهول النفوس ويروع القلوب
أعظم ولا أكبر من مصيبة الموت وبلاءِ هذا الوباء . فذلك لا يرى
بأساً من الكلام بشيء مما يجده المستقرىء لأحوال الناس من طبقات
المصريين وهم بين أيدي هذه النازلة العظمى والمحنة الكبرى

« فطبقة العامة أناس جُبُلُوا في مثل هذه النوازل العامة على التسليم لأحكام القضاء وتقويض الأمر لأقدار السماء، وهم لا يعلمون من أمر الوباء، ما جراثيم الداء، ولا علة المرض والشفاء، ولا سبب الهلاك والنجاء، وليس في قدرة قادر من البشر أن يرحمهم عن اعتقادهم أو يحوّلهم عن يقينهم ولا في استطاعة أحد من أبلغ الوعاظ وأفصح الخطباء أن يضع في رؤوسهم أن الوقاية تنفع من المقدور وأن الحذر يُنجي من المكتوب وأن طب الأطباء يؤجّل في الأجل المحدود وأن صنوف الدواء تنفع في رد القضاء المحتوم. وهم يرون كل ما يؤثرون به من وسائل الوقاية وأسباب الحيلة أموراً تضر ولا تنفع فلا تزيد في عمرهم ساعة ولا تكف عنهم غرب المنون ولا تقبض دونهم يد قابض الأرواح. فهم بمنزل عن الخوف والهلع، وفي أمان من الذعر والفرع، وفي ضمان من الوسواس والهواجس وإن كانوا مقيمين في غفلة عما يجب عليهم لأنفسهم من المحافظة على صحة الأبدان وتعمد الأجسام بما يدرأ عنها الاستعداد لقبول الداء والوقوع في مخالب الوباء لبعدهم عن فهم قوله عليه الصلاة والسلام « اعقلها وتوكل » لكنهم لا يزالون على كل حال في صحة من الأرواح وأن أعوزتهم صحة الأبدان

« وطبقة الخاصة ونعني بهم أهل الدين واليقين وهم الذين يعتمدون أيضاً على التسليم لأحكام القضاء وحسن الاعتقاد بتحديد الآجال والإيمان بأنه لن ينالهم إلا ما قدره الله لهم، ولا تفتأ تجري ألسنتهم في مثل هذه

لا هوال بتلاوة الآيات البينات من كتاب الله: «ولكل أجل كتاب»: «فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون»: «أبنا تكونوا يُدرككم الموت ولو كنتم في بروج مُشيدة»: «قل إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملاقيكم». تعالى الله أحكم القائلين. وهم الذين يعلمون علم اليقين أن الموت أمر واقع لا مردّ منه، وأن الانسان عرصة له فى كل وقت ولحظة، وأن طعمه واحد، سواء أكان يمرض الوباء أو صواعق السماء، أو زلازل الأرض، أو كان بنفصة شراب أو عثرة قدّم أو لسة حشرة، وأن نفس المرء خطاه الى أجله فعليه أن ينتظر ساعته فى كل حركة وسكون، وعند كل قيام وقعود:

وما نفسٌ إلا يُباعدُ مولداً

ويُدنى الناي للنفوس فتقربُ

وهم يمتقدون حق الاعتقاد أن الحى حى للفناء، وأنه مقيم من دنياه أبداً فى أرض وباء، وإن لم يكن ثم وباء:

ماخص مصرّاً وبأً وحدها

بل كائنٌ فى كلِّ مصرٍ وبأً

وأن من فر من المقدور فعلى المقدور نزل، ومن هرب من القضاء

فإلى القضاء رحل:

مهلأ من وبأٍ قررت وهل ترى

فى الدهر إلا منزلاً موبوءاً

وَأَنْ مَنْ حَانَتْ مَنِيَّتُهُ . لَمْ تَنْفَعَهُ تَقِيَّتُهُ . وَمَنْ حَلَّ أَجَلُهُ . لَمْ
يَحْمِهِ وَجَلَّةُ :

وَمَنْ هَابَ أسبابَ المنايا يَنْلَنَّهُ

ولو دَامَ أسبابَ السماءِ بِسَلَمٍ

إلا أنهم مع ذلك كله لا يرون من مانع يمنعهم عن الأخذ بأسباب
التقية والحذر ولا في العمل بمقتضى القوانين المندوب اليها في حفظ
صحة الأبدان وما يقرره أهل صناعة الطب من سبل التوقي والتحرص
إتقاء لما نهوا عنه من الإلقاء بالأيدى الى التهلكة واحتذاء لما ترسمه
ظروف الأحوال وتقضى به أحكام الزمان ، ولا يجدون الطاعة لإشارة
الأطباء في مثل هذه النوازل مما يخالف لهم سنة أو يناقض لديهم شرعا ،
وإن لم يكن من وراثتها فائدة فليس في عقباها مضرة . فتراهم لذلك في أجل
مقام من شجاعة القلب وقوة النفس وثبات الجنان بفضل الدين واليقين ،
وعلى أحسن حال من سلامة الجسم وطهارة البدن بفضل العلم وحسن القيام
بما يرشد اليه من وسائل الوقاية . لاسلطة للوساوس والهواجس عليهم
ولا محل للرعب والرهب فيهم آمنين مطمئنين يتمتع كل واحد منهم
بالروح السليمة في الجسم السليم

« وهناك طبقة ثالثة حديثة النشأة حديثة التربية لا من هؤلاء ولا
من هؤلاء لم يرسخ الإيمان في قلوبهم ولم تتمكن التربية الدينية من نفوسهم
ولم يتأدبوا بأدب الدين ولم يرتاحوا لحسن اليقين بل اقتصرت بضاعتهم

على ما تلقوه في المدارس من العلوم الآلية والفنون الصناعية دون علوم
 التربية النفسانية والفضائل الروحانية . وخلت صدورهم من آيات الله
 والحكمة ، قد أخذوا عن بعض الغربيين عادة التهاون بالشرائع والإزدراء
 بالإيمان ولم يحيطوا بشيء من العلوم الموضوعة لتقويم النفوس وتطهير
 الطباع ومعرفة الحقائق ورياضة القلوب على التجلد والثبات عند وقوع
 المكروه ونزول الملمات ، فتجدهم قد ظهروا للناس في هذه النازلة
 الوبائية وانكشفوا لأهل البحث والنظر أصغر خلق الله نفوساً
 وأجبنهم قلوباً وأكثرهم هوساً ووسواساً وأشدهم قلقاً واضطراباً
 وأعظمهم خوفاً ورعباً وأكبرهم بلاء وكرهاً ، يمثل لهم الموت في
 أعينهم على أفزع الصور وأشنع المناظر فيحاولون الفرار منه وهو
 ممسك بنواصيهم ويهابون دونه وهو آخذ بتلابيبهم ، حلّ الخوف
 مفاسلهم واستلّ الرعب نخاعهم فهم يرون في كل عود نعثاً لهم ويحسبون
 كل صيحة عليهم ، أولئك لا إيمان لهم يثبت أقدامهم ولا علم لديهم يرجع
 أحلامهم ، بل هم على مثل حال المغشي عليه من الموت أو المسوس من
 الشيطان يتوهمون طعم الموت ومذاق الوباء في تنفس الهواء وتناول الغذاء
 وشرب الماء وملامسة الأيدي ومخاطبة الناس ، فإذا رأى المسكين منهم
 تلك الآلة الحدباء تحمّل أحد المصابين بالوباء جمده دمه وسال عرقه
 ومخدت أنفاسه والتوت أعصابه وأمسك من يجانبه يستجذبه
 ويستغيت ليحميه من شر العدوى ويدفع عنه نزول البلوى . وما أشبههم

في حالهم هذه من الخور والهلع والفرع والجزع الآبئيل أناس قضى عليهم بالإعدام لوقتهم فهم وقوف بين يدي الجلاد والسياف اذا قدّم أحدهم للسيف والنطع مات الذي يليه من الخوف قبل القتل . ومنهم من اعتكف على الخمر يشربها ليلة ونهاره عساها تجهله كيف اطمأنت به الحال . ومنهم من يبالغ ويفعال في تناول العقاقير السامة والجواهر القتالة مما وضعه الاطباء لقتل الجرائم فهو يشربها ويستعظها ويدهن بها جسده ويفمس فيها ثيابه ويبلل بها فراشه ويفسل بها آنية طعامه وشرابه ، وكلما سمع بزيادة العدد في المصاين زاد في مقدار ما يستعمله منها يوماً بعد يوم حتى أصبحت أجسامهم مسمومة وأبدانهم مهزولة وشفاههم متقلصة وعيونهم فائرة ووجوههم مغبرة وأناملهم مصفرة ينطبق عليهم قوله جلّ وعلا : « وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ » . اذا رأيتهم حسبته في حال المصاين بالفعل لولا أن هؤلاء يفضّلونهم بالخلاص من ألم الداء براحة العدم والقضاء . ولما كان الخوف والوسواس من أكبر وجوه العذاب في الحياة ومن أعظم الأسباب في رأى الاطباء لجلب الداء كانوا هم أعداء أنفسهم بأنفسهم ، وهم اصحاب الأرواح السقيمة ، في الأجسام السقيمة ، لهم النكد في هذه الدنيا ولهم الخزي في الآخرة »

- فأين تضع نفسك الشريفة أيها الباشا من هذه الطبقات

(الباشا) - ما أرى لى موضعاً بعد إذ عاشرتني وأرشدتني الا في

طبقة أهل النخاسة الذين ينأمنون للقضاء والقدر، ويعملون بالحيلة والحذر

لكننى مع ذلك أفضّل الابتعاد عن ضوضاء الناس فى هذا الوباء وأرغب فى التخلص من النظر اليهم وهم فى مثل أهوال القيامة من الفزع والهلع ، وليس من الصواب أن نجمع بين أكدارنا وهمونا وبين التأثير لأكدار الناس وهمومهم

قال عيسى بن هشام — وخشيتُ على الباشا إن أنا تركتُهُ فى هذه الحال غريقَ أفكاره . وأسير همومه وأكداره . أن ينتويه الانتكاس . ويعتريه الارتكاس^(١) . والنكسة بعد البلة . شرُّ أطوار العلة . فبادرتُ الى طاعته . وامثال إشارته . فاخترت له من ضواحي المدينة مكانا قصيا . ومسكنا مرضيا .

(١) الارتكاس ، كالاتكاس

العزلة في العالم والادب

قال عيسى بن هشام - واعتزلتُ بالبasha مدة من الدهر . نستمتع العزلة ونستعذب عليها الصبر . ونعيش فيها عيش الحكماء . من حسن الرضاء . بحسن الاكتفاء . ونستروح راحة البعد عن هذا العالم وأذاه . وإغماض الجفون على قذاه . مؤتسرين كل الاثناس . بالوحشة من الناس . بعد الذي شهدنا من أعمالهم ورأينا . وسمعنا من أقوالهم ووعينا . وقاسينا من عسرتهم ما قاسينا :

عَوَى الذئبُ فاستأنستُ للذئبِ إذ عَوَى

وصوتَ إنسانٌ فكدتُ أطيُرُ

إن سألتهم حاربوك . وإن وادعتهم ناصبوك . وإن صادقهم خانوك . وإن واقتهم كادوك . وإذا خاطبهم لا تأمن الاعتداء . وإذا مازجتهم لا تعدم الاقراء . وإذا طالبتهم بحق فانك لا تسمع الصم الدعاء :

فلو خبرتهمُ الجوزاءُ خبري

لما ظلمتُ مخافةً أن تُكادا

ولو أنك لم تخاطبهم الا في مجالس أنسهم وصفوم . ومعاهد لعبهم ولهوهم . لم تجن منها الا كل ما يُبعد وينفر . وينقص ويكدر . تدخلها اذا دخلها مستروحاً مستبشراً . وتخرج عنها مستقبحاً مستنكراً . فعيشتهم في كلتا الحالتين قرارةً معايب . ومجتمع نقائص ومثالب . ومنابت

أكدار . وينابيع أضرار . ولأراحة في الدنيا إلا لمن تنسك وتزهد . ولا
سلامة من الخلق إلا لمن اعتزل وتوحد . وأبعد الناس عن معاشره
البرايا . أقربهم إلى كرم السجايا :

بُعْدِي عَنِ النَّاسِ بُرًى مِنْ سَقَامِهِمْ

وَقَرَّبُهُمْ لِلْحَجَى وَالْدِّينِ أَدْوَاءَ

كَالْبَيْتِ أَفْرَدَ لَا لِإِطَاءٍ يُدْرِكُهُ

وَلَا سِنَادَ وَلَا فِي اللَّفْظِ إِقْوَاءَ^(١)

وعكفتُ مع الباشا في عزلتنا أذهب به كل مذهب . وانتقل به
من مطلب إلى مطلب . في مطالعة الاسفار والكتب . من تاريخ وأدب .
ومن حُكْمٍ متينة قويمه . وشقَى علومٍ حديثةٍ وقديمة . أهديه من كل
طرف بطرفة . واتحفه من كل باب بتحفة . وأجتنب معه ما يدعو إلى
الضرر والملل . ويؤذني من الكد والكآل . فتارة أخوض معه عُبَابَ
البحار . وطوراً أُجتاز به سراب القفار . فترى مَنْ يَحْرِقُ فِي الْبَحْرِ
مراكبه . ليحمل على اقتحام المنايا كتابه . ونسمع الشاعر في القفر يحدو
بناقته . ويشبُّ بمعشوقته . ثم لا يقعد به ذلُّ الغرام . عن التفاخر
بِعِزِّ الكرام . ولا يُنسيه ذكرُ الهوى . موافقَ الحُفَى والرَّدى .
فيخلط بالغزل الفخر . ويخاطب صاحبه من جوف القفر :

إِنَّا مُحْيَوِّكُ يَا سَلَمَى فَحِينًا

وإِنْ سَقَيْتِ كَرَامَ النَّاسِ فَاسْقِينَا

(١) الإيطاء والاسناد والافواء ، من عيوب القافية

وإن دعوتِ إلى جُلِّي ومكرمةٍ
 يوماً سَرَاةَ كرامِ الناسِ فادعينا
 إن تَبَدَّرَ غَايَةُ يوماً لمكرمةٍ
 تَلَقَّ السَّوَابِقَ منا والمَصْلِينَا (١)
 ولبسَ يَهْلِكُ منا سَيِّدٌ أَبَدًا
 إِلَّا افْتَلِينَا (٢) غَلَامًا سَيِّدًا فِينَا
 إِنَّا لَنُرْخِصُ يَوْمَ الرُّوْعِ أَنْفُسَنَا
 وَلَوْ نُسَامِ بِهَا فِي الْأَمْنِ أَغْلِينَا
 يَبِضُّ مَفَارِقُنَا تَغْلِي مَرَاجِلُنَا
 نَأْسُو بِأَمْوَالِنَا آثَارَ أَيْدِينَا
 إِنِّي لَمِنْ مَعْشَرٍ أَفْنَى أَوَائِلِهِمْ
 قِيلُ الْكُفَاةِ (٣) إِلَّا أَيْنَ الْحَامُونَا
 إِذَا الْكُفَاةُ تَنَحَّوْا أَنْ يُصِيبَهُمْ
 حَدُّ الطُّبَاكِتِ (٤) وَصَلْنَا بِأَيْدِينَا
 وَنَرَى النَّاقَةَ تَطْرِبُ تَحْتَهُ إِلَى مَوَاطِنِهَا . وَتَشْتَاقُ إِلَى مَعَاظِنِهَا . فَتَحْنُ
 حَنِينَهُ . وَتَنْ أُنَيْنَهُ . وَكَلِمَا رَأَاهَا تَشْكُو مِثْلَ شَكْوَاهِ . وَتُصَفِّي بِأَذْنِهَا
 إِلَى نَجْوَاهِ . وَتُرَدِّدُ بُرْغَانَهَا صَدَاهُ (٥) . وَتُسَعِّدُهُ بِتَرْجِيمِهَا فِي هَوَاهِ . تَأَوَّهَ
 وَتَهَدَّى . وَتَرَنَّمَ فَأَنشَدَ :

(١) المصلي ، السابق (٢) افْتَلَى ، اسْتَخْرَجَ .

(٣) الْكُفَاةُ جَمْعُ كَفَى ، وَهُوَ الشَّجَاعُ وَالْبَسُّ الْعِلَاجُ

(٤) الطُّبَاكِتُ جَمْعُ ظُبَّةٍ . وَهِيَ حَدُّ السِّيفِ أَوِ السَّنَانِ (٥) الرِّغَاءُ ، صَوْتُ النَّاقَةِ

لقد زارني طيفُ الخيالِ فهاجني
 فهل زار هذي الإبلَ طيفُ خيالِ
 امل كراها قد أراها جدابها
 ذوائبَ طُلحٍ بالعقيقِ وصالِ^(١)
 ومسرَحها في ظلٍ أحوى^(٢) كأنها
 إذا أظهرت فيه ذواتُ حجالِ
 تَلَوْنَ زَبُوراً في الحنينِ مُنزَلاً
 عليهنّ فيه الصبرُ غيرُ حلالِ
 وأنشدن من شعر المطايا قصيدةً

وأودعنها في الشوق كلَّ مقال
 ثم تنتقل الى مشاهدة المعامع المشهورة . والوقائع المذكورة .
 فنرى الدماء تجري أنهاراً في الوديان . والمهَج تسيل انحداراً من مسايل
 الأبدان . والموت واقفاً يحصد الرؤوس . ويَجني نفائس النفوس .
 والفارس يمشي في الصفوف مشية الخيلاء . ويطعن برمح كل طعنة
 نجلاء . ثم ينشد في وصف أثرها . وبعد غورها :
 طعنتُ ابنَ عبدِ القيس طعنةً ثائرِ

لها ففَذُّ لولا الشعاعُ أضاءها
 ملكتُ بها كفى فأنهتُ فتقها
 يرى قائم من دونها ما وراءها

(١) الطلح والفضال ، شجر شائك (٢) الأحوى ، ما تضرب خضرته الى الدواد

يهون على أن تَرُدَّ جراحها

عيون الأواشي اذ حمدتُ بلاءها

وتذكو شعلة الحرب فلا تنطفئ نارها . ولا يخمداُ أوارها . الأوقد
غادرت النساء أياي . والأطفال يتامى . والأموال تهباً منهوباً . والأعلاق
سلباً مسلوباً . والمدائن خالية خاوية . والقصور بائدة بالية . والحرب
ينخذل فيها القوى لا وهى سبب . وينتصر الضعيف من حيث لا يحتسب .
فكم دالت بها الدول ، ودارت الدوائر ، واثلت العروش ، وسقطت الممالك ،
بعد لواء العز المعقود . وبساط المجد الممدود . وبعد ذلك التناهى فى
العظُموت . والتمادى فى الجبروت . وبعد أن لم يكن يدور فى الوم سقوطها .
ويخطر فى الخيال هبوطها . كل ذلك يكون أسرع من لمح البصر . اذا
نزل القضاء وحُمَّ القدر . وكل ملك مهما امتدَّ ظله زائل . وعند التناهى
يقصُر المتطاوُل

ثم أدخلُ به فى مطالعتنا الى حلقة حكيم واعظٍ يسلب الألباب
بقوة بيانه . ويخلب العقول بضوء برهانه . ويستترقُّ النفوس بطلاقة
لسانه . ويقول فى حقارة الغنى وهو أنه :

« أيها الناس والله لَدُنْيا كم هذه أهونُ عنْدى من عُراقٍ ^(١) كلبٍ

فى يد مجذوم »

« والخيرُ بين أن يستغنى عن الدنيا وبين أن يستغنى بالدنيا كالحخيرِ

بين أن يكون مالكا أو مملوكا

(١) العراق ، العظم أكل لهُ

مَنْ سَرَّهَ أَنْ لَا يَرَى مَا يَسُوْهُ

فَلَا يَتَّخِذُ شَيْئًا يَخَافُ لَهُ فَقْدًا

« والحياة الطيبة هي حياة الغنى ، والغنى هو القنوع ، لأنه إذا كان الغنى عدم الحاجة الى الناس فأغنى الناس أقلهم حاجة الى الناس ولذلك كان الله تعالى أغنى الأغنياء :

غِنَى النَّفْسِ مَا يَكْفِيكَ مِنْ سَدِّ خَلَّةٍ

فإن زاد شيئاً عاد ذاك الغنى فقراً

ويقول في محاسن الاخلاق : « الجود حارس الأعراض ، والحلم فِدَامُ السفية ^(١) . والعفو زكاة الظفر ، والاستشارة عين الهداية . وأشرفُ الغنى تركُ المني . وكَم من عقلٍ أسير عند هوى أمير . ومن التوفيق حفظ التجربة ، ومن لَانَ عودُهُ كَشَفَتْ أَغْصَانُهُ ، ومن لانت كلمته وَجَبَتْ محبته »

ويقول في مساوي الصفات : « الكاذبُ في نهاية البعد من الفضل ، والمُرَائِي أسوأ حالاً من الكاذب لأنه يكذب فعلاً وذلك يكذب قولاً والفعل آكدُ من القول . فأما المعجب بنفسه فأسوأ حالاً منهما لأنهما يَرَيَانِ نقصَ أنفسهما ويُرِيدَانِ إخفاءَهُ والمعجبُ بنفسه قد عَمِيَ عن عيوب نفسه فيراها محاسنَ ويُبْدِيها . وإني لأعجب للبخیل يستعجل الفقر الذي منه هرب ويفوته الذي إياه طَلَبَ ، فيعيش في الدنيا عيش الفقراء ، ويُحَاسِبُ في الآخرة حساب الأغنياء . وأعجبُ للمتكبر

الذى كان بالأُمس نطفة وفي الغد جيفة . وأعجب لمن يُغفل صبره
ويشكو الى الناس دهره ، فان كان عدواً سرّه وان كان صديقاً أساءه
وليس مسرة العدو ولا مساة الصديق بحموده :

ولا تشكّ الى خلقٍ فتُشمتَه

شكوى الجريح الى العقبان والرخم

« والعجز عجزان أحدهما عجز التقصير وقد أمكن الأمر والثاني
الجد في طلبه وقد فات »

ويقول في ذكر الحياة والموت : « انما المرء في الدنيا غرض تنتضل
فيه المنايا ونهب تبادره المصائب ، ومع كل جرعة شَرَق وفي كل أكلة
غَصَص ، ولا ينال العبدُ نعمة الا بفراق أخرى ، ولا يستقبل يوماً من
عمره الا بفراق آخر من أجله ، فنحن أعوان المنون وأنفسنا نُصَب
الْحُتُوف ، فَنُأَيِّن نرجو البقاء وهذا الليل والنهار لم يرفعاً من شيء شرفاً
الا أسرعاً الكرة في هدم ما بنيًا وتفريق ما جتمعاً . وعجبت لمن نسي
الموت وهو يرى من يموت »

ويقول في وصف العلماء : « اخیّر من العلماء من يرى الجاهل بمنزلة
الطفل الذي هو بالرحمة أحق منه بالغلظة ويمذره بنقصه فيما فرط منه
ولا يعذر نفسه في التأخر عن هدايته

ثم يختم وعظه بقوله :

الدِّينُ لِنَصَافِكَ الْأَقْوَامَ كُلَّهُمْ

وَأَيُّ دِينٍ لَأَبَى الْحَقِّ إِنْ وَجَبَا

والمرءُ يُعِيهِ قَوْدُ النفسِ مُصْحِيَّةٌ

للخير وهو يقود العسكرَ اللَّجْبَا (١)

اللهم اكفني بوائق الثقات ومكايد الأصدقاء »

نم أنتهي بصاحبِي الى مجلس محاضرات بين الأدياء . ومفاكهات
بين الندماء . فنقرأ من لطيف بَوَادِرهم . ورقيق نوادرهم . ما ينير ظلمة
الفُهوم . ويخلو صدأ الهموم :

لفظ كأنَّ معاني الشُّكر تسكنهُ

فَمَنْ تَحَفَّظَ شيئاً مِنْهُ لم يُفِقْ

جَزَلٌ يُشْجَعُ مَنْ وَافَى لَهُ أَذُنًا

فهو الدواء لداء الجبنِ والقلقِ

إذا ترنَّم شاذٍ للجبانِ بِهِ

لَاقَى المنايا بلا خوفٍ ولا فرَقِ

وإنَّ تمثَّلَ صَادٍ للصَّخُورِ بِهِ

جادتْ عليه بعذبٍ غيرِ ذِي رَتَقِ

وهكذا قضيتُ مع الباشا زمناً ليس بقصير أستخرج له نفائس
الأعلاق . من بطون الاوراق . وأقتطف معه زهر الأدب العاطر .
من حدائق الكتب والدفاتر . الى أن قال لي ذات يوم . بين ندم وولوم :
(الباشا) - إنَّ أعظم ما آسفُ عليه اليومَ تلكَ الايام التي أضعتها
من سالفِ عمرى فيما لا يُجْدِي ولا يفيد من مشاغل الدهر وملاهي

العيش ، وياليتني كنت قَصَرْتُ هـى منذ صباى على مثل هذه الميـشة
مع هذا التفرغ لاجتناء فوائد العلوم واقتناء فرائد الآداب مغتبطاً سعيداً
لا حاسداً ولا محسوداً ، أتثقل من مطالعة الكتب الى مذاكرة العلماء
ومن مذاكرة العلماء الى مسامرة الفضلاء ومن مسامرة الفضلاء الى
مطارحة الأدباء . والله يعلم أن أسفى ليزيد شدة وأن ندى ليعظم حدة
كلما تذكرت ما كانوا يحدثوننى به فى أيام دولتى عن مجالس العلم والادب ،
فا كنت آبه لها ولا أنتبه اليها ، وكنت أظن أهلها قوماً من أهل
الكسل والفراغ يجلسون للدفاتر والكتب كما تجلس النساء للغزل
والرُدن^(١) ، والحمد لله الذى أرشدنى الى الهدى آخر الدهر فعلت
مقدار هذه النعمة التى حَبَّتْ الى الحياة ثانية وهَوَّنتْ على احتمال
متاعبها ، وما إخالك تبخل على بعد الآن ، وقد علمت نفع ذلك لى ، بمداومة
السير معى فى هذا الطريق الحميد . وما أرى من بأس فى أن نترك هذه
العزلة حيناً بعد حين للاجتماع بالناس فى مجالس الأدب ومجامع الفضل
وأندية العلم لتذاكر معهم ما نطالعه ونأخذ عنهم ما يحفظونه . وقد
زالت المخاوف واطمأنت الخواطر بزوال الأوبئة والطواعين ، والحمد لله
رب العالمين

(عيسى بن هشام) — لا تطمعن أيها الاميرُ — دَفَعَ اللهُ عَنْكَ
المكاره — فى مثل هذه المجالس فقد طوتها الأيام ورمستها الليالى ولم
يبق اليوم من يأنس اليها وينافس فيها

(١) الردن ، مثل الغزل

(الباشا) — كيف يكون ذلك وأنا لا أزال أسمع ما ترمونه من كثرة المدارس الآن وانتشار العلوم والفنون وتعدد الطالبين وسهولة الحصول على الكتب ووفرة المطابع وإطلاق الأفكار من القيود . وأين هذا مما كنا عليه في الزمن الأول من تعمس الوصول الى الكتب وتعدّر استنساخها لضئ أربابها كأنها لديهم خفايا الكنوز ، حتى لقد كان الجهلاء الذين لا ينتفعون بها ولا يفقهون منها شيئاً هم أول من يفاخر باقتنائها ويعتبرونها ضرباً من ضروب الزينة والزخرف كأنها اليواقيت والجواهر يعجز عنها من يروم الاتفاف بها ان لم يكن ذا ثروة واسعة تمكنه من استنساخها أو ايتباعها ، فلا بدع اليوم أن يكون في يد كل مصرى كتاب يطالعه وأن يكون كل واحد منهم قد أصبح في العلوم والفنون أليف محاضرة وحليف مذاكرة تُردّه في مجالس الفضل وترهق أندية الأدب ، وكيف لا يكون ذلك وقد ذقت من حلاوة المطالعة والمذاكرة ما أنساني حلاوة كل لذة في العالم .

(عيسى بن هشام) — نعم شاعت العلوم في هذا العصر وترقت الفنون وكثرت المطابع وسهل على الناس اقتناء الكتب ومطالعتها ، ولسكن قلّ ينشأ عدد الراغبين فيها والمطالعين لها ، فكسدت سوقها وبارت تجارتها وأغفلها من ينتفع بها للاشتغال بسواها من الأمور الباطلة والاشياء التافهة ، ورغب عنها من كان يقتنيها للزينة لكثرة الانتشار والتبذل . والناس اليوم في حركة لا شرقية ولا غربية قد اشتغل بعضهم

بعض واكتفوا من دهرهم بحوادث يومهم فتعطلت بينهم مجالس العلم
واندرست مجامع الأدب واقتصر واعلى مطالعة أخبارهم في الجرائد والصحف
دون الدفاتر والكتب. وأننى يكون لهم الاستقرار في المجالس وهم لا يستقرون
في مكان ولا يهدأون من حركة ولا ينفكون عن غدو ورواح ولا ينتهون
عن نقلة وسفر، وأكثر ما يكون جلوسهم في المركبات مركبات الخيول أو
البخار أو الكهرياء، وأهل اليسار منهم يقضون جزءاً من شهور العام
مترحلين في بلاد الاجانب متقلين في ديار الغربة للزهة والتفكه .
وقصارى العلم عندهم أن يتلقى الطالب أشتاتاً منه في المدرسة وأطرافاً
وهو بالسن التي لم يصل فيها بعد إلى تمام التمثل وكمال الادراك فيحفظها
ويؤديها كاللبغاء، فان أسعده الحظ في آخر الدراسة ونجح عند الامتحان
تأبط صك الشهادة ونفض يده من تلك العلوم وطرحها عنه طرح
الثوب الخلق ونبذها نبذ القادم على أهله ما أسن من ماء (١)
وما جف من زاد انتقاماً لنفسه مما عاناه من مشقة وقاساه من
تعب في درسها وحفظها من غير أن يفقه لها مزية في ذاتها أو يذوق
لها حلاوة في طعمها، فاذا هو بلغ لاربتة ودخل في خدمة الحكومة
أصبح كالعامل من المال لا العالم من العلماء، وقل فيهم بعد ذلك من
يصبو الى العلم وأهله أو يحن الى الأدب وكتبه، ولئن مال بعضهم
للمطالعة فانها لا تتجاوز حد الكتب المتعلقة بأصول وظيفته، ولذلك
أصبحت كتب العلم والأدب مملولة منبوذة وثقل على الناس مطالعتها لما

م فيه من كثرة الحركة والتنقل وطول الانهماك في الأشغال المتجددة
فلا يقوى أحدهم على مطالعة صحيفة من كتاب الا وقد بلّله العرق ودَهمه
الكلال والملال ونزل به الضجر والسأم ، وإنك لترى مثل هذا بيننا
في حديثهم فهم لا ينصتون الى قصة متصلة ولا يتبعون في الكلام قضية
مُرتبة ولا يعجبهم منه الا ما كان متقطعاً مبتوراً أو مقتضباً مجزوماً

(الباشا) - ما أكاد أخليك أيها الصديق من غلو في وصف هذه
الحال . وهل خلاً أو يخلو زمان في البداوة كان أو في الحضارة من مجالس
للعلم ومجامع للفضل وأسواق للأدب ، وما كان زماننا الذي كنت فيه
ليخلو من آثارها حتى لقد رأينا فيه كثيراً من الكبراء والأمرء ممن
لا نصيب لهم من العلم والأدب لا يُفعلون مجالسهم من وجود شاعرٍ
مجيد أو فاضلٍ أريب أو نديمٍ أديب أو محدثٍ ظريف تنفكه به النفوس
وتستريح له القلوب ، هذا والكتبُ بين الناس قليلة التداول والعلمُ
بعيدُ التداول ، فما بالك اليوم على هذه الحال التي تصف والصحفُ منشورة
والكتبُ مطبوعة وأسماء العلوم مذكورة

(عيسى بن هشام) - قد استغنى كبراًؤنا وأمرأؤنا اليوم عن
تزيين مجالسهم بالعلم والأدب وقصروا همهم فيها على التفاخر بالمقتنيات
المزخرفة والأدوات المصنعة من عمل الفريين ، فترى الكبير أو العظيم
يقلب في يده العصا المضيئة بالكهرباء مثلاً أو الساعة التي تزنُ بمدد
التواني وهو يعتقد أنها أجلُّ قيمةً في العين وأجلُّ أثراً في النفس من

جميع العلوم التي تستضيء العقول بممارستها ومن جميع الكتب التي تصفو
ساعات الحياة بمطالعتها . ولا تتوهمن أنني أجزم لك بخلوّ هذا الزمن
عن مجالسَ العلم ومحافلِ الأدب ، وما كان كلامي إلاّ على الوجه الأعم .
وقد آن أن أجيبك الى ما طلبتَ فأزور بك بعض المجالس والمحافل لينقطع
رَيبك . وليطمئن قلبك

الاعْيَانِ والتَّجَارِ

قال عيسى بن هشام — واستنهضتُ الباشا أُرُورَ به مجلساً من تلك المجالس المَعْدُودَةِ . والأُنْدِيَةِ المَعْقُودَةِ . مجلسَ الوجْهَاءِ والتَّجَارِ . أهل الصَّيْتِ المَرْتَفِعِ فِي الأَمْصَارِ . فَشَهِدْتُ مِنْهُ أُرُوراً وَاتْقِيَا، وَوَجَدْتُ فِيهِ انْحِرَافاً وَإِعْرَاضاً، ثُمَّ التَفْتُ إِلَى يَمَانِي عِتَاباً شَدِيداً . وَيُوسَعِي عَذلاً وَتَقْنِيداً . وَيَقُولُ لِي مَا عَهِدْتُ مِنْكَ مِنْذُ صَاحِبَتِكَ إِلَّا الْخَيْرَ لِي تَرِيدَهُ . وَالنَّفْعَ تَبْدُوهُ وَتَعْمِدُهُ . وَمَا زِلْتُ أَشْكُرُكَ تِلْكَ الْيَدَ الْبَيْضَاءَ . فِي الْعِزَّةِ عَنِ النَّاسِ وَالتَّخْلُصِ مِنْ مَوَاقِفِ الْقَضَاءِ . دَفْعاً لِمَا كُنْتُ تَحْذَرُ وَتَحْشَى . مِنْ شَرِ الْخَاتَمَةِ وَسُوءِ الْعَقْبِي . بِتَزَاحُمِ الْإِحْزَانِ . وَتَرَكَمِ الْأَشْجَانِ . وَمَا تَعْقِبُهُ مِنَ السَّقَمِ وَالْإِعْتِلَالِ . وَسُوءِ النِّكْسَةِ بَعْدَ النِّقَةِ وَالْإِبْلَالِ ^(١) . فَمَا بَالُكَ تَسْتَنْهِضُنِي إِلَى مِثْلِ هَذِهِ الْمَجَالِسِ وَالْمَجَامِعِ . وَرَبَّمَا كَانَ فِيهَا مَا يُؤْذِي الْعَيُونَ وَيَنْفِرُ الْمَسَامِعَ . وَقَدْ شَاهَدْتُ نِيَّكَ دَائِمَ يَصِيبُنِي التَّلَفُ . مِنْ شِدَّةِ الْحُزْنِ وَالْأَسَفِ . فَقُلْتُ أَشْهَدُ اللَّهَ مَا أَبْنَى لَكَ إِلَّا الْخَيْرَ وَالتَّوْفِيقَ . فِي كُلِّ مَذْهَبٍ وَطَرِيقٍ . وَقَدْ رَأَيْتُ التَّجَارِبَ أَوْ سَمِعْتُكَ كَرَمًا وَحِلْمًا . وَصُرُوفَ الدَّهْرِ أَكْسِبْتَكَ مَعْرِفَةً وَعِلْمًا . بَعْدَ قَلَّةِ الْإِخْتِبَارِ ، وَكَثْرَةِ الْإِغْتِرَارِ . وَسُوءِ الْإِبْتِدَارِ . فِي الْإِيرَادِ وَالْإِصْدَارِ . وَمَا كَانَ فَيْكَ مِنْ خَشَوْنَةِ الْمَلَسِ ، وَشُمُوحِ الْأَنْفِ ، وَضَيْقِ الْعَطَنِ ، وَصَلَفِ الرَّأْيِ ، وَمَا أَحَبَّ لَكَ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ تَرَى فِي أُمُورِ النَّاسِ إِلَّا مَشْهَدًا يُسَلِّي عَنْ الْكَرْبِ .

(١) الْإِبْلَالُ ، التَّفَاءُ

وَمَلْبَأً يَفْرَجُ عَنْ الْقَلْبِ . فَلَا يَكُنْ نَظْرُكَ إِلَى أَعْمَالِهِمْ فِي غَدْوَمٍ وَرَوَاحِهِمْ .
وَفِي أَفْرَاحِهِمْ وَأَتْرَاحِهِمْ . وَنَعِيمِهِمْ وَبُؤْسِهِمْ . وَرَجَائِهِمْ وَيَأْسِهِمْ . مِثْلَ
نَظَرِ الْحَكِيمِ « هِيرَاقْلِيط » . بَلْ مِثْلَ نَظَرِ الْحَكِيمِ « دِيمُوقْرِيط » . كَانَ
الْأَوَّلُ يَشَاهِدُ أُمُورَ النَّاسِ فَيَكْبِي وَيَتَحَسَّرُ ، وَكَانَ الثَّانِي يَرَاهَا فَيَضْحَكُ
وَيَسْخَرُ . فَإِذَا أَنْشَدَ أَحَدُهُمَا فِي نَصْرَةِ مَذْهَبِهِ :

النَّاسُ مِنْ دُنْيَانِي فِي مَا تَمِ
فَالشُّبَّ تَبْكِي وَالرَّوَاعِدُ تَنْدُبُ

أَنْشَدَ الثَّانِي فِي تَأْيِيدِ مَشْرَبِهِ :

هَذِي الْحَيَاةُ رَوَايَةٌ لِمَشْخَصٍ
فَاللَّيْلُ سِتْرٌ وَالنَّهَارُ الْمَلْعَبُ

وَمِنْ صَوَابِ الرَّأْيِ أَنْ لَا تَذْهَبَ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ . وَلَا
تَذُرْفَ عَيْنُكَ مِنْ أَجْلِهِمُ الْمَبْرَاتِ . وَهَلُمَّ مَعِيَ أُمْتَعِكْ بَزِيَارَةَ مَجْلِسِ
يُونُسَ مِنْ وَحْشَتِكَ . وَيَكْشِفْ مِنْ غُمَّتِكَ . فَاسْلَسَ مَطَاوِعًا فِي
الْقِيَادِ . وَوَاظَنِي عَلَى مَا تَبَيَّنَ لَهُ مِنَ الرُّشْدِ وَالسَّدَادِ . فَيَمَّتْ بِهِ دَارًا
عَالِيَةَ الْجُدْرَانِ . وَاسِعَةً الْأَرْكَانِ . شَاهِقَةً الْبَنِيَانِ . لَا أَحَدَ التَّجَارِ الْأُعْيَانِ .
فَزَاغَمْنَا عِنْدَ الْبَابِ سَائِسٌ يُسْحَبُ فَرَسًا مُصِيبًا مُطِيعًا . وَيَحْمِلُ عَلَى
كَتْفِهِ طِفْلًا رَضِيعًا . يَقُولُ وَقَدْ أَظْهَرَ الْغِيظُ بَوَاطِنَهُ الْكَامِنَةَ : « لَسْتُ
أَدْرِي وَاللَّهِ أَسَائِسٌ أَنَا أَمْ حَاضِنَةٌ » . وَمِنْ وَرَائِهِ آخَرُ يَحْمِلُ صَفْحَةً
مُتَدَفِّقَةً بِالْمَحَلِّ . يَقُولُ وَقَدْ تَلَوَّثَ بِمَائِهَا وَتَبَلَّلَ : « عَلَامَ أَنْعَبُ فِي هَذِهِ

الدار وأشقى . وإلامَ يدوم هذا الشقاء ويبقى . ولست أدري والله أسأتُ
 أنا أم سقا . « ولما وُلجنا الباب اذا بالبواب . يقول وفي يده صُرَّةُ ثياب :
 « لا مرَدَّ للمقدور والمقضى . ولا رجاء في العيش الرخي . والله ما أدري
 أبوابُ أنا أم خصي . » ولما جاوزنا دهليز المكان . الى باب الإيوان .
 وجدنا عنده غلاماً فتي السن . يتهند ويثني . وبين يديه دخان وورق .
 وبجانبه كتاب مطبق . وهو يقول : « عجباً والله للوالد يشغل ابنه
 بسجاراتٍ يحشوها . فليهبه بها عن دروس له يتلوها . لا غرو إن فاضت
 العيون بسواكها . واحترقت القلوب بلواهبها . فما أدري والله أفرأش
 الدار أنا أم ابنُ صاحبها . فما أحسن بنا حتى انتفض قائماً . وتقدم
 مُسليماً . ثم ذهب أماننا . ليذكر قدومنا . واذا بالوالد مقبلاً علينا يتكفأ
 في مشيته . ويتعثر في جُبته . فسَهَّلَ بنا ورحَّبَ . وبالغ في التحية
 وأسهب . ودخل بنا على أهل مجلس مختلفي الازياء والهيئات . متبايني
 الأشكال والسمات . فمن صاحب عمامة يتعهد يده رصفها . وآخر
 يجدد لفها . ويحبك بالإبر طرفها . ومن صاحب طربوش قد أماله على
 جبينه . فاذا تحرك أسنده يمينه . فترى يده أبداً لا تسكن ولا تستقر .
 كأنما هو في تأدية سلامٍ مستمر . ووجدناهم جميعاً قد كثر بينهم اللغو
 واللفظ . ومعناهم يتحاورون على هذا النحو والتمط :

(أحدهم) - نعم لا بدَّ من ذلك اذا يسَّر الله وتم الاتفاق مع
 الخواجه فلان ، فان إقامة عمارة أخرى بجانب تلك العمارة مما يأتي بأرباح

لا يمكن أن تأتي بها الأشغال التجارية وأنا أنصحك يا أبا هاشم أن تترك التجارة جانباً فقد أصبحت الآن لا تنفع يُرجى منها، وتوكل على الله في الاشتغال معنابالاً بنية فهي أنجح وأربح

(الثنائي) — ومن أين لي زادك الله من النعمة والبركة ما يساعدي على هذا التوسع ، والحال على ما تعلم ضعيفة ، والحمد لله على نعمة السر في الغنى الكامل

(الاول) — لا تقل هذا أيها السيد . « وأما بنعمة ربك فحدث » ودعواك ضعف الحال إن هي إلا تواضع منك ، والله يزيدك فضلاً على فضل

(الثنائي) — أستغفر الله يا سعادة البك هذا حسن ظن منك والا فالحقيقة غير ما ظننت ، وقد قلت لك إن السر هو الغنى الكامل ، وعلى كل حال فالبركة في التجارة ، فمنها كان رزق الآباء والأجداد ، وربح مستور . أبرك من ربح مشهور

(ثالث) — تالله لأنكم لفي ضلالكم القديم ، وهل بقي في التجارة التي زاحمكم عليها الأجانب ربح يُذكر أو رزق يُطلب ، فاتركوا هذا الخمول وعليكم بأشغال الأقطان في البورصة فهي الربح المضاعف والرزق الحاضر يأتيك رغداً بلاكد ولا تعب ، وكم رأينا من فقير وليج البورصة فخرج بفضل المضاربات غنياً كبيراً ، وهذا صاحبنا الخواجه فلان اليهودي وفيكم من أدرك والدته تباع الخبز بالحارة ، قد مارس تلك الاشغال فاصبح أكثر

الناس مالا وأرفعهم حالا ، ونحن لا نزال على ما تركه لنا الآباء والأعمام
رحمة الله عليهم

(رابع) — ولكن فأتك أيها السيد أن صاحبنا هذا الذي تعنيه لم
يصل الى ذلك الا بأشغال السمسرة وفيها من الحطة ما لا يخفى عليكم ،
وهل تريدون ان ينزل أحدنا بنفسه الى هذه الاشغال بعد أن عشنا
مثل هذا العمر

(الثالث) — حاشا لله أيها السيد ليس هذا من قصدي ، وإنما
أردت أن أبين لكم ان هذا اليهودي دخل البورصة سمساراً لا يملك مالا
فأصبح من كبار الأغنياء ، فما بالك بمن يدخلها وهو صاحب ثروة . لاشك
انه يخرج منها بعد مدة قصيرة قارون زمانه

(خامس) — ما وراء الربح الكثير الا الخسران الكبير ، وقد
شاهدنا بأعيننا ما أتتجته أشغال البورصة من تخريب البيوت العامرة
وتبديد الغنى الواسع والمخطاط العمار الرفيع ، وأرى ان الإقدام على هذه
المهلك من الجنون المحض « فالله خير حافظاً »

(سادس) — أما أنا ، ولا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ، فقد كفاني
تأديماً ما تكبدته من الخسائر في تلك المضاربات على الاقطان ، ولولا فضل
الله وبركة دعاء الوالدين لما نجوت من الخراب

(الثالث) — لا حول ولا قوة الا بالله « انك لا تهدي من أحيت »
كيف تمخضون الخسارة في أشغال الاقطان وتوقعونها والربح فيها

مضمون مع بعض الأتباء المجري الأخبار وحسن التخمين في الاحصاء
وتقدير المحصول والمطلوب للتسليم ، ومع القليل من الممارسة والجرأة
في العمل

(سابع) - كيف تدعى ذلك حفظك الله وهذا فلان المشهور قد
انقطع لهذا العمل واجتمعت فيه معداته فما زال يهوى في بحر البورصة
حتى وصل في الخسارة الى القرار، وإن كان لا يزال ظاهراً في أعيننا بمظهر
الغنى الواسع والمال الجم

(ثامن) - سبحان الله ألا تعجبون معي من اتساع الشهرة بيننا
بالغنى والثروة ثم لا نلبث أن تنكشف الحال عن القلة والضعف ، فكم
سمعنا بأن فلاناً صاحب ثروة تُقدر بالآلاف الألوف ثم يظهر الخفى
ويتضح الباطن فلا تبلغ الحقيقة معشار تلك الشهرة الكاذبة

(الخامس) - نعم صدقت ألم تروا الى المرحوم فلان كيف كان
يفخرني في كل مجلس عند ما أخذت الرتبة بأنه أكثر مني مالاً وأعظم
ثروة ، وأن مقامه بذلك رفيع ومرتبته سامية ، فلما توفاه الله انكشفت
الحال ولم يرث عنه أولاده ما يكفي لبقاء بيته مفتوحاً وبقاء اسمه
مذكوراً . وقس على ذلك أمثاله من هذا القبيل فسبحان الغنى الدائم
(الرابع) - دعونا بالله من ذكر الأولاد والموارث فإنني كلما تذكرت
أخلاق أبنائنا في هذا الزمن ، ورأيت ما وصلت إليه ثروة فلان وما
انتهى إليه حال أولاده من الفقر والضعف بعد أن بددوا تلك الأموال

الطائفة ، وأصبح ذكر أيهم ينهم نسياً منسياً فلا يزورون له قبراً ولا يطلبون له رحمة - هان على أن أنفق مافي حوزتي في حياتي وأن أتمتع بأموالي في مدة عمرى

(الخامس) - معاذ الله أن نفعل ذلك بأبنائنا ، وما فائدتنا في هذه الدنيا اذا لم نجمع الأموال وندخر الثروة لأعقابنا وترك لهم ما ينفهم عن سؤال اللثيم بعدنا . ولا تجعل الذنب كله على الأولاد في تبديد الموارث ، بل الذنب كل الذنب على الآباء الذين يتركون أموالهم هملاً بعد موتهم ويففلون عن تقييدها بالوقف فينتفع الأولاد بالريع وتبقى العين قائمة والبيت مفتوحاً والاسم مذكوراً ولا يحتاج أحد من الذرية وذرية الذرية مع وجودها الى

(السادس) - لا مؤاخذ يا سعادة البك في مقاطعة الحديث ، ألم تسمع بما حصل في وقف فلان وفلان وغيرهما وكيف اغتال النظار حقوق المستحقين وذهب الوقف ضياعاً بين القضايا والدعاوى والديون ، حتى آل النظر والاستحقاق فيها لليهود واندثرت البيوت وعفّت الآثار وذهبت أسماء أصحابها كما ذهب أمس قبل اليوم

(السابع) - نعم ينفع الوقف ويبقى الميراث على شرط أن يكون بمثل الشروط التي وقف بها المرحوم فلان ، فانه خصص جانباً من الريع للزيتة واشترط أن يُحفظ الباقي ويُدخر ، وكلما تكوّن منه نقد عظيم يُشترى به عقار ثم يوقف ويضاف الى الوقف الأُصلى ليكون في نموّ

متواصل على توالى الايام وصروفِ الحدثان ، وبذلك يصير البيت في درجة عالية من الغنى بعد وفاة صاحبه فوق ما كان عليه في أيام حياته ، فأنعم بها من طريقة وأحسن بها من وسيلة

(الثالث) - ليس ذلك من الحزم في شيء ، ولكنه الغلو في البخل والشح ومحبة الادخار بعد مفارقة الحياة ، ولقد حَرَمَ المرحومُ نفسه من من التمتع بماله في حياته وحَرَمَ أولاده منه بعد موته بإبتداع هذه الطريقة الغريبة في شروط الوقف

(الاول) - أطلبُ منك العفو والسماح وعدم المؤاخذه ، فَن يقول إن المرحوم كان شحيحاً مقترراً ، قد والله عاشته الزمن الطويل فما رأيتَه يحرم نفسه أو يقتصر عليها . وما كانت مائدته لِتَحُلُو من الضأن أو الحمام أو الدجاج ، وَحَقَّ جَدُّكَ ، وإنما كان الرجلُ حازماً لا ينفق ماله الا في الوجوه النافعة

(الثانى) - لا اعتماد عندى في هذا الباب على الوقف أو الملك ، وخيرُ ما يَدَّخِر الوالد لأبنائه وأفضلُ ميراث لهم أن يحسن تعليمهم وتهذيبهم في المدارس ، وأن لا يموِّدَهم في حياته الإِتِّفاق والتبذير بل يروضهم على التوفير والتدبير ومعرفة قدر الدرهم والدينار

(الاول) - وهل جاءتنا المصائب في أولادنا الآمن هذه المدارس وتعليمها ، وهل زادهم ذلك التَّهْذِيبُ إلا ما شئتَ من الفظاظلة والوقاحة والكبرياء والمكابرة ، ولقد أدهشنى فلان بالامس وأضحكنى في شكواه

مرّ الشكوى من حال ابنه المتهدب المتعلم في المدارس والمجالس إذ قال
 لي في حديثه : « مازال هذا الولد يزيد في تعذيبى وتكديرى منذ خروجه
 من المدرسة فأصبح لا يكلم أهله إلا بالرتانة ولا يُعرب عن غرضه
 إلا بالتعنيف والتأنيب ولا يرضى عن شيء في البيت . فإذا جاءوا له بالماء
 قال فيه الميكروب . وإذا أتوه بالخبز والجن قال على بالميكروب وسكوب .
 ثم ترى الشقى يقسم الأطعمة أقساما ، فيقول البيض واللبن غذاء كامل ،
 والخضر غذاء ناقص لا ينفع ولا يمرى ، وأن الأرز وما شابهه من « المواد
 النشائية » لا فائدة منها سوى أنها تحترق كالوقيد في الجسم ، وما زاد منه
 عن الحاجة فهو شحم يغلظ به الجسد وتورم به الأعضاء ، وأن الفواكه
 لا بد أن تؤكل من ساعتها إذا تشقت خصوصا البطيخ لأنه أسرعها
 قبولا لتولد الحيوانات السامة ، وهلم جرا حتى حير الخبيث أهل البيت
 في طعامه وشرايه فوق ما حيرنى في اختلاف ملابسه وتعدد أزيائه ،
 وكلما عارضته في شيء شتمه بأنفه استكباراً ولوى عنقه استحقاراً وسخر بى
 لجهلى ونفّر على بعلمه . هذا هو منتهى التأدب الذى يكتسبه أبناءنا
 من علوم المدارس ، يتعالون على آبائهم ويعيرونهم بعد أن كان الولد
 كالبنّ البكر فى الزمن الماضى لا يرفع طرفه فى وجه والده حياءً ووجلاً ،
 وكان لا يجرؤ على مكالمته إلا محيياً عن سؤالٍ من صغره الى كبره

(الثانى) - ولسكن فانتك أن تعليم أبنائنا فى المدارس يفيدنا فائدة
 عظيمة يُمتفر لها كل ذنب ، وهى دخولهم فى سلك الموظفين فى الحكومة

وارتقاؤهم المراتب والمناصب ، وياليت آباءنا كانوا التفتوا في أيامهم الى تعليمنا في المدارس فكنا استغفينا عن ممارسة التجارة وذل البيع والشراء وكساد السوق وترويج السلعة بالأقسام والأيمان ، فما العيش الا عيش الموظفين الذين يأخذون مرتبهم في آخر كل شهر تقدأ عيناً وذهباً خالصاً دفعةً واحدة سالمة لا يديهم بلا مطل ولا تسويق ، في مقابل جلوسهم بالديوان ثلاث ساعات من كل يوم يقضون الجزء الاعظم منها في المسامرات والمفاكيات ، ثم ناهيك بما لهم بين الناس من التوقير والتعظيم وما في قدرتهم من مساعدة الأصحاب ونكاية الأعداء . ورأس المال في ذلك كله الاحاطة ببضعة كتب في المدرسة . فأخبرني حينئذ أي ربح في التجارة وأي شأن لها يوازي هذا الربح وهذا الشأن في خدمة الحكومة وسبحان من قسم الحظوظ فلا عتاب ولا ملامة

(الرابع) — كل هذا معلوم ومسلم به ، ولكن من أين لك أن ينال ابنك الشهادة وأنت تعلم حال القابضين على زمام التعليم فقد خرج أكثر أبنائنا من المدارس بلا شهادة وخسرنا عليهم الأموال في نفقاتها ، ومن صادفته العناية منهم ونال الشهادة مثل ابني فانه لم يزل يتردد على أبواب الحكومة في تطلب الخدمة ، والوظائف مشحونة ونظار الحكومة لا يجدون سواها

(السادس) — عسى الله ان يبدل الأحوال وتسقط هذه النظارة ويعن علينا يرجوع أولئك النظار الذين يهتمون بمصالح أهل البلد وأبناء

الوطن فترى حينئذ كيف يكون تقدّم أبنائنا في المناصب

(الخامس) - حقاً اذا ذهب هؤلاء النظار وعاد صاحبك الى النظارة فقد أقبل علينا السعد وانجلت الكروب وصفت الأوقات ، وانا أرجو أن لاتنسى ابني عند السعى لأتجالك فقد كان معهم في مدرسة واحدة وهو دائماً يطالع الجرائد ويتربح الحوادث التي يكون من ورائها سقوط هذه النظارة

(الثامن) - أراكم تخبطون في أمر أولادكم على غير هدى . والأصوبُ عندي أن نعلمهم العلوم ليكونوا أسوة أهل زمانهم معرفةً واطلاعاً . لا لأجل التوظف في الحكومة والخروج عن طبقاتهم . وأما من جهة حفظ الموارث في أيديهم بعد مماتنا فأحسنُ الطرق أن لا نقترب عليهم في النفقة أثناء حياتنا وأن لا نتركهم بمعزل عن أشغالنا بل نخصص لهم قسماً من المال يشتغلون به على حدّتهم تحت أعيننا ليعتدوا على العمل ويدركوا لذة المكسب بأنفسهم فتربى لهم ملكة الحرص على المنافع وينتفعوا بعلومهم في اتساع تجارتهم والتفنن في أبواب المراجعة . وقد جربت ذلك في أولادى وانا أرجو فيهم الخلف الصالح ان شاء الله

(السادس) - هل جاءت جريدة اليوم

(صاحب البيت) منادياً لابنه - إئتنا بالجريدة واقراها علينا

(يخضر الغلام وفي يده الجريدة ناشرأ لها)

(الاول) - اقرأ لنا من الاول

(الغلام) قارئاً - « الحرب »

(السادس) - هل وقعت الحرب

(الغلام) - ليس يتبين ذلك من أول المقالة

(السادس) - اقرأها من آخرها

(الخامس) - اتركها من أولها الى آخرها، واقرأ في « المحليات »

فلا فائدة لنا في وقوع الحرب أو اجتنابها

(الغلام) قارئاً - « تأليف الشركات »

(الرابع) للسادس - لا يذهب عن فكرك مشروع الشركة الوطنية

التي كنا تكلمنا في تأليفها منا لمشتري الأطيان المعلومة من الحكومة

(الخامس) - ان شاء الله يكون لنا نصيب معكم في هذه الشركة

(الثالث) - مَنْ أعضاؤها، وَمَنْ الرئيس

(السادس) - أعضاؤها فلان وفلان وفلان ورئيسها فلان

(الثالث) - معاذ الله أن أقبل الدخول مع فلان في شركة، وهل

نسبنا ما وقع منه

(الثاني) - وأنا لا أقبل الدخول في شركة بعد تلك الشركة

المشهورة بخيبة المسعى ما لم أكن أنا الواسطة في مقابلة الحكام والمداولة

معهم

(السابع) - وأنا لا أقبل الدخول فيها إلا اذا كانت « أسهمى »

في التأسيس أكثر من فلان

(الاول) — وأنا لا أقبل أن يكون فلان رئيساً على في
شركة أبداً

قال عيسى بن هشام — واشتدَّ بينهم الجِدال والخِصام فخلقت
العيونُ وعبست الوجوهُ وتحركت الضغائن وثارت الأحقاد. ورأينا كل
واحد منهم يضرر لأخيه من الشر والأذى . مالا يضره القرن لقرنه في
ساحة الوغى . فانصرفنا عنهم وتركناهم يهوج بعضهم في بعض . كأنهم
في موقف الحشر ويوم العرض

أرباب الوظائف

قال عيسى بن هشام — وشرنا الى زيارة مجلس من أرباب الحكم والولاية. وذوى السياسة والدراية. ممن يدهم حلُّ الأمور وعقدُها. ويملكهم شقاء الامة وسعدُها. الناشئين في مهد المعارف والعلوم : والنابعين في أشات المنطوق والمفهوم. والموصوفين بدقة النظر وبُعد الهمم. والواقفين على أخلاق الخلق وعادات الأمم. الذين تنكشف لضوء آرائهم غياهبُ الخطوب الداجية. وتنفاد اللطف سياستهم أزمة القلوب الآية. فوصلنا الى دارٍ يزهر بياضُها. ويهر إيماضُها. قد ضربتُ عليها المحاسن أطنابها. وخلمتُ عليها الزخارفُ جلابها. فسار بنا الخدم الى حجرة في جانب الساحة. أعدت للانتظار والاستراحة. واذا برجل جالس فيها يتمايل بين يقظان ووسنان. فرأسه كُرَّة والكُرَى صولجان. فلما أحسَّ بقدومنا ودخولنا عليه. انتبه يزيح النعاس بإصبعه عن عينيه. فسلمنا فسلم. وهو يتأهب ويتلعم. فتخيلناه من ظاهر جملة. وبذاذة هيئته. أنه صانع من الصناعات. أو تبع من الأتباع. ولكن ما لبث أن ظهر لنا من مخاطبته للغلام. أنه ذو رحم في البيت وذو مقام. ثم التفت الينا مخاطبنا ويقول. بعد أن ذهب الخدام مستأذنا في الدخول : « قَبِّحَ اللهُ الخدم. فهم نقمة من النقم. شرُّهم حاضر. وخيرهم نادر. والعناء بهم ليس له آخر. فكم أغضبوا حلما. وآذوا كريما. وكم كسروا الصحيح. وخطأوا الصريح. وكم ارتكبوا جرما وإثما. وجاءوا إفكا وظلما. وكم فتحوا الأغلاق

واختلسوا الأَلاق . وكم أٌحدثوا الشقاق . وأذهبوا الوفاق . وكم
فرّقوا بين المرء وأهله . وحالوا بين الفرع وأصله . ولعنة الله عليهم في
الدارين . فقد ذقتُ منهم الأَمْرَيْنِ . وكادت تصل بنا أفعالهم الشنيعة .
الى مالا يُحمد من الجفاء والقطيعة . وابنى حرسه الله ينظر ويغضى .
ويتحمل منهم مالا يُرضى . وهم يتجنّون علينا وينتصرون . واذا أمرتهم
بأمر لا يأتَمرون . ويشهد الله اننى كلما رأيت مال ابنى فى أيديهم يتبعثر
ويتبدد . وثقتُهُ بهم تتضاعف وتتجدد . ذاب الفؤاد فسال من العيون .
مَشُوبًا بماء الشُّون^(١) . وأما وكيل البيت وما أدراك ما الوكيل . فحسبنا
الله ونعم الوكيل . فتى لا تخطىء فى النفاق مخيلته . ولا تطيش فى
البيت حيلته . دأبه المكر والخداع . وديدته الشقاق والنزاع . يُرضى
طفلا . ليسخط كهلا . ويتملق للجارية فى الحرم . وللوصيف من بين
الخدم »

هذا وما زال الرجل يشكو ويتضجر . ويتأفف ويتحسر . فلم
يُنقِذنا من هذه الشكوى التى تُصم الآذان . الا رجوع الغلام بمجواب
الا ستئذان . فانتهينا من شقة لسانه . وحمدنا الله على كرمه وإحسانه .
ثم اقتفينا اثر الغلام الى حجرة بادية الرُواء . مضية بالكهرباء . مفروشة
بأثمن فراش . وأبدع رياش . على اختلاف فى الاجناس والانواع .
وتباين فى الأشكال والاضاع فالتحفة الشرقية . تقابلها الطرفة الغربية .
وآنية الذهب . يضارعها آنية الخشب . فوجدنا المجلس حافلاً بأهل

الولاية والقضاء . من الرؤساء والوكلاء . فأخذنا مجلسنا نستمع ما يدور من السر . ونجني من أدهم ما يحلو من الثمر . ودونك بعض ما اقتطفنا وجيننا . وسمعنا ووعينا :

(أحدهم) - نعم حبذا نصرة حزب الجيش على بقية الأحزاب في فرنسا فان في ذلك لو تعلمون تحرير رقبتنا وانقضاء محنتنا (ثانيهم) - ما أبعد ما ترمي وما أسرع ما تحكم فهلاً نبأنا لله أبوك كيف ترتيبك لهذه القضية واستقرأوك لهذه النتيجة . وما نحن وخذلان الأحزاب الفرنسية ونصرة حزب الجيش عليها !

(الاول) - أراك لست بعويص الرأي في السياسة ولا ببعيد الغور في استخراج النتائج ، ألا تعلم لازلت مسدداً ان في انتصار حزب الجيش قلباً لهيئة الجمهورية ورجوعاً بفرنسا الى الملكية والامبراطورية أو القنصلية فتأيننا بنثل أو تلك الملوك والقواد الذين دوخوا الشرق والغرب وقهروا الممالك وأخضعوا الدول وأصبحت لهم الكلمة العليا على اهل البسيطة فلا يمانعهم في أغراضهم ممانع ولا يعارضهم في مطالبهم معارض . وإني لأعلم علم اليقين ممن عاشرتُ من كبار الفرنسيين وصاحبتُ أنه لولا هذه الجمهورية لَمَا وصلنا نحن الى هذه الحال

(ثالثهم) - دعنا بالله من هذه الخيالات وأتركنا من هذا اللغو ومثلك لا يحق له الشكوى من هذه الحال فانك متين العلاقة بالمستشار وما بينك وبين الوصول الى المنصب الذي تتطلع اليه الا قيد شبرٍ وأنت

مع ذلك فى غنى عن خدمة الحكومة بما لك من الغنى واليسر، ولكن ماذا تقول فى مَنْ هو فى حاجة دائمة الى البقاء فى أسر الحكومة وذل الخدمة، ولولا الاحتياج الى المرتب والاضطرار الى الرزق لَمَا أَقَتُ فى الخدمة يوماً واحداً

(رابعهم) - وأنا والله لا أُنْتَظَرُ الا أن يتم لى نصف معاش فأهجر خدمة الحكومة وأنجو بنفسى من أسر الرق وذل العبودية ثم أَعْتَمِدُ بعد ذلك على الاشتغال بالتجارة فهى أهنا عيشاً وأعظم ربحاً وأبعد بصاحبها عن مواقف الذل والهوان

(خامسهم) - ما أسخف الرأى وأضعف الفكر. ومَنْ ينكر أن خدمة الحكومة على كل حال هى أعلى قدراً وأرفع شأنًا من بقية الحرف والصناعات . وكل أسباب المعاش لا تخلو فى هذه الدنيا من المتاعب والاكدار ولكن خدمة الحكومة أهونها حالاً وأقلها عناء، ولا يفضل عليها الاشتغال بالتجارة الا مَنْ كان قليل التبصر فى الامور، ويكنيك برهاناً على ما أقول أنك تستخدم التاجر وتسخره مادام درهمك فى يدك ولكن التاجر فى حاجة ابداً الى أصغر موظف فى الحكومة وإن كان من أغنى الأغنياء، ولو تراهم اذ يفتخرون بينهم بزيارة الكاتب ومجالسة معاون وتحمية القاضى ومخاطبة المدير لعامت أن خدمة الحكومة بلغت فى أعينهم وأعين بقية الطبقات مبلغاً عظيماً من الشرف والرفعة بحيث لو خيرت أحدهم بين الخروج عن ماله وعقاره وتجارته وأطيانه وبين

الدخول في صف الموظفين بالحكومة لخرج من كل ذلك خروج السهم من قوسه والأرقم من جلده وحكم بأن السعادة كل السعادة فيما تعدّه انت شقاء وبلاء وتعتبره ذلاً وهو أتا

(سادسهم) - على رسلك أيها القاضي لا تعكس القضية ولا تقلب الحقيقة ولا تحمل ما تراه في أخلاق أهل التجارة والصناعة والزراعة من الاستهانة بحقوقهم والاستعظام لأهل الحكومة على ان حرفتهم خسية في ذاتها بل ذلك حادث فيهم من جهلهم وضعف إدراكهم والا فلو تخلّى أحدهم عن طبقته ودخل في طبقتنا يوماً لأدرك في الحال ما كان فيه من نعمة الاستقلال في العمل والحرية في الرأي ولعلّهم ان الموظف قد باع للحكومة حريته ووهب لها نفسه تتصرف فيها تصرف المالك في ملكه مقابل مقدار من المال يعدّ لأجله ساعات اليوم وأيام الشهر ويربّحه الواحد من أولئك الجاهلين بأحوالنا في يوم واحد وهو أمير نفسه وسيد أهله، ويأليت آباءنا كانوا انتبهوا الى تعليمنا الصنعة وتمريننا على التجارة ولكن بثس ما صنعوا وبثس ما خلفونا له، ولو أنهم كانوا أدركوا ما انتهت اليه حال الخدمة في الحكومة اليوم ولم يغتروا بما كان للحكام في الازمان السالفة من الصول والطول والقوة والحول واكتساب المال من الجاه - ولو علموا أنه سيأتي زمان على هذه الحكومة التي كانوا في ايديها كالأيتام في يد الوصي يكون أرباب المناصب فيه كالاطفال في حجر الموضع - لعضوا الأنامل ندماً ولا أرسلوا بدل الدمع دماً على ما فرطوا في أمرنا وأهملوا في شأننا

(الخامس) - انك لتتكلم بكلام العجائز اللاتي يقنعن من دهرهن
بالخسيس من الملبس والمطعم . وأين انت هداك الله من طلب المعالي
وابتناء المفاخر وتشبيد المجد وخدمة الوطن وارتقاء المناصب للقدرة
على النفع والضرر . وأين أنت من قول الشاعر الحكيم :

ولو أن ما أسمى لأدنى معيشة
كفاني ، ولم أطلب ، قليلٌ من الم
ولكنما أسمى لمجدٍ مؤثِّلٍ
وقد يُدرك المجد المؤثِّل أمثالي

والى الله المشتكى من زمن صغرت فيه النفوس وضعفت الهمم
وماتت العزائم ورضى الناس فيه بالخنول والسكون وبالعيش الدون

(السادس) - انى لأعجب منك أيها الفاضل كيف يغيب عنك
الصواب الى هذا الحد فترى أن فى خدمة الحكومة سؤوداً وعلاءً ومجداً
وسناءً وماهى الا الذل والشقاء . والبلاء فى أثر البلاء . وأنا أفصل لك
الحال تفصيلاً لتعلم أن بقاء أمثالك فى خدمة الحكومة مع القدرة على
التنحي عنها عجزٌ وضعفٌ ، وجهلٌ براحة الحياة وأى جهل فأقول :

تنقسم الرغبة فى خدمة الحكومة الى أربعة أقسام . القسم الأول
الرغبة فيها للمال أعنى لسدّ العوز وكفاف العيش . وصاحب هذا
القسم يكون فى حال المضطر الذى حكم عليه الدهر باحتمال الهوان
لضرورة الرزق فهو مثلى يغبط حال كل صانع وتاجر وزارع ويتمنى على
الدوام أن يخرج من خدمة الحكومة الى صف أهل الصناعات الحرة

والقسم الثاني الرغبة فيها للجاء أعنى عزة المنصب وتقوِّذ الكلمة ومضاء الحكم . وهو ميدان بعيد الشأو واسع الأطراف ليس لشوطه نهاية . ولا حدوده غاية . ولا بدفيه للجواد من كبوة . وللسيف من نبوة . وطالما كان اعتلاء المناصب . وارتقاء المراتب . داعية للرزايا والمصائب . ومجلبة للبلايا والنوائب :

والشرُّ يَجْلِبُهُ العلاءُ وكم شَكَأَ نَبَأًا عَلَى مَا شَكَّاهُ قَنَبَرُ (١)

ولو سلمنا ان صاحب المنصب سَلِمَ من المعاطب ونجا من الخطوب فهو لا يزال طول حياته في همّ ونصب كلما ارتقى في المنصب درجة وجد فوقها درجة أخرى يحسد من يليها ويحقد على من يمتليها ، ولا يفتأ مستعظماً لما فوقه طامعاً فيه مستصغراً لما في يده راغباً عنه ، فهو في ذهول دائم عن التمتع بلذة الحياة التي يجري وراءها غير راضٍ عن نفسه ولا الناسُ عنه راضون . وهذا هو منتهى الشقاء والبلاء وملتقى الكمد والكدر : ذلك الخائبُ الشقيُّ وإنْ كانَ نَ يَرَى أَنَّهُ مِنَ السَّعْدَاءِ يُحْسِبُ الحِظَّ كُلَّهُ فِي يَدَيْهِ وهو منه على مَدَى الجَوَازِ

وأخْلَقَ بَيْنَ كَانِ هُمَّةُ أَبَدًا التطلع الى غير ما في يده ان يكون أنحسَ البرية حالاً وأَمْضَهُمْ عَيْشًا ، ولذلك زهد الراسخون في العلم من الفلاسفة والحكماء في اعتلاء المناصب ورغبوا عن اغتراب غاربها وحذروا العقلاء من السعى وراءها وشغل النفس بها . هذا كله إذا

(١) قنبر ، هو مولى علي بن ابي طالب رضى الله عنه

كان المنصب عظيم الجاه نافذ الأمر وكان الوصول اليه من طريق
الفضيلة والشرف والحصول عليه من باب الجدارة والاستحقاق . فأما
والطريق الى المناصب كما نراه اليوم قاصرٌ على التوسل والتوسط
واهراقِ ماء الحياء ، والمنصبُ على ما تعلم لا أمر فيه ولا نهى ، ولا
حل ولا عقد ، فالقرارُ منه أجدرُ بطالب الجاه وأحرى . والتباعدُ عنه
أشرفُ بذى الفضل وأسنَى . والنزولُ عنه نعم المنصب العالى . لطلاب
المعالى

والقسم الثالث الرغبةُ فى المنصب لشغل النفس دون سواء دفعاً
للسأم والملل وتضييماً لأوقات الحياة وساعات العمر فى الاشتغال
بحاجات الناس والتلهى بها عن تهذيب النفس . ولا يدخل فى هذا
القسم الا مَنْ كان فارغ الفؤاد خاوى الصدر خالياً من كل أدب وفضل
مشغول الضمير بالوساوس والهواجس فأكرهُ شئٌ لديه نفسه وأثقلُ
حمل عليه حياته ولا بدّ له من مشاغل متجددة ومساائل متعددة تشغله
عن الخلوة بنفسه التى صارت عنده اذا هو خلا بها لحظة كأنها خلية
من خلايا الزناير أو وكرٌ من وكور الأفاعى ، وهيهات أن يبلغ
المسكين غرضه يوماً لأن مَنْ ضاقت عليه نفسه كان العالم عليه أضيق
ومن ثقلت عليه أخلاقه فالخلقة عليه أثقل

والقسم الرابع الرغبةُ فى خدمة الحكومة لخدمة الوطن ونفع
الامة . وهذا مطلب عقيم النتيجة أيضاً لأنه لا يتفق لنا الجمع بين

المحافظة على البقاء في المنصب وبين الاستقلال في الرأي الذي تقتضيه مصلحة الوطن . ومن أراد أن يخدم وطنه فليتخلص من قيود الحكومة ويخدمه وهو مطلق اليدين واسع التصرف ولا تنسَ فوق هذا كله ما يعقب حلاوة الولاية من مرارة العزل خصوصاً في بلد يَنسبون فيه الى صاحب المنصب كل فضيلة وينزعونها عنه اذا سقط منه ، فالرجالُ عندنا بالمناصب لا المناصب بالرجال على عكس ما قد قيل :

إِنَّ الْأَمِيرَ هُوَ الَّذِي
يُضْحِي أَمِيرًا يَوْمَ عَزَلِهِ
إِنْ زَالَ سُلْطَانُ الْوَلَايَةِ
لَمْ يَزَلْ سُلْطَانُ فَضْلِهِ

فمن ذا الذي يقبل الدخول في خدمة الحكومة وهو يجدها محيصاً إلا مَنْ أَضَلَّهُ اللهُ على علم . ولذلك فاني عاهدت نفسي أن أتحير لأولادى في تعلمهم صناعة يَتَمِشُونَ بها أحراراً وتكون معهم أينما حلوا وساروا لا يسلبها منهم تقلب السياسة وتغير الحوادث ولا يؤثر فيهم غضبُ زيدٍ أو رضى عمرو

(سابعهم) - لله أنت ما أحلى بيانك ، وأجلى برهانك ، وأنا معك في هذا الحكم ، وعلى هذا العزم
(الثاني) - اتركوا هذه الخطب المكدرّة والأفكار المحزنة

وخذوا بنا في حديث غير هذا يفرّج عنا ويروّح ، ولا تجمعوا علينا بين
ذل النهار وحمّ الليل . وهل لك يا فلان أن تقوم معي للمسابقة والرياضة
بالبسكليت

(الاول) - الأحسن من هذا أن تأتونا بالفونوغراف نستمتع اليه
(ثامنهم) - أو قوموا بنا الى عرس فلان فقد بلغنى أن فيه
« بوفيه » لم يُسمع بمثله حسنا ووضعنا
(الاول) - أنا معك

(الثامن) - لكن على شرط أن تقيم معي هناك نستمتع الفناء
(الاول) - لست معك في هذا بل نخرج من البوفيه الى
الازبكية لسماع الموسيقى الانجليزية أو الأوبرا التليانية
(الرابع) - أنا لا أتوجه معكم لأنني ذاهب الى « الكلوب »
(السابع) - انتظروا قليلاً حتى نقرأ جرائد المساء
(الخامس) - على بالجرائد الفرنسية منها فهي أصحّ من العربية
أخباراً وأغزر مادة

(الثالث) - اقرؤوا الجرائد العربية أولاً واحدة بعد أخرى أو
بعضها مع بعض

(الثاني) - قارئاً - « آسيا في أوروبا وأمريكا في أفريقيا »
(الرابع) - ماذا جرى لصوابك يا عزيزي ، اقلب الصحيفة الأولى
فما لنا ولهذه المقالات الافتتاحية ، وما لنا ولهذه الافكار الصبائية

(الثاني) - قارئاً في الصحيفة الثانية - « الاسكندرية لمكاتبتنا » :
« الامة برجالها والمناصب بأربابها والمعارف هي التي تخرج لنا رجال
المستقبل ومن أين لنا بالرجال اذا كانت تبخل بالمال فالمستقبل حينئذ
مظلم والوطن آسف ولا نهضة للأمة ان لم تنهض العواطف لإنشاء
مدرسة كلية أو معارف أهلية وبخلاف ذلك كان ... :

(الرابع) - حسبك أيها القارئ حسبك ، أما قلنا لك لا تقرأ هذه
المقالات المملوءة

(السابع) - اترك « الاسكندرية » الى غيرها
(القارئ) - « الزقازيق لمكاتبتنا » : « يثنى العموم بلسان واحد
على حضرة مأمور البندر لاهتمامه بالكنس والرش ...

(الثامن) - أنعم به وأكرم وأكثر الله من أمثاله في خدمة الوطن .
عليك يا صاحبي بالحوادث الداخلية

(القارئ) - « يسافر سعادة العضو الوطني في السكة الحديدية الى
الاسكندرية في هذا المساء . ويحضر سعادة مدير البوستة الى العاصمة
على اكبريس الصباح

(الثامن) - اترك قراءة هذا « المانيفتو » أيضاً
(القارئ) - « سبقنا فذكرنا أن مجلس النظار بحث في الجبانات
والآن نذكر نص القرار ...

(الثامن) - جعل الله اللجنة قراره ومثواه . فدعه واقرأ لنا سواه .

(القارىء) — «وصل سعادة السردار الى أم درمان وقد بلغنا عن ثقة ان أهم ما يشغل به الآن هو السؤال عن أحوال السودان»
(الثامن) — سبحانه الله كنت أظن أنه سيشتغل هناك بالسؤال عن أخبار اليابان وحوادث اليونان

(القارىء) — «يسم البوليس الكلاب الضارة»
(الثامن) — نسأل الله السلامة والهداية للجميع
(القارىء) — «كتب الينا أحد أفاضل الاطباء بأنه اكتشف علاجاً يشفى من كل داء مزمن ومرض عضال ويقول حفظه الله في آخر رسالته انه من غرامه بصدق لهجة جريدتنا صار لا يفارقها حتى ولا في منامه على فراشه ...»

(الثامن) — لانزع في هذه الكفاءة وسبحان الموفق
(القارىء) — «رزة عظيم: قد نجح الاسلام وانهدم ركن الدين وأظلم الكون إذ قصفت المنون غصن نقيب الأشراف بالدير الطويل عن مت وتسعين سنة قضاها في عمل البر والاحسان فكان لبناً موته أسف وحزن في قلوب أهل بلده خصوصاً والقطر المصرى عموماً»

(الثامن) — لا حول ولا قوة الا بالله، لا بد أن تكون اسعار البورصة هبطت لهذا النبأ هبوطاً فاحشاً في القطر المصرى خصوصاً وفي الولايات المتحدة عموماً

(القارىء) — «نفيد حضرات القراء أنه لا يزال التحقيق جارياً

في قضية التزييف ولم يتم فيها شيء للآن ومتى تم نبادر الى نشره افادة
لحضراتهم كما هي عادتنا في نشر الأخبار بأوقاتها «
(الثامن) - أفادكم الله ونفعنا بهذه الأخبار

(القارىء) - : «فاتنا أن نذكر أن حضرة وكيل دائرة الهياتم كان
في مقدمة المشيعين لجنازة المأسوف عليها ورده جملان في الأسبوع الماضي.
وكذلك فاتنا أن نهنيء حضرة مكاتبنا الفاضل « بنزلة واكد » حيث
ورقه الله بولادة مولود جعله الله من أولاد السعادة

(الثامن) - جلّ من لا يغفل ولا يفسى . ولكن فاته أن يذكر
أكان ذكر أم أنى

(القارىء) - : « لدغت عقرب ابنة في قسم الوايلي »

(الثامن) - نعوذ بالله هذا كله ناشئ من إهمال الحكومة في
« الاحتياطات الصحية » ومن غفلة البوليس عن ضبط الوقائع الجنائية
(القارىء) (الثامن) - يكفيك يا حضرة القاضي من السخرية
والاستهزاء واسمع لهذا النبأ العظيم

(الثامن) - سمعاً وطاعة

(القارىء) - : « بلغنا اليوم أن الحكومة تبحث الآن في مشروع
فتح شارع المرور ونحن بلسان العموم وبالنيابة عن الأمة المصرية الاسيفة
نحذرها من عواقب هذا المشروع الوخيمة الذي يكون من ورائه رسوخ
قدم الأجنبي في البلاد وسنشرح لحضرات القراء مضار هذا المشروع
في مقالة افتتاحية »

(الاول) - ان هذا الخبر لا يعلم به أحد سواى فكيف وصل الى الجرائد

(الثامن) - إني لأخشى إن دام إفشاء الأسرار على هذه الحال أن يعمد أربابُ الحل والعقد الى استخدام الخُرس في مجالس الحكومة رجوعاً الى العادة القديمة في مجالس الوكلاء بالدولة العثمانية

(الرابع) (للتانى) - اقرأ بقية الأخبار المحلية

(الثانى) - لم يبق في الجرائد الثلاث الا التلغرافات والاعلانات

(الرابع) - أدرك لم تقرأ الا جريدة واحدة فاقولك « الجرائد

الثلاث »

(الثانى) - هى كما تعلم نسخة واحدة فى الأخبار وان كانت مختلفة

فى الأسماء

(الرابع) - اقرأ لنا التلغرافات

(الثانى) قارئاً - « ديروط الساعة ٨ والدقيقة ٣٧ - كان الاحتفال

بتوديع حضرة النشيط معاون بوليس المركز هائلاً وتليت الخطب وأنشدت القصائد والتفصيل بالبوسته »

(الرابع) - ما هذه الصفائح

(الثانى) - هى التلغرافات الخصوصية

(الرابع) - علينا بالعمومية

قال عيسى بن هشام - وما قرأ القارىء التلغرافات السياسية

حتى استدار أهلُ المجلس حلقةً يكثرُون اللفظ في شرحها ويرجون
الظنون في تأويلها، وما فيهم إلا مَنْ هو على خلاف لرأى صاحبه،
وإذا همُ قد عادوا الى مثل ما كانوا فيه وقت دخولنا عليهم . ولما
وجدنا الجدال يحتمل بينهم اشتعالا . خرجنا من بينهم انسلالا .
وتركناهم في سياستهم يتيهون . وفي ضلالهم يعمهون .

العريس

قال عيسى بن هشام - ولما فرغنا من زيارة تلك المحافل المشهودة .
والمجالس الممدودة . قلت للبasha قد آن أن نعود الى ما كنا فيه من الانفراد
والاعتزال . ونبتمد عن مثل هذا الاختلاط والابتذال . فأجابني وهو
يظهر التوقف . ويبدى التأفف : « ما بالك تقطع على الطريق . في
البحث والتحقيق . وما لك تحرمنى السعى والاجتماع . للاطلاع على
العادات والطباع . ولم تختار أن تقتصر على ما في الكتب والأوراق .
لمعرفة الآداب والأخلاق . فتترك النظر . للخبر . واللمس . للبس .
والممارسة . للمقايسة . وأى الطيبين أدق صنعا . واكثر نفعا . الطيب
الذى يقتصر على الكتب في درس الأعضاء والأحشاء . أم الطيب الذى
يدرسها في تشريح الجثث وهى تسيل بالدماء . على انه قد زال عني في
هذه المدة . ما كان يعترضني من الغضب والحدة . وانقلب العسر من أمرى
يسرا . وغدا التقطيب بحمد الله بشرا . وصرت لا أقابل عيوب الخلق .
بغير الحلم والرفق . وتعلمت أن أتحكم . ولا أتألم . وأتبصر . ولا أتحسر .
وأندبر . ولا أنضجر . فأنا اليوم أتفكه بمخالطتهم . وأتروح بمباسطتهم .
فلم يبق لك من عذر وجيه . ترتضيه بعد ذلك وترجيئه » . وما زال البasha
يجرى على هذا النمط في الشرح والبيان . ويأخذني بالبرهان في أثر
البرهان . حتى ملكنى بسلطان حجته . وأنزلنى على حكم رغبته .
وكنت دعيتُ فيمن دُعِيَ من الناس الى وليمة عرس من أكبر

الأعراس . فقلت له عندى اليوم حدّ الكفاية . فى بلوغ الغاية . فهلّم الى
 الحفل الذى تحتشد فيه المحافل . والمنهل الذى تتفرع عنه المناهل . وسرت
 به منذ أرخى الظلام من سجوفه وأستاره . وبدأ فى الطور الاول من
 أطواره . فاقربنا من قصدنا حتى وجدنا الليل هناك نهراً يتألق .
 وخمّة الدجى جمرّة تتحرّق . فدخلنا ساحة كأنها مدينة . تبرجت فى
 يوم الزينة . فوقفنا هنيئة فى وسط المزدحم . لانجد موضعاً للقدم .
 حتى أخذ بيدنا أحد المستقبّلين بالباب . من ذوى العلامات فى
 الثياب . قدسّتا بين جماعة لم نعرف منهم أحدا . ولم يحسنوا التحيتنا رداً .
 فجزيّناهم على ذلك بغض الطرف . وأقننا ينيهم لا ننطق بحرف . ثم
 أخذنا نتلمّس بأعيننا صاحب الدار . فلا نهتدى له على قرار . كأنما
 صُغت الوليمة فى غيبته . وأقيم الاحتفال انتظاراً لأوبته . أو أننا أخطأنا
 العرس الى سواه . واشتبّه علينا مقرّه ومشواه . فهمّنا بالقيام والمسير .
 لولا ان أشار لنا بالسلام مشير . فتيّناه صديقاً لنا من الخُلصاء . فى جمع
 من الفضلاء والأدباء . فقصدناهم فأفسحوا لنا ينيهم مكاناً رحباً . وجلسنا
 معهم نجتنى ثمر الحديث يانعاً ورطباً . وعلمنا منهم أن رب الدار فى ذهول
 لا يدرك ما يذرّه وما يأتيه . وأن صاحب البيت لا يدري الليلة بالذى
 فيه . وأنه لا تثريب عليه ولا لوم . فهو مشغول بتحية كبار القوم . ممن
 لم يخالطهم قبل اليوم

(الباشا) — وهل يدعو الناس الى أعراسهم من لم يعرفوه أو

يخالطوه من قبل

(احد الاصدقاء) - نعم يدعو الناس الى أعراسهم كل من
عَلَا لَهُ صَيْتٌ واشتهر له اسم من الامراء والكبراء والعلماء ، فمنهم من
يجيب الدعوة ومنهم من لا يجيبها لعدم معرفته لصاحب العرس . وبين
الكبراء جماعة اشتهروا بأنهم لا يخيبون للداعي رجاء ولا يتخلفون مرة
عن إجابة الدعوة حتى صاروا من عمدة الزينة وأساطين الأعراس
(الباشا) - وما الغرض لصاحب العرس من هذا كله

(الصديق) - الغرض منه أن يذاع بين الناس تشريف هؤلاء
الكبراء والعلماء لبيتهم . وأكثر الذين نراهم يقيمون ولائم الأعراس
ينفقون عليها جانباً عظيماً من ثروتهم لا غرض لهم منها سوى ذلك وحده
وفيه من وصل به حب الشهرة والفخفة أن أنفق في إقامة العرس جميع
ماله ثم بقي عليه من الدين ما أخلّ بنظام معاشه . وأعرف تاجراً من
التجار أنفق الجانب الأعظم من رأس ماله في إقامة عرس كبير ثم قسم
دفاتر تجارته الى شطرين شطر يحتوي على بيان ما بقي لديه من أصناف
التجارة وأجناسها وشرط يتضمن اسماء من حضر العرس من الامراء
والكبراء ، وقلّ ان تشتري منه صنفاً الا ويذكر لك منهم اسماً يقسم
بحياته ورأسه أن الصنف جيد والتمن في جنبه هين

(الباشا) - ما كنت أعهد أن الأعراس تكون على هذه الحال
من استخدامها للشهرة والصيت بل كنت أعهد لها أنها تقام لاثناس
صاحب العرس بأصحابه وأصدقائه ومشاركتهم له في صفوه وهنائه
ولإطعام المساكين ومساعدة الفقراء

(الصدیق) — ليس للفقراء اليوم ولا للمساكين نصيب في طعام الأعراس بل هو من نصيب مثل هذا الوفد الخارج أمامك وأضرابهم (الباشا) — انى أعرف من هؤلاء الخارجين ثلاثة أشخاص اجتمعتُ بهم في مجلس للعلماء

(الصدیق) — نعم هذا الوفد كله من كبار العلماء وحَمَلَة الشريعة وأئمة الدين

(الباشا) — ومالى أراهم يسرعون ويهرولون في خروجهم ، وما الذى وقع لهم حتى يتركوا العرس منذ أول الليل ، وليت شعرى ما الذى أزعجهم وأخرجهم . أُنْزِلَ بالدين مكروهٌ ، أحلَّ بالاسلام خطبٌ ، أَحَدَتْ بين الناس حادثةٌ بدعةٌ يستدعى قيامهم للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

(الصدیق) — لم يحدث من كل ذلك شىء ، ولم يعرض لهم عارض وإنما هى عادة لهم أَلْفُوها فى الولاة والمآدب اذا انتهوا من غسل أيديهم بعد تناول الطعام بادروا الى الخروج من العرس ، فتراهم عند قول أحد الظرفاء « يدٌ فى الكباب . ورجلٌ فى الركاب » والذين يعتذرون لهم يقولون إنهم علماء عالمون بقوله تعالى : « فاذا طعتم فانتشروا » وانهم يرون سماع الغناء مكروهاً فى الدين فلا يجلسون فى العرس بعد الطعام خشية ان يتبدى الغناء فيحل بهم المكروه

(الباشا) — ومن هذا الشيخ المتخلف عنهم القادم علينا

(الصادق) — هذا الشيخ المتخلف عالمٌ من أفاضل العلماء ونبهاهم وهو قادم علينا للجلوس معنا فإن فينا من يأتنس به ويصبو الى مجالسته (الباشا) للشيخ بعد جلوسه — أرجوك أن تسامحنى فى فضول القول فلا صبر لى عن الاستعلام والاستفهام خصوصاً إن كان فى الأمر ما يخص الدين ، فقد قيل لى إن السبب فى مغادرة وفد العلماء للعرس فى عقب الطعام هو كراهتهم لحضور مجلس الفناء ، فهل لك أن ترشدنى الى القول الأصح فى هذا الباب وما الذى يجب أن يؤخذ به وكيف انفردت أنت عنهم بالبقاء والجلوس ورضيت سماع الفناء ان كان مكروها

(الشيخ المتخلف) — الكلام فى هذا الباب طويل . وما أظن السبب الأعظم فى المبادرة بالخروج الا طاب الجسم للراحة بعد الامتلاء (الباشا) — انى أريد أن أهتدى بهديك فى باب سماع الفناء وتقرير كراهته أو إباحته ، فلا تبخل علينا بفضلك وعلمك . والوقت وقت مسامرة فإن أردت أن نقضى جانباً منه فيما ينفع ويفيد فقد أديت واجباً عليك فى الدين ، وجعلتنا لك من الشاكرين

(الشيخ المتخلف) — اعلم أن طرب الفناء أمر غريزى راسخ فى طبيعة الحيوان . ومن الحيوانات العُجم وضواري الوحوش ما تسمع الفناء فتحنّ اليه وتسكن به فيضعف من قسوتها ويكسر من حدتها وربما ذلت به رقابها وأمكن قيادها . وهذه الفيلة وهى من أكبر الحيوان أجساماً وأشدّها بطشاً اذا سمعت صوتاً مرغماً أو كلاماً منغمّاً

لم يلبث هذا الجسم العظيم أن يتمايل ترنحاً ويهتز طرباً — ولو كان في مواقف النيران — اهتزاز الحماسة المطوّقة على فتن من الأفنان . وهذه الإبل المعروفة بأنها أغلظ الحيوان أكبّاداً تراها اذا برأها السرى وأضناها التعب وأهلكها الظمأ فتغنى لها الحادى ذهلت في الحال عما أصابها وتعلت بالغناء عن مناهل الماء وهى على الخس في ظمئها أو العسر^(١) ونشطت به تستعيد القوى لاستئناف السرى . وطالما شاهد المشاهدون هوام الأرض ودوابها تخرج من كهوف الجبال وبطون الرمال فتجتمع جيوشاً تتبع جيوش الحرب في مسيرها . وقد ظهر لأحد الباحثين من علماء الطبيعة عن علة ذلك الاتباع أن صوت الموسيقى أمام الجيوش هو الجاذب لها والدافع بها للخروج من أوكارها وأجوارها للمسير خلف الجيش ، ومن الروايات العتيقة أن أحد الموسيقيين من الفلاسفة كان عند شاطئ بحر بينى الشاطئ الآخر ولا يجد ما يحمله إليه فجلس يلهى نفسه بالغناء واذا بدأ فبين^(٢) قد شقّ أمواج البحر يتدنى من صاحب الصوت ، فلم يزل في تدنّيه والقياسوف في تغنيته حتى حاذى الشاطئ وسكن يستمع ، فأيقن الفيلسوف أنه استمواه بتأثير الغناء وذلك بقلّة بقوة الطرب فامتطاه يسخره كيف شاء . فوق عباب الماء . كأنه مطية وجنّاء^(٣) . تسير في عرض البیداء . على توقيع الحداء . وحكاية إبراهيم ابن المهدي في اقتياده الوحوش الضارية بسحر غنائه مشهورة مذكورة

(١) الخس والعسر ، من أظاء الابل (٢) الدلفين ، دابة بحرية وهى المعروفة بالدرفيل

(٣) الوجناء ، الناقة الشديدة

« هذا بعض ما يقال في تأثير الغناء في الحيوانات العجماء مع ضعف إدراكها وكثافة احساسها وتقص خلقها ، فما بالك بتأثيره في الانسان وهو أسمى الحيوان رتبة واكملُه خلقه وأعظمُه إدراكاً وأصفاه جوهرأً وألطفه روحاً

« والغناء في تعريف قوم من الفلاسفة فنٌ يُقصد به تحريك النفس بتنسيق الصوت وتأليفه على طريقةٍ ترتاح لها الأذن قهتًز له نفوس أرباب المدارك العالية والأمزجة الصافية ، وهو القوة المساعدة لقوة النطق في التأثير في السامع . وكان القدماء يعتبرونه لغةً عامة لسائر الناس يفهمونها على اختلاف لغاتهم وألسنتهم . وكان لا بد اطالب الفلاسفة عندهم من الاحاطة بفن الموسيقى مع الرياضيات ، وقد عبّر عنه الحكميان الكبيران «فيثاغورس» و«هرمز» أنه علم التنسيق لكل شيء ، ولذلك أطلقوا عليه لفظة « أَرْمُونِيَا » ومعناها النظم والتنسيق ومنه الترتيل ، وكلامهم مجمعون على أن لا شيء في العالم يعادل تأثير الغناء في تهيئة النفوس وتوطئة القلوب لقبول الفضائل والكمالات . وعندما ان الذي لا يتأثر منه لا بد ان يكون به تقصٌ في الخلقه . والغناء مغروس في طينة الإنسان منذ نشأ في حجر الطبيعة ومنذ استهل في المهذباً كيفلا يسكن إلا به ولا يُراح عنه الا بتطريه . وفضلُ تأثير الغناء في النفوس على تأثير السلام كفضل الشعر البليغ في لفته على ترجمته كلاماً غير موزون الى لغة أخرى

« والوقائع كثيرة حجة في التاريخ تشهد بقوة تأثير الفناء . منها أن أهل مدينة اسبرطة كانوا في فتنة اشتد لهيبها وعظم شرها فعمد جماعة من الموسيقيين الى مكان الزعماء القائمين بأمرها فمالوا يغنونهم حتى طربوا فصفت أرواحهم ورقت نفوسهم ولانت عريكتهم فانتفخوا من أنفسهم عن إشعال نار الثورة فخدمت . وقام صياح الطرب . مقام صياح الشعب . ومنها أن أهل سويسرا كانوا ينزلون عن رؤوس الجبال للاحتشاد في الجند فاذا انمقد جمعهم أغرى العدو بهم من يغنى فيهم بلحن لهم معروف يتغنى به الرعاة في قُلل الجبال فيشتعل في نفوسهم لهب الوجد وتهيج فيهم نائرة الحنين وينزع بهم الشوق الى منازلهم فيلقى أسلحتهم عن أيديهم ويذهب بهم على وجوههم ، وقد تكرر وقوع ذلك فيهم حتى قرر رؤسائهم الحكم بالاعدام على كل من تغنى بينهم بذلك الفناء . ومنها حكاية الحكيم أبي نصر الفارابي مع سيف الدولة بن حمدان اذ أضحك أهل مجلسه وأبكاهم ثم أنامهم وتركهم . وقد كان خطباء الدولة الرومانية يتسابقون الى تنسيق اصواتهم في الخطابة وتتبع النغم لتأثير القول في النفوس ، وربما استصحب بعضهم معه أحد الموسيقيين بآلة من آلات الطرب فيجعله بجانب المنبر حتى اذا وجده خرج عن النغم أو شدَّ نبه بصوت الآلة فيرجع الى الأصل . ولسنا نجد بين الأمم امة في بداوتها وحضارتها وماضيها وحاضرها الا وعندها الفناء في الجيش آلة من آلات الحرب تُعين على ممارسة الأهوال وتثير الى منازل الختوف .

وكان القدماء منذ عهد داود عليه السلام يعتقدون أن الغناء يشفى من الأمراض والاسقام. وكان « إيسمين » في مدينة « تب » يزعم أنه يشفى من عرق النساء بصوت الناي . وكان « هوميروس » و « جالينوس » و « بلوتارك » من بعدهما يؤكدون أن الغناء يشفى من الطاعون ومن داء المفصل ومن نهش الأفاعى . وقام اليوم جماعة من كبراء الأطباء في أوروبا يقررون بعد كثرة التجارب ان الغناء دواء نافع لكثير من الأمراض وأطلقوا عليه لفظة « مِلُوتَرَايَا » يعنى العلاج بالطرب ، كما قرروا من قبل « الهيدرُوترايَا » وهى المعالجة بالماء و « الإليكتُوترايَا » وهى المعالجة بالكهرباء . وقد جرّب أطباء فرنسا تأثير الغناء فى وظائف الأعضاء بآلة حاسبة فوجدوا أنه يزيد فى دورة الدم وفى حركة التنفس سرعة مقبولة . وذهب بعضهم أن للاخشاب التى تُتخذ منها آلات الطرب تأثيراً آخر على المريض مثل أخذ الناي من خشب الكينا فان سماعه يشفى من الحمى . وبلغت العناية بهذا الفن فى المانيا أنهم جعلوه درساً من الدروس الأساسية يبتدىء به التلامذة ابتداءً بحروف الهجاء وينتهون منه انتهاءً من دروس الفلسفة

« وجماع القول فى هذا الباب من جهة البحث والنظر أن الخالق جلّت عظمته قد جعل من فضله ونعمته على الانسان لكل حاسة لذة . فلذّة النظر فى تناسق المراتب وترتيب أجزائها ، وذلك هو الجمال . ولذّة الذوق فى ائتلاف الطعوم ، وذلك هو المذوبة . ولذّة الشم فى لطف الرائحة ، وذلك هو الطيب . ولذّة اللمس فى تناسب أجزاء المدوس ،

وذلك هو النعومة . ولذة السمع في اتساق الصوت وحركة توقيعه ،
وذلك هو الغناء

« وأما القول فيه من جهة الدين فقل أن تجد ديناً من الأديان في
أنحاء العالم إلا ويُسْتَعان فيه على العبادات بالترتيل والترنيم والتغنيم ، لما
ينشأ عن ذلك من صفاء النفوس وانتعاش الأرواح للتجرد والاتصال
بالعالم الرُّوحاني . وما كان الدين الاسلامي وهو دين الأذان لينكر سماع
الغناء ويحكم بكرهته وشأنه في فطرة الانسان على ما يَتَنَبَّهُ لك . وناهيك
بما ورد في الخبر الصحيح ان النبي صلى الله عليه وسلم سمع نسوة ينفغن في
وليمة عرس ، فلم ينكر ذلك عليهن . وقد استقبله عليه السلام نسوة من
الأنصار عند مقدّمة من إحدى الغزوات بالدفوف والمزاهر وهنَّ
يتغنن على الإيقاع بقولهن :

طلع البدر علينا

من ثنّيات الوداع

وجبّ الشكر علينا

ما دعا لله داع

فلم ينكر ذلك عليهن أيضاً . وهذا عمر بن الخطاب ، على المعروف
من غلظته وشدته في الدين ، قد سمع الغناء فلم ينكره ولم يكرهه بل استمع
ومزح : روى عن أسلم مولاة قال مرّ بي عمر رضي الله عنه وأنا
وعاصم نغني فوقف وقال أعيداً عليّ فأعدنا عليه وقلنا أيّنا أحسن

صنعةً يا أمير المؤمنين ، فقال مثلكما كحماري العبادي قيل له أي حماريك شرُّ قال هذا ثم هذا ، فقلت له أنا الأول من الحمارين قال أنت الثاني منهما . وكان عبد الله بن جعفر على قرابته من رسول الله وصحبته له كثير الجلوس لسماع الغناء عظيم الاحتفال به

« ورؤى ان معاوية قال لعمر بن العاص امض بنا الى هذا الذي قد تشاغل بالله ووسمى في هدم مروءته حتى نعيب عليه فعله ، يريد عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، فدخل اليه وعنده من المغنين « سائب خاثر » وهو يلقى الغناء على جوار لعبد الله ، فأمر عبد الله بحية الجوارى للدخول معاوية ، وثبت سائب مكانه وتنحى عبد الله عن سرير معاوية ، ورفع معاوية عمرًا فأجلسه الى جانبه ، ثم قال لعبد الله أعذ ما كنت فيه ، فأمر بالكراسي فألقيت ، وأخرج الجوارى فتغنى سائب بقول قيس بن الخطيم :

ديارُ التي كادت ونحن على ميني

تحل بنا لولا نجاء الركائب

ومثلك قد أصيبت ليست بكنة

ولا جارة ولا حليقة صاحب

وردده الجوارى عليه فحرك معاوية يديه وتحرك في مجلسه ثم مد رجله فجعل يضرب بهما وجه السرير ، فقال له عمرو اثبت يا أمير المؤمنين فان الذي جئت لتلحاه أحسن منك حالاً وأقل حركة ، فقال معاوية اسكت لا أبالك فان كل كريم طروب

« ودخل المغنون منزل سُكينة بنت الحسين سبط رسول الله فأذنت للناس إذناً عاماً ففصت الدار بهم وصعدوا فوق السطح وأمرت لهم بالأطعمة فأكلوا منها ثم انهم سألوا « حُثِيناً » أن يغيثهم صوته الذى أوله : هلا بكيت على الشباب الزاهب . فقال لهم : ابدؤا أنتم فقالوا ما كنا لتقدمك ولا لنفى قبلك حتى نسمع هذا الصوت ، فغناهم إياه وكان من أحسن الناس صوتاً فازدحم الناس على السطح وكثروا لسمعوه فسقط الرواق على مَنْ تَحْتَهُ فسلموا جميعاً وأخرجوا أصحاء ومات حُثِينٌ تحت الهدم ، فقالت سُكينة عليها السلام لقد كدّر علينا حنين سرورنا

وذكر الدلائل المغنى عند عبد الله بن أبى عتيق بن عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق رضى الله عنهم فقال إنه كان يحسن :
لَمَنْ رَجَعَ بِذَاتِ الْجَا

ينشأ أسمى دارساً خلقاً

ثم استقبل ابنُ أبى عتيق القبلة يصلى ، فلما كبر ، سلم ، ثم التفت الى أصحابه فقال : اللهم انه كان يُحسن خفيفه فأما ثقيله فلا - الله أكبر

« ولقيَ » ابنُ أبيجرَ « عطاء بن أبى رباح وهو يطوف بالبيت الحرام فقال : اسمع صوتاً للغريض ، فقال له « عطاء » يا خبيث أفى هذا الموضع ، فقال ابنُ أبيجرَ : ورب هذه البنية لتسمعه خفية أولاً شيدَن به ، فوقف له فتغنى :

عُوجِي عَلَيْنَا رَبَّةَ الْهُودِجِ
إِنَّكَ إِنْ لَا تَفْعَلِي تَخْرُجِي
أَنْتِ أُتِيتِ لِي يَمَانَةً

لأحدى بنى الحرث من مَذْحِجِ
نَلَبْتُ حَوْلًا كَامِلًا كَلَّهُ

لَا نَلْتَقِي إِلَّا عَلَى مَسْجِدِ
فِي الْحِجِّ إِنْ حَبَّتْ وَمَاذَا مِنِّي

وَأَهْلُهُ إِنْ هِيَ لَمْ تَحْجُبْ

فَقَالَ لَهُ «عَطَاءُ» الْكَثِيرُ الطَّيِّبُ يَا خَيْثُ

«وَوَلِيَّ قِضَاءِ مَكَّةَ الْأَوْقَصُ الْخَزُومِيُّ فَارَأَى النَّاسُ مِثْلَهُ فِي
عَفَافِهِ وَنُبْلِهِ ، فَانْتَهَمَ لِنَائِمٍ لَيْلَةً فِي جَنَاحِ لَهُ إِذْ مَرَّ بِهِ سَكْرَانٌ يَتَغَنَّى بِصَوْتِ
لِلغَرِيضِ فَأَشْرَفَ عَلَيْهِ فَقَالَ : يَا هَذَا شَرِبْتَ حَرَامًا وَأَيَقُظْتَ نِيَامًا وَغَنَيْتَ
خَطَأً خُذْهُ عَنِّي ، فَأَصْلَحَهُ لَهُ وَانصَرَفَ

«وَكَانَ لَا بُدَّ مِنْ حَنِيفَةِ رَحْمَةِ اللَّهِ جَارُ الْكَوْفَةِ يَغْنَى فَكَانَ إِذَا انصَرَفَ
وَقَدْ سَكِرَ يَغْنَى فِي غُرْفَتِهِ فَيَسْمَعُ أَبُو حَنِيفَةَ غِنَاءَهُ فَيَعْجَبُهُ ، وَكَانَ كَثِيرًا
مَا يَغْنَى :

أَضَاعُونِي وَأَيُّ فِتْنٍ أَضَاعُوا

لِيَوْمِ كَرِيهَةٍ وَسَدَادِ ثَغْرِ
فَلَقِيَهُ الْعَسَسُ لَيْلَةً فَأَخَذُوهُ وَجُبَسَ ، فَفَقَدَ أَبُو حَنِيفَةَ صَوْتَهُ تِلْكَ

الليلة فسأل عنه من غدير فأخبر ، فدعا بسواده وطويلته فلبسهما وركب الى عيسى بن موسى فقال له ان لي جاراً أخذ عَسْكَ البارحةَ فحبس وما علمتُ منه الاَ خيراً . فقال عيسى سلّوا الى ابي حنيفة كلَّ من أخذَه العسس البارحةَ ، فأطلقوا جميعاً ، فلما خرج الفتى دعا به أبو حنيفة وقال له سرّاً : ألسنت كنت تغنى كل ليلة :

أضاعوني وأى فتى أضاعوا ، فهل أضغناك . قال لا والله ولكن أحسنت وتكرمت أحسن الله جزاءك ، قال فعُدْ الى ما كنت تغنيه فاني كنت آنسُ به ولم أرَ به بأساً ، قال أفعلُ إن شاء الله

«هذا جملة ما يذكر في طرب الغناء طوّلتُ فيه وأسهبّت ليتبين لك منه القول الراجح والوجه الصالح»

(الباشا) —

تعالى الله ما شاء وزاد الله ليعاني

ما هذا الذي أراه من بحر العلم المتدفق والفكر المتعمق ، وما هذا الإبداع والتفنن في أطراف المعقول والمنقول ، وما هذا التضلع في علوم الأولين والآخرين . وما عهدت قبل اليوم في العلماء من اجتماع له مثل ما اجتمع للشيخ من دقة النظر وصحة القياس وسعة الاطلاع في تواريخ الأمم على اختلاف ألسنتها وأجناسها ، ينتقل في تقرير البرهان وشواهد البيان تنقل النحل على جنى الأزهار فيخرج بنا من التاريخ اليوناني الى الروماني الى الأوربي الى الاسلامي فعجباً له ، أعجمي وعربي ،

وشرقيّ وغربيّ، وكيف انفردت أيها الشيخ عن بقية إخوانك المشايخ ولم تأخذ بنهجهم في طريقهم فتقف عند حد العلوم الشرعية والأقوال الفقهيّة ثم خالفهم الى التوسع في العلوم الدنيوية والمباحث العقلية

(الشيخ المتخلف) — لم أخالفهم إلا لأن العلم حق شائع في بني الإنسان ونورٌ ساطع يستضيء به جميع الأنام ، فلا يختص به أهل إقليم دون إقليم ولا أهل ملة دون ملة ولا يقف الإنسان منه عند حد . ومن طلب العلم وارتاحت له نفسه لم يمنعه تخالف اللغات وتفرّق الأجناس عن اجتناء ثمره من أي لسان كان وفي أية أمة كانت وفي أي عصر من العصور . وما في الأديان دين يبعث أهله ويحض بنيه على طلب العلم والتقاط الحكمة بأيّ وجه من الوجوه مثل الدين الاسلامي ، ولكن قد فشا في علمائه داء الكسل فاقصروا في طلبهم للعلم على نيل رتبة العلماء دون العلم في ذاته واعتقدوا أنهم على الهدى ومن سواهم في ضلال

(الباشا) — قل ما شئت في كسل علماء الدين الاسلامي وسوء تراخيهم واشتغالهم عن العلم لا بالعلم . ولقد بلوت مجلساً من مجالسهم ضاق منه صدرى وعيل صبرى ، ولا أزال كلما تذكرته جاش بي الهم والنعم وتملكني الأسف والحزن ، وأراك أيها الشيخ الفاضل أحسنت كل الإحسان بتوسّعك في الاطلاع وتبحرك في طلب العلم وتعلّقك بأسباب العلوم الأوربية . ولكنني مع ذلك لا أتمنى لجميع علماء الدين مثل ما أنت فيه خشية أن تلهيهم هذه العلوم عن علوم الشرع

وتستدرجهم الى الخلط والخط ، وقلّ في الناس من يحكم نفسه للتوسط في الامور والاعتدال في المطالب والوقوف عند الحد . ولست أدري الى اليوم ، يعلم الله ، أى العالمين أضلّ سبيلاً وأسوأ مصيراً ، العالم الذى يتخبط في ظلمات الخرافات ويضرب في تيه الترهات ويفرّص في لجج الأباطيل بلباس الدين ، أم العالم الذى يؤغل في علوم الأوربيين ويأتم بسنة المخالفين للدين ويفترّ بتمويه الموهين فيضله الله على علم

(الصدّيق) — ليس هذا وقت الجدال في تلك المباحث الدقيقة ، والتفتوا بنا الى سماع الغناء قليلاً فقد احتشد له المغنون

(الباشا) ملتفتاً — نعم أصبت . وهل لك ان توفّق لى بين حالة المغنين التى أراهم عليها الآن في احتشادهم على منصة الغناء وبين ماسمته أنفاً عن هذا الفن من الجلال والكمال . فانظر اليهم تجد أحدهم يعزح ويقهقه . والآخر يتناوب ويتمطّى ، وهذا ييصق يميناً ويمخط شمالاً ، وذلك يصيح بأعلى صوته القهوة القهوة ، وتأمل في هذا الواقع منهم فوق المنصة على رجلٍ واحدة ويده الرجل الأخرى يخلع منها نعلهُ في وجوه الحاضرين . وأين ما ينبغى أن يكون عليه المغنى من مسكون النفس واجتماع الخاطر وانشراح الصدر وصفاء الروح لحسن تأدية الغناء واستهواء النفوس اليه

(الصدّيق) — لا تؤاخذهم بما هم فيه فانهم نشأوا في أمة يرى السواد الأعظم فيها أن صناعة الغناء من سافل الصناعات وأن في ممارستها

حطة ونقصاً ، فصغرت لذلك نفوس المغنين وهانت عليهم صناعتهم ولم يروا فيها سوى أنها أداة للكسب والارتزاق على مثال بقية الصناعات فهم والحدّادون أو همّ والبنّاؤون سواء بسواء ، وذهلوا كل الذهول عن جمال الصنعة وجلالها وغفلوا كل الغفلة عن لذة الفن وأدبه وصاروا يؤدّونه كما يتفق لا كما ينبغي وكما يجب ، لا كما يُرضى . ولا يغيب عن فطنتك أنه لا بدّ للمغنى من أن يثق في نفسه بتأثير غنائه في نفوس السامعين حتى تثور فيه نشوة الطرب ويتبادل معهم لطف الانفعال فتتصل القلوب وتتجاذب الأرواح وتصدد به نفسه في مراقى الفن وتسمو به في صناعته الى مدارج الكمال ، والألّ كان المغنى اذا غنى في غفلة السامع واشتغاله عنه كمن يقرأ للنائم كتاباً أو يُسرج للأعمى سراجاً ، فيحلّ به من التواني والفطور ويعتريه من الانقباض والضيق ما يذهب برونق الصنعة ويمحو بهجة الفن . وإنك لتحقق صدق ما أقول اذا نظرت معى نظرة الى هيئة السامعين في هذا المكان . فعن يمينك جماعة من الأعيان والتجار تراهم مشغولين بمراقبة كل داخل وخارج عسائم يحظون بإشارة تحية أو إيماء تعطف فهم لا ينفكون طول ليلهم في قيام وسلام للتراف الى الكبراء والحكام وحديثهم لا ينقطع عن التفاخر بعمرتهم والتباهى بأقدارهم . وعن شمالك خليط من القضاة والمحامين لا ينهون أبداً من المناقشة في صنوف الدعاوى والقضايا ولا يستريحون لحظة من تفسير المواد وشرح البنود واستنتاج الأحكام ، ولا يترك المحامون القضاة إلا بعد أن يحتالوا على استنفاد ما عندهم من الافكار والآراء في

الوقائع المختلفة والمسائل المشتبهة لينتفعوا بها ويستندوا عليها في مرافعتهم أمامهم ويتأكدوا بها ربح مآلديهم من المشاكل والدعاوى. ومن قدامك طائفة من الامراء والحكام لا هم لهم الا أن يجتلبوا توقيع الحاضرين واحترامهم بالتأنيق في الجلوس والتكلف في الشرائع والانتفاخ في الثياب والفتل في الشوارب، أجسامهم حاضرة وقلوبهم غائبة وأبصارهم شاخصة وألبابهم ذاهلة فهم على هيئة التماثيل والأصنام — فسالوهم إن كانوا ينطقون — ولئن نطقوا بكلام فانما يدور على أن اليوم كان شديد الحر، وأن أوان الرحيل عن مصر قد حل. ومن خلفك ثلة من الأحداث. لم تهذبهم الأحداث. وشبان. لم يرهم الزمان. صرعى الغاية عندهم أن تكون ملابسهم على الزى الجديد. وأن تفرغ أجسادهم منها في قالب من حديد. فهم لا يتحركون حركة الا بالف حساب. خشية أن ينفرد نظام الثياب. فان قعدوا فكالقاعدين للمصور في حفظ الأشكال والأوضاع. وإن هم وقفوا فكالملصوبين على الأجداع. ومن تجاوز حديثهم حديث الملابس والأزياء. اشتغلت ألسنتهم بذكر النساء. ورووا عن زوج فلان أو بنت فلان. ما تنقبض منه النفوس وتقشعر الابدان. ولم يبق غير هؤلاء من طبقات الحاضرين من يلتفت الى سماع الغناء ويتفرغ له الاطبقة الغوغاء من الخدم وغيرهم. فكيف يتيسر للمغنيين في هذا المقام أن يتقنوا في عملهم أو يتفننوا في صناعتهم أو يحافظوا على أدب المجلس ويراعوا حرمة الفن

قال عيسى بن هشام - وانقطع الحديث بمرور صاحب العرس أمامنا
مرّ السحاب . فانقضّ على الواقفين عند الباب . كأنه بارقة شهاب . أو
نازلة عذاب . يدفع يديه عن الثمال وعن اليمين . في صدور القاعدين
والقائمين . لا يشك من رآه أنه أسيرٌ حلّ عنه الوثاق . أو عبدٌ من
العبيد يطلب الإباق . فالتفت الباشا يسأل الصديق : أجدارٌ هوى في
البيت أم حريق

(الصديق) - لا هذا ولا ذاك وإنما جاء الخبر لصاحب البيت
بقدم جماعة من رجال الأفرنج ونسائهم

(الباشا) - أترام يريدون إقامة ألعاب افرنجية مع الأغاني العربية
(الصديق) - ولا هذا أيضاً بل هم قوم من السائحين الاوربيين
في البلاد الشرقية يتشرفون في مطالعتهم الآثار المصرية الى رؤية المحافل
والاسواق ، فاذا سمعوا بحفلة عرس هرعوا اليها بنسائهم وأولادهم لتسليّة
الخطاير بدرس المادات والأخلاق

(الباشا) - قد تبين لي أنّك ان صاحب العرس من أهل الصعيد
فأية صلة بينه وبين سياح الإفرنج تدعوه الى دعوتهم في عرسه أم من
عادتهم أن يهجموا على بيوت الناس بغير دعوة ولا استئذان كالطفيليين
(الصديق) - هم من المدعوين لا من المتطفلين . ولا يلزم لدعوتهم
ان يكون لصاحب العرس أدنى صلة بهم أو أن يعرف أشخاصهم ويفقه
لسانهم ، ولكن حضورهم في حفلة العرس أمر مرغوب فيه عند صاحبه

ينشرح به صدره ، ويزهو به عنده قدره ، ويراہ نحرًا له يعلو به ذكره ،
ومجدًا للبيت يرتفع به عماده . وهو في دعوتهم بالخيار إما ان يرسل الى
بعض تراجمة الفنادق فيعطيهٖم عددًا من تذاكر الدعوة بغير أسماء معينة
ليوزعوها على من يكونون في خدمتهم من السياح ، فيبيعها التراجمة
اليهم بقيمة معلومة من الدراهم كأنها تذاكر الملاهي العامة ، ويعتقد
الأجانب ان تلك عادة من عادات الشرقيين أن يدخل الناس الى
أعراسهم بأثمان معينة ، وإما أن يترقى صاحب العرس فيخطب أصحاب
الفنادق الكبيرة بأن لديه حفلة عرس في الليلة الفلانية ويرغب أن
يحضرها كذا عددًا من السياح فيُتحف صاحبُ الفندق نزلاءه فيما
يتحفهم به بالدعوة الى العرس ، فاذا شرفوا صاحبَ العرس بحضورهم
هرع الى حسن استقبالهم وبالغ في التلطف والترحيب بهم وأنزلهم فوق
منازل الأمراء والكبراء ونسى كل من في العرس سواهم وتفرغ طول
ليلته لخدمتهم كما تراه من صاحب هذا العرس . وانظرُ اليه كيف يتيه
عُجباً ويشمخ كبيراً وهو يتقدم نساءهم ليدخل بهن الى بيت الحرم
لمشاهدة زفاف العروسين بعد أن أجلس رجالهن على رؤوس العظماء
والامراء في صدر المكان

(الباشا) - وما هذا الذي أراه في أيدي النساء يحملنهٖ معهن كأنه
الاسقاط ^(١) فيها الحليّ لهدية العروس ، فهل بلغ بهن الكرم الى تكليف
أنفسهن تقديم الهدايا لعروس لا يعرفنَّها ولا يعرفن أهلها من قبل

(١) جمع سقط ، وهو الوعاء

(الصدیق) — هذه آلات الرسم والتصوير يحملها ليأخذن بها مناظر الحرم وصور النساء في زينتهن وتبرجنن وما تكون عليه هيئة الزفاف ليتهادين بها اذا رجعن الى ديارهن . وربما نسخت منها الوف النسخ لتباع في الاسواق الأوربية وتنشر هناك للاستهزاء والسخرية قال عيسى بن هشام — ومنذ عاد صاحب العرس من تشيع الساحات الى الحرم . كالصاعدات الى الهرم . تقدّم الى صدر المكان . ونظر في الوجوه بامعان . ثم دنا من طائفة الكبراء والامراء . وقصد الأمير المقدم فيهم بلامراء . فوقف أمامه وقفة الإجلال والإعظام . ودعاه لافتتاح قاعة الشراب والطعام . فقام الأمير يمشى أمام الصفوف في خيلائه . مشية القائد يوم بلائه . وفُتح له الباب ففتح المائدة ، ولافتح سعيد للقاسدية . والمعتصم لعمورية . ومحمد للقسطنطينية . ثم ولافتح جده الأعلى للاقطار الحجازية . ودخلت في أثره صفوف الجموع . وهم في سكون وخشوع . دخول الثقة . للصلاة . والعفاة . للصلات . ثم ما لبثوا أن هجموا على المائدة هجوم الفوارس البواصل . على الحصون والمعافل . لا بل هجوم الاسود الضارية . على الاشلاء الدامية . والذئاب الخاوية . على الشياه الراعية . والنسور . على القبور . والذباب . على الشراب . واشتد الزحام . وزلت الأقدام . وضلت المذاهب . واصطكت المناكب . وشخصت الأحداق . وامتدت الأعناق . وتهدلت الشفاه . وتحلبت الافواه . وتحركت الأشداق . وتقارعت

الأطباق . وتناولت الأيدي بالمدى . كالطَّبْشى . فى الوغى . والتفت
الساق بالساق . واشتدَّ الهولُ وضاق الخناق . ثم أنجلت المعمة عن شهداء
التُّخَم . وأسراء البَشَم . وقتلَى الطعام . وصرى المدام :

بأجسامٍ يَجِرُّ^(١) القتلُ فيها
وما أقرأهُنَّ إلاَّ الطعامُ

ولعبت الكؤوس . بالرؤوس . والشَّمول^(٢) . بالعقول . والراح .
بالأرواح . وذهبت العقار^(٣) . بالوقار . والبطنة . بالفطنة . فاختلف
الحابل بالنابل . والعالى بالسافل . والرفيع . بالوضع . والأمير . بالحقير .
هذا يزح ويقهقه . وذلك يُتَمُّ ويُنْتَه . والآخِر يقىء طعاما . وسواه
يقىء كلاما . ولم نسمع بينهم من قولٍ يُفْهَم ويُعقل . أو حديث يؤثر
ويُنقل . الا ما سمعناه يدور بين شاب متكاف متصنع . وكهل مجرب
متضلع :

(الكهل) - أليس من أسوأ الاسواء وشر البلاء ما نراه من حال
هذا الصعيديّ صاحبِ العرس كيف اعتزل سنة آبائه وأجداده وانسلخ
عن مألوف العادة فى قومه ودياره وطفرة طفرة واحدة الى العمل بعبادات
الغربيين والتقليد لبِدَع الإفرنج جَفَرى فى الاحتفال بالعرس على نخطهم
وأسلوبهم مع جهله بها وعدم ملاءمتها لطبعه ، وكيف لا يُرثى لحال هذا
المسكين وقد أنفق جانباً عظيماً من أمواله لإقامة المهرجان على هذا الطراز

الغريب عن ذوقه ، فهو في حيرة وذهول لا يدري ما يصنع ولا يعلم ما يفعل
في وسط هذه السوق القائمة والزحام الهائل ، وانظر الى مقدار السخط
النازل فوقه والاعتراض المصوب عليه من أكثر الذين دعاهم ليرضيهم
بعمله ويكرمهم بحسن صنعه بعد أن تكلف لهم ما يفوق الطاقة وارتكب
ما يخالف العادة ، ثم اشهد معي بأنه أساء الى نفسه وجنى على أهله

(الشاب) - ما أراه الا أنه أحسنَ صنعا وأجاد عملا وأخذَ بالسنن
الأرشد في التحلى بشعار المدنية والتعاقب بأسباب الترقى في الحضارة ، وقد
آن أن يستوى أهل الأرياف بأهل المدن في السير على النهج الغربي لهوا
كان ذلك أو جديداً وأن يخلعوا عن رقابهم أغلال العادات العتيقة وربقة
الأفكار القديمة فترتفع الأمة وتنفع البلاد

(الكهل) - أى نفع يُرتجى لأهل البلاد بخراب البيوت ودمار
الدور . ولئن امتد الزمن قليلاً على عمدة الأرياف وأعيانها وهم يرسلون
بأبنائهم الى البلاد الأوربية ، ثم يهجرون مساكنهم ومساكن آبائهم
ويتركون مزارعهم ومرافقهم ليسكنوا معهم عاصمة البلاد بعد عودتهم
ويتخلقوا بأخلاق الغربيين ويتبرأوا من كل ما كانوا فيه من قديم وعتيق
لم تلبث الأموال أن تذهب ضياعا والدور أن تمسى خرابا وأن تصبح
المزارع بأيدي الأجانب الذين يقلدونهم في امتلاك الأتبان وزراعة
الأراضي كما يقلدونهم هم في باطل المدنية وزخرف معيشتها

(الشاب) - أظنك كنت تريد أن يقام الاحتفال بزواج هذا الشاب

المتمدنين بين الأحواض والمستنقعات في قرية أبيه ، وبين الأوباش والهمج
من فلاحيه ومزارعيه ، فيبدل المقاصير بالخيام ، والكهرباء بالمشاعل ،
و « البوفيه » بالسماط ، والصحاف بالقصاع ، والأباريق بالجرار ،
و « الدبند » بالدفين ، و « المايثونيز » بالعصيد ، والهلين بالقول ،
وعش الغراب بالحلبة ، و « المؤستاردا » بالمش ، و « الربّي » بالرطب ،
و « المانجو » بالدوم ، و « الكريز » بالجز ، و « الشبانيا » بالزهر ،
و « الكاب » بالحليب ، و « الكنيك » بمرق البلح ، والموسيقا بالمزمار
والأوتار بالأذكار ، و « البيانو » بالأرغول ، و « الأوركستر » بالرباب ،
و « البالو » بالسحجة ، و « مس أوستن » بنت أم شنب ، وموكب
الزفاف بامب الهوارة ، ثم يدعو مشايخ العربان بدل القناصل العظام ،
ونظار الزراعة بدل نظار الحكومة ، وكتبة المراكز والصيادف ، بدل
أمراء البورصة والمصارف ، ويضع على رؤوسهم سمف النخيل والعراجين
بدل أكاليل الأزهار والرياحين . . .

(الكهل) - يكفيك فقد أسهبت في الشرح والوصف . وأنا
أقول لك : نعم يعجبني أن يكون الأمر على مثل ما تسخر منه ما دام
من عاقبته عمران البيوت وحفظ الأموال ، وبقاء الأحساب وإطعام
المساكين ، وبرئ الاقارب وإسداء الخير للاصحاب والجيران ، وإدخال
السرور على النفوس بما يرضيها ويلائم أذواقها . بهذا ينتفع اهل البلاد
ويرضى الناس بعضهم عن بعض . ولا أرضى أبداً أن ينقلب الحال كما

أراه ما دام من ورائه عواقب الخراب وسخطُ الناس وعقوقُ الأهل
واصوقُ العار ووقوعُ الفضيحة وسوءُ المصير . ومن الذي يعارض فيما
أقول من أهل العقول الصائبة وهو يرى هذا الرجل العريق النسب في
أهل الصعيد أهلِ الشهامة والحمية وذوى الفيرة والأنفة ومن حوله
الخصيان على ما نشاهدُه الآن يطالبونه أن يأمر الخدمَ بحمل صناديق
التمر لشربِ النساء في الحرم ، وهو يعرف حكاية الأعرابي الذي سقوه
التمر في أحد الاعراس ، ولم يكن ذافها من قبل ، فلما تارت سوزُها
قال لمن حوله من أهل البيت « إن كان نساؤكم يشربنَهَا فقد زينَ وربَّ
الكعبة » ، ولست أدري على كل حال ما الغرض الدافع لصاحب هذا
العرس الى احتمال كل هذه الفضائح والممايب . فان كان غرضه إرضاء أهل
العاصمة بإنفاق تلك الأموال الطائلة في إقامة الاحتفال فقد أغضبهم
وأسخطهم جميعاً على ما نسمعه ونراه ، وليس فيهم إلا كل منتقد لعماله
معترضٍ على فعله يرميه بعضهم بالتبذير ويرميه بعضهم بالتقصير . وإن
كان الغرض من هذا التوسع في الانفاق إذاعة الشهرة بعظم الثروة والغنى
بين الناس وانتشار ذكره بالكرم والجود فلهذه الشهرة وجوهٌ أخرى
تقيده وتفيد الناس ، ولا يبناء المحامد سبيلُ شتى تُرضي النفوس وتسر
القلوب ، ولو كان اقتصر في إقامة الوليمة على نصف ما أنفقها فيها وبذل
النصف الآخر في باب من أبواب البر والاحسان مثل مساعدة الفقراء
وإنشاء الملاجىء وإقامة المستشفيات وإعانة ذوى الصناعات لخلدَ ذكرُ

بين قومه بالعمل الصالح ولأقاموا لمجده صُروحاً من طيب الأحداث
وجمل الثناء

قال عيسى بن هشام - وما نشمر إلا وقد انقطع علينا سماع بقية
الحديث بصياح جماعة من خدم المائدة يدعون المدعوين للخروج من القاعة
حيث لم يبق على المائدة من طعام ولا شراب ويعُدُّونهم بالعودة إليها بعد
غسل الآنية وتجديد الألوان. فلم يسمع لهم أحد ولم يلتفت إلى صياحهم،
فأخذوا في التصفيق بالأف كف تنفيراً لهم كتنفير الدجاج، فلم ينتقلوا
ولم يتحركوا، فعمد الخدم إلى آخر حيلة يضطرونهم بها للخروج فأطفأوا
الأضواء وتركوهم يتخبطون في الظلمات ويتساندون على الجدران يطلبون
الأبواب، فسبقناهم إلى الخروج والتقينا في خروجنا عند الباب بصاحبين
يتنازcan في هذه الحال ويتخاصمان في شدة السكر، فلطم أحدهما صاحبه
فسقط على الأرض يتخبط في قيئه. وينشد هذه الأبيات في هزله وهزته:

شربت الخمر حتى قال صحبي

ألست عن السقاء بمستفيق

وحتى ما أوّمت في مبيت

أنا م به سوى التراب السحيق

وحتى أغلق « البوفيه » دوني

وأنست الهوان من الصديق

وسمنا الآخر ينشد وهو ينتفخ تيهاً وعجباً ويصرّ خده صلفاً

وكبرا:

شربتُ الحمر حتى خلتُ أني

أبو قابوسَ أو عبدُ المدانِ

وسمعا في الخارج عزف الموسيقى تتقدم العروس لزفافه عند دخوله
الحرم، فسكتَ المغنّون وضجَّ المكان واضطرب الحاضرون ووقف
الجالسون وصعد بعضهم فوق الكراسي يتناولون لمشاهدة العروس
وهو في زمرة من إخوانه وأترابه يخطر بينهم ويرفل حتى اذا توسطوا
ساحة الدار وقفوا به وقفةً، فقام أحد الحاضرين فصعد على منصة المغنّين
صعود الخطيب على المنبر، فشخصت نحوه الأبصار ومالت اليه الأسماع
واذا هو يخطب بخطبة هذه نسختها: «أيها الحاضرون والغائبون. هذه
ليلة قامت فيها أعواد السرور. على منابر الجبور. وأشرقت فيها أهلة
المسرة والبدور. من سماء القلوب وارض الصدور. وطلعت فيها
كواكب السعود من أفق العيون. فأنجلت عن بصائرنا غمامم الأحزان
ووبل الشجون. ولو أني لست من فرسان هذا الميدان. الراكبين
لحيازة قصب الرهات. ولا من المجردين لسيوف الخطب وخطب
السيوف. بحروف الرماح ورماح الحروف. ولا من المتطين في شروح
البلاغة متون الضوامر. ولا من السابحين في بحور النظم والنثر على كل
كامل ووافر. ولا من الساحين في حلة سحبان. ولا من المتدرعين
في حصون المعاني والبيان. وقد حيل بين المعير والنزوان. إلا أن ما
أعرفه في هذا العروس من العلم والإقدام. وما له في مستعمرات

التربية من وطأة الاحتلال ورسوخ الأقدام . وما أعتقدُ فيه من محبة
الأوطان ومصادقة الاخوان . كما أن ما أعلّمه وأتحققه في العروس التي
نزف اليه هذه الليلة . من علمها بتدبير المنزل وفروض العيلة . وما هو مشهور
عنها لدى كل قاص ودان . مما يوجب حسن القبول والامتنان . وما
وما شهدها لها به معلوم المكاتب ومدرسو المدارس . بأنها أنس المحافل
وبهجة المجالس . وما أراه على وجوه الحاضرين من الكرم والسماح .
وأثوسه في جباههم من الفرح والانشرح . كل ذلك هو الذي جرأتني
على الوقوف في هذا الموقف الحرج . وسط بحر هذا العرس المتعرج . وإني
أتوجه اليكم بوجهي لتضربوا عن تقصيري صفحا . واتقدم لكم بنفسى
لتطووا عن هفواتها كشحا . وأطلب منكم أن تشربوا معى نُخب
الكتّوس . فى نخب العروس . وتقولوا معى فليحى هذا الشاب فى
هناء وسرور . ورخاء وجبور . ممتعا بنشأة الرّقاء والبنين . وناشئة الأولاد
الناجحين . ما ناح القمرى فى رياض البساتين . وصاح الأخدرى^(١)
بين الأعشاب . آمين آمين »

ثم نزل الخطيب فقابلته الأكف بالتصفيق والأفواه بالتهليل
والصدور بالتبجيل وصدحت له الموسيقى ثلاثا بالسلام . ثم أعقبه على
المنبر شاعر من المشهورين بين الخاص والعام . فأنشد هذه القصيدة
النادرة . والمدحة الباهرة :

بأوقات الهناء الصافيات

تجلى الأنس من كل الجهات

لقد قام البشير بها ينادي
على أهل العروسين الهداة
وفي تلك الصدور الفرح يجري
كما تجري خيول الصافيات
فبشرى أيها الشهم المفدى
ببخير الغانيات الآنسات
ظفرت بدرق في عقد ماس
من المتأربات الراقيات
وقد زفوا بهذا الأفق بذرا
الى شمس الهدى والمكرمات
تغذت بالمعارف والمعالي
فحازت زينة المتعلمات
يرجى أن يكون كذا بنوها
لدى أيامنا المستقبلات
بهم تزهو الشيبة في المرامي
وتندو للحمى أقوى الحماة
بهم ترقى المواطن مرتقاها
وتصبح قدوة المترييات
كجيش في البلاد عرمرمى
وجند في الحروب مبرزات

وتمشى التيه فى أوج المراقى
وترفل منه فى حبل الثبات
فتصبح أنتَ خير أبٍ كريم
وتصبح تلك خير الأمهات
ودمتَ بعد ذاك بألف خير
ونعمى بالبنين وبالبنات
ولولا الاختصار وضيق وقت

لجئت بألف بيت شاهقات

ثم اتيننا بحمد الله من الشاعر بعد الخطيب . وعاد المغنّون الى
اللعن والتطريب . فأخذتُ أجيل النظر وأقلب الطرف . من ركنٍ الى
ركنٍ ومن صفّة الى صف . فلم أجد فى الحاضرين بلا استثناء . من هو
ملتفت الى سماع الغناء . بل رأيتهم يوجهون النظر الى السماء . ويكثرون
من الإشارة والإيماء . كمن يتضرع بالدعاء . لكشف المحنة والبلاء .
فرفعتُ مثلهم نحو السماء بصري . فدُهِيتُ من حيث أدرى ولا أدرى .
اذ رأيت نوافذ الدار . مهتوكة الاستار . وفى كل نافذة هيفاء مسفرة
النقاب . كالدُّمَيّة فى المحراب . أو كالصورة تتألق فى إطارها كالشهاب .
أو كالبدربدا مسفراً من خلل السحاب . تُنفذ منها مثلَ خيوط الغزاة ^(١)
للمغازلة . وتُجرّد من اللحظات مثل سيوف الكُماة للمنازلة . فتصيد
طيور القلوب الحوائم . وتفتكُ بمهيج النفوس الروائم . ثم تراها تُوىء

بكأس الصهباء . الى شفّتها الحمراء . وتلمس واسطة العقد . بزهرة من
الورد . فيشتبه على الرائي وجه الأمر . باختلاف اليواقيت كالجر .
ياقوتة الحجر . يياقوتة الثغر . وياقوتة الزهر . يياقوتة النحر . ثم لا تقتأ
ترسل الإشارة تلو الإشارة . تارة بالمروحة وأخرى با « السجارة » .
مع ابتسامات توضح عن مكنون الصدور . وتفصح إفصاح المعاني في
السطور . والرجال من تحتهم يجاؤونهم على أعين النظر . طوراً بإشارات
الأيدي وطوراً بلبغة الأزهار . وكل مغازل فيهم يعتقد أنه امتاز على
سواه . وتغلب على أهل النوافذ بهواه . وأضرَمَ فيهنّ نار العشق
وجواه . وخلع قلوبهنّ بدعواه . وما بالنوافذ سوى أزواجهنّ وبناتهنّ .
أو أخواتهنّ وبنات أخواتهنّ . والمغني يستقبل وجوههنّ في هذه الاثناء .
بوجه ليس فيه أدنى حياء . فيغنيهنّ من الأصوات والألحان . ما يثير
من الغرام ويهيج من الأشجان . والخصيان يصعدون الى الحرم بأوراق
وينزلون منه بأوراق . يتخترن فيها الأدوار السائرة على ألسنة العشاق .
في وصف حرارة الأشواق . ومرارة البعد والفراق . وما زالت الحال
تزايد قحّة ووقاحة . وتتضاعف هتكاً وفضاحة . حتى قام في وسط
المكان جماعة من الأصحاب . يتقاذفون بألفاظ القذف والسباب . ثم انهم
انتقلوا من التلاعن والتشائم . الى التضارب والتلاكم . فقام الحاضرون
على الاقدام . لمشاهدة ميدان النزال والخصام . ثم توسط رجال الشرطة
بينهم لفض الخصامة . وسوّقهم الى المحاكمة . بعد أن تمزقت الثياب تمزق
الأوراق . وتخصبت الوجوه بالدم المهرق . فصارت الأفراح أتراحا .

وانقلب الغناء نواحا . وقلتُ لصاحبِي هلمَّ بنا الى الفرار . من مواقف
التهمة والعار . وخرجت به أسوقهُ أُمَامِي . وأقول له في بعض كلامي : لقد
حق لك بعد الذي رأينا ونظرنا . وبَلَوْنَا وخَبَرْنَا . أن تلتهب بالغضب
والخَنَقِ التَّهَابَا . أو يذهلك الدهشُ والعَجَبُ فلا تَمِي جوابا . وهل بَقِيَ
بعد ذلك فرقٌ بين سرور الدنيا وحزنها . أو فضلُ لظهور الارض على
بطنها . فأجابني بلسان الحكيم المدرَّب . والحليم المهنَّد . وهو يتبسم
استهزاء . ويهزُّ كتفيه ازدراء : لم يَبْقَ فيَّ بفضل الحكمة فضلٌ للسخط
والغضب . وعَجَبِي اليوم مما أرى يكون من العجب

العمدة في الحريفة

قال عيسى بن هشام - وتمكّن من الباشا حبّ الاستكشاف والاستطلاع . لدرس الأخلاق وسبّ الطباع . وتبدّلت الوحشة عنده بالائتناس . في مخالطة الناس . فصار يلجّ على ويلجّ في الطلب . أن أذهب به في هذا السبيل كلّ مذهب . وأنا أداوره وأحاوله . وأماطله وأطاوله . وهو لا ينفكّ يستنجزني ويستقضي . وإذا استغفّته لا يعفّني . فقلت له لم يبق أماننا من المجالس والمنتديات . إلا ما اشتملت عليه الازبكية من المخجلات المندريات ^(١) . وما تضمنته من صنوف الرجس والنكر . وفنون الفسق والسكر . وأنا أجلك أن أسلك بك مسالك الظنّة والتهمة . وأن أحلك محالّ الريبة والشبهة . وأربأ بسنك وقدرك أن تختلط بتلك الزمّر . وتدخل معهم في تلك الغمّر . وتقسر نفسك الشريفة على ما لم تألفه من مثل ما يعملون . وشروى ما يفعلون ^(٢) . فلا تأمن حينئذ نقد الناقدين . وطعن الطاعنين . وقاسمته إني لك لمن الناصحين . فقال أليّ تقول ذلك وقد آتيتني من دروس الحكمة العالية . وضروب الفلسفة السامية . ما أزدري معه عدلّ العاذلين . وأحتقر به لوم الجاهلين . ولنّ يضير النفس الشريفة الطاهرة . أن تجاور النفس الخبيثة الفاجرة . وقلّ أن يُعديّ المريض الطيب . وتذهب رائحة الدفّر ^(٣) برائحة الطيب . والإمعان في رؤية النقيصة

والرذيلة . يزيد النفس الفاضلة تمسكاً بالفضيلة . ولا يعرف قدر الرشد والهداية . إلا مَنْ نظر في أعقاب الضلالة والغواية . وبالظلمة يُعرف فضل الضياء . وبضدّها تتبين الأشياء . - «ذلك من فضل ما علمتني مما علّمت رُشداً» . - ولقد كان من أدب الحكماء في أيام دولتنا . وزمنِ صولتنا أن يغيّروا من هيئاتهم . ويستروا من سيئاتهم . ويدّلّوا من أزيائهم المعروفة . بأزياء غير مألوفة . ليتغنوا من مغالطة الناس على اختلاف أشكالهم . ويقفوا على جليلة أمرهم وحقيقة أحوالهم . فلم يكن ذلك مما يضرّ بسمعتهم . أو يحط من رتبته . عند ظهور أمرهم . ووضوح سرهم . فلا عليك إذاً أن تسلك بي ما شئت من المسالك . ولا تحشّ على شيئاً من تلك المعاطب والمهالك

قال عيسى بن هشام — ولما لم يبق لي بد من امتثال حكمه . وتنفيذ عزمه . قصدتُ به من الأزبكية روضتها الغناء . وحديقتها الفيحاء . فاماوصلنا الى بابها . ووقفنا عند «دُولابها» . وضعتُ فيه أجرة العبور . كما توضع النذور في صندوق النذور . ودرتُ فيه دورتي ودارَ الباشا دورته . فقال لي وهو يدافع الغضب وسورته . هل كُتِبَ على الداخلين في هذه الجنة الزاهية . أن يدور الانسان دُورة الثور في الساقية . فقلت له نعم شاع التخوين بين الناس في جميع الاشياء . فاخترعوا لهم مثل هذه الآلة الصماء . لتكون عليهم رقيباً عتيداً . لا يستطيعون معها اختلاصاً ولا تبديداً . فهي ترقم من الداخل عند كل دورة . ما ينقده الداخل فيها

من الأجرة . فلا يضيع منه مثقال ذرة . ولما جاوزنا الباب أعجب الباشا حسن المنظر وازدهاء . وراقه بهاء المكان واستهواه . وتملكه الابتهاج وتولاه . فقال ماشاء الله لا قوة إلا بالله : لِمَنْ هذه الجنة . من كبراء البلد . قلت هي ملك كل واحد وليست بملك أحد . أنشأها الحكومة من « المنافع العامة » : لنزهة الخاصة والعامة . ثم سرنا نطوف في أنحاء الحديقة . بين أشجارها الوردية . وأغصانها الرشيقة . وأزهارها الأنيقة . والباشا يهتز طربا . ويميل عجبا . لحسن هذا المنظر المعجيب . والمنبت الخصب . ثم وقف بنا وقفة بين برَد الظلال وخيرير الماء . ورفَعَ بصره يقدس باسط الأرض ورافع السماء . ثم رأيت يَخْنِي للركوع أنحاء القوس . بعد أن أنشد قول حبيب بن أوس :

أرض إذا جرّدت في حُسْنِها
فَكَرَّكَ دَلَّتْكَ عَلَى الصَّانِعِ

وسمعت يتلو في الركوع والسجود . قول صانع الوجود : « وَللهُ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْعُدُوِّ وَالْآصَالِ » . وقوله أيضا عزّ من قائل : تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ » ثم انتثيت به في طلب الراحة : فجلسنا على أريكة من أرائك تلك الساحة . ودارت بيننا هذه المخاطبة . بما اقتضته المناسبة :

(الباشا) — كيف لا يكون هذا المكان بالناس غاصا وبالمرتاضين

مزدحمًا يشاهدون جماله ويتفياؤن ظلاله ما دامت الحكومة قد أباحتها لكل رائح وغادر كما تزعمه . ومالى لا أرى فيه غير هؤلاء الأجانب فى أزيائهم بأبنائهم ونسائهم ، فهل وقفته الحكومة على الفريين وحرمته على المصريين ، فإننى لم أجد فيه أحداً منهم منذ دخولنا الى هذه الساعة

عيسى بن هشام — لم تؤثر به الحكومة قومًا دون قوم ولكن المصريين كأنهم ألفوا التهاون باللذات الروحانية وتغافلوا عنها ، وأخصها معرفة ما حسن فى الأشياء ، وتميز الجمال والكمال ومواضع الاحسان والاتقان فى صناعة الوجود ، ورياضة الفكر والنظر فى مطالعة كتاب الكائنات ونظام المخلوقات التى تسبج بمحمد خالقها ، أى تدل عليه بصنفته فيها . وكأن الواحد منهم قد حبس نفسه وقيد فكره فى الوجود على الماديات فلا يكاد ينظر فى دهره نظرة المشاهدة والإمعان فى خلق السموات وما يتألق فيها من الشموس والاقمار والنجوم والكواكب ولا فى خلق الارض وما ينبت فيها من النبات ويدب من الحيوان ويجرى من البحار ويرسو من الجبال وهى بجمال صنعها وكمال وضعها :

تصيح بمن: يمرُّ ألا ترانى

فتفهم حكمة الخلق العجيب

(الباشا) — جل الخالق الصانع . ولكن لأى سبب ألف

المصريون غفائهم عن التمتع بهذه النعمة نعمة المشاهدة ولذة المطالعة وصار الأجانب يتعلقون بها دونهم ويمتازون بها عنهم

(عيسى بن هشام) — لا سبب فيما أعلم الا التماهى فى التهاون
والتراخى عن ليقاظ هذا الشعور الفريزى الكامن فى النفس وتنميته
بالرياضة والتفكير ومعاودة الإمعان والتدقيق ، وقد اعتنى الأجانب به
عناية خاصة فاجتهدوا فى تنميته وترقيته حتى صار لديهم ملكة من الملكات
وفناً جيلاً من أرقى الفنون فدربوا عليه ومروا فيه وسرى فى دماهم
يتوارثه الأبناء عن الآباء ، فترى الطفل فيهم اذا شب ودرج وأراد أن
يتحف أهله يوماً بادر الى الروض فاقتطف منه أول زهرة من الربيع
وتسابق بها اليهم كأنما عثر لهم على كنز لحسن الوقع عندهم . ولقد برعوا
فى الصناعة بفضل هذا الشعور ودوام غوّه ، ولم يقتصر الحال فيه عندهم
على المراتب الطبيعية بل تجاوزوه الى المراتب الصناعية ، ففهم من يبذل
الآلوف من الدنانير والملايين من الدراهم لاقتناء صورة من الصور ورسم
من الرسوم يحسن تمثيل زهرة من الزهور أو دائرة من الشفق أو
راع من الرعاة أو حيوان من الحيوانات بما لا مناسبة بين قيمته فى
الاصل الطبيعى وبين قيمته فى الشكل الصناعى ، وقل أن تدخل دار
ميسور منهم الا ونجد أتحاء الجدران مزدانة بالواح التصوير والتهاويل
مما يحاكي المناظر الطبيعية ، فلا يفوت صاحب الدار أن يتمتع بحسن
المنظر فى داخلها إن حجبته عن مشاهدة جمال الطبيعة فى خارجها . ولقد
جرّم ذلك الى شدة الولوع بمشاهدة الآثار القديمة والتنافس فى اقتنائها
والغلو فى التحفظ عليها والضن بها ، فكم رأينا من قطعة من الحجر أو

غيره تزدريها الأعين بيننا ولا يعبأ بها المصري فيطرحها في كناسة منزله فلا تزال كذلك حتى يلتقطها الأجنبي في بحثه وتنقيبه فتصير عنده في قيمة فريدة التاج أو يتيمة العقد . وكم رأينا من السباح من يتكبدون مشاق الأسفار وتحملون أهوال البحار وأخطار القفار مع إنفاق الألوف المؤلفة من الذهب والفضة لمشاهدة آثار الدّم من وما عفا من الرسوم في هذه الديار ، وربما رأينا المصري ساكن القاهرة يشب ويشيب ويكتهل ويشيخ ويمر ويهرم ولم ير من الأهرام القائمة في جواره غير صورتها المرسومة على ورق البريد ، وربما لم يلتفت الى رؤية ذلك أيضاً حتى يدركه الموت

(الباشا) — تالله إن ذالمّن العجب . ولو كان الامر يجري على القياس لكان المصريون في مقدمة الأمم التي ينمو فيها الشعور بلذة التأمل في بدائع الكائنات ومحاسن الموجودات لركة طباعهم ولطافة شيمهم وسرعة التأثر والانفعال في نفوسهم ولما ميزم الله به من حسن الإقليم واعتدال الجوّ وفيض الماء وخصب التربة ولا انحصار موارد أرزاقهم ومعاشهم في استنبات الأرض وطول ممارستهم للفنّ والحرف والزرع والحصد . وكل من رأى الإقليم المصري كالزبرجدة الخضراء في وسط رمال الصحراء ، لا بد أن يحسد أهله على التحلى بهذه الفريدة من عقد الطبيعة وينبسطهم على دوام تمتعهم باجتلاء هذا المنظر الذي يجلو البصر ويثلج الفؤاد وينعش القلب ويلطف من هواجس النفس وبلابل الصدر

فتصفو الروح فتخفّ من قيود العالم السفلى الى الاتصال بمعارج العالم العلوى ، فترتاح هناك هنيئة مما تقاسيه فى مصارعة العيش من ضروب الأكدار والآلام ، وتفر من وجهها الى وجه ربك ذى الجلال والإكرام . واعلم — وهذه لفظة ظالما أفادنى تكرارها على لسانك فاسمح لى بها مرة من لسانى وما أعلمك إلا عن خبرة وتجريب — أن الفرق بين الإنسان والحيوان لا ينحصر فى الخلقة ، فى الخلقة ما يشبهه . ولا فى النطق فى الحيوان ما ينطق . ولا فى الذكاء فى هوام الأرض ما يفوقه ذكاء ، وإنما المزية التى تميزه عن سائر الحيوانات والخصلة التى يفضّلها بها هى إدراك حقيقة الوجود بالإيمان والمشاهدة وطول الفكر والنظر فى خلق السموات والأرض للاهتمام الى معرفة خالقها ، وعبادة صانعها ، قال جلّ وعزّ فى محكم بيانّه : « أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خَلَقْتُمْ إِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ إِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ إِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ فَذَكِّرْ » إنما أنت مذكّر . هذه هى اللذة الروحانية التى أسعد الله بها الإنسان دون سائر المخلوقات وهى أشرف اللذات وأصفاها وأفضلها وأبقاها . وما يتقرب العبد الى الله زلفى فى عبادته بأجلّ من النظر والتفكير فى حسن صنعه وكمال خلقه ، قال وهو أحكم القائلين : « إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ آيَاتٍ لِّأُولَى الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا

سبحانك فَقِنَا عَذَابَ النارِ . ولا يقف على مقدار هذه اللذة الروحانية تمام الوقوف إلا مَنْ تجرّد مثلى يوماً من عالم الأجسام والفناء ، الى عالم الأرواح والبقاء ، ولا ينبئك مثل خبير

ولو كانت الامور تجرى على القياس أيضاً لاشتغل المصريون بلذة هذه المشاهدة وسبعوا في غوها فيهم إن لم يكن من جهة لطف الإحساس والشعور فمن جهة انصرافهم الى تقليد الغريين والعمل على نمطهم في مختلف أحوالهم كما شاهدته منهم عياناً في جميع حركاتهم وسكناتهم . ولكن لعل هناك مِنْ خفيّ الأسباب ما حرّمهم اطراداً التقليد في هذا الباب

(عيسى بن هشام) - لم يكن هناك من سبب يمنعه من غير ميلهم الى الفتور والانقباض سواء أكان في الماديات أم الأدبيات . وهم على شدة ولّهم بتقليد الأجانب لا يقلدونهم الا في ما خفّ وهان من الزخرف المموّه والبهرج الكاذب والملاذ الشهوانية مما لا ينتج عنه إلا سقم الأجسام ونفاد الأموال ، وما عدا ذلك من أمور المدنية النافعة فجهولٌ عندهم بل مرذولٌ لديهم . وإجمال القول في هذا الباب ان مثل المصرى في أخذه بالمدنية الغريبة كمثل المنخل يحفظ الغثّ النافه ويفرط في التمين النافع

(الباشا) - يا أسفاً عليهم كأنهم تخلّوا عن فضائل مدينتهم القديمة

ولم يتحلوا بقضائل المدينة الحديثة فأصبحوا كالتي تقضت غزلهما من بعد قوة أنكاثا

قال عيسى بن هشام - وما زال الحديث يجري بنا على هذا النحو حتى وصلنا الى المغارة المصنوعة في بعض أنحاء الحديقة ، فرأينا صنما جميلاً وشكلاً بديعاً ، وأعجبنا تدفق الماء من ثنايا الأحجار ، فجلسنا على سرر هناك أعدت للزائرين . واذا بجانبنا ثلاثة أشخاص من المصريين شغاهم اتصال الحديث بينهم عن الالتفات اليها ، فأقنا نسترق السمع ونلتقط اللفظ ، فتبين لنا من سياق كلامهم ان أحدهم عمدة من عمد الأرياف ، وثانيهم تاجر من تجار الثغور ، وثالثهم فتى من أهل البطالة والخلاعة . ومما التقطناه من قول العمدة للخليع في مجرى حديثه :

(العمدة) - وأين الآن ما دخلنا الحديقة من أجله فقد طال بنا الجلوس ولم نر شيئاً . وهل كان جلّ القصد ومتهى الجهد أن نجلس هنا في وخامة الأشجار ورطوبة الهواء وعفونة الماء . وتالله ما أجد فرقاً بين هذا المنظر وبين منظر ذلك المستنقع الذي خلفته خلف بلدتنا واعمري إن الإوز الذي يسبح فيه هناك أكثر عدداً وأعظم سمناً من الإوز الذي يسبح أمامنا ، وما الفائدة في طول جلوسنا أمام هذه الأشجار العقيمة التي لا تثمر ولا تُغني من جوع . وأين نحن من ذلك الثمر الشهى والصيد الطرى الذي وعدتنا به وأطعمتنا فيه !!

(الخليع) - مهلاً فلن يفوتك من هذا شيء وان كنا أخطأنا

الغرض هنا لاني كنت أظن الحديقة على عهدى القديم بها ، وما كنت أتخيل أن الامر وصل بها الى مثل هذا الخراب من الظباء والغزلان الآ منذ أخبرني أحد الأصحاب بعد دخولنا بأن الحكومة اشتغلت بأمر هذه الحديقة خلّو يدها من الأشغال فباشرت الإصلاح فيها بمنع ذوات البراقع والمآزر من دخولها والتجول في أنحائها . ولا أقول في هذه النازلة إلا قول الجرائد في التأفف من أعمال الحكومة : « حسبنا الله ونعم الوكيل »

(التاجر) - وعلى هذا فقد ذهبت تلك الليالي والإيام التي كانت فيها الحديقة مرتما للحسان . وملعبا للقيان . ولطالما دخلتُ هنا وحيدا فريدا فما أكاد أنصب الجباله وأضع الحب حتى أقتنص من آرامها مثني وثلاث ورُبَاعَ

(العمدة) - يعلم الله أن العاصمة أصبحت على حال لا تصح معها الإقامة الا مدة قضاء الحاجة والرجوع الى البلد فوراً والآن فقد عرّضَ الواحد منا ذراهمه للضياع وصدره للالتقباض . والى الآن تراني في غاية الأسف والحزن على ما جرى لي أمس في سهرتي مع فلان الموظف اذ جرّني للنزهة معه فطاوخته على هواه أملاً في إنجاز حاجتي عنده فسحبني من مكان الى مكان ومن حان الى حان يشرب هو وأصحابه على حسابي وكأنما أجوافهم دنان متخرقة فلا تمليء أبداً من الخمر وكأنما كيسى كنز لا يفنى بالانفاق . وما كدنا ننتهي من حانات الخمر حتى اندفعوا بي الى بيوت القمار فأصبحتُ مصدّع الرأس من الخمر فارغ الكيس من القمَر

(التاجر) - ولم تطاوعه على أغراضه وتنقاد اليه مع أصحابه وتنفق مثل هذا الاتفاق من غير حظ ولا لذة وإن كانت لك حاجة ترجو قضاءها منه كما تزعم فيكفي في ذلك أن تضع « المبلغ المناسب » في يده وتتخلص منه ومن أصحابه فلا تسيرهم ولا تعرض نفسك للتورط معهم كما فعلت

(العمدة) - يحق لك أن تعرض وتلوم فقد أراحكم الله معاشر التجار في المدن من متاعبنا ومصائبنا مع الأحكام فإن أشغالكم لا تتعلق بهم كما تتعلق أشغال الفلاحة في الأرياف ، فنحن في اضطراب دائم الى استرضائهم و « المبلغ المناسب » الذي تقول عنه لا يكفي وحده في قضاء الحاجة بل يلزم الإنفاق عليهم في كل زمان ومكان علاوة على تلك المبالغ وإن لم يكن لك عندهم حاجة في الحال ، وكم من كلمة واحدة من موظف صغير كانت سبباً في تعطيل عمل كبير ، وما يدريك أن الذي تُغضى عنه الليلة ولا تلتفت بنظرك اليه في حانات الأزبكية يصبح غداً قاضياً في المحكمة أو حاكماً في المديرية

(الخليع) مقاطعاً - إذا كانت الليلة الماضية قد انقضت على غير هواك فلنا عنها عِوَض من ليلتنا هذه إن شاء الله

(العمدة) - أنصدُّك في وجود العوض وقد أخلفت وعدك معنا في هذه الحديقة وأذن الليل بالدخول وليس في اليد شيء من الصيد (الخليع) - صدقني بالله ، فاني ما كنت أعلم بما أصاب الحديقة

من أمر الحكومة لأننى كنت مقيماً بجلوان مدة طويلة وجئت وأنا أحسبها على حالها الأول . ولكننى قد رتبت لك الآن سهرة فى فكرى تفوق فى حسنها كل سهرة مضت فانى أعرف صاحباً لى أخبرنى عن بيضة خدر من بيت فلان باشا فقوموا بنا وأنا أذهب للحصول عليها هذه الليلة بما يمكن من الحيل، وسأ كتم عنها أمراً كما لى أن نصير معى فى الموضع الذى أختاره ثم أرسل اليكما من هناك بمن يأتينى بكما، فىكون دخولكما على حين غفله فلا تستطيع الاختفاء ثم تضطر لى البقاء فى مكانها وحينئذ يدور بنا المجلس معها دورة الأئس والسرور . ولكن لا أخفى عنكما أن مقدار مامعى من الدراهم الآن لا يكفى لإعداد معدات هذا المجلس وأخشى إن أنا ذهبت لى البيت لآخذ دراهم أخرى أن يمتنع أهلى من الخروج ثانية كما هى العادة عند النساء فى التضيق على الرجال

(العمدة) - لا عليك فعندى من الدراهم ما يكفى وزيادة

قال عيسى بن هشام - وقاموا فى الحال للسعى وراء اللهو والمجون . وقام الباشا يسحبنى وراءهم للعلم بما سيكون

العمدة في المجمع

قال عيسى بن هشام - وخرجنا في أثر الخليع والعمدة والتاجر .
وقد أَلَقْتُ ذُكَاءَ يَمِينَهَا فِي كَافِرٍ^(١) . ثم أَصْبَيْتُ بَعْدَ ذَلِكَ شَمُوعَ الْكَهْرِبَاءِ .
فَعَادَتِ الشَّمْسُ مَتَوَزَّعَةً فِي مَصَابِيحِ الضِّيَاءِ . كَالنَّجُومِ تَتَلَأَلُ فِي
أَفْقِ السَّمَاءِ . وَتَقْشَعُ دِيَاجِي الظُّلُمَاءِ . وَلَمَّا تَوَسَّطْنَا سَاحَةَ « الْأُورَا »
و « الْأُورَا بَار » . وَقَفَ الْبَاشَا وَقْفَةً الْإِعْظَامِ وَالْإِكْبَارِ . يَكْفُكُفُ
غَرْبَ الدَّمْعِ وَالْإِسْتِعْبَارِ . وَيَقُولُ سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ، إِبْرَاهِيمُ فِي النَّارِ .
كَيْفَ لَا يَضْطَرُّمُ الْقَلْبُ اسْتِعَارًا : وَيَجْرِي الدَّمْعُ مَسْدَرَادًا . فَلَا أَسْتَطِيعُ
أُورِي^(٢) . وَلَا أَسْتَطِيعُ أُورِي . وَقَدْ تَمَثَّلَ أُمَامِي فِي هَذِهِ الْبَقْعَةِ . وَهِيَ
مُوسُومَةٌ بِسُوءِ السَّمْعَةِ . بِطُلُوعِ مُصْرٍ . وَرَافِعِ بَنُودِ النَّصْرِ . وَقَائِدِ جُيُوشِ
الْحَرْبِ وَهَادِيهَا . فِي مَفَاوِزِ الْأَرْضِ وَبَوَادِيهَا . وَمُوقِدِ نِيرَانِ الْوَقَائِعِ
وَصَالِيهَا . وَخَائِضِ غَمَرَاتِ الْمَعَامِعِ وَجَالِيهَا :

فِي كُلِّ مَنَبَتٍ شَعْرَةٌ مِنْ جَسْمِهِ

أَسَدٌ يَمْدُ إِلَى الْفَرِيصَةِ يَخْلُبَا

وَكَيْفَ جَازَ لَهُمْ أَنْ يَضْعُوا عُنْوَانَ الْبَاسِ وَالْجِدِّ . فِي مَوَاضِعِ الْمَزَلِ
وَالدَّ^(٣) . وَيَقِيمُوا لِإِبْرَاهِيمَ صِنْمًا عَلَى صُورَتِهِ . فِي وَسْطِ سَوَاقِ الْفَسُوقِ
وَسُرَّتِهِ . مُشِيرًا يَمِينُهُ إِلَى مَوَاطِنِ الْهَوِّ وَالْفَجُورِ . وَأَمَا كُنَ الْفَحْشِ
وَالْعُهْورِ . وَدِينُهُ يَنْهَاهُمْ عَنْ تَشْيِيدِ الْأَصْنَامِ وَإِقَامَتِهَا . وَيَأْمُرُهُمْ بِكُسْرِهَا

(١) ذكاء اسم للشمس ، والكافر ، اليل (٢) الاوار ، حر النار (٣) الدد ، اللهو والله

وإبادتها . ويا بؤس قوم جعلوا اليد التي كانت تشير للسكاة والفرسان .
في ميدان الضرب والطعان . بمصافحة المنايا . ومقارعة الأقران . تشير
اليوم وسط هذا الميدان . بمغازلة البغايا . ومعارقة الدنان . فسبحان
محول الأحوال ومبدل الأزمان . فقلت له ما هذه الأفكار المحزنة .
أحنبنا إلى تلك الأزمنة . وقد انقضت بخيرها وشرها . وذهبت بحلوها
ومُرّها . وأين أنت من طريقك في الحكمة والسداد . ومن سبيلك
في الهداية والرشاد . نخفض عليك من حزنك وهمك . وارك تلك
المواجس فأنت ابنُ يومك . ولا تجعل لهواك القديم عليك سلطانا
مطاعا . فيذهب ما استفدناه من العلم ربما مضاعا . أما إقامة التماثيل في
الميادين . ومخالفتها للشرع والدين . فقد أقامها حكامنا تقليداً للغريبين .
ولم ينكرها أحد من طلبة العلم وعلماء المسلمين . فاستنامت إليها الأفكار .
ولم يوقظها التحريم والإنكار . وأما وضع التماثيل في هذا المكان دون
سواه . وإشارته فوق الحصان يميناه . فاعل الأمر بوضعه أراد أن يذكر
هؤلاء النافلين الذاهلين . بما كان لأبائهم الأولين . من الشأن الرفيع .
والركن المنيع . أيام إمارته . وينبئهم على ما انتشر ذكره في الآفاق .
وخلّده لهم بطون الأوراق . من اقتحام الممالك . وافتتاح الممالك .
تحت قيادته . وهو يشير اليوم بتلك اليد . ليستفزهم إلى مواقف العز
والمجد . ويستنفهم عن مواطن الخلاعة والبطالة . إلى مواطن الشجاعة
والبسالة . فتبسم الباشا من قولي ضاحكا . وقال ما عهدتك في الجواب محاولا
مماحكا . فقلت له دَعْ هذا وانظر إلى هذه البنية الإيوانية . ذات الأرائك

الخسروانية . فقال أعظم به من بناء . بين بيوت الكبراء . قلت هو بيت
لهو رفَعَ اسماعيلُ قواعده . وبوأ الناسَ مقاعده . يشاهدون فيه صنوف
الألعاب . وضروبَ الأعاجيب . مما يؤخذ عن أساطير الأولين .
وأقاصيص الزاوين . وما تفتن فيه كلُّ غادة حسناء . من جمال الزينة
وحسن الرِّواء . وتفتن به كلُّ قينة هيفاء . من فنون الرقص والغناء .
اقتداءً بالفربيين في ديارهم . واحتذاءً لآثارهم . وقد بقي من بعده تنفق عليه
الحكومة من عيش الصانع والفلاح . لتفككة النزلاء والسيَّاح . ثم
انظر أمامك الى هذا المجتمع الملتحم . والموقف المزدهم . فالتفت فقال
ما هذه الضوضاء العظيمة . أم أتم ما أرى أم وليمة . قلت له لابل هو مجتمع
عام . تتزاحم فيه المناكب والأقدام . لمسامرة الأصحاب . ومعاورة
الشراب . وبيننا نحن كذلك إذ وقف بأصحابنا المسير . عند باب هذا الحان
الشهير . فسرنا في عقبيهم . ولحقنا بهم . فسمعنا الخليع يقول لصاحبيه :
كونا هنا في الانتظار . حتى أعود اليكما بالأخبار . انجازاً لوعدي .
وإيفاءً بعهدي . فأجاباه بالقبول . وتقدماً للدخول . فقال العمدة للتاجر
ما أحوجني الى تضييع الزمن . ورياضة البدن . بشرب كأس من العُقار .
ولعب دور من « البليار » . وقال التاجر وما أحوج يدي الى ملامسة
ورق القمار . وأذني الى رنين الدرهم والدينار . ثم صعدنا وراءهما الى
قاعدة بأعلى المكان . أعدت للعب والرهان . فتقدم العمدة وهو يهز
أعطافه وأردانه . فتسلم كرة « البليار » ووصلجانه . وقعد التاجر وهو
يرتعد من الفرق . في مجلس اللاعبين بالورق . وجلسنا نحن للنظر

والسمع . في غمار ذلك الجمع . فسمعتُ عن يميني أحد السماسرة المعروفين بالدهاء . يقول في مناقشته لأحد أرباب الثروة والغناء :

(السمار) — لا نزاع ولا جدال في أن ينابيع الثروة قد نضبت بذهاب تلك الأيام الماضية التي كان يفتني الرجل فيها بكلمة ويثرى بإشارة فيصبح بها أغنى الأغنياء بعد أن كان معدوداً من الفقراء ، ولقد وصل المصريون الآن الى زمن كله ضيق وعسر ولم يبق من حكاهم من يقطع الأقطاع ويهب الضياع . وبقي الغنى الحازم فيهم على حال الجمول والانكماش لا يستثمر أمواله ولا يستريح ثروته ، وقد زادت الحاجات وتعددت وجوه المطالب يوماً بعد يوم ، فأصبح مضطراً الى الإنفاق من تليده فسرى النقصان الى رأس المال حتى إذا مضى لسبيله لم يترك لأهله وذريته الا ما يقوم بالكفاف وحده بعد توزعه بينهم . وكن على يقين أنه لا يمضي جيل واحد على هذه الحال الا ويندثر بين المصريين ما بقي من بيوت المجد والغنى . واعلم أنه لم يبق أماننا اليوم سوى بيت واحد هو منبع المنابع في الثروة والمال وكنز الكنوز في الغنى واليسار يقوم للمصريين مقام أعظم بيت من بيوت الحكام الذين كانوا ينعمون عليهم بالسبب والعطاء ويدفعون عنهم الضراء بالسراء . وما يخفى عليك انه بيت البورصة

(الغنى) — اسكت ولا تذكر لي اسم البورصة فقد سمعنا في هذه الأيام عن فلها بفلان وفلان مافيه عبرة للمعتبر وموعظة للمتدبر

(السمسار) - ألتمس من سعادتكم غض النظر عن الاستشهاد
بفلان وفلان فان الخسارة لحقتهما من سوء رأيهما وشدة جهلها . أما
أحدهما فإنه كان يعتمد في المضاربة بأمواله على التفاؤل والتطير وكان لا
يأخذ إلا بكلام إحدى العرافتين : العرافة السودانية أو العرافة
الإفريقية ، تلك بودعيها ، وهذه يورقها . ومن نوادره في الأخذ بالتفاؤل أنه
سمع رجلاً مجذوباً يصيح في الطريق بقوله : « اذهب يا يزيد » . وكان
لا يزال متردداً بين البيع والشراء لا يرجح بين الهبوط والصعود ، فتفاهل
بالكلمة واعتمد عليها وسار من توه الى سمساره فأمره أن يشتري له
عشرين ألف قطار ، فنصحته وحاول أن يحوله عن رأيه فلم ينتصح ولم
يتحول وهبطت الأسعار في اليوم الثاني وتوالى هبوطها فكان ما كان
من خسارته . وأما الثاني فكان جلُّ اعتماده على الأخذ بأفكار أرباب
الجرائد والثقة بالأخبار الكاذبة من الموظفين ولم يعمل برأى السمسار
الذين هم أدرى الناس بوجوه المضاربة وأعلمهم بطرق الصواب فيها

(الغنى) - لن تزيدني والله براعتك في البيان والبرهان الا ابتعاداً
عن مضاربة البورصة وعن أهوالها ولا أعتبرها في نظري الا أكبر باب
من أبواب المقامرة . والمقامرة هي عين المخاطرة

(السمسار) - أما المخاطرة فهي لاصقة بالإنسان في كل حركة وسكون
وملازمة لعمله في كل زمان ومكان ، ومن أراد أن يتوقى الأخطار ويسلم
من المخاوف فلا يباشر عملاً من الأعمال ، والأولى له أن يترك هذا العالم

الى سواء . واسمح لى بآخر قول أقوله لك فى هذا الباب وهو أنك
أخبرتني بمقدار محصولك فى هذا العام وهو ثلاثة آلاف قنطار مخزونة
عندك الى اليوم لم تبعها تربصاً لصعود الأسعار ، ولم تبال بما يلحق القطن
فى طول خزنه من نقص الوزن وما يتهده من بقية الأخطار كالسرقة
والحريق ، فإذا كنت فضأت الانتظار لصعود الأسعار على هذه الحال
فى ثلاثة آلاف قنطار فما الذى يمنعك عن مثل هذا العمل فى ثلاثين ألفاً
من « الكونترات » دون كلفة ولا مشقة كالتى احتملتها فى استخراج
المحصول ، فانك لاتدفع هنا من أرض ولا تنفق على حرث ولا تؤدى
ضريبة ولا تبذل ماء وجهك لرى الأطيان ولا تحنى ظهرك لأصاغر
الحكام وما دخلت فى قضية ولا وقعت فى منازعة ولا تخوفت شيئاً من
الآفات سماوية كانت أم أرضية بل هو ربح يأتيك عفواً صفواً ولا
رأس مال له سوى أربعة حروف أو خمسة تحطها يمينك فى التوقيع
(الفنى) - يجوز أن يكون فى قولك هذا بعض ما يقنع ولكنى
لا أجد نفسى تطمئن يوماً الى ولوج هذا الباب

(السمسار) - أنا لا أكلفك أمراً عظيماً ولا أدعوك الى أدنى
خسارة وما عليك الا أن تجرب صدق نصيحتى فتشتري ألفين من
« الكونترات » فتنتظر بها صعود الأسعار مع أقطانك المخزونة وأنا
أضمن لك الربح ما دامت آخذاً برأى . ولا تستمر فى هذا الانكماش
والحذر اللذين هما علة تأخر المصريين ، وخذ فى النشاط والإقدام اللذين

هما سبب تقدم الغريين . واعلم أن الفرق في سرعة الربح بين ما يشتغل به الناس من التجارة والصناعة والزراعة وبين أشغال البورصة و « الكنتراتات » كالفرق ما بين السفر على ظهور الجمال والطيران على أجنحة البخار ، أو ما بين نسخ الكتب بالخط ونسخها بالطبع ، ولكل زمان ما يقتضيه من العمل ويحكم به من السير . وأنت المخير مع ذلك فيما ترضاه لنفسك

(الغنى) — وكيف حال الأسعار اليوم

(السمسار) — كما كانت أمس وهى فرصة ثمينة للشراء

(الغنى) — خذنى اليوم خمسمائة قنطار للتجربة

قال عيسى بن هشام — وتركنا هذا المصفور قد وقع فى يد الصائد المحتال . والتفتنا الى ذات الشمال . لسماع ما يدور من الجدل . بين رجل فرغ كبسه من المال . وامتلات راسه من الآمال . وبين تبّيع محام من الأجانب . يتلقط القضايا من كل جانب :

(التبّيع) — لا أشير عليك أبداً برفع هذه القضية أمام المحاكم الأهلية وهى معروفة بجبنها وخوفها من الحكم على الحكومة فى مثل هذه القضايا ولئن حكمت مرة فقاما تبادر الى التنفيذ ، أما المحاكم المختلطة فانها لا تحسب لغير الحق حساباً وسواء لديها الحكومة والاهالى والتنفيذ فيها أسرع من تقاذ السهم عن القوس ، كما أن المحاكم الأهلية لا تعرف قدر هذه القضية ومنزلتها من التاريخ ولا تقدّر لك الفائدة

من عهد وضع اليد عليها الى الآن فلا مندوحة لك عن المحاكم المختلطة .
ولكن أخبرني قبل كل شيء عن تلك الشجرة هل لها ذكرٌ في الحجة
باسمها التاريخي المعلوم وهل يمكنك إثبات نسبك متصلاً الى الواقع

(صاحب القضية) — أما الشجرة فمذكورة في حجة الوقفية أنها
« شجرة العذراء » ، وهي قائمة على أرض سواد ، وأما نسي فهو متصل
بأحد عتقاء الواقع السلطان الغوري ، ولكن من لي بدخول القضية
في المحاكم المختلطة وأنا رجل من رعايا الحكومة ومن لي بمحام أجنبي
وأنت تعلم ما يلزم لمثله من المبلغ الجسيم في « مقدم الاتعاب » الجمالة

(التبيع) — هوّن عليك الأمر . أما رفع القضية الى المحاكم المختلطة
فانه سهلٌ هينٌ يكون بالتنازل عن القضية لأحد الأجانب ، وأما المحامي
الأجنبي فأنا أتكفل لك بإقناع المحامي الذي أشتغل معه ليقبل القضية
من غير أن يلتفت الى « مقدم الاتعاب » وانما يتفق معك على مناصفتك
فيما تأتى به القضية من الأموال . وأما الأجنبي الذي تتنازل له عن
القضية فهو حاضر في مكتبنا تحت يدنا لتسخيره في مثل هذه القضايا .
وما عليك الآن سوى النفقات والرسوم القضائية

(صاحب القضية) — لا بأس بما تقول ولكن ليس عندي ما أستغني
عنه اليوم لتلك النفقات . ولو كنت واثقاً ببعض الوثوق بكسب القضية
لبادرت الى بيع الحصة التي بقيت لي من العقار ولكنني أخشى أن
تذهب الحصة وأخسر القضية فأصبح بلا مال ولا أمل

(التبيع) - لو كنت تعلم بمهارة معلى وما له من علو الشأن في المحاكم المختلطة ومن الاتصال بقناصل الدول لاستخرت الله في بيع الحصة ورفع القضية

(صاحب القضية) - استخرت الله واعتمدت على هذا الرأي (التبيع) - فقد أذنتني حينئذ بالكلام مع المعلم . ولك أن تحضر غداً لعقد الشروط

(صاحب القضية) - أمهلني أياماً حتى أجد من يشتري الحصة بالثمن المناسب

(التبيع) - أنت في سعة من الوقت لبيع الحصة انما يجب أن تبادر بإحضار الأوراق والمستندات من الغد للاطلاع عليها ودرسها

(صاحب القضية) - بيني وبينك مساء الغد في هذا المكان قال عيسى بن هشام - وتركنا أيضاً هذه السمكة . تنخبط في الشبكة . ثم حوّلنا النظر الى العمدة في لعبة البليار فما راعنا منه إلا أن ضرب الكرة بصولجانه ضربة ثقية فأطارها الى وجه أحد الجالسين من الأجانب فاستشاط غضباً واحتدم غيظاً وقام هاجماً على العمدة يريد به شراً وهو يدمدم ويطمطم والعمدة يجمجم ويفغم ، وكاد يقع ما تسره عقباؤه لولا أن أسرع التاجر فخال بينهما وأخذ بيد الأجنبي يستعضه ويبالغ في الاعتذار اليه حتى لانت شكيمته بافتتاح زجاجتين من «الشمبانيا» لعقد الصلح على حساب العمدة . ثم عمد العمدة الى الجلوس

فلم يمهلهُ الذي كان يلاعبه وطلب منه استكمال اللعب فقام إليه مكرهاً وقلبه يرتجف ويده ترتعش، فما هي إلا الضربة الثانية حتى أخطأ الكرة بصولجانه فأصاب غشاء البليار فخرقته وشقته، فذهب الخادم مسرعاً وعاد بصاحب « البار » ومن ورائه بقية الخدم وهو يقول لهم بصوت عالٍ : كيف تسلمون عصا البليار لهذا الفلاح الأخرق فيخرقه ويتلفه . ثم وقف للعمدة يطالبه بثمن ما أتلف وتعويض ما عطل وقدره له بخمسة عشر جنيهاً لا يتجاوز عن درهم واحد منها . فأخرج العمدة كيسه فأحصى ما فيه عدداً فإذا هو لا يزيد عن ثلاثة عشر جنيهاً فلم يقبل منه فتوسط إليه بعض الحاضرين فقبلها متكرهاً وجلس العمدة متكدراً . ولقد كان اللعب بالأفعوان ، أقرب إلى السلامة من هذا الصولجان ، ثم استمر جالساً ينتظر انتهاء التاجر من لعبه حتى قام عنه زاعماً أنه خسر فيه ثلاثة جنيهاً ، وقعد بجانبه يُظهر التأسف والتندم فقال له العمدة دع عنك الأسف والكدر فالضائع ضائع ومصيتك على كل حال أخف وقعا من مصيتي . وبيناهما على هذه الحال إذا بالخليع قد حضر من غيبته يقول لهما هاشاً باشا وفرحاً مرحاً :

(الخليع) - أشرق أنسنا وسعدت ليلتنا وطاب وقتنا وانقضت حاجتنا ، وأسأل الله أن يطيل لنا ليلنا ويبعد عنا نهارنا فقد تم مرادنا وهلم بنا

(العمدة) - ونحن نسأل الله أن يقصر ليلنا ويُدِنِ منا نهارنا . فاقعد معنا نقصص عليك ما دهانا في غيابك

(الخليع) - بعد سماع القصة - وَيَلِي ثُمَّ وَيَلِي فَأَنَا الْمَلُومُ إِذْ تَرَكْتُكَ
فَوْقَ لَكَ مَا وَقَعَ وَلَكِنْ قَدَّرَ اللَّهُ لَكَ وَلَطَفَ بِكَ . أَمَّا مَصِيبَتِي الْآنَ
فَهِيَ أَكْثَرُ مِنْ مَصِيبَتِكَ وَأَبْلَغُ ، فَمَاذَا أَقُولُ وَمَاذَا أَفْعَلُ وَكَيْفَ أَدْفَعُ وَبِأَيِّ
عُذْرٍ أَعْتَذِرُ وَقَدْ أَخْرَجْتُ الْبَيْضَةَ مِنْ خِدْرِهَا وَالظُّيُوفَةَ مِنْ كُنَاسِهَا
وَاسْتَعَدَّ الْمَجْلِسَ لِحُضُورِنَا وَأُنْسَنَا

(التاجر) - الأَمْرُ أَيْسَرُ مِمَّا تَخْشَاهُ فَمَا يَفُوتُنَا اللَّيْلَةُ نَدْرَكَهُ غَدَا
(الخليع) - ذَاكَ شَيْءٌ لَا يُدْرِكُ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَحِينَ ، وَهَذِهِ الْمَرَّةُ
هِيَ بَيْضَةُ الْيَدِ لِيَبُذَرَ الْخِدْرُ ، وَكَيْفَ يُمْكِنُ فَضْلُ هَذَا الْمَجْلِسِ وَتَأْجِيلُهُ
وَقَدْ مَضَى قِطْعٌ مِنَ اللَّيْلِ وَتَعَذَّرَتْ سَبِيلُ الرَّجُوعِ :

كَيْفَ الرَّجُوعُ بِهَا وَحَوْلَ قِيَامِهَا

سَمُرُ الرِّمَاحِ يَمْلِكُنَ لِلْإِصْغَاءِ

نَخْلَصَانِي نَاشِدَتُكَ اللَّهُ مِمَّا وَقَعْتُ فِيهِ وَأَنْقَذَانِي مِنْ هَذَا الْبَلَاءِ الْعَظِيمِ

(التاجر) - وَمَا وَجَّهَ الْخُلُوصَ وَقَدْ عَلِمْتَ بِتَفْصِيلِ الْحَالِ

(العمدة) - تَالَلَّهِ إِنْ الْحَرَمَانَ مِنْ هَذَا الْمَجْلِسِ النَّادِرِ لِأَعْظَمِ مَصَابِيَا

مِنْ كُلِّ مَا نَابَنَا ، وَلَوْ كَانَ الْوَقْتُ نَهَارًا لَأَسْرَعْتُ إِلَى « الْبَنْكِ » فَأَخَذْتُ
مَا يَلِيزُ لَنَا مِنَ الدَّرَاهِمِ

(التاجر) - إِذَا كَانَتْ الرِّغْبَةُ انْتَهَتْ بِكَ إِلَى هَذَا الْخَدِّ فَلَا مَرَّ

يَسِيرُ وَمَعِيَ الْآنَ مَا يَكْفِي وَأَنَا أَقُومُ لَكَ مَقَامَ « الْبَنْكِ » ، فَكَمْ تَطْلُبُ ،
وَلَا أَيْ مِيعَادَ تَكْتُبُ

(الخليع) - هَكَذَا يَكُونُ الصَّدِيقُ ، فِي وَقْتِ الْعُسْرِ وَالضِّيقِ ، فَيَأْتِيكَ

اللَّهُ وَأَبْقَاكَ

(العمدة) للتاجر - أعطى عشرين جنيهاً تكون معي على سبيل
الاحتياط

(التاجر) - ولك الفضل . هاك سبعة عشر جنيهاً تبلغ العشرين
المطلوبة بالثلاثة التي خسرتها هنا أمامك . وألتبسُ منك كتابة ورقة على
سبيل التقييد

قال عيسى بن هشام — فما كان أسرع من الخليع في استحضار
الدواة والقرطاس . لإجابة هذا الالتماس . فطلب العمدة منه . ان يكتب
الصك عنه . ثم خرجوا والعمدة يجرر أذياله . ويحك قَدَّالَه^(١) . وخرجنا
خلفهم في الحال . تتبعهم متابعة الظلال

(١) القَدَّال ما بين الاذنين من مؤخر الرأس

العبرة في المطعم

قال عيسى بن هشام — ولما صرنا في الطريق أخذ الباشا يطيل من فكرته. ويقصر من مشيته. ويقول: ما هذا الذي أرى. من فساد هذا الوري. كأنَّ ناقماً تقعهم في خابية^(١). جمعتُ أخلاط الكبار. أو غامساً غمسهم في جابية^(٢). وعَتَ أمشاجَ الجرائر^(٣). أو كلماً خطَوْنَا خطورة رأينا من الغش والمكر أصنافاً وأضراباً. أو حضرنا ندوة. شهدنا من الخداع والنفاق فصولاً وأبواباً. فما أتعسَ مَنْ يعاشرهم. وما أتحسَ مَنْ يحيا فيهم. وما أشقى مَنْ يجاورهم. وما أسمعَدَ مَنْ يحافهم. واغوثاهُ من الإنسان. في هذا الزمان. فقلت له قدك^(٤) بل في كل زمان :

لَنْ تَسْتَقِيمَ أُمُورُ النَّاسِ فِي عَصْرِ
وَلَا اسْتَقَامَتْ فَذَا أَمْنَا وَذَا رُعْبَا

وَلَا يَقُومُ عَلَى حَقِّ بَنُو زَمَنِ

من عهد آدم كانوا في الهوى شُعْبَا

هكذا كان بنو آدم. تأخَّرَ عهدُهم أو تَقَادَمَ. فهم على ما هم فيه أبداً. أمس واليوم وغداً. — وما عساك تقول في ذرية الشيخ آدم وزوجهِ حواء. وقد قالت من قبل فيهم ملائكة السماء: «أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ». وما عساك تقول في قوم ترى الصغير منهم قبل

(١) الخابية الجوة الضخمة (٢) الجابية الحوض

(٣) الأمشاج الأخطا والأوساخ. والجرائر جمع جريرة وهي الاتم

(٤) قدك بمعنى كفك

الكبير . والمولى قبل الامير . يهون عليه أن يفتدى ما أسف من الدنايا
وسفل من المطالب . بمنطقة البروج ومجرة الكواكب . وما عاك
تصف خلقاً أفضل ما في أعضائه . أكبر سبب لشقاء الخلق
وشقائه :

أفضل ما في النفس يفتالها

فَنَسْتَعِيزُ اللَّهَ مِنْ جُنْدِهِ

هذه المضغة التي بفيه . ويقال إنها أفضل ما فيه . لو نسجت
مضغة على قدرها ، حُمَاتُ العقارب (١) — حماك الله — لُحْمُهَا . ولُعَابُ
الْأَفَاعَى — عافاك الله — صَنِيبُهَا . لكانت في جانب هذا اللسان أخف
ضراً . وأهونَ شراً . وما عساك تنمت نوعاً نعت الله واحداً منهم في
آية من الآيات . بتسع صفات : « حَلَّافٍ مَهِينٍ هَمَّازٍ مَشَاءٍ بَنِيمٍ مَنَاجٍ
لِلْخَيْرِ مُتَّقِدٍ أَيْمٍ عَتَلٍ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ »

فَأَفٍّ لِعَصْرِهِمْ نَهَارٍ وَجُنْدِسٍ

وَجُنْسَى رَجَالٍ مِنْهُمْ وَنَسَاءٍ

وَلَيْتَ وَلِيداً مَاتَ سَاعَةً وَضَعَهُ

وَلَمْ يَرْتَضِعْ مِنْ أُمِّهِ النَّفْسَاءِ

وما يدريك أن ما رأيته من أخلاق هذا النفر . أفضل من أخلاق
مَنْ عَلَاهُمْ مِنْ سَادَةِ الْبَشَرِ . ولعل ما أدركته من طمع الغنى ومكر
السمسار وخداع التبعية . وما تبينته من غش التاجر وغفلة العمدة واحتيال

(١) الحمة ، الابرة التي تضرب بها العقرب

الخليع . هو دون ما تكنه صدور الكبراء . وتجنه قلوبُ الأمراء . تحت حجاب التكلف والتطبع . ويسترونه عن أعين الناس بستار التمويه والتصنع . وكلما اعتلى الإنسان درجةً في المقام . وخطأً فيها خطوة الى الأمام . تنفع لها بقناع وتلثم بلثام . فتجد حقائق الخلائق مرموسةً تحت صفائح الدَّهَاء . مضروحةً بين جنادل الرياء . بل ربما كان أخلام أخلاقاً حساناً . أبلغهم في التظاهر بها زوراً وبهتاناً . كان لى صاحب تراه من لسانه عَضَنْفَرًا رِثَالًا ^(١) . يحمي عريناً ويحرس أشبالاً . تنقيه القياصرة . وتُخْشَاهُ الأكَاسِرَةُ . فإذا كشفت عن قلبه . وحسرت عن لبّه . وجدته شاةً تمطف على سَخْلِهَا ^(٢) . وظئراً نخنو على طفلها ^(٣) . وأعرف آخر قد ضجّت أحرف الفضيلة من ذكرها بقلبه . ولو كها في فمه . وهو مع ذلك يَحْمِشُ وجهه ويديمي جفونه . إن سمع أن مُخْتَلِسًا اختلس دانتاً دونه . وفيهم من يَمْلِكُ من وجهه التغير بالانفعالات المتناقضة . والتلون بالالوان المتعارضة . فتكون دموعه طوع لإرادته . وابتساماته عند حاجته . قال حكيمٌ لاَ خَرُّ مَا أَكْثَرَ مَا تَحْوَلُ رُقْعَةُ الشَّطْرَنْجِ وَتَتَقَلَّبُ . قال له تَقَلَّبُ وَجْهِهِ الْإِنْسَانُ أَعْجَبُ وَأَغْرَبُ . وقد تبقى الأخلاقُ الذميمة . والصفاتُ اللثيمة . مطويةً عن النظر . محجوبةً عن البصر . حتى يُتاح لها كاشفٌ من الحواث فينزِع عنها القِدَامَ ^(٤) . ويحسر اللثام . فيظهر الطبع السقيم . ويبدو الخلقُ الذميم . ومن عوامل التبيين والبيان . في

(١) العَضَنْفَرُ والرِثَالُ ، من أسماء الأسد (٢) السخل ، جمع سَخْنَةٍ ولد الشاة

(٣) الظئر ، المرضعة (٤) القدام ، غطاء الإبريق

أخلاق الانسان . الغضبُ والجبنُ . أو السكر والحزن . ونحن الآن في
ساحة السكر فهلّم بنا . نلحق بأصحابنا . فأدر كنههم وهم وقوف يتشاورون .
وسمعناهم وهم يتحاورون :

(العمدة) — دعوني من هذا كله فقد صاحت عصفيرُ بطنى ولم
يدخل جوفى اليوم شيء من الطعام سوى لقمة الصباح التى أكلتها
مستعجلاً ، فهياً بنا الى « السكة الجديدة » نعطف على « العطفى » فان
طعامه دسم وسمنة زبدة ولحمه سمين

(التاجر) — ما هذا « العطفى » الذى تذكره وأين أنت من كباب
« الحانى » وحمام « لوكه » أو طواجن « الفار » وأرز « المعجمى »
(الخليع) — ما هذا الخلط ونحن فى وسط الازبكية بين « التيو بار »
و « سان جئس بار » و « اسبلند بار » وفيها ما تشتهى الأنفس وتلذ
الآعين وناهيك بهذه الاماكن ونظافتها وحسن خدمتها وعلو قدر
الواردين عليها

(العمدة) — دعنا من هذه الاماكن فان طعامها لا يسمن ولا يبنى
من جوع خصوصاً وأنا على هذا الخلو من بطنى
(الخليع) — وأنا لا يمكننى على كل حال ان أترك هذه الاماكن
وأذهب معكم الى الحوانيت التى تُشير ان بها وأخشى أن يرانى بها
أحد ممن يعرفنى فأصفر فى عينه

(التاجر) — إذا كان الأمر كذلك فأنا على رأيك

(الخليع) للعمدة — لا مناص لك حينئذٍ فضعيفان يغلبان قوياً
فادخل بنا « النيو بار »

قال عيسى بن هشام — فدخلوا ودخلنا معهم وجلسوا وجلسنا على
مقربة منهم ، وما خلع الخليع طربوشه حتى نزع العمدة عمامته ، وما
ضرب الخليع يده على المائدة حتى صفق العمدة يديه . فحضر الخادم
ومعه قاعة الألوان فتناولها العمدة ونظر فيها — نظر المريض الى وجوه
العواد — ثم ناولها للخليع ليقرأها فأخذها وتأمل فيها وشرع يسرد
الألوان حتى انتهى منها ، والعمدة لاه عنه والتاجر منصت إليه

(الخليع) للعمدة — ماذا تحب وتختار

(العمدة) — أختار المرق ومن بعده لحم القرن أو « الكبما »

(التاجر) — وأنا أطلب كباباً وقرعاً وأرزاً

(الخليع) — وأنا أختار « فاتحة الطعام » أولاً ، ثم خلاصة اللحم
بالبيض وأرزاً بفاكهة البحر ودجاجة بعش الغراب وسمناً بالكماة
وهليوناً بالزبدة

(العمدة) — ما هذه الأسماء الغريبة

(الخليع) — هي أطعمة خفيفة لا تقوى معدتي على هضم غيرها

(التاجر) — « كل ما يعجبك والبس ما يعجب الناس »

قال عيسى بن هشام — فيذهب الخادم ويحيى للخليع بفاتحة الطعام من
زيتون وبغل وسمك مليح وزبدة . فيتأمل العمدة فيها ثم يميل على قطعة

الزبدة فيبتلعها وهو يقول: أزبدةٌ وسماك . فيطلب الخليع سواها، ثم يأتي الخادم بصحن المرق للعمدة ، فيجده قد أكل ما كان وضعه أمامه من الخبز وعطفَ على خبز الخليع يأكل منه ، فيأتيه الخادم بنصيب آخر فيتناوله العمدة ويفثه في صحن المرق حتى يمتلئ، ويفيض على المائدة . ثم إنه انحنى فألقى عليه وصفق يطلب صحناً آخر وخبزاً آخر ، وهو يميل في هذه الأثناء على طعام الخليع فيأخذ قطعة من الدجاجة ويضعها أمامه ويحاول قطعها بالشوكة والسكين فتفت منه إلى الأرض فيقوم فيلتقطها ويأكلها باليد ، ثم يأخذ جزءاً من عيش الغراب فيقضم منه فلا يألوه فيمجه ثم يرده إلى صحن الخليع ثانية ويقول : ما هذه القشور التي يطبخونها هنا وهي عندنا شائعة على الجسور تفحص عنها الخنازير في الأرض بأرجلها فتستخرجها ولا تأكلها فتبقى ملقاة على ظهر الطريق لا يمسها إنسان ولا حيوان . ثم يأتي الخادم بالمرق فيطلب منه خبزاً آخر فلا يكفي لامتلاء الصحن، فيعاود الطلب فيملّ الخادم ويقول له : انما أنت هنا ياسيدي في مطعم لا في مخبز

(الخليع) للخادم — ما هذا الكلام البارد يا « جورج » أليس لكل شيء ثمن هنا ، ونحن نأكل بدراهمنا ما نشتهي ونطلب ما نريد

(الخادم) للخليع — لا مؤاخذه فان كلامي لبس موجه اليك

(الخليع) — إن لم يكن الكلام لي فهو لصاحبي ، وصاحبي هذا

أعزُّ عليّ من نفسي

(العمدة) - دَعَتْ يَأْتِ لَنَا بِخَبْزٍ وَلَوْ بِالثَمَنِ وَلَا تَشْغَلْ نَفْسَكَ بِمَا يَقُولُ
مَعَ أَنَّهُ يَقَالُ أَنَّ هَذِهِ الْمَطَاعِمُ الْعَالِيَةُ تَبْذُلُ الْخَبْزَ لِلْأَكْلَانِ مَجَانًا

(التاجر) للخادم - أُعْطِيَ أَيْضًا لَوْ نَا مِنْ الْخَضِرِ

(العمدة) للخليع - قُلْ لِلْخَادِمِ يَحْضُرُ لِي مَعَ لَحْمِ الْفَرْنِ خُفْلٌ بِصَلٍ

(الخليع) - كُلْ شَيْءٍ يَجُوزُ إِلَّا أَكَلِ الْبَصَلِ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ

(العمدة) - لَا مَوَازِيحَ فَإِنَّ النَّفْسَ الْمَلْعُونَةَ ذَهَبَتْ إِلَيْهِ مِنْ غَيْرِ تَرَوِ

(التاجر) للخادم - لَأَتَى لِي بِشَيْءٍ مِنَ الْحَلْوَى أَوْ الْفَاكِهَةِ

(العمدة) - إِذَا كَانَ فِي الْفَاكِهَةِ بَرْتَقَالٌ أَوْ بَلَحٌ فَأَعْطِنِي مِنْهُ

(الخليع) - وَلَا تَنْسَ يَا «جُورْج» أَنَّ يَكُونُ فِي نَصِيبِي مِنَ الْفَاكِهَةِ

«مَاجُجُو» وَ«قَطْشَةُ خَضِرَا» وَ«مُوز» وَ«أَنَانِاس»

(العمدة) للخليع مِمَّا زَحَا - وَمَنْ قَالَ إِنَّكَ لَسْتَ مِنَ النَّاسِ

(الخليع) للخادم - هَاتِ زُجَاجَةً نَبِيذَ أُخْرَى بِغُبَارِهَا

قَالَ عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ - وَلَمَّا حَضَرَ الْخَادِمُ بِالْفَاكِهَةِ وَانْصَرَفَ أَسْرَعَ

العمدة بِيَدِهِ إِلَيْهَا فَاتَّقَى مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَيْنِ وَدَسَّهَا فِي جَيْبِهِ وَهُوَ يَقُولُ

هَذِهِ تَنْفَعُنَا لِلتَّنْقِيلِ بِهَا عَلَى الشَّرَابِ فِيمَا بَعْدَ . ثُمَّ حَضَرَ الْخَادِمُ بِأَيَّةٍ مِنَ

الْبَلُورِ الْمَلُونِ فِيهَا مَاءٌ وَقُشْرُ لَيْمُونٍ فَوَضَعَ أَمَامَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ إِنَاءً ، فَهَمُّ

العمدة بِشَرَبِ إِنَائِهِ فِي الْحَالِ ، فَبَادَرَهُ الْخَلِيعُ وَنَزَعَهُ بِيَدِهِ عَنْ فَمِهِ

(العمدة) - لِمَاذَا تَمْنَعُنِي عَنْ شَرَبِ هَذَا «الْخَشَافِ» وَقَدْ أُنْعَشْتُ

مِنْهُ رَاحِمَةً الزَّهْرَ

(الخليع) - هذا ياسيدى ماء لنسل أطراف الأصابع بعد الأكل

(التاجر) - من عاش رأى ١١

(العمدة) للخادم - الحساب يا «خو ابا»

(التاجر) - القهوة

(الخليع) - الخِلَال مع كأس من «الكو نياك» بجانب القهوة ،
ويأتى الخادم بجميع هذا فيتناول العمدة ريش الخلال فيتخلل بريشة ثم
يعيدها الى مكانها ويأخذ أخرى فينكش بها أذنه ثم يمسح ما علق بها
في غطاء المائدة ، ثم يلتفت الى الخليع ويطلب منه أن يقرأ قائمة الحساب
ويخبره بكميته

(الخليع) - أربعون فرنكاً

(العمدة) - اقرأ جيداً فان هذا غلط فالحش

(الخليع) - قد قرأت وحسبت وأعرف أنهم لا يغالطون هنا

(العمدة) - ما هذا النهب والسلب وما هذا الإسراف والتبذير
لو كنا ذهبنا الى مكان من الأماكن التى عدّناها قبل دخولنا هنا لكننا
ملأنا البطون وتمتعا بالطعام الكثير مع الثمن القليل . ولو كنا توجهنا
الى المحل الذى أبيت فيه لكنا وجدنا من الأكل ما يكفيننا بغير ثمن
لأن فى غرفتي برمة أرزٍ بحمام مما أحضرته معى من البلد . ولا شك فى
أن الخادم يريد أن يستغلنا فزاد فى الحساب ما أراد ، وأنا رجل لا أقبل
الغفلة على نفسى ولا أدفع هذا الحساب . وسأكشف لكما هذا النفس

بكل طريقة فانه يهون على أن أبدد عشرة جنيهات في الهباء ولا يهون
على أن أدفع قرشاً واحداً بطريق الغش والاختلاس
ثم لانه رفع كأس النبيذ وهو في حدته فصك به قدحاً آخر ممتلئاً
لاستدعاء الخادم، فانقلب الكأس وأهرق النبيذ على غطاء المائدة، فحضر
الخادم فمزّ عليه ما رأى

(الخادم) - ما هذه الليلة السوداء

(العمدة) - هذا ما أقوله أنا أيضاً ، فقل لي ما هذا الغلط في
الحساب وهل تريدون ان لا يدخل محاسبكم بعد اليوم أحد
(الخليع) - هل في الحساب غلط يا « جورج »

(الخادم) - وأى غلط يكون في الحساب بعد الذى حصل ، وهذا
هو بيان الثمن أمام كل صنف

(العمدة) - أى حساب وأى بيان ! ولكنك أنت الكاتب له

(الخادم) - نعم أنا الكاتب له ولكنك أنت الآكل له

(العمدة) - وهل أكلنا أربعين صنفاً حتى ندفع أربعين فرنكاً

(الخادم) للخليع - أرجوك أن تقنعه

(العمدة) - وهل أنا جاهل حتى يقنعنى

(الخليع) وهو قائم - حاشا لله ياسيدى

(التاجر) للخليع - الى أين

(الخليع) - أراهم وضعوا فى لوح التلغرافات السياسية تلغرافاً جديداً

أريد أن أقرأه

(الخادم) للعمدة - أعطنى الحساب ولا تعطلى عن الشغل

(العمدة) - هاك عشرين فرنكاً لا أدفع سواها

(الخادم) - ليس هنا محل المساومة فى ثمن الطعام بعد أكله

(التاجر) - زدهُ فرنكين

(الخادم) - لقد كان الاولى بكم ان تأكلوا فى غير هذا المكان ما

دتم بهذه الصفة

(التاجر) - لا تغلط يا «خوaja» فان حضرته يأكل فى مثل

هذا المكان وفى أعظم منه ولكنه يجب الأمانة ويكره الاستغفال

(الخادم) - وهل أنا خائن . وأنا صاحب شرف مثلك ومثل

أعظم منك

(التاجر) للعمدة - حقيقة إنه لقليلُ الحياء

(العمدة) - وحياتك لا أخاف منه ولا يأخذ منى غير هذا المبلغ

(صاحب المحل) - وقد حضر مع الخليع - ماذا جرى

(العمدة) - خادمك يسرقنا ويشتمنا

(صاحب المحل) - هذا كلام لا يقال عن محلنا

(التاجر) - وذاك كلام لا يقال لنا

(صاحب المحل) للخليع - عهدى بك لاتصاحب الا الكبراء

والظرفاء فما هذا الشيخ الذى جئتنا به هذه الليلة وقد شاهدتهُ من مكافى

يفعل أفاعيل انتقدها جميع الحاضرين . فانه كان يبلغ الزبدة ، ويطوى

الخبز ، ويمد يدهُ الى صحن سواه ، ويميد اليه فضلة ما يأكله ، ويتناول

قطعة الدجاجة من الأرض فيلتهما ، ويلوث المائدة بالمرق والنبيد ،
ويمسح يده في الغطاء ، ويكسر الكأس ، ويختلس الفاكهة فيضعها
في جيبه ، ويهيم بشرب ماء الغسل ، وينكش أذنه بريشة الخلال . ولم
يكتف بهذا كله حتى أخذ يغازل السيدات ويغامزن فقمن مستقبحات
مستنكرات . وقام كثير من المترددين على المحل اشتمازاً من هذه
الأفاعيل . ولا أشك في أنه إذا حضر عندنا شيخ آخر مثل هذا أن يتعمد
الناس ويتعطل المحل

(الخليع) - لا تُلَقَّبُهُ بلقب شيخ فإن سعادته من الخائزين للرتبة
الثانية ، وله سمي في رتبة التمايز ، ولا تستصغر قدره فهو من كبار الأغنياء
في الأرياف

(صاحب المحل) للعمدة - لا تؤاخذ الخادم بإسعاد البك فهو على
كل حال خادمك والمحل محلك

(العمدة) للخادم - يجب عليك أن تعرف الناس وتتعلم حسن
المعاملة من حضرة الخواجا صاحب المحل . والله لولا حسن ذوقه ولطفه
لما زدت عن العشرين فرنكاً ولكني أعطى الآن ما تطلبه مراعاة لحاظه
عن طيب خاطر وحسن رضاء

(صاحب المحل) للخادم - أسأل حضراتهم ماذا يشربون على
حساب المحل لتأكيد المعرفة والمساحة فيما حصل

قال عيسى بن هشام - ثم مال الخليع على العمدة يشير عليه بأن

يطلب دَورين من الشرب لإكرام صاحب المحل في مقابلة أكرامه لهم .
فطلب العمدة ثم طلب . وشرب ثم شرب . وقام بعد الدفع يتمايل
ويتثنى . ويتشاءب ويتمطى . ويشكو للخليع فِعْلَ الكاس . وهجوم
النعاس . فيقول له هذه عادة تكون عند الامتلاء . ولا يصرفها الا
كوؤس الصهباء . فهما بنا الآن . نذهب الى الحان . نخرجوا وخرجنا
من ورائهم . نستقضى بقية أنبائهم

العمدة في الحاشية

قال عيسى بن هشام — وأخذوا طريقهم الى الحان المقصود .
والخوض المورد . وفيما نحن نسير . بين تقدير وتفكير . اذ التفت الباشا
الى ذلك الفندق الكبير . بل الخورنق والسدير ^(١) . فرأى فيه شمس
الكهرباء مشرقة . ونباع الضياء متدفقة . يلوح فيها زنجى الليل بقميص
أبيض . ويبدو فيها أديمه كالآبنوس المفصص . وعمد المصابيح كأنها
أغصان الأشجار . أزهرت بالأنوار . مكان الأنوار . فصار كل عمود
منها عمود فجر . يفجر نغمة الدجّة أى فجر . وكأن منشور الشموع في
ظلمة الحلك . منشور النجوم في قبة الفلك . ورأى تحتها صفوفاً من الرجال .
بين صفوف من ذوات المجال . على سرر متقابلين . وأرائك متكئين .
يسعدهم الجد المقيم . ويرفرف عليهم الرّفة والنعيم . فطلق يسألى : أترأه
مخفلاً ليوم أنس . أم زفافاً في بيت عرس . أم تراها ليلة مهرجان . لقبيل
من الجان . نسوا تفاوت الجنس . فأنسوا الى الإنس . وهجروا جوف
الأرض لظهرها . ودرجوا من بطنها الى حجرها . — فقلت له نعم
هؤلاء شياطين الإنس يطوون البر والبحر . ويقطعون الحزن والوعر .
ويطرون في السماء . ويمشون على الماء . ويخرقون الجبال . وينسفون
القلال . ويقلبون الآكام وهادا . ويبسطون الرّبي مهادا . ويجمعون
القفار بحارا . ويحيلون البحار بخارا . ويسمعون من المشرقين . أصوات

(١) الخورنق والسدير ، تمران معروفان

مَنْ بِالْمَغْرِبِينَ . وَيَسْتَنْزِلُونَ لِبَصْرِكَ أَنْأَى الْكُؤَاكِبِ . وَيَمْظُمُونَ فِي عَيْنِكَ أَوْهَى الْعَنَاكِبِ . وَيَجْمَدُونَ الْهَوَاءَ . وَيَذِيبُونَ الْحَصَاءَ . وَيَسْتَحْدِثُونَ الْأَنْوَاءَ . وَيَزْرِنُونَ الضِّيَاءَ . وَيَسْتَشْفُونَ خَبَايَا الْأَحْشَاءَ . وَيَكْشِفُونَ خَفَايَا الْأَعْضَاءَ . — فَقَالَ لِي أَتُنْكَ لَتُحْدِثَ عَنْ جَن سَلِيمَانَ . فِي هَذَا الزَّمَانِ . — قُلْتُ لَهُ هَؤُلَاءِ سُبَّاحُ الْغُرَبِيِّينَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ وَالْحَضَارَةِ . النَّازِلُونَ إِلَى الشَّرْقِيِّينَ بِعَيْنِ الْمَهَانَةِ وَالْحَقَارَةِ . فَإِنْ نَظَرُوا إِلَيْهِمْ مِنْ جِهَةِ الْعِزَّةِ فَنَظَرَةُ الْعُقَابِ مِنْ شِمَارِيخِ رَضْوَى وَثِيرٍ ^(١) . إِلَى جَنَادِبِ الرَّمْلِ وَضَفَادِعِ الْغَدِيرِ ^(٢) . وَإِنْ نَظَرُوا إِلَيْهِمْ مِنْ طَرِيقِ الْعِلْمِ . فَنَظَرَةُ مَعْلَمِ الْإِسْكَانْدَرِ حَالِمِ الْعُلَمَاءِ . إِلَى صَبِيٍّ يَتَهَجَّى فِي الْعَيْنِ وَالْيَاءِ : — وَإِنْ نَظَرُوا إِلَيْهِمْ مِنْ بَابِ الصَّنَاعَةِ : فَنَظَرَةُ « فَيْدِيَّاس » صَانِعِ التَّمَاثِيلِ وَالذُّمَى ^(٣) . إِلَى بَنَاءٍ يَقِيمُ أَكْوَاحَ الْقُرَى . — وَإِنْ نَظَرُوا إِلَيْهِمْ مِنْ جِهَةِ الْغِنَى : فَنَظَرَةُ صَاحِبِ الْمَفَاتِيحِ الَّتِي تَنْمُو بِالْمُضْبَةِ . إِلَى أَجِيرٍ يَنْضَحُ عَرَقًا تَحْتَ الْقَرْبَةِ . — وَإِنْ نَظَرُوا إِلَيْهِمْ مِنْ جِهَةِ الْفَضَائِلِ الْفَسَادِيَةِ : فَنَظَرَةُ الْحَكِيمِ « سَقْرَاط » . شَارِبِ السَّمِّ غَرَامًا بِالْفَضِيلَةِ . إِلَى الشَّرِيرِ « أَرْسَطَرَّاط » . حَارِقِ الْمَعْبَدِ وَلَمًّا بِالرَّذِيلَةِ : تِلْكَ دَعَوَاهُمْ فِي تَقْوَسِهِمْ . وَقَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ

وَهُمْ فِي رَحْلَتِهِمْ إِلَى الشَّرْقِ عَلَى ضَرَبَيْنِ أَهْلُ الْفَرَاغِ وَالْجِدَّةِ الَّذِينَ أَبْطَرَمَ الْغِنَى وَالْهَامَ الْاسْتِمْتَاعَ بَدَعَ الْمَدِينَةِ وَلَمْ يَبْقَ فِي أَعْيُنِهِمْ جَدِيدٌ ،

(١) الشماريخ ، جمع شراخ وهو رأس الجبل ، ورضوى وثير ، جبلان معروفان

(٢) الجنادب ، جمع جندب وهو الصنبر من الجراد (٣) الذى ، جمع دمية وهى الصورة

المنقشة من الرخام أو العاج

فانتقمت منهم الطبيعة في خروجهم عن سننّها فسلّطت عليهم داء الملل
والسأم فأصبحوا هائمين على وجوههم في الأقطار والبلدان وحطّتهم القدرة
الى الاستشفاء من ذلك الداء بالتنقل في البلاد المنحطة عنهم في درجات
المدينة والاقامة في الاقطار الباقية دونهم على الفطرة الغريزية . والضرب
الثاني منهم : أرباب العلم والسياسة وأهل الاستعمار والاستنفاض^(١)
يستعملون علومهم ويعملون أفكارهم في احتلال البلدان وامتلاك
البقاع ومنازعة الناس في موارد أرزاقهم، ومزاحمة الخلق في أرضهم وديارهم .
فهم طلائع الخراب أدّهى على الناس في السلم من طلائع الجيوش في الحرب
قال عيسى بن هشام - وانقطع الحديث بدخول أصحابنا في الحان .
واصطفاهم حول الدنان . فأخذنا مجلسنا بقرهم . ننظر ما يُصنع بهم .
واذا الخليع يتلفت عن اليمين والشمال . ويبادر الخادم بالسؤال :

(الخليع) للخادم — ألم يشرف دولة « البرنس » هنا في هذه الليلة

(الخادم) — هو في داخل المكان وسيعود الى مجلسه في الحال

(العمدة) مدهوشا — هل يجيء هنا البرنسات ، وهل يليق بنا

أن نجلس للشرب في مكان يحضروننا فيه . فلم اخترت هذا المحل ولم
لا نذهب الى محل سواه

(الخليع) — لا بأس علينا هنا وسترى كيف أفعل حتى لا تخرج

من هنا الا والبرنس مصافحك ومُجالسك

(١) استنفض المكان ، نظر جميع ما فيه حتى يعرفه وأهل الاستفاض الذين يبعثون في الارض

(العمدة) - لا تهزأ بى ولا تمزح فأين نحن من البرنسات
(التاجر) للعمدة - لا تستبعد ذلك ، فإن لبعض البرنسات أخلاقاً
واسعة ونفوساً ثرائيةً ، ومن رأيتهم الاختلاط بالناس والتساوى بهم في
مجتمعاتهم ومعاملاتهم

(العمدة) للخليع - وهل لك معرفة سابقة به
(الخليع) - كيف لا أعرفه ولى معه جلسة في كل ليلة وكثيراً
ما أوصلته آخر الليل الى قصره
(العمدة) - انك لتبالغ
(الخليع) - لا مبالغة ودونك البرهان

قال عيسى بن هشام - ويقوم الخليع واقفاً عند عودة البرنس الى
مجلسه فيومئذ البرنس اليه بالسلام فيتبعه الى مائدة عليها صنوف وألوان
من الخمر والنقل فيجلس بجانبه مع الجالسين حوله ويخاطبه بصوت يسمعه
العمدة من مكانه :

(الخليع) - لا زال أفندينا في أسعد حال وأنعم بال
(البرنس) - وأين أنت فقد سألت عنك مراراً
(الخليع) - أنا في الخدمة تحت أمر أفندينا وعند طلبه ، وما
منعنى عن المبادرة الى مجلسكم العالى الا اصطحابى بصاحيين أحدهما من
عمد الأرياف ، والآخر من تجار الشغور ، لصيقائى للبقاء معهما وألحاً على
أن أصحبهما

(أحد الجلساء) مماًزحاً — لا بل تسحبهما

(البرنس) منكثاً — وهل هنا «زريبة» يابك

(جميع الجلساء) ضاحكين — لله درّ أفندينا في هذه النكتة فما
الطفها وأرقها

(البرنس) — أنا لم أتعلم التنكيت ولكن يصادفني منه بعض
كلمات في بعض الأوقات

(أحد الجلساء) لآخر — انظر بالله يا أخى حدة البرنس في لطافته ،
وشدته في رفته ، وقوة إدماجه ، في ألفاظه

(الجليس) — وأنت ما شاء الله ما أفصحك الليلة في تعبيرك وما
أبلغك في كلامك ، أنت تأخذ هذه الجمل عن الجرائد
(البرنس) للخليع — ماذا تشرب

(الخليع) — العفو يا مولاي فلا بد من الرجوع الى صاحبي أولاً
حتى أخلص منهما

(البرنس) — وهل هما من الأغنياء الاعتبارين

(الخليع) — أما العمدة فانه يمتلك ألف فدان ، وللتاجر في بلده
أعظم خان ، وللعمة عشرة وابورات لارى ، وعنده الرتبة الثانية ، وللتاجر
وابور للخليع وعنده وعدٌ بالثالثة

(البرنس) — لا تحر منا من وجودك ولا بأس من استدعائهما
للجلوس معنا

(أحد الجلساء) لآخر - قم بنا نُفَسِّحْ لهما
(الجليس) - انتظر قليلاً حتى يأتى «الدَّور» المطلوب مع صحن
بلح البحر الذى أوصى عليه البرنس آنفاً

قال عيسى بن هشام - وينصرف الخليع الى صاحبيه لإحضارهما
فينهض له العمدة واقفاً لتبجيله وتمظيمه فيسقط من يده «فم السجارة»
على الرخام فينكسر فينحني إلى الأرض يجمع شظاياها، ويظهر عليه من
الأسف والكدر ما لا يقدَّر، فيجرُّهُ الخليع اليه ويقول له :

(الخليع) - لا يليق بنا أن نكون على هذه الحال من الأسف
لاجل هذا «الفم» فان البرنس ينظر إلينا وقد جئنا لك بدعوة منه
للجلوس معه

(العمدة) - ليس أسفى على «الفم» فى ذاته بل لأنه تذكر عندى
من حضرة مأمور المركز كنت أهديتهُ فرساً فأهدانى إياه فهو ثمين
عندي من هذه الجهة . ولكن قل لى كيف يدعونى دولة البرنس اليه
وكيف ذكرتنى له

(التاجر) - أى نعم قل لنا كيف كان ذلك وهل جرى لى ذكر
عنده أيضاً

(الخليع) - قد قلت ما قلت وذكرت ما ذكرت ، ويقال فى المثل
أرسل حكيماً ولا تُوصِه

(العمدة) - أحب أن أسمع تفصيل ما دار من الكلام بشأنى فانى
رأيتُه يضحك كثيراً وأنت تكلمه

(الخليع) — أخبرته بقصتك مع سمسار القطن ولطف حيلتك معه حتى حرمته أجره

(التاجر) — وعلى ذكر السمسار هل تعلم أن دولة البرنس باع قطنه في هذا العام

قال عيسى بن هشام — فكان جواب الخليع أن أخذ بيد العمدة وتبعهما التاجر حتى صاروا أمام مائدة البرنس ، فطأطأ العمدة الى ركبة دولته فدفعه يده فاستلمها العمدة وقبلها مراراً بطناً وظهراً ، فتبسّم له البرنس وأشار اليه بالجلوس فامتنع واستمر واقفاً ويدها الى صدره حتى أقعده الخليع مع التاجر بجانبه بعد شدة الإلحاح

(البرنس) لأحد جلسائه — لائنس أن تذكرني غداً بتصوير الفرس « سيرين » فإن « الدولك أف بروك » أرسل الى صاحبنا المستشار يطلب منى صورتها ليعرضها في معرض السباق بلوندره

(الجليس) — الأوفق أن يكون ذلك بحضور المستشار في اليوم الذي عيّنه أفندينا له للغداء مع مفتش الرى

(البرنس) للعمدة — ماذا تشرب يا حضرة الشيخ . . . ياباك

(العمدة) واقفاً على قدم التاجر — ألتمس السماح يا مولاي فاني لا أشرب شيئاً

(التاجر) متمللاً من الألم — العفو يا أفندينا أستغفر الله فان ذلك لا يليق في حضوركم

(البرنس) - لماذا جئتما هنا إن لم تشربا

(الخليع) - يشربان حسب أمر دولتكم فالامثال فوق الأدب

قال عيسى بن هشام - ويتناول الخليع «علبة السجارات» من أمام البرنس فيعطى للعمدة واحدة وللتاجر واحدة فينحاشى العمدة إشعالها في حضرة البرنس ظاهراً - وربما كان غرضه الباطن إبقاءها لديه أثراً من البرنس يفتخر به عند أقرانه - ثم يأتى أحد باعة الزهور فيمس في أذن البرنس بكلام يقهقه له ويأمر الخادم أن يعطيه كأساً فيشربه وينصرف. ثم يلتمس الخليع من البرنس أن يسمح للعمدة بطلب زجاجة من «الشمبانيا» فيسمح له وياتفت الى العمدة يخاطبه بقوله :

(البرنس) للعمدة - كيف حال المحصول عندهم ، وكم رمى الفدان

من القطن

(العمدة) - رمى الفدان عندى سبعة بألف قاس دولتكم

(التاجر) - المحصول جيد ولكن الأمان في هبوط . وهل باع دولة

أفندينا أقطانه أم هى باقية

(البرنس) لأحد جلسائه - أنا لا أدفع فى ثمن الخنجر الذى رأيناه

اليوم أكثر من عشرين جنيهاً . ولو كان عليه تاريخ صنعهِ لدفعتُ ما يطلبهُ صاحبك فيه

(الجليس) - لا بأس به الى الثلاثين

(البرنس) - ما الذى تراه فى مسابقة الخليل غداً

(الجليس) - أرى فرس البرنس سابقاً بغير شك

قال عيسى بن هشام - ولما جاءت الزجاجة المطلوبة بادر العمدة الى جيبه فأخرج منه ذلك الموز فمسح واحدة منه وقدمها الى البرنس ووزع البقية على الحاضرين فيجد أحدهم صوفاً متلبداً في الموز فيعافه ويتركه على المائدة

(أحد الجلساء) للعمدة - هل هذا الموز من زراعتكم وهل تنضجونه في الصوف عندكم

(العمدة) - كلاً يا سيدى بل هو موز «النيوبار» ولم يمكث في جيبى غير مسافة الطريق ، ومعى أيضاً برتقال أحمر وبلح أصفر وقشطة خضرا

(أحد الجلساء) - أظن ان لكم شركة مع حسن بك عيد في تجارة الفاكهة

(التاجر) - حضرته لا يشتغل بالتجارة ، وليس كل الناس من يقدم عليها فهي ربح محفوف بالخطر

(العمدة) للخادم - أحضر لنا أيضاً زجاجة شمبانيا انكليزى

(أحد الجلساء) لآخر - يظهر أن الفدان رمى بعشرة

(الجليس) - فى البنك العقارى

(البرنس) - وما معنى انكليزى

(الجليس) - يعنى أنها من جنس الجنيه

قال عيسى بن هشام - وفي هذه الأثناء يعود بائع الزهور فيلقى في
أذن البرنس كلاماً فيقوم البرنس في الحال ويخرج والبائع في أثره ثم
يتسلل الجلوساء من بعده واحداً واحداً فلا يبق منهم أحد . وتخلو المائدة
للعمة فيشرب سؤر الكأس التي تركها البرنس ويميل على ما بقي في آنية
النقل فيأتي عليه أكلًا

(التاجر) للعمدة - ينبغي أن تطلب من الخادم غيرها قبل
حضور دولة البرنس

(العمدة) - أنا لا أطلب شيئاً الا في حضور دولته

(الخليع) - أظن أن دولته لا يعود في هذه الليلة . وهذه عادته اذا
هو قام مع أحد الباعة عند تمام نشوته

(العمدة) - ولكنني لم أره دفع شيئاً من الحساب

(التاجر) - لعل له هنا حساباً جارياً

(الخليع) - نسأل الخادم

(العمدة) للخادم - ألم يدفع دولة البرنس شيئاً

(الخادم) - لم يدفع شيئاً قبل خروجه

(الخليع) - وكم الحساب

(الخادم) - مائة وواحد وعشرون فرنكاً

(العمدة) - أنا لا أصدق ان أفديننا يخرج من غير أن يدفع ما عليه

من الحساب . ومع ذلك فلنتنظر عودته

(الخادم) - اذا قام البرنس على هذه الصورة فانه لا يعود وإن أردت
أن لا تدفع ثمن ماشربه البرنس فانا أقيده في حسابه
(العمدة) - وأنا إذا كنت أدفع شيئاً فلا أدفع الا ثمن ماشربه
دولة البرنس وحده

وفيما هم على هذا النزاع إذ دخل أحد وكلاء المديريات فينهض العمدة
لمقابلته ويلجأ عليه في الجلوس معه ، ثم يلتفت إلى الخادم بصوت عال :
(العمدة) - على بتفصيل الحساب ويُنْزِلُ في فيه ماشربه دولة البرنس ،
وما أكله دولة البرنس ، وبكم شرب أصحاب البرنس ، وكم شربنا مع
البرنس . وكم شرب قبلنا البرنس . واسأل سعادة البك الوكيل ماذا يشرب
وعُدْ لا دفع لك كل الثمن المطلوب
(الوكيل) - أنا لا أشرب شيئاً

(العمدة) - كيف لا تفضل علينا بالشرب معنا كما تفضل دولة
البرنس إرضاءً لخاطرنا

(الوكيل) - لا بأس أن أشرب كما سأ واحدًا من « الكنيالك »
(العمدة) - لا والله لا تشرب الا « شمبانيا » كما شرب معنا
دولة البرنس

(الخليفة) للعمدة - لماذا لم تقدمنا للتعارف بسعادة البك
(العمدة) - سعادته وكيل مديريتنا ، وحضرته (مشيراً الى
التاجر) من أكابر التجار ، وحضرته (مشيراً الى الخليفة) من ظرفاء مصر

(الخليفة) للوكيل - تشرّفنا بهذه المعرفة ، وكيف حال سعادة المدير فهو من أعز أصحابي وطالما قضينا معه أوقات أنس وسرور (العمدة) للوكيل - أظن أن سعادتكم حضرتتم الى مصر في عقب كشف الرتب المقدم الى الداخلية (الوكيل) - نعم كنت اليوم في الداخلية وسينتهى الأمر إن شاء الله على ما نحب

(العمدة) للخادم - زجاجة شمبانيا أخرى (الوكيل) - يكفى فاني أريد أن أنتقل الى داخل المكان في مجلس اخواننا القضاة ووكلاء النيابة (الخليفة) - لا لزوم لانتقال سعادتكم فأنا أدعوم للجلوس معنا وفيهم فلان وفلان من أعز أصدقائي (الوكيل) - لا تكلف خاطرك بذلك فان الأليق أن أذهب للجلوس معهم

(العمدة) للوكيل - اذا كان الأمر كذلك فكلنا نقوم مع سعادتكم ويأتينا الخادم بزجاجة الشمبانيا هناك (الوكيل) - ان أردت ذلك فلا بأس

قال عيسى بن هشام - فيقومون فيجلسون مع أهل ذلك المجلس ويحضر الخادم بزجاجة الشمبانيا فيرجوهم العمدة الشرب منها فيمتنعون فيشدّد فيمتنعون فيقسم عليهم بالطلاق وهو يتلعم سكرًا إلا شربوا معه

ثم يتناول الكأس ويقوم متسانداً على الخليع ليشرب معهم فما يكاد يضع
الكأس في فيه حتى تأخذه غصةٌ فلا يملك نفسه عن رد الفعل فتسلو
ثيابه ويبادر الخليع مع الخادم الى سحبه داخل المكان ليصاح ما فسد
من أمره .

ثم لبثنا مدة . ننتظر العمدة . ونترقب له الرجعة والعودة . حتى
أقبل يتهاذى في مشيته . بعد أن أفاق من غشيته . وعمد الى الخروج
والخليع عن يمينه يناجيه . والتاجر عن شماله يرائيه ويداجيه

العمدة في المرقص

قال عيسى بن هشام — ولما خرجوا من ذلك المحفل . ونحن أتبع
لهم من الظل . سمعنا العمدة يشكو للخليع في طريقه . ما يجده من
انقباض الصدر وضيقه . ويسأل التفريح لكربه . والترويح عن قلبه .
ويذكره بما كان من الوعود . ويطلبه بزيارة ذلك المجلس المعداد . ويقول
له تالله لقد أنصبتنا وأجهدتنا . فهل بنا الآن الى ما وعدتنا . لنربأ عنا الهم
بريئات الخدود . ونكشف عنا الغم بكاسفات البدور . ونجلو أعيننا بنجل
العيون . وننمش أنفسنا بناعسات الجفون . ونستصبح ليلتنا بالوجوه
الصباح . قبل أن يصبحنا جيش الصباح . فيقطع عليه الخليع كلامه . ويدفع
عن نفسه ملامه . بأن طول الانتظار . يذهب بحسن الاصطبار . ولا
صبر لذوات الدلال . على خلف الوعود من الرجال . وقد جاء في رسولها
في غفوتك برسالة . تشكو فيها ما لحقها من السامة والملاة . وتُحي
على بالعتاب المر . وأن ما فعلته معها ليس بفعل الحر . إذ اخترقت من
أجلنا ما اخترقته من السجوف والكَلال^(١) . وتحملت في حبيها ما تحمלתه
من الخوف والوجل . حذر الوشاة والرُقباء . وخشية الأهل والقرباء .
ثم إنها أقامت طويلا في انتظار اللقاء . وهي على مثل حر الرضاء . فاذا
الوعد بلاوفاء . واذا الدين بلاقضاء . وكأنما كانت تنتظر غائبا لا يؤوب .
وتستطر سحابا لا يسبح ولا يصوب . فذهبت بحسرتها . ومضت

(١) السجوف ، جمع سجنف وهو الستر . والكَلال ، جمع كلة وهي ستر رقيق

لَطِيبَتِهَا^(١) . وفاتنا ما كنا نبتغيه . وأيا سناً ما كنا نرتجيه . وتلك فرصة
أضعتها . لنزغة شيطانٍ أطمعناها . فيقول التاجر : إذا ما الذي اكتسبناه .
بعد الذي احتسبناه . وماذا أفدناه . بعد الذي فقدناه . وأين منا ما نجمع
به شملنا . ونبدد به ليلتنا . فيقول له الخليع : لم يبقَ أماننا في هذه الساعة .
سوى ملاعب الرقص والخلاعة . عسانا نجد فيها بديلاً . مما لم نجد إليه
سبيلًا . فيخرج العمدة دراهمه فيعدها . ثم يخشخش بها ويردها .
فيقول له التاجر : لا تهتم . فديرهم الأُنس ميسر . ويقول للخليع :
تقدم . فما من شيء عليك ميسر . فيعطف بهما الخليع من غير إبطاء .
إلى حان للرقص والغناء . فدخلوه ودخلنا من خلفهم . وجلسوا وجلسنا
في صفهم . فرأينا المكان حومةً وغى احتدم وطيسه . وميدان حرب
اصطدم خميسه^(٢) . عجا جتة الدخان . ومتارسه الدنان . وسلاحه
الأباريق والأقداح . ودروعه الغلالة والوشاح . ونباله أصمة القوارير .^(٣)
وطبوله توقيع العيدان والمزامير . ومغافره العصائب والأكايل^(٤) .
وأعلامه المآزر والمناويل . وثراده وشجاعته . وقواده وغلمانته . وكان
منصة الرقص هي حصنه الحصين . وصاحب الحان هو قائد الكمين .
وكان المغنين هم الكماة والأقران . والراقصات الحماة والفرسان :

أُولَاتُ الظَّلَمِ^(٥) جِنَّ بَشَرٍ ظَلَمَ
وقد واجهننا متظلمات

(١) مضى لطيبته ، أى لنبته التى اتواها (٢) الخيس ، الجيش

(٣) صمامة الفارورة ، سداها (٤) اللوفر ، زرد ينسج من الدروع على قدر الرأس

(٥) الظلم ، ماء الاسنان وبريقها

فوارسُ فتنَةٍ أعلامُ غَيٍّ

لَقِينَكَ بِالْأَسَاوِرِ مُعَلِّمَاتِ

وترى كلَّ ذاتِ ثديٍ حاسرٍ بارزٍ . تنادى هل من مُنازلٍ أو
مبارزٍ . ثم تبختر وتجول . وتخطر وتصول . فترى كلَّ طامعٍ في
وصالٍ لها . يساهم اللحاظ ونصا لها . ثم ترشق بها الدنان تارة فتسيل بدم
العُقار . وتشقّ بها الجيوبَ أخرى فتسيل بدم النُضار :
وقد أُغْمِذَنَ في أَزْرِهِ وَلَكِنْ

سيوفُ لحاظهنَّ مُجَرَّدَاتُ

قَدْ خَنَ زَنَادَ شَوْقٍ مِنْ زُنُودٍ

بنارِ حُلِيِّهَا مُتَوَقِّدَاتُ

وترى في وسط تلك المعركة . من كل هَلُوكٍ مُهْلِكَةٍ . (١) تنساب
في حُلّة رقصها وتسعى . كأنها حية في قميصها أو أفعى . لُعَابُ الْأَفَاعِي
الْقَاتِلَاتِ لُعَابُهَا . وَأَنْيَابُ الْأَسْوَدِ الضَّارِيَاتِ أَنْيَابُهَا . تَنْفُثُ السَّمَّ رَائِحَةً
وَتَنْتَهَشُ غَادِيَةً . وَإِنْ رَأَيْتَهَا شَادِنَةً وَسَمِعْتَهَا شَادِيَةً . فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا
صَرَغَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٌ

قال عيسى بن هشام - ولما طال جلوسنا ، وضائق أنفاسنا ، وكاد
يُغَمِّي علينا من كربه الروائح المنبعثة من أرجاء المكان المتصاعدة من
اكنافه : رائحة عَكْرِ الجُود ، ورائحة عَرَقِ الأبدان ، ورائحة زيت
المصاييح ، ورائحة الدخان والحشيش ، ورائحة أنفاس المخمورين ،

ورائحة تلك المراحيض التي لم يدخلها ماء ، ورائحة الأرض التي تسقى
بالأفذار ولم تسطع فيها شمسٌ ولم يتغير عليها هواء . فاذا امتزجت هذه
الروائح بعضها ببعض انعقدت منها في جو المكان سحابة سوداء تمطر
الأدواء وتساقط الآباء فتستنشقها الأنوف وتمتصها الرئات وتضوى
بها الأجسام وتتضاءل منها ذبالاتُ المصاييح تضاًؤلها في أجواف المناجم
وبطون الكهوف ، وكاد الباشا يختنق وهم به الغثيان فهم بالقيام
فأمسكت به وقلت له :

(عيسى بن هشام) - أيبصر مثلي على هذا المقام ولم أشهد في
عمرى معركة ولم أحضر معمرة ثم يجزع منه مثلك وقد مارست الحروب
وشاهدت الوقائع تحت سحاب المجاج وفوق جثث القتلى وأشلأ
الجرحي لا تبالي برائحة الجيفة ولا برائحة الدم ممزوجاً بصدا الحديد

(الباشا) - لقد كان ذلك ولكن في الخلوات والفلوات حيث تسطع
الشمس وتجرى الرياح ، ولم أستنشق تلك الروائح منحصرة كأنحصارها
في هذا المكان . ومع ذلك أتجلد مثلك للبقاء به كيلا يفوتنا شيء مما
نحن بصده من بداية الأمر الى نهايته

ویننا نحن كذلك اذا بصديق لی دنا منی فسلم علیّ وأظهر لی
تعجبه من دخولی هذا المحل ، فأظهرتُ له تعجبي من دخوله أيضاً
فأجابنی بقوله :

(الصديق) - ان السبب في دخولی هنا هو البحث عن رجل

احتال على في بعض الشؤون ثم غاب عن نظري وأنا أعلم أنه يأوى الى مثل هذا المكان فدخلته على كره مني بعد أن حرمت على نفسي التردد عليه منذ زمان بعيد . وحكم الضرورة مطاع ، ولكن قل أنت ما الذي جاء بك الى هذا الوكر وكر الأفاعي ، وأدخلك في هذا العنقش عتس الشيطان

(عيسى بن هشام) — أَدْخَلْنَا فِيهِ حُبَّ الاسْطِطْلَاعِ وَالاسْكَتْشَافِ .
عن الأخلاق والعادات ، ولكنني فيه غريب لا أفقه كثيراً مما أرى ،
والحمد لله الذي سخرك لنا في هذه الساعة لتبين لنا ما غمض وتبدي لنا ما يخفى

(الصديق) — لك ذلك مني وفوق ما تريد

قال عيسى بن هشام — وجلس الصديق معنا يحدثنا ويرشدنا ويسرد علينا من غرائب الوقائع وعجائب النوادر في هذا الباب ما أدهشنا به . ثم انقطع الحديث بيننا بدخول رجل يتمايل سكرًا فاخترق صفوف الجالسين وقد سكنت ضوضاؤهم وهدأت حركاتهم لسماع الغناء من إحدى القيان البارعات فيه ، فأعناقهم نحوها مشدبة وأبصارهم اليها شاخصة كأنهم جالسون تحت المنبر يستسمعون أحسن الحديث من وعظ الخطيب . واستمر السكران في سيره يقع بينهم مرة ويقوم أخرى ، حتى وصل الى منصة الرقص والغناء ف ضرب عليها مراراً بعصا في يده وتنادى على مَنْ فيها بأعلى صوته يطلب العدول عن الغناء الى الرقص ،

فلم يسمعوا لندائه فالتفت الى زمرة من الجالسين وطلب منهم مساعدته على غرضه فنادوا معه : الرقص الرقص . ونادى الراغبون في السماع : الفناء الفناء . فانبرى لهم السكران يهزأ بذوقهم ويسفههم في سوء اختيارهم فأجابه سفيه منهم على سفاهته ، فهجم عليه السكران بعصاه فقفز صاحب الحان من مكانه الى السكران فأخذ بتلايبه . ويقوم طالب الفناء حينئذ من مكانه فيشبع السكران ضرباً وشفماً فيتملق السكران بخناقه ويتنادى : البوليس البوليس . فيجتمع غلمان الحان يجرّونه الى الخارج وهو ممسك بمنق الضارب له لا يخليه ، حتى اذا صاروا الى الباب أدركهم جندي البوليس وقبض على المتضاريتين فيعرض له صاحب الحان ويمنعه من القبض على الضارب ويقول له : ليس لك الا أن تأخذ هذا السكران وحده فقد جاءنا بعد أن امتلاً سكرًا من الخارج يعربد في محلنا وكأنه مأجور من أرباب الحانات الأخرى للإضرار بنا وإحداث الفشل في محلنا . فيأبى الجندي الا أن يسوق المتضاريتين معاً فيغمزه صاحب الحان ليلين له فيتدّره أحد غلمانه قائلاً له : لا لزوم لما تأتيه مع هذا الجندي من المصاناة وغرضنا يقضى بدونه فان حضرة معاون القسم جالس عندنا داخل « البار » مع صاحبه

(صاحب الحان) للجندي — لم يبق لك من وجه لسحبهما الى

القسم . وتعالوا ندخل جميعاً عند حضرة معاون في « البار »

(الجندي) — هذه حيلة غير خافية تريد بها تهريب صاحبك .

وكيف يكون حضرة المعاون موجوداً الآن في « البار » والنوبة عليه الليلة في القسم

(صاحب الحان) — ما عليك الا أن تدخل وهما في قبضتك لتراه بعينك ، فيجيب الجندي صاحب الحان الى ذلك ، فيدخل فيرى المعاون جالساً بجانب صاحبه خالماً رداءه على كتفها وطربوشه على رأسها وهو يسقيها من كأسه وتعاطيه من كأسها

(صاحب الحان) للمعاون — لقد تعطل المحل يا حضرة الأفندي في هذه الليلة وتعطيله لا يرضيك ، فان هذا الرجل دخل علينا سكران ولم يشرب من محلى شيئاً فمررد بين الجالسين وأخلّ بنظام الاجتماع ثم تعدّى على هذا البك بالشم والضرب وهو من أجل المتردين على المحل ، والغريب أن جندي البوليس هذا لم يسمع لقولى فيه بل صمّ على سحبه مع ذلك المتعدّى الى القسم وهو من أبناء الكرام ولا يليق بكرامته ان يساق مع هذا السكران الى المحاكمة

(المعاون) للجندي — بعد أن يلبس طربوشه — ما هذا الذي أسمعه

(الجندي) رافعاً يده بسلام التعظيم — لم أعلم بوجود حضرتكم هنا ، والامر اليكم

(المعاون) للجندي — اذا كان الرجل السكران في حالة سكر يتنخذه وحده الى القسم ، وما دام حضرة البك لم يحصل منه اعتداء بشهادة

حضرة الخواجه فلا لزوم لذهابه معك ، ويكفي ان حضرته يعطينا
وعداً بالحضور غداً الى القسم لأخذ شهادته على هذا السكران

(وعند ذلك يدفع صاحبُ الحان بالسكران الى الخارج مع الجندي)
(الجندي) — اذا كنت تطاوع غلامك كل مرة فيما يشير به
عليك يا حضرة الخواجه فليس يكون حضرة المعاون عندك في كل ليلة .
والايام يبتنا

(صاحب الحان) — أوصيك بهذا السكران شراً ولا يكن
عندك شك في دوام الرعاية بك

قال عيسى بن هشام — وخرج السكران أمام الجندي مدفوعاً في
ظهره يقع ويقوم ويستعدي ويستنجد . وعُدنا الى داخل الحان ننظر ما
يجرى فيه ، فاذا صاحب الحان ومعه البك خصيم السكران قد جلسا مع
حضرة المعاون والكوؤوسُ تغدو عليهم وتروح . فجلسنا ناحيةً نستمع لهم
ونؤثر ما يجري من حديثهم على نحو ما ترى :

(صاحب الحان) للمعاون — لماذا أوعزت الى صاحبك بالقيام عند
جلوسنا معك

(المعاون) — أنا لم أوعز اليها بشيء ولكنها هي التي قامت مُغضبة
(صاحب الحان) — ولأني سبب أغضبتهَا

(المعاون) — لم آت سبباً يغضبها بل هي التي انتحلت سبباً
كدرتني به وكدرت نفسها أيضاً

(صاحب الحان) — لاشك ان ما حصل هو من باب الدلال دون
سواه ، وسأدعوها في الحال لعقد الصلح بينكما
(المعاون) — لادخل للدلال هنا ، ولكن جرى في أمر حضرة البك
والسكران ما هو على خلاف هواها فانها كانت ترغب في التضييق على
الاول والتفريق عن الثاني لان حضرة البك هو من أكبر أصحاب
المغنية والمغنية من ألد أعدائها

(صاحب الحان) — لقد حرتُ في أمر هذه الفتاة فان ضروب
حماقتها لاحد لها وفي كل ليلة تأتي بنوع من المشاكل جديد ينتج عنه
ما لا يعوض من خسارتي ، ولولا منزلتك عندي ومنزلتها عندك لما
أبقيتها في المحل يوماً واحداً ولا كابدت إعطائها في كل شهر مقداراً ما
يأخذه وكيل المديرية مرتباً من الحكومة . ولو شاهدت منها ما
أشاهده كل ليلة من تسافها على الرجال وتخاصمها مع النساء اعتماداً على
سلطتك واتكلاً على مساعدتك لامت مقدار حماقتها وجنونها

(المعاون) — نعم ان حماقتها عظيمة وطالما شددت عليها لتجتنب
المنازعات والمشاجرات حتى لا يقال ان علاقتها بي هي التي تجرّتها على
ارتكاب ذلك . ولكنها على كل حال سليمة القلب خفيفة الروح
(صاحب الحان) — صدقت وهي مع ذلك تحبك حباً صادقاً

(وهنا تدخل المغنية في البار بعد انتهائهما من الغناء فتقدم نحو هذا
المجلس لتسأل من حضرة البك صاحبها عما تم عليه أمر الخصامة مع
السكران فيقول لها) :

(البك) - أنا في غاية التشكر لحضرة المعاون الذي أنصفني وفي غاية التكدر لما وقع له من فلانة بسببي فانها اهتمت غضباً لما علمت بمساعدته لي وهي تبغضني لعلاقتي بك ، فبجائتي عليك الا ما قبلت التوسط في الصلح بينكما وازالة ما في النفوس فتعود راضية على حضرة المعاون ويتم الصفولنا جميعاً

(صاحب الحان) - أنا أوافق على هذا الرأي

(المعاون) - وأنا لا أرفضه

(البك) - وأنا أرسل في طلبها

قال عيسى بن هشام - وتحضر الفتاة فيقع نظرها على المغنية جالسة مع المعاون وأصحابه فتشتعل جذوة نار من الغضب وتنقلب لبؤة هاجت لفقد أشبالها ، فنشتم وتسب وتقذف وتلعن وتقل وتبصق وتنقض على المغنية فتأخذ يرقعها فتزيلها من مكانها، وتلتفت الى المعاون فتتوعدده بالشكاية والطعن فيه لدى رؤسائه ، ثم الى صاحب الحان فتتهدده بأنها لا ترقص في ليلتها . فلا يسع صاحب الحان الا أن يتلافى الفضيحة فيجرها الى خارج البار بالقوة لئتمكّن المعاون أن يتسلل هارباً . ثم أخذ ينصحها ويحذرها ويقول لها ان المعاون قد ذهب الى القسم الآن وقلبه مملوء منك حقداً وغيظاً فاذا أنت لم ترجعي عن حماقتك وتصعدي الى المنصة للرقص أو عزت الى المغنية أن تمسك بك وتذهب معك الى القسم ، والحاضرون يشهدون أنك تعديت عليها بالضرب ، والمعاون هناك ينتظرك للتشفي منك

قال عيسى بن هشام - فوق هذا القول منها وقع الماء في النار .
ولإنذار الحجز على أهل الدار . فهذا جأشها . وسكن طيشها . وصعدت
للرقص على منصتها . تتأوه من حبرتها وغصتها . وعدنا للجلوس أمام
الميدان . ننظر ما يكون من الغلبة والخسران

قال غيسي بن هشام - وجاء دور الرقص فضجت الفوغاء . واشتدت
الضوضاء . وامتدت الأعناق بالصفير والنعيق . واشتعلت الأكف
بالتصفيق . ترحيباً وتأهילה . وتكبيراً وتهليلاً . إذ قامت على المنصة
هلوكٌ وزهاء^(١) . عمشاء مرهاء^(٢) . فطسَاء فَوْهَاء . عجفاء شَوْهَاء^(٣)
مَزَجَّة الحاجبين . محمرة الخدين . مبيضَّة الساعدين . مخضبة اليدين .
قد ألبست وجهها من الطلاء نقاباً . وأسدت على أطرافها من الدهان
ثياباً . بأصباغ شتى وألوان . بين أبيض ناصع وأسود قاحم وأحمر قان .
تتلون تلون الحرباء . في هجير البيداء وقد وارت ما تعرض من جسمها .
وتعمرى من لحمها . بأنواع المقود والقلائد . والأساور والمماضد .
والدمالج والجلال . والمناطق والملاخل . فأخذت في الرقص والحجلان .
على توقيع الضروب والألحان . وبجانبها خادم ماشككنا من قبح
هيئته . أنه إبليس اللعين في طلعتة . رُكِّبَتْ منه أقبجُ هامة . على أسوأ
قامة . بوجه قد قُدَّ من الصخر . وعين كعين الصقر . وأنف كمنسر
النسر . وفم يرمى بالزبد كالبحر . وشفة مهدولة . وعمامة مجدولة . وفي

(١) الورهاء ، الحفء (٢) المرهاء ، التي ابيضت بواطن اجفائها
(٣) العجفاء ، المهزولة

يَمِينِهِ قَدَحٌ وَإِبْرِيْقٌ . يَسْقِيهَا مِنْهُ بَكَاسٌ مِنْ حَرِيْقٍ . لَا بَكَاسٌ مِنْ رَحِيْقٍ .
وَيُعَاطِيهَا مِنْ غَسْلِيْنٍ أَوْ قَطْرَانٍ ^(١) . وَيَجْرَعُهَا مِنْ حَمِيمٍ أَنْ . وَكَلِمَا أُتْرِعَ
لَهَا كَأْسًا . هَمَّتْ فِي أُذُنِهِ هَمًّا . ثُمَّ تَشِيرُ بِطَرَفِ الْكَفِّ . إِلَى بَعْضِ
الْجُلُوسِ فِي أَوَّلِ صَفٍّ . فَيَصِيحُ اللَّعِيْنُ صِيْحَةَ الْأَسَدِ فِي عَرِيْسَتِهِ ^(٢) .
وَقَعَ بَصَرُهُ عَلَى فَرِيْسَتِهِ . فَيَجِيْبُهُ غَلَامُ الْحَانِ جَدَلًا وَابْتِهَاجًا . وَبِأَتِيهِ
بِالزَّجَاجَاتِ أَزْوَاجًا . فَيَفْضُ عَنْهَا الْفِدَامَ . وَيَصِفُّهَا أَمَامَهَا تَحْتَ الْأَقْدَامِ .
وَلَا يَزَالُ خَادِمُهَا يَمْلَأُ لَهَا وَيَسْكُبُ . وَهِيَ تَشْرَبُ وَتَطْلُبُ . لَا تَكْتَنِي
وَلَا تَقْتَنِعُ . وَلَا تَرَوِي وَلَا تَنْقَعُ . كَأَنَّمَا يَمْتَحُ لَهَا مِنْ قَلِيْبٍ ^(٣) . وَيَصْبُ
فِي وَادٍ جَدِيْبٍ . أَوْ يَمْلَأُ مِنْ مَاءٍ مُنْبَثِقٍ . وَيُفْرِغُ فِي دَنَّةٍ مُنْخَرِقٍ .
فَإِذَا دَبَّتْ فِي عُرُوقِهَا نَيْالُ الْحَرِّ . وَاشْتَعَلَتْ فِي جَوْفِهَا اشْتِمَالُ الْجَرِّ .
جَدَّتْ فِي لَعِبِهَا وَدَوْرَانِهَا . وَاشْتَدَّتْ فِي قَفْزِهَا وَجَوْلَانِهَا . وَتَلَوَّتْ
كَالْحِيَّةِ فِي طُرُقِهَا . وَلَعِبَتْ كَالسُّلْحَفَاءِ بُعْنُقِهَا . وَالْخَادِمُ أَمَامَهَا يَنَازِلُهَا
وَيَنَازِلُهَا . وَيَنَازِلُهَا وَتَنَازِلُهُ . وَيُرَاقِصُهَا وَتُرَاقِصُهُ . وَيَقَارِصُهَا وَتَقَارِصُهُ .
وَهِيَ تَرْسُلُ عَلَى الْحَاضِرِينَ أَقْوَالَ بَذِيئَةٍ . وَتَخَاطِبُهُمْ بِالْفَافِظِ قَبِيْحَةٍ رَدِيئَةٍ .
فَتَفْتَرِّ لَهَا الثَّغُورَ . وَتَنْشَرِحُ الصَّدُورَ . لَيْسَ فِيهِمْ إِلَّا كُلٌّ مُسْتَحْسِنٌ
مُسْتَزِيدٌ . وَمُسْتَمْلِحٌ مُسْتَعِيدٌ . إِلَى أَنْ تَحْوُرَ قُوَاهَا . وَتَغُورَ عَيْنَاهَا .
وَتَقْلَصَ شَفَتَاهَا . وَيَكْلَحَ شَدَقَاهَا . وَيَنْضَحُ الْعَرَقُ مِنْ أَطْرَافِهَا
وَتَرَاقِيهَا . وَيَنْعَقِدُ الزَّبَدُ بَنَحْرِهَا وَفِيهَا . فَتَضْطَرُّ إِلَى إِزَالَتِهِ . وَتَعْمَدُ

(١) اللَّعِيْنُ ، مَا يَسِيلُ مِنْ جُلُودِ أَهْلِ النَّارِ (٢) الْعَرِيْبَةُ ، بَيْتُ الْأَسَدِ

(٣) الْقَلِيْبُ ، الْبُئْرُ

لإزاحته . فتناول المنديل تمسح به من وجهها وذراعها . فيتلوّن بأشكال الصبغة وأنواعها . فيغدو المنديل كأنه قوس قزح . بما تصبّب من أديمها وارشح . وينكشف التمويه والتليس . ويفتضح التلفيق والتدليس . فيظهر ما بطن . ويبرز ما كمن . وتنقلب الى صورة سحابة . تترامى في سراب فلاة . أو غول . تكشر وتصول . أو دُب . يهتز ويدب . فحولنا عنها الوجوه استنكافاً واستنكاراً . ولَوَيْنَا الأعناق استقباحاً واستقذاراً . ومال الباشا على الصديق يسأله في دهشته . ويقول له في نفرتة : أعلّى مثل هذه تذبّ القلوب . وتنشق المرائر والجيوب . وهل وصل العَمَى بالناس الى هذا الحد . ولم يبق فيهم تمييز للغزال من القرد

(الصديق) - نعم ان هذه التي تهرب منها الوحوش لفظاعتها . ويتعوذ منها الشيطان لدّامتها . هي عند هؤلاء الحاضرين دُمية القصر . وفريدة العصر . كم ذهبت بأموال وأودت بأرواح ، وكم أضاعت شرفاً وأزالت مجداً ، وأذلت رقاباً وأفسدت حكماً ، وكم فرقت بين المرء وزوجه ، وولدت العقوق بين الوالد وولده ، وألهمت العداوة بين الأخ وأخيه ، وكم خرّبت بيوتاً عامرة ، ودنّست أنساباً طاهرة ، وكم بذّرت للشراً أسباباً ، وفتحت للسجون أبواباً . وهؤلاء الذين تراهم جلوساً في هذا المستنقع الوبيء والمرعى الويل يقضون فيه ليالى الشهر تباعاً وشهور العام ردافاً لا تتوهمهم من أسافل القوم ولا من أدنياء الناس بل فيهم الكبير والأُمير والسري والوجيه . وانظر عن يمينك الى هذا الجالس

بين إخوانه جلسة الكبرياء، فهو أحد أبناء الأمراء، مات أبوه وترك له أموالاً هائلة فالتفت حوله قرنائه السوء من أهل البطالة والفراغ فبدأ في تبديد تلك الأموال باقتناء الخيول المسومة والمركبات المطهنة، ثم تفتت بالإسراف الفاحش في مهرجان زواجه، ثم تلت بتسليم ما بقي منها لأيدي العواهر والفواجر، وأخصن هذه اللخنة التي لم يبق له منها الا التمتع بالنظر وهي لا تنظر إليه ولا تسأل عنه بعد أن استفرغت أمواله. وانظر عن شمالك الى هذا الجالس الذي يقتل شاريه ويحلق بعينيهِ ويعمز بحاجبيه فهو من أبناء الكبراء أيضاً ماتت أمه فورث عنها أموالاً طائلة ولم يمتص على موتها بضعة أيام حتى أوقعه سوء طالعهِ في مخالب هذه الخداعة الفرّارة فهو لا يصبر عنها ولا يقطع المجيء اليها في كل ليلة وهي تسلبه كل ما تصل اليه يده من خفيف وثقيل وما كان لأمه من حلّى وجواهر غير ما ينثره من الذهب والفضة في أرض هذا المكان. وانظر أمامك الى هذا الجالس معظماً بين جلسائه مبجلاً فهو من كبار الحكام في الأرياف وقع في أشراك هذه المرأة فكادت لفضاعة أعمالها معه أن تسلخه من شرفه وتسقطه عن منصبه وهو مع ذلك لا يسلوها، ولا يلهو عنها، وليس له في مدة إقامته بالقاهرة غير بيتها مأوى، ومرقصها ملهى، فاذا هو عاد الى مقر وظيفته عاد بغير لبه، فيسمى في استغواء العمد والأعيان لإقامة الولائم والحفلات واستئجار هذه الراقصة لإحياء لياليها. وانظر الى هذا الشيخ الجالس منفرداً منزوياً ويده مرتشقة بين صدغه وعمامة فهو من أعيان البلد لم يمنعه وقار السن

وهيبة المشيب من الوقوع في أسر هذه الفأوية فأخذ يبدد عندها في شيخوخته ما كان جمعه في شببته

(الباشا) - لو أنه كان لهذه المرأة مزية ظاهرة من مزايا النساء لقلنا الهوى في الناس داء قديم والولوع بالحسان أمرٌ بديعٌ والمذر غير معدوم، ولكن ما بالهم والمرأة في القبح والدمامة بمنزلة الشيطان، والهرُوبُ منها مندوب إليه، فهل تعلم لذلك من سبب خفي

(الصديق) - السبب فيه حبُّ التباهي والتفاخر والأثرة والاختصاص، وقد اشتهرت هذه البغى بإتقان الرقص والتفرد فيه، وأنفسُ الجهلاء مولعة بالشهرة الباطلة والصيت الكاذب يتشبثون به عمى النواظر، عمى البصائر، فهم يرون أن الاختصاص بمثل هذه الشهيرة في فنّها وإن قبح منظرها، وساء تجربها، هو الفخر كل الفخر والسبق كل سبق. وهم يجبولون على الحكاية والتقليد فلذلك نفذ فيهم سهمها وسرى في عروقهم سمها

(الباشا) - ان كان لا يوجد في هؤلاء الناس عقول تردعهم ولا يوجد بينهم واعظ يرشدهم أفلا كان هناك من سلطان يزعمهم وحكم يكف الأذى عنهم

(الصديق) - لا واعظ ولا ناصح ولا سلطان ولا وازع وقل ينبتا من يشتغل للناس في نفع الناس

قال عيسى بن هشام - وانهت الراقصة من رقصها فدخلت حجرة

لتغيير لباسها وإصلاح ما فسد من حالها ثم نزلت منها وقد جدّت ألوانها وأدهانها وسارت تتكسر في مشيتها بين الجموع وهم يرمقونها رمت الشهوة ويتطلعون اليها تطّلع البهيمية ، فتزحزحت لها المجالس وحلّت لها الحُبّي وأعدّ لها كل فريق كرسيًا بجانبه وتناثرت عليها الإشارات بالفضل بالجلوس ، فلم تبعأ بشيء من ذلك ولم تلتفت اليه واستمرت في تكسرهما وتهاديهما حتى وصلت الى مقام صاحب الخان فوقفت معه مُلاعبةً مُداعبةً وممازحةً مضاحكةً . وجاء خادمها في عقبها فاستوقفه اليه ذلك الحاكم من حكام الأرياف ، فوقف بجانبه يهزل معه ويمزح ، ثم شاهدنا الحاكم يُخرج من جيبه بعض الدراهم فوضعها في يده ، فانصرف الخادم الى الراقصة فكلمها وأشار يده الى الحاكم يستعطفها له ويستدعيها الى الجلوس معه ، فأبانت عن أمارات الإباء والرفض في أول الأمر ثم انتهت بها لاجبة الخادم الى الرضاء والقبول ، فقصدت مجلس الحاكم وقصد الخادم غلام الخان فما جلست حتى كان الغلام بجانبها يحمل في يده أربع زجاجات من الشمبانيا فبزلها كلها ^(١) بميزكة فقارت وفاضت وانتشرت كلها حبيبًا والغلام مُتلاهم عنها لا يسرع الإيماء منها ، حتى اذا لم يبقَ بها الا مقدار صباية ^(٢) صبّها الخبيث في الاقداح وقدّمها للفاجرة فبادرت الى لمس كل كأس لمسةً بيدها وفيها . ثم يعود الغلام بعد هُنية لأخذ الزجاجات الفارغة فتأمره بإحضار سواها . وهكذا يتوالى الحال في طلب الأتوار حتى يبلغ الى الدور الخامس في مدة يسيرة ، وجميع

(١) بزل الخمر ، ثقب اناءها ، والمبزل المثقب (٢) الصباية ، البقية في الاناء

الجالسين لا يتحولون بنظرهم عنها يراقبون حركاتها وسكناتها كأنما يرصدون نجماً أو يرقبون هلالاً . ولما انقطع ورود الزجاجات التفتت العاهرة إلى خادماها وهو على بعدٍ منها فرأته يشير إليها بحاجبيه تارة وبطرف لسانه أخرى فهتت بالقيام ، فأمسك الحاكم بأذيالها فصفعته صفقة مزاج على قفاه ، بعد أن لعنت أمه وأباه ، استرضاء له عن تركها إياه ، فمش وبش اعتقاداً منه أنها لا تعامله بهذه المعاملة الالسقوط الكلفة وتمكن الألفة .

وتنسل من حضرته إلى حيث أشار الخادم فتهبط على الفئة التي عن يميننا وفيها ذلك الشاب الذي أفتى في حبها ماله وأضاع في هواها شرفه ، نفاطبته بلسان اللوم والمذلل تسأله لأي سبب دعاها ولأجل أية علة ألقها من مكانها فيتلطم المسكين ثم يجيبها بأنه دعاها لمصلحتها وقضاء حاجتها ، فان المحامى أخبره بنجاح قضيتها ، فتبسم له قليلاً ثم تلتفت عنه إلى سواه ، فيستحلفها بالود القديم والعهد العتيق أن تجلس معه لمحّة ليقصّ عليها تفصيل الخبر ، فتتفر منه فيرميها بسوء الوفاء وخيانة العشرة ، ويبكتها مذكراً لها بما كان بينهما من الصفاء والهناء وما أتلفه في معاشرتها من نضار وعقار ، فتلطمه على وجهه لطمة المعلم المؤدب وتجلس إلى جانبه وتسأله أن يدع عنه ذكر تلك الليالي والأيام الخوالي وأن يحفظ عنها « قصة الأضراس » في باب الاعتبار . وروت له هذه القصة التي هي عندهن عماد الصنعة وأساس الفن : زعموا أن فتى كان يهوى فتاة وتهواه فعاشا تحت جناح الحب زمناً سعيداً ثم طرأ على الفتى سفرٌ يبعده عنها في طلب المال ، وجاءت ساعة الوداع فانهملت العبرات وتوالت الزفرات وأقسمت

له بأن العيش لا يطيب لها من بعده وأن الموت أهون عليها من بعده .
وسألته أن يُبقِ عندها أثراً منه تتعلل به في غيابه ساعة الحنين وتشتم منه
ريحه وقت هيام الذكرى ، فقال لها سأترك لك بضعة منى وأنتزع لك
أثراً من بين لحمي ودمي ، ثم عمد بيده الى فيه فاقتلع لها ضرساً من أضراسه
غير مبال بألم الانتزاع ووجع الاقتلاع ، وناولها إياه يقطر بالدم فأخذته
منه وأشبعته لثماً وتقبيلاً ووضعته في حقة نفيسة ، وسافر الفتى سفره
ومضت عليه الأيام والليالي ، ثم آب من سفره خائباً لم يظفر بحاجته ولم
يفز بِطِلبته رقيق الحال ضعيف الركن ، فذهب الى دار صاحبه وقد
أضناه الشوق وبراه النوى فلما طرق الباب ولحته من النافذة تنكرت
له وأنكرته ، فنادها أنا فلان فاسمحي لي بالدخول ، قالت له ومن فلان
فأني لا أعرفه ، قال لها خليلك وحبيبك صاحب العهد الوثيق والعشرة
الطويلة ، قالت له كل الناس عاشروا فارق ، فأثيم أنت ، قال لها أنا صاحب
الضرس ، قالت أولئك ضرس عندي ، قال نعم ، قالت فادخل ، فدخل
فأجلسته وأحضرت أمامه حقة كبيرة وأمرته بفتحها ففتحها فوجدتها
مملوءة بكمية عظيمة من الضروس ، وقالت له : دونك إن كنت تعرف
ضرسك من بين هذه الاضراس ، فأنا أعرفك اليوم من بين الناس .
ولما أتمت الواعظة وعظها انصرفت عن هذا المجلس الى مجلس ذاك الشيخ
الوجيه ، فيقوم لتحتها واقفاً ويؤدّي لها نواجذه مهللاً ، فتجلس معه
وغلام الحان فوق رأسها ينتظر طلب الزجاجات ، فلا تلفت اليه فيديم
الوقوف فتأمره بالانصراف فيعود خائباً ، وتقول للشيخ إنها لا تريد أن

تحمّله في حبها مغرمًا ولا تقيسُه عندها ببقية الحاضرين الذين تسابهم
 لصاحب الحان، فيخرج الوجيه من حزامه عقدًا يتلألًا فيضعه بين يديها،
 فتبسّم له وتنطف اليه وتقيم عنده مدة في مضاحكة ومغازلة . ثم تقوم
 لتَنصِبَ على سواه شبا كها، وترمي لصيد القلوب أشرا كها:
 نُحْيِي وَجْهَ الشَّرْبِ فِعْلَ مُسَالِمٍ^(١)

يُضاحِكُهُ والكِيدُ كِيدُ مُحارِبٍ

قال عيسى بن هشام - وأقننا نتأمل في أفعال هذه البغى الفاجرة .
 ونفكر في أعمال هذه الخداعة الماكرة . ونعجب كيف يقتدر مثلها على
 نخل الرجال . فترميهم في مهاوى الغواية والضلال . وهي عارية من
 ثوب الجلال . مجرّدة عن جميع المزايا والحاصل . مُفرّغة في قالب الوقاحة .
 معجونة من حمأة الدمامة والقباحة . وما زالت الفاجرة تتقلب بين
 الجالسين وتتنقل . وتتجول بين الصفوف وتحوّل . وتروح الى صاحب
 الحان وتندو . وتحفّى آونةً ثم تبدو . منطلقة اللسان بالسب والشب .
 منبسطة اليد بالتهب والسلب . ممتدة الكف باللطم والضرب . دائبةً
 في السّكب والشرب . وهي في تنقّاهما تقطّب تارة وتجهّم . وتنفّر تارة
 وتبسّم . وتنبسط حينًا وتنقبض . وترضى ساعةً ثم تمتعض .
 وتعامل كلّ انسان بما يلائمه . وتجري معه على ما يؤايمه . فتضلّ
 الأبواب والنهى . ويقع الجميع في أسر الهوى . وآية حبها وميلها . أن
 تصفع الصبّ بنعلها . فإذا أضافت الى الضرب بالنعال . شقّ القباء وتنفّ

السَّيَال^(١) . كان في ذلك بلوغ الآمال ، بدنو ساعة الوصال ، واستوى
 المضروب يُفاخر أصحابه وخلاته . ويباهي أنداده وأقرانه . كالظافر في
 ساحة الطمان والضراب . والفائز بالغنائم والأسلاب . فيغالى في إظهار
 الابتهاج والائتناس . وتنبسط يده في الكيس ويدُّها في الكاس .
 والغلامُ على رأسه بالآنية . يصبُّ لها زجاجة كل ثانية . وهى تصب
 الكؤوس في الهاوية . كأن حلقها قناة وكأن الساقى ساقية . وحانت
 منا التفاتة الى الخليع وصاحبيه . فاذا العمدة يشير يديه . ويفعز بحاجبيه .
 ويقول للخليع في اشتغاله والتهابه . ويخاطبه في ارتبائه واضطرابه :
 (العمدة) للخليع - لقد أسمعنا الجدَّ وحلَّتْ لدينا عاقبة الصبر ،
 ولئن فاتنا الأُنس بالغائب فما أكملْ أنسنا بالحاضر ، وهذه الراقصة التى
 اجتمعت على محبتها القلوب وافتننت بها العقول هى عندى الضالة
 المنشودة والأمنية المطلوبة . ومنْ يبلِّغنا إياها سواك ويمنّ علينا بها غيرك
 (الخليع) - هذه هى الفتانة المشهورة بكثرة العشاق والطلّاب
 ولا عيب فيها غير المزاحمة عليها ، والموردُ العذب كثير الزحام ، والوصول
 إليها من دونه أهوال :

وإنك إن أرسلتَ طَرْدَكَ رائداً

لقلبك يوماً أتعبتك المناظرُ

رأيتَ الذى لا كلُّهُ أنتَ قادرٌ

عليه ولا عن بعضه أنتَ صابرٌ

(التاجر) — نعم هذه هي البضاعة الثمينة والسِّلعة الرائجة فاز مَنْ حازها وخسر مَنْ فاتها ، ولو كانت الأيام أيام ربح ورخاء لَصَبَا إليها القلب وولعتْ بها النفس ، ولكن لِرَبِّ العيال ما يشغله عنها ويبعده منها

(العمدة) — ليس يفوتنا على كل حال ان نتمتع بها الليلة بالمجالسة والمفاظة ونروى بحداثتها الغليل ونشفي بكلامها الهيام

(الخليع) — حبذا لو جلستْ معنَا ساعة . ولكنك ترى من المزاحمة فيها والمنافسة بين الحاضرين في الغرام بها والغُرْم عليها ما يحمل نيل الغرض متعسراً . ودَرَكَ الطلب متعذراً

(العمدة) — أما المزاحمة عليها فإن لنا من مهارتك ونباهتك ما يقرب الأمل بالوصول إليها ، وأما المنافسة في الغُرْم عليها فالأمر مستدرِك والدراهم موجودة

(التاجر) — ما أشكُ بعد هذا في نيل الغرض وقضاء الوطر وستنهي ليلتنا بمسك الختام

قال عيسى بن هشام — ويدعو الخليع خادم المرأة ويهمّ بإعطائه شيئاً من الدراهم فيسابقه التاجر فيمنعهما العمدة ويقوم مقامهما ، فيلقى الخليعُ في أذن الخادم قولاً ويطول الخطاب بينهما همساً ، ثم يذهب الخادم فيعود بمولاته تتيه دلالاً وتتنى اختيالاً وتبدي الرضى من خلال التمتع

فَنَسَلَمَ عَلَى أَهْلِ الْمَجْلِسِ وَتَخَصَّ الْخَلِيعُ بِابْتِسَامَةٍ وَتَجَلَسَ بِجَانِبِهِ وَتَسَأَلَهُ عَمَّا جَرَى فِي الْمَجْلِسِ بَعْدَ انْصِرَافِهَا عَنْهُ بِالْأَمْسِ فَيَقْطَعُ عَلَيْهَا هَذَا الْحَدِيثَ بِالْقَهْقَهَةِ ، ثُمَّ يَبْدَأُ بِعَقْدِ التَّعَارُفِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْعَمْدَةِ وَيَطْلُبُ لَهَا فِي عُلُوِّ شَأْنِهِ وَرَفْعَةِ مَقَامِهِ فَتَرْحَبُ بِهِ فَيَرْفَعُ الْعَمْدَةُ يَدَهُ إِلَى رَأْسِهِ مَرَارًا تَشْكُرًا لَهَا ، فَتَلْعَقُ فَصَ الْخَاتَمِ يَتَأَلَّقُ فِي لَاصِبِهِ وَيَتَوَهَّجُ فَتَضَعُ يَمِينَهَا فِي يَمِينِهِ وَتَجْرُهَا إِلَيْهَا تَرَصَّدُ الْحَجَرَ . فَيَسِيلُ الرَّجُلُ طَرَبًا وَابْتِهَاجًا وَيَعْتَقِدُ أَنَّهَا كَلَّفَتْ بِهِ حَبًا وَغَرَامًا ، فَلَا يَرُوعُهُ إِلَّا أَصْوَاتُ الْأَصْمَةِ يَنْزَعُهَا الْغَلَامُ عَنِ الرِّجَالِ تَبَاعًا ، وَكَلَّمَا أَفْرَغَ أَرْبَعًا عَادَ بِأَرْبَعٍ حَتَّى هَالِ التَّاجِرَ مِنْ ذَلِكَ مَا هَالَهُ فَمَالَ إِلَى الْخَلِيعِ يَسَاجِيهِ ، فَسَكَنَ الْخَلِيعُ مِنْ رُوعِهِ وَأَزَالَ الْمُهَاجِسَ عَنْهُ ، فَيَمِيلُ التَّاجِرُ إِلَى الْأَقْدَاحِ يَسْكُبُ وَيَشْرَبُ ، وَإِلَى الْمَرْأَةِ يَهَازِلُ وَيَفَازِلُ وَيُعَاطِي وَيَسَاوِلُ ، وَالْعَمْدَةُ عَلَى حَالِهِ بَاهِتٌ شَاخِصٌ وَمَوْلَعٌ مَوْلَهُ ، وَالْخَلِيعُ مُسْرُورٌ مُبْتَهَجٌ . لَا يَرْسُلُ الْكَأْسَ عَنْ فِيهِ . إِلَّا مُمْسِكًا بِأَخِيهِ . وَالْمَرْأَةُ تَمُحَّدِعُ وَتَكِيدُ . وَتَقُولُ لِلْغَلَامِ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ . ثُمَّ يُخْرِجُ الْعَمْدَةَ سَاعَتَهُ مِنْ جِيبِهِ وَيَتَشَاغَلُ عَنِ النَّظَرِ إِلَيْهَا بِالْحَدِيثِ ، فَتَقْبِضُ الْمَرْأَةُ عَلَيْهَا تَمَعْنُ فِيهَا وَتَقُولُ لَهُ قَدْ آنَ أَوْانَ الْانْصِرَافِ وَحَانَتْ سَاعَةُ الْخِتَامِ ، وَتَقُومُ مَوْدَّعَةً فَيَتَلَهَّفُ الْعَمْدَةُ وَيَتَحَسَّرُ وَيَسْأَلُهَا إِنْ تَمَّ جَمِيلُهَا بِالْبَقَاءِ مَعَهُ بَعْدَ الْانْصِرَافِ فِي مَجْلِسٍ آخَرَ ، فَتَضْحَكُ لَهُ ضَحْكَةً الْقَبُولِ وَتَلْطَمُ الْخَلِيعَ بِالْمَرْوَحَةِ عَلَى خَدِّهِ وَتَفَادِرُهُمْ إِلَى صَاحِبِ الْحَانَ فَتَجْلِسُ مَعَهُ . وَيَأْخُذُ النَّاسُ فِي الْانْصِرَافِ وَالْخِدْمِ فِي رَفْعِ الْكَرَاسِيِّ وَإِغْلَاقِ بَعْضِ الْأَبْوَابِ وَلَا يَبْقَى فِي الْمَكَانِ غَيْرُ أَصْحَابِ الْوَعْدِ مِنَ الْعَاهِرَةِ : ذَلِكَ الْحَاكِمُ الْوَاقِعُ ،

وذلك الغلام الوارث، وذلك الشيخ المتصاني، وهذا العمدة المغرور بتاجره وخليعه . فاذا طال عليهم الانتظار ويئس الواحد بعد الآخر من صدق الوعد عمدوا الى الانصراف يصحبهم الهم ويرافقهم الكدر الا العمدة فانه يلح في الانتظار لشدة ما به من سكر الهوى وسكر الخمر :

سُكرانٍ سكرُ هوى وسكرُ مُدَامَةٍ

ومتى يَفِيقُ فَيَ بَهِ سُكرانٍ

ويقصد المرأة في مكانها عند صاحب الخان وهو يتعثر في مشيته ويجرر في عباءته فيقف بين يديها يستنجزها الوعد ، فتغضى عنه ، فيلح عليها ، فتَلَجُّ في الإعراض ، فيُخرج من جيبه كيس الدراهم ويسط به راحته راجياً متضرعاً ، فتظهر له الجفوة ، فتشدد به الصبوة ، فيترامى عليها فتدفعه برجلها عنها فيقع على الأرض فينتثر ما في الكيس ، فيعمد الخليع لالتقاطه فيسبقه اليه صاحب الخان . ويتمائل العمدة واقفاً فيمد يده الى المرأة فيأخذ بضميرتيها يجذبها نحوه ، فتسبه وتلعنه وتُمسك بصاحب الخان ، ويستمر العمدة في الشد والجذب فتخونه الضفيريّتان فيرتمي على ظهره طريحاً وهما في يده والمرأة باقية في مكانها تصيح وتستغيث ، فينقض من أقصى المكان رجل رث الهيئة يبيع الطلعة وسيخ العمامة يرفع في يمينه هراوة ويتأبط في شماله صرة ثياب فيقع على العمدة ضرباً بالهراوة ، ويدفع العمدة عن نفسه ضرباً بالضفيريّتين ، ويتوسط بينهما التاجر فيسأل الرجل عما يعميه في الأمر فيقول له إنه زوج المرأة وإنه

يدافع عن حريمه ، ولا يرجع عن غريمه ، فيتعرض له التاجر يمنعه عن الفتك بصاحبه ، فينصحه الخليع بالرجوع عنه لأن الرجل من أهل « الحماية » وفي التعرض له إلقاء باليد الى التهلكة فانه فوق القانون يجنى ولا عقوبة عليه . فما يسمع العمدة هذا القول حتى يستجد بالخليع لينقذه من بلائه ، فيتقدم الخليع فيكلم الزوج طورا والخليلة تارة وصاحب الحان أخرى ، فينتهى النزاع بينهم على أن يترك العمدة ما التقطه صاحب الحان من دراهمه مرضاة للمرأة عن إهانتها وعوضا لها عن خسارة الضفيرتين . ثم يقوم صاحب الحان وينادى غلامه وهو مشغل بإطفاء الأنوار فيسأل عن حساب العمدة فيكونه له فيلتفت الى العمدة قائلا :

(صاحب الحان) للعمدة — والآن فادفع لنا ثلاثة عشر جنيها ممن المشروب ، وانظر ماذا تمطينا من العوض في تعطيل المحل بهذه الأفعال الصبائية

(العمدة) — ما هذه الحسبة وما هذا الكلام :

(صاحب الحان) — أما الحسبة فصحيحة ، وأما ما أثبتته فانه لا يليق بمقامك وأنت رجل من أهل الوجاهة والرفعة ، ولكنها الجر أم الشرور . وإن خالها الشارب أم السرور ، وما كان لك أن تتعلق بهذه المرأة المشهورة بتمنعها على أهل التنافس فيها ، والنساء غيرها كثيرات في المحل ، وإن كان لا بد لك منها فأنا أسمى في الصلح بينكما عند تشريفك

المحل في الليلة الآتية ، وأرجو أن لا تتوقف في دفع هذه الحسبة الصغيرة
فاني لا أرضى لك الإهانة ولا ترضى لنفسك الفضيحة

(العمدة) للتاجر - هل عندك ما أسدد به هذا المبلغ

(التاجر) - لا وَحَقَّ العشرة وحرمة الصحبة . فلم يبقَ معي من

الدرام لا قليل ولا كثير

(العمدة) للخليع - دبرني يا صديقي في أمري وانظر لي طريقة

الخلاص

.. (الخليع) - يعزّ عليّ والله ما نحن فيه ولكن عزّت الحيلة ،

ولو كان صاحب الحان يقبل مني ساعتى هذه رهناً على هذا المبلغ لرهنتها

عنده ولكنه ربما استضعف قيمتها عن قيمة المطلوب ، ولو كان في

الوقت سعة لنهبتُ لاستحضار النقود بأية طريقة كانت

(العمدة) - ان كان الأمر ينقضى بالرهن فهذه ساعتى أئمن من

ساعتك وهي عندي أعزّ عليّ من روجي لاني أخذتها هدية من دائرة

«البرنيس» يوم بعث لها أطيانها ، وعليها حروف اسمها منقوشة ، وقد

قدّرها لي الجوهري بخمسين جنيناً

(الخليع) - ان كان الأمر كذلك فلا يليق رهنها ، وعندك الخاتم

ترهنه مكانها

(العمدة) - هذا هو الأصوب وان كان الخاتم أغلى من الساعة

قيمة ، نَحْذُهُ يا حضرة الخواجه رهناً عندك حتى أسدّد لك المطلوب في الغد

(صاحب الحان) — أنا لا آمن لهذه الفصوص اللعنة فقد غشوني فيها مراراً بإحكام التقليد في صناعتها، وليس هنا الآن مَنْ أثق به من أهل الصناعة ليكشف لى عن حقيقة هذا الفص

(التاجر) بعد أن يعن في الفص — كيف تقول ذلك وهو من الماس القديم وقيمه لا تنقص عن مائة جنيه ، وأنا مستعد لرهنه عندى على خمسين جنيهاً ، فانتظرونى ريثما أذهب الى محل ميبتي وأرجع اليكم بالبلغ

(صاحب الحان) مكفهرًا — ليس عندى وقت للانتظار فقد مضى الميعاد المقرر لإغلاق المحل وهذا جندى البوليس واقفٌ أمامنا يتعجلنى فى مطاوعة أوامر الحكومة

(الجندى) — نعم مضى الميعاد ولا بد من الإغلاق حالاً ، فانظروا معكم شيئاً آخر للرهن يُفَضُّ به هذا المشكل

(الخليع) للعمدة — أعطهِ الساعة ، فلا حول ولا . وليس هناك ما تحشاه عليها فانا نستخلصها غداً بعد أن تقابلنى فى الصباح بقموة الموسيقى

(صاحب الحان) بعد التأمل فى الساعة — هذه الساعة لا توفى قيمة المطلوب وحدها ، فاترك الخاتم معها أيضاً

(العمدة) — هذا لا يصح مطلقاً فان المبلغ المطلوب لا يزيد عن ثلاثة عشر جنيهاً على فرض صحته

(الخليع) — ما دام العزم أكيداً علي فك الرهن غداً فسيان رهن قطعة أو رهن قطعتين ، وأنا أرجو الخواجه أن يتجاوز لنا عما يطلبه من العوض في تعطيل المحل

(صاحب الحان) — انى أتجاوز عنه لأجلك

قال غيسى بن هشام — ويشدد جندى البوليس في طلب الإغلاق في الحال فلا يسع العمدة إلا التسليم في الختام والساعة . وبينما الجميع يتأهبون للخروج والمرأة واقفة تهزأ وتسخر إذ دخل رجل قبيح الخلقة جهنم الوجه عريض القفا جاحظ العينين واسع المنخرين أهرت الشدقين فأخذ يجيل في الحاضرين نظره يميناً وشمالاً ثم تقدم الى المرأة فسبها ولعنها ولطمها ولكمها وقال لها قد فات الوقت ومضى الميعاد وأغلقت الحانات وأنا قاعد في انتظارك بالبيت وأنت واقفة هنا تلعين وتسخرين فأين هذا الصيد الذى أهلك عني وأنساك أمرى يا عاهرة ، فتجيبه مع الذل والانكسار بأنها أخطأت ولكن لها العذر فقد وقعت حادثة مع بعض العمدة يشهد بها الحاضرون . وتذكر له ما كان من هجوم العمدة عليها ونزع صغيرتها ، فيشهد زوجها مع خادمها بتفصيل الواقعة ، فيزجر الرجل ويتوعد ويعمد للحاق بالعمدة وهو يعدو نحو الباب ، فتستعطفه الفاجرة وتطلب منه أن لا يكدر على نفسه صفاء الليلة بالوقوع في مخاصمة أخرى وتطلب منه الإسراع الى البيت في صحبتها

وخرجنا مع الباشا نتعوذ من كيد النساء . وتأسف على وقوع

الرجال في أشراك المكر والدهاء . وكيف نزل العمى بهم والجهل . حتى يستسلموا لهذا الخدع والختل . ويخرجوا عن مثل هذا المكان الدنيء . والموطن الرديء . وقد خرجوا من الثروة والشرف . ودخلوا في البؤس والتلف . ونزلت بهم أنواع المرض والسقم . وصَبَّ عليهم سوط الأُحزان والنقم . ثم التفت الباشا الى الصديق . يسأله في أثناء الطريق :

(الباشا) - ألا تخبرني أيها الناقد الخبير كيف يصبر مثل هؤلاء الناس على الإقامة في هذا المكان ، وكيف يترددون عليه ليالى متتابعات ولا يدركون ما يدركهم فيه من الهلاك والوبال ، وقد كاد يُقضى على للإقامة فيه بضع ساعات . فاجارُ الضَّبعُ وما وَكُرُ الظَّرْبَانُ ^(١) وما قبرُ الميت ، يرحمنا الله وإياك ، بأنتن رائحة ولا أقدر مكاناً ولا أسوأ مقاماً من هذا الذي كنا فيه

(الصديق) - يصبر الناس على الإقامة في هذا المكان ويكثرُونَ من التردد عليه بحكم التدرج وإلفِ العادة وقوة التماذى وكأنما أبدانهم تتلقح شيئاً فشيئاً بسمه فلا تحس بضرره وألمه كالمرضى يذهله المُرقدُ عن ألم الداء وبترِ الأعضاء ، وإن شئت فكالهندي يتدرج ويرتقى في تناول الأفيون وهو سَمٌّ قاتلٌ حتى ينتهى بجسمه الى حالٍ لو لسعته معها عقربٌ أو لسبته حية لم يؤثر سُمُّها فيه ^(٢)

(الباشا) - أفدت بما شرحت . وقد بقي عليك أن تفسر لي

ما أشكل علىّ من أمر الرجلين مع العاهرة ، أحدهما الذى يقول إنه زوجها ، والثانى الذى أخذت بيده أمامه إلى بيتها

(الصدق) — أما الزوج فانه رجل من سَفلة المغاربة المتتمين الى دولة أجنبية تحميه من سلطة القوانين المصرية أن تناله عند مخالقتها ، وهذه المزية هى التى تؤهله عند العاهرة للتأهل به ، فتدخل حينئذٍ فى حمايته وتخرج ببركته عن دائرة المحاكمة والعقوبة اذا أنت فى فسقها وجورها ما يخالف أوامر الحكومة ، ويعيش الرجل معها زوجاً بالاسم ودَيُوثاً بالفعل ، وذلك فى مقابلة شئ من الدراهم يتناوله منها فى كل ليلة . وهذه الطريقة قد تألفها الناس ولم تقتصر على العواهر بل تعدتهن الى أرباب القضايا وأصحاب الجرائد فترى صاحب القضية يتنازل فى الظاهر عن قضيته الى أحد أولئك المسخرين من رعايا الدول الأجنبية ليخرج بها من نظام المحاكم الاهلية الى نظام المحاكم المختلطة إن ترجّح لديه نجاح قضيته فيها . وترى صاحب الجريدة الذى يزعم أنه الواعظ المرشد بين الناس الى محاسن الأخلاق وغرر الفضائل يضع على جريدته اسم الواحد منهم بأنه هو المسئول عما ينشر فيها ويُطبع ، ثم يملؤها بما تسوّله له نفسه من الطعن على أولياء الأمور وأرباب الحكومة وأشرف الناس ويسود صحيفته بكل فاحش من القول وبذى من الكلام ، فاذا عول أحد الناس على محاكمته يوماً من الأيام وارى وجهه عن المحاكم بوجه الأجنبي وقال لك : ما ذمّ الامراء ولا هجأ الأشراف ولا طعن

في الناس إلا صاحب الاسم المسئول فعليك به ، فاذا التمسته وجدته
بائع نعال يصفق بها في عرض الطريق وينتسب الى دولة من أكبر
الدول الأجنبية يمتنع بحمايتها من سلطة المحاكم والقوانين المصرية ولا
سبيل الى محاكمته إلا في بيت القنصل

وأما الرجل الذي سحبت العاهرة بيدها الى بيتها فهو صاحب ودّها
وحبيب قلبها تفضله في آخر ليها على كل رجل يتعلق بهواها ويذل
نفسه في سبيل رضاها ، ولا تعجب من سوء معاملته لها وسوء غطرسه
عليها فذلك مما يزيد بها فيه حباً ويولعها به شغفاً . والنفس الدنيئة الحفيرة
لا تميل الا لمن يادرها بالاهانة والتحقير ولا تنقاد الا لمن يتناولها بالضر
والأنى . فهو يضربها ويؤذيها على ما شهدت ورأيت ثم يتمتع بها
دون التهالكين عليها وينتفع بما تجمعه له من أموالهم لفضل هذا
الوحش الضارى عندها على تلك الدواجن التي تدب حولها

(الباشا) — لا شك أن في هذا نوعاً من الجزاء لهذه البنى على
بغيتها في الناس وسلبها للاموال وقتكها بالارواح وقلّ لمثل هذا الجزاء
المعجل في الدنيا قبل العذاب المؤجل لها في الآخرة

(الصديق) — لا تسهين أيها الأمير الجليل بما ينال مثل هذه العاهرة
في دنياها من الجزاء فانهم جميعاً في معيشة كلها هموم وأدواء . ومن تأمل
في حقيقة أحوالهم خفف من سخطه عليهم ووجد هنّ أحق بالشفقة من
القسوة . فان هذه الأموال التي ينهبها والأسلاب التي يسلبها لا تلبث

في أيديهن إلا ريثما ينفقنها في الحلى والحلّ . والعاهرة لا تنتهي حاجتها من الزينة ولا تخلو من حبيب تكفله وخلييل تقوم عليه فهي على الدوام في عسر شديد ودين ثَقِيل . وإن جميع ما عليها من الحلى والجواهر وما يتألق في عنقها من القلائد وفي معصمها من الأساور وفي رجلها من الخلاخل إنما هي كلها في الحقيقة أغلال وقيود يسحبها بها الصائغ والجوهرى في أسرٍ لا فكاك لها منه طول الحياة . وهي كما رأيت تقضي ليلها الى الصباح في شرب السُّموم من الخمر وفي تحريك الأعضاء والأحشاء بتلك الحركات المنهكة لقوى الأبدان وفي اشتغال الفكر بمراقبة الناس وتكأفِ التجبب اليهم وفي التفتن للتحايل عليهم ثم التعرض لسوء المنازعات والمخاصمات مع دوام التذلل والخضوع لصاحب الحان . فاذا انتهت من ذلك كله وصلت الى بيتها منحلة الأعضاء مفككة المفاصل فترتمى على فراشها كالرمة في مكان هو أقدر من ذلك الحان وأفسد منه هواء وربما لم تذق في يومها طعاما ولم تتناول في ليلها غذاء ، فاذا قامت من نومها بعد نصف النهار كالذى يتخطه الشيطان مصدعة مخمورة لا تشتهي طعاماً ولا تُسبغ شرا باحتى اذا تماسكت قليلاً بادرت الى إصلاح الفاسد منها ومدارة القبيح فيها بأنواع الزينة واللباس وقعدت لمقابلة زائريها إلى أن يدخل عليها المساء فتعود لما كانت عليه . لا تزال المسكينة هكذا دائرة في حلقة من التعب والوصب ولا خلاص لها منها إلا بحلول

الأمراض والأوجاع ثم يُقضى عليها وهي في المعصية بعيدة عن ذوى الحنو
والإشفاق من الأهل والأقارب ، وذلك هو البلاء العظيم والعذاب الأليم
قال عيسى بن هشام — وما راعنا في طريقنا الا صوت الديك يؤذن
بالصباح . وصوت المؤذن يؤذن حتى على الفلاح . فأسرعنا نطلب مأوانا .
وندرك أم مثوانا . ونحن نسأل رب الأرض والسموات . أن يغفر من
ذنوب المسلمين والمسلمات

العمدة في الرهن

قال عيسى بن هشام - ولما ارتفع وجهُ النهار أو كاد . ومسحنا عن
النواظر كحل الرقاد . بادَرنا كل الإِبدار . بالخروج من الدار . لنالحق
بأولئك الرفقاء . في المكان المَعينِ للقاء . فقصدنا «قبوة القزاز بالموسكى»
فوجدناها تتموج بالداخلين . وتضطرب اضطراباً بالواقفين والقاعدين .
فوقفنا هنيئةً نرسل النظر إرسالا . ونتصفح الوجوه يمينا وشمالا . حتى
اهتدينا الى « الصديق » جالسا جلسنا عن جانبيه . ورأينا العمدة جالسا
بجانبنا مع صاحبيه . فاذا العمدة يئن تحت المموم المتقاطرة . من سواد ليلته
الغابرة . حيث ناله فيها من الهوان ما ناله . وأضاع تحت أقدام الراقصات شرفه
وماله . ورهنَ ما رهن من حلية ومتاع . من غير لذة ولا استمتاع . فهو
متخاذل متضائل . « له شِقٌّ مائل . ولونٌ حائل . ولعابٌ سائل » .
وسحنةٌ مُغبرة . وأاملٌ مُصفرة . وجفونٌ محمرة . وأحداقٌ جامدة .
وأعضاء هامدة . ورأسٌ متصدع . ونفَسٌ متقطع . يفتح تارةً فاه .
ويحُكُّ طورا في قفاه . فيخاله كلُّ من يراه . نِضْوَ سفرٍ ^(١) أضناه الشرى
وبراه . أو حلفَ تسخير أذمته العصا وألهبه السوط . ليلبغ من جهد
« السخرة » متعهى الشوط . واذا التاجر بجانبه يقلب حدقتيه . ويتعجب
بشفتيه . ويصعد أنفاسا كالحريق . في ميزاب من الريق ^(٢) . كأنه
ذئب يهَمُّ بالعميان . ويخشى صولة الرُعْيان . أو صائداً يخاف أن يخونه

(١) النضو، الهزول من الحيوان (٢) الميزاب ، القناة يجري فيها الماء

كيدُهُ . ويُفَلَّتْ مِنْهُ صِيدُهُ . والخَلِيعُ بينهما يطرق برأسه . ويحكم ما في نفسه . متفكراً يَنْكُتُ الأرض بعصاه . ويحاول أن يبلغ من الغرض أقصاه . دائماً يبرم الخديعة ويهيئ العُدَّة . ليستقطها على رأس التاجر ودماغ العمدة . ورأيتُك هنالك مِنْ دونهم نفراً . لا يحولون عنهم نظراً . كأنهم الطيور الجارحة . تترقب حمامة سائحة . فاستخبرنا من الصديق . عن شأن هذا الفريق . فقال هم جماعة من الفئة الباغية الماكرة . والطائفة الرابعة الخاسرة . طائفة الوسطاء والسمايرة . وشاهدنا الخليع يُوحى اليهم باللحظ والنظر . كأنه يماهدهم على النجح والظفر . ثم سمعناه يقول للعمدة تهويتنا لأمره . وتيسيراً عليه من عسره :

(الخليع) - لا تهتم يا مولاي ولا تنعم فالخطب أهون مما تظن والامور بأمر الله مبسرة والحاجات بإذنه مقضية

(التاجر) - ان كان التيسير من جهة الاقتراض فأنا لا أنصور أن أرباب الأموال يقرضون اليوم أحداً بدون التوثيق من الرهن لزوال الثقة بين الناس في هذا العهد عهد المماكسة والمضاربة . وفي هذه الحالة أراني أوتى الناس بتأدية هذه الخدمة لصاحبى فاني له أرجح جانباً وأرجح معاملة وأنقص في قدر « الفائدة » من سواى

(العمدة) - لا أرى في ذلك من بأس لو كان في الوقت سعة وفي الحالة مهلة تسمح بما يقتضيه إجراء الرهن من الكشف والمعاينة ، والتحديد والتقويم ، والتقدير والتحرير ، والتقييد والتسجيل ، الى غير ذلك

(الخليع) - ولا تنسَ ما يكون وراء ذلك من سوء السمعة وقبح الشنعة بين الأهل والجيران . وصدقَ من قال « يَبِيعُ الشَّيْءَ خَيْرَ مِنْ رَهْنِهِ ، وَالرَّهْنُ يُبِيعُ وَغَبْنٌ » وأنت بحمد الله لك صيت بالغنى وشهرة بالثروة وأنا أضمن أن توقيعك وحده يكفيك مؤونة الرهن عند الاقتراض

(التاجر) للخليع - ما أحسن هذا لو أنه يتم ، ولكن لا تنسَ أنت أيضاً ما قيل : « ان الذى يقرضك على الشهرة والسمعة ، لا بد أن يأخذ فائدة شهر في جمعة » ولن يخاطر أحد من أرباب الأموال بماله من غير رهن إلا مَنْ ضمن لنفسه الفائدة الجسيمة والربح الطائل

(الخليع) للتاجر - ما بالك تعسر علينا في الأمور مع إمكان تيسيرها ، ولا يأخذك شكٌ فيما أقول فأنا أضمن الحصول على القرض في هذه الساعة في هذه القهوة في هذه الجلسة . ولا محل للتخوف من جسارة الفائدة ما دام وقت الحصاد قريباً والتسديد عتيداً

(العمدة) للخليع - هكذا يكون التسهيل والتيسير بين الأصحاب والاصدقاء ، وهكذا تكون محاسن الشيم ، يا أبا المكارم والمهم

(التاجر) - قد قلت ما عندى ، وكل انسان حرّ في عمله

(الخليع) للعمدة - قل لى كم تريد أن يكون مبلغ القرض

(العمدة) - يكفينى على ما أظن مقدار مائة جنيه لسد الحاجة في

الحالة الراهنة

(الخليع) - هذا التقدير ضعيف ، وماذا ينفع مثل هذا القدر القليل

وبعًاذا يفيد ، وعليك قبل كل شيء تسديد ما لصاحبنا هذا في ذمتك من الدين ثم يتبعه ما لصاحب الحان لفك رهن الساعة والخاتم ، وأضف الى ذلك ما يلزم لك من المال لتأجير البيت الذى تريد سكناه فى حلوان وما يتبعه من أعنان الفرش والأثاث . هذا غير ما يجب ان يكون فى يدك للبذل والإنفاق فى أوقات الأتس والطرب ، وأنت بلا شك فى حاجة عظيمة اليها بعد كل هذا التعب والكدر ، فلا بد لك حينئذ من اقتراض مبلغ خمسمائة جنيه على الأقل ولا سيما أن أرباب الأموال الذين أعرفهم لا يقرضون أقل من هذا المقدار ان كانت مدته قصيرة

(وهنا يؤمى الخليع الى جماعة السماسرة بالحضور فيتقاطرون عليه ، فيهمس فى أذن أحدهم كلاماً ثم يجهر لهم بالخطاب فيقول) :

(الخليع) — اعلموا أن سمادة البك هو العمدة فلان الفلانى من كبار المزارعين الذين يمتلكون من الأطنان والعقار ما هو معروف مشهور ، ولم يسبق له اقتراض مال قط وليس عليه دين مطلقاً وأطياناه وأملاكه خالصة له بلا منازع ولا مشارك ، وقد حلت به ظروف استنفدت جميع ما كان يحمله معه للإئفاق فى مدة وجوده بالقاهرة ، وهو الآن فى حاجة الى اقتراض خمسمائة جنيه يقوم بتسديدها فى أو ان الحصاد الآتى ، ولست أرى له أن يقترض مثل هذا المبلغ الزهيد بالرهن من أرباب المصارف الكبيرة لما يجرى عندهم من طول التحرى والتنقيب وتضييع الوقت جهلاً منهم بحالة أعيان البلاد

(أحد السماسرة) — مرحباً بسعادته مرحباً . وما هو بالمجهول
عندنا فانا نعرفه كلنا وبما وصفته من شرف البيت وسعة المال زاده الله
منه . كان للمرحوم والدى مع المرحوم والده معاملة قديمة وصحبة أكيدة
وطالما سمعت من والدى وأنا صغير السن أنه لا يوجد بين أعيان القطر
مثل المرحوم فى الصدق والأمانة وكرم الخلق وسماحة النفس . ولكذك
تعلم أن الدرام عزيزة المنال فى هذه الأيام وقل من يخاطر بقرض هذا
المبلغ من غير رهن يوازيه أضعافاً مضاعفة ، ولو كان الأمر لى وحدى
لما تأخرت عن إجابة الطلب بدون ميثاق أو رهن أو فائدة اكراما
للسحبة القديمة بين والديننا وتوثيقاً لعرى المحبة بيننا ولكن شريكى فى
الاشغال رجل متفرنج من أبناء هذا العصر لا يعرف حقوق المودة
القديمة ولا يرضى بقرض المال الا اذا كان مستجماً للشروط القانونية .
ومع ذلك فانا أعمل معه جهدى وأرضاه بضمانتى أولاً و « بتشريف »
مقدار « الفائدة » ثانياً ، فان اتفقتم معى على أن تكون الخمسةائة بنمائنة
الى وقت الحصاد باشرت معه الأمر وقت بالخدمة الواجبة على لسعادة
البك

(التاجر) — سلام قولاً من رب رحيم . أيكون مقدار الربا
فوق مقدار نصف القرض . . . ما سمعنا بهذا فى آياتنا الأولى

(السمسار) للتاجر — اعل مولانا من المجاورين بالأزهر الشريف
فانه لا يستعظم مثل هذه « الفائدة » فى الأحوال الحاضرة الا من

يعتقد بتحريمها . على أن الربا محرّم عندنا أيضاً كما هو محرّم عندكم
ولكن « الضرورات تبيح المحظورات »

(العمدة) — حضرته ليس من المجاورين بل هو من التجار
المشهورين

(السمسار) — اذا كان حضرته من التجار فلا بد أن يكون وافقاً
على ضيق الحال وقلة المال وكساد السوق وعالماً بمقدار « الفائدة » في
قرض من غير رهن . ثم إنه لا يجهل في الأشغال تكاليف المشاركة ...
والمساهمة ... والمقاسمة ... ان شاء الله

(التاجر) — نعم نعم ولكن يجب إتقاص مقدار « الفائدة » على
كل حال فان أنت رضيت بأن يكون مبلغ الخمسمائة بسبعمائة وخمسين
رضيتُ أنا لسعادة العمدة بالاقتراض منك وحكمتُ بذلك عليه

(السمسار) — ما أصعب المعاملة مع التجار . وما دمتَ حكمت
حكمتك فلا مردّ له عندنا وما علينا إلا الطاعة والقبول لا كراماً لسعادة
البك ، فتفضلوا بالنهاب ممي الى المحل على بركة الله لإتمام الأمر
مع شريكى

(الخليع) — لا حاجة الى ذهابنا جميعاً ويكفى أن يذهب معك
سعادة البك وحده فان المسألة صارت بسيطة ونحن نمكث هنا في الانتظار
قال عيسى بن هشام — وقام العمدة مع السمسار وأقننا جالسين في
مكاننا نتشاغل بالحديث مع الصديق ونستفيد من واسع علمه أموراً شتى

مدة من الزمن ، واذا بالعمدة عائداً وحده مقطب الوجه منقبض النفس
فأسرع الخليع والتاجر الى لقائه واستخباره عما جرى له
(العمدة) — لعن الله الحاجة والاضطرار. وما كان أغنانا عن هذا
الخراب والدمار

(الخليع) — وماذا وقع بك ودهمك. هل خاب الأمل في عقد
القرض أم عقده وسُرقت منك الدراهم
(العمدة) — لم تُسرق كلها بل نصفها

(التاجر شاهقاً والخليع محملاً) — وكيف كان ذلك

(العمدة) — ركبت مع الرجل وذهبنا الى محل شريكه فأجلسني
هناك ناحية وكتب الصك وختمته ثم إنه انفرد بشريكه يناقشه ويجادله
ثم عاد الى عابس الوجه يقول لي إن الأمر متعذر متعسر وانه بذل كل
ما في وسعه من طرق الاقتناع والرجاء ليقبل شريكه بقرض المبلغ ، فلم
يقبل ولم يتحول عن رأيه . ثم أخذ يظهر لي أنواع التأسف والتوجع
خليية مسعاه ويشير على بالصبر أياماً حتى تنفج الشدة وتنقضي الازمة ،
فأريتُهُ شدة ما بي من الحاجة الى الدراهم في هذا الوقت وليس في الاستطاعة
تأجيل الاقتراض وهمت بالرجوع اليكما لترشداني الى باب آخر يأتي
بالتيسير المطلوب ، فدنا مني شريكه عند ذلك وقال لي يمز على والله أن
أردك خائباً وأرفض رجاء شريكى ولكنك تعلم مقدار العسر والضيق
الذى لحق بهذا القطر في هذا العام من كساد الموسم وانخفاض النيل

وانتشار الدودة وكثرة المضاربات وظهور الأوبئة والطواعين . وأنا أقسم لك بِشَرَفِي وذمتي وأولادى أنه لا يوجد فى محلنا من الدراهم الآن سوى أربعمائة جنيهه هى أمانة عندى لطفل يتيم من أقاربنا نشتغل له فى استثمارها بكل احتراس واحتياط ، وأنا أضنّ بها وأحرص عليها أشد من حرصى على أموالى ، ومع ذلك فقد فكرت طويلاً وعوّلت على أن أضعها بين يديك لشرف مكانتك عندنا وحسن سيرتك وجعلتها أول خدمة جليلة نقدمها اليك . فأسرعتُ الى قبولها مع الشكر والامتنان ، فأخرج صرّة ووزن ما فيها من الذهب ثم سلّمه الىّ فعددته فوجدته أربعمائة تماماً ثم وضعتها فى جيبى وطلبت منه تغيير الصك لأن المبلغ المسعى فيه يزيد مائة جنيه عما قبضته من الذهب ، فتلكأ فى الإجابة واعتذر الىّ بأن فرق ما بين المبلغين يبقى عنده بعضه لربح اليتيم وبعضه لنفقات القضية من رسوم وأتاعب محاماة إن وقع منى تقصير فى التسديد عند الميعاد لاسمح الله كما هى العادة السائرة اليوم . فهالنى الأمر ونبذت الدراهم وطلبت منه أن يرده لى الصك فى الحال ، فلم يلتفت لقولى واشتغل عنى بالكلام مع بعض الوافدين اليه وأنا مقيم على مثل الجمر ، وكلما أشرت اليه بإشارة من بعيد ليكلمنى أوى وجهه عنى وأظهر الاشتمزاز منى ، فتفقدت السمسار الشريك داخل المكان وخارجة فلم أجده له أثراً ، فاشتدّ بى الكرب وحرّقنى الغيظ فلم أتمالك نفسى وهجمت على صاحب المحل فأمسكت بتلابيبه أطلبه برده الصك ، فأظهر لى حينئذٍ من الملائنة والملاطفة ما حلّ خناقه من

يدى وقال لى إنه لا يمنعه عن إجابة طلبى إلا غياب الشريك فان الصك
كتب بحضوره ولا يجوز أن يسلمه الى بدون علمه ، فعلى أن
انتظر أوبته . وبينما نحن على هذه الحال وإذا بسعادة عمر بك
صهر مديرتنا قد دخل علينا فما وقع بصرى عليه حتى تراخت مفاصلى
خجلاً منه وحياءً أن يسمع ما يجرى بيننا ويرانى فى مثل هذا الموقف
فتسقط منزلتى فى عينه وعين صهره ، فتقدمت اليه وسلمت فردّ على
التحية بالتكريم والتعظيم ، فلحظ اللثيم صاحبُ المحل ما أنا فيه فانهز
الفرصة وقصّ على سعادة البك قصتنا على حسب هواه وطمّلب حكمه
فى الامر . فقال له سعادة البك لا يليق بك أن تتنازع مع حضرة العمدة
فأنا أعرفه رجلاً من عيون المديرية التى يديرها صهرى وله شهرة عظيمة
بحسن السيرة وسعة الثروة . ثم التفت الى وقال : وأنت لا يجدر بك
أن تخالف حضرة الخواجه وهو رجل مشهور بالأمانة وحسن الماملة ،
واذا كانت نقطة الخلاف فى مائة الجنيه التى حجزها عنده لنفقات القضية
فأنا لا أشك فى أنه سيردها اليك بتمامها عند إيفاء الدين فى ميعاده ، وأنت
بحمد الله فى ثروة لا يتصور معها التأخر عن التسديد ، وإن كنت لم
تتعامل مع الخواجه الا فى هذه الدفعة ولم تجرب مقدار أمانته وحسن عهده
فانى أكفل لك صدقه ووفاءه . فاضطرت من كل الوجوه الى التسليم
والإذعان وأخذت الدراهم وسلمت على سعادة البك وقلت له عند خروجى
لا يظن سيدى أننى اقترضت هذه الدراهم للضرورة والعسر فان الأمور
ميسرة بفضل الله ، ونعمة الله وافرةً على كما يعلمه سعادة صهركم المدير

ولكنني وجدت فرصة لا أعرض في أثناء إقامتي بالعاصمة وهي مشترى أطيان من أحد أولاد الذوات وهو في حاجة الليلة الى استلام العربون ولا يمكنه أن يمهلي ريثما أستحضر له المبلغ من البلد فاضطرت للاقتراض على هذه الصورة . فقال لي نِعَمَ ما تفعل وبارك الله لك في البيع والشراء، ثم إنه حملني سلاماً وكلاماً لسعادة المدير، وانصرفت وخلقتة مقيماً مع الخواجه ، وحضرت اليكما ولم يدخل في يدي من مبلغ الدين المسمى بسبعمائة وخمسين جنيهاً الا أربعمائة جنية فقط، فهذا معنى قولي لكما لم تُسرق مني الدراهم كلها ولكن سُرق نصفها

قال عيسى بن هشام - وكنا نشاهد في أثناء هذا الحديث رجلاً واقفاً على رأس العمدة ينتظر انتهاء من الكلام وهو يحدّ اليه يديه ويحرك شفتيه فتبيننا من هيئته انه سائق المركبة يطالب العمدة بالزيادة في قيمة الاجرة ، ولما فرغ العمدة من كلامه بادره السائق بقوله :

(السائق) - خَلَصْنَا من فضلك ياسيدنا السيد فقد طال وقوفي

وعطلتني عن شغلي

(العمدة) - أنا لا أعطيك شيئاً زيادة عما دفعته اليك ففيه الكفاية

(السائق) - مَنْ يقول يا حضرة الشيخ أن خمسة قروش تكفي

في أجرة المركبة مدة ساعتين تنقلت في أثناءها من مكان الى مكان ثم عدتُ بك الى هذه القهوة . وأنا لا أبرح مكاني حتى تعطيني الأجرة اللائقة بهذه المدة ، وان كان الذنب من جهتي لأنني قبلت أن تركب معي ورفضتُ ركوب الخواجه الذي استوقفني قبل ركوبك ظناً مني أنك

من كبار العمد الذين لهم تردد كثير على العاصمة ويعرفون مقدار أجره المركبات ، ولكن ظهر لى الآن أن هذه أول مرة لك فى زيارة العاصمة وفى ركوب المركبات وجعلتنى أفضل « برنيطة » الخواجه على عمامة السيادة ، فلا حول ولا قوة الا بالله ، خلصنا ياسيدى

(الخليع) للسائق — اسكت عن هذا الكلام البارد وهاك قرشاً سادسا خذهُ وانصرف

(السائق) — كن محضر خير يا حضرة الأندى واعلم أننى لا أقبل زيادة قرش أو قرشين مطلقاً فيما الأجرة اللاتقة وإما الذهاب معى الى صاحب المركبة

(العمدة) — دونك قرشاً آخر فاتركنا واذهب لحالك

(السائق) — كيف أذهب وكيف أقبل سبعة قروش فى أجرة هذه المسافات الطويلة مع طول الانتظار ، فهل تحسبها أجرة ركوبك من هنا الى محل الخواجه أو أجرة انتظارى هناك زيادة عن الساعة أو أجرة ركوبك من محل الخواجه الى دكان الكوارع وانتظارك مدة الأكل أو أجرة رجوعك الى هنا ووقوفك فى الطريق عند بائع الفاكهة

(التاجر) — دكان الكوارع ! ! ! ! ! وبائع الفاكهة ! !
« واحرَّ قلباهُ ممن قلبهُ شِم »^(١)

أهكذا يكون شرط الصحبة والوفاء تتركنا على الجوع وتنفرد دوننا بالأكل ونحن معك لم نذق منذ أمس طعاما

(العمدة) - ما أُلْجَأَني إلى ذلك وَحَقَّ الصَّحْبَةُ إلا الجوع المفرط
واحْتِياجُ الجِسمِ إلى ما يقيمه فإني أَحَسَّستُ بالنور ظلاماً في عيني ، من خلو
البطن ، وأَشْهَدُ أن الجوعَ كافر

(السائق) - أدركوني برحمتكم فهذا جنديُّ البوليس يأخذ نمرّة
المرْكبة ليكتبها في المخالقات حيث خلَّفَتْها واشتغلت عنها بكم
(الخليع) - لقد صدَّعتنا وشغلتنا نخذُ هذا القرش أيضاً وأنا
أُخلِّصُك من جنديِّ البوليس ، والآنَ فَإِنِّي أقوم إلى « القسم » وأرفع
الشكوى لاجترائك علينا ، ولا تَجِدُ في « القسم » مَنْ يرحمك

(السائق) - ما باليد حيلة ، أعطني ما تريد وقُمْ أَشْهَدُ عند جنديِّ
البوليس بأنني في انتظاركم حتى أخلص من المخالقات ، والله يُعوضني خيراً
ولا يحكم عليّ بركوب أمثالكم مرة ثانية

(الخليع) للعمدة قائداً - قد اتَّهينا والحمد لله من جميع العقبات
فلننظر الآن في تدبير شؤوننا ، وهلمَّ فادفعْ أولاً مبلغ الصك المطلوب
منك لصاحبنا هذا ، ثم نُثْنِي بصاحب الحان لفكِّ الرهن ، ثم نلت
بمشتري المقتنيات اللازمة لك

(العمدة) - نعم لك ذلك وهذا هو المبلغ المطلوب لصاحبنا جزاء
الله خيراً

(التاجر) بعد استلام المبلغ - أَسْتَغْفِرُ اللهَ فالفضل والشكر لك على
كل حال ولكن يتعذر عليّ أن أرد اليك الصك في الحال لأنني تركته
بالمَنْزِلَ فالأليق أن تَبْقِيَ المبلغ حتى آتيك به غداً

(الخليع) - سبحان الله ما هذه المعاملة التجارية بين الأصدقاء
الأوفياء ، وهل يجوز بينهم ذكر الصكوك والخطوط في معاملتهم ، فتقديم
الصك وبقاؤه عندك سيان ما دام المبلغ تسدد لك ودخل في جيبك
(العمدة) - صدقت صدقت فليس بين الاخوان ما يدعو للتوقي
والتحرس في مثل هذه الأمور . وقوموا بنا الى صاحب الحان
(الخليع) للتاجر ضاحكاً - انظر اليه فلا يزال قلبه يحن وهو اه
يميل الى سكان تلك المعاهد والديار

(العمدة) - أقول لك الحق . ان غيظي من معاملة تلك المرأة
القاسية شديد وحنقي عظيم ولست أنسى ضروب تفنها في التدلل على
والتمنع مني ولا أغفل عن تلك النظرات التي كانت ترسلها الي بالتعطف
والتلطف وأنا أسحبها من شعرها . وبودى لو أراها مرة ثانية فأوسعها
عتاباً وأشبعها تأنيباً

(الخليع) مبتسماً - أنا فهمت غرضك وعرفت نيتك . تريد من
العتاب أن ينتهي بك الى العتبى وتخرج بها من التعنيف الى التلطيف ،
وما ألد الرضى بعد الغضب وما أمتن الصداقة بعد العداوة . لكنى أقول
لك قول المشفق الناصح إنك مهما حاولت مع هذه المرأة فلا يمكن أن
يخلو لك وجهها بالليل مطلقاً لكثرة شغلها وازدحام الحائمين عليها ، وانما
لراى لك ان تلمسها نهاراً وتدعوها للغداء ممك في بعض جهات النزهة ،
وأنا أفضل نزهة الأهرام على سواها فانها تكون هناك خالصة لك من
دون الناس بمعزل عن العذال والرقباء

(التاجر) — ما أدقَّ الحيلة وما الطفَّ الرأى

(العمدة) للخليع — لله درك فما حار مَنْ أنت حاديه ، ولا ضلَّ

من أنت هاديه . وهياً بنا الى الحان أولاً لفك الرهن

(الخليع) — ولعلنا نُصيب خادم المرأة هناك فترسله اليها بمرض

التماسنا . ولا شك عندي في إجابة سُؤلنا

(العمدة) — نعم نعم وليكن الاجتماع بها غداً نغير البر عاجله

(الخليع) — لك ذلك بكل تأكيد إن شاء الله

قال عيسى بن هشام — وقاموا ونحن نعجب من كيد الإنسان

للإنسان . بما لا يأتيه حيوان مع حيوان . ثم بادرتنا نحن أيضاً الى القيام .

على أن يكون الاجتماع غداً في الأهرام

العمرة في الأهرام

قال عيسى بن هشام - ولما وقفتُ بنا الركاب في ساحة الأهرام .
وقفنا هناك موقف الإجلال والإعظام . قُبَالَةَ ذلك العلم الذي يطاول
الروابي والأعلام . والمهضبة التي تعلو الهضاب والآكام . والبنية التي
تُشْرِف على رَضْوَى وشَمَام^(١) . وتُبْلِي ببقائها جِدَّة الليالي والأيام . وتَطْوِي
تحت ظلها أقواماً بعد أقوام . وتُفْنِي بدوامها أعمار السنين والأعوام .
خَلَقَتْ ثياب الدهر وهي لا تزال في ثوبها القشيب . وشابت القرون
وأخطأ قرنُها وَخَطُ المشيب . ما برحت ثابتة تناطح مواقع النجوم .
وتسخر بشواقب الشهب والرجوم . وتحدث حديث المشاهدة والعيان .
ما تعاقبَ الفتيان^(٢) . وتناوبَ الملوك . عن قدرة هذا الإنسان . في بدائع
الصنع والإتقان . وتُنْذِي عن قوة هذا الضعيف الضئيل . في إقامة هذا
الأثر الجليل . وكيف جاز لهذا الفاني البائد . أن يصدر عنه مثلُ هذا
الباقي الخالد . وجلَّ صنعُ القدير الخالق . في تصوير هذا الحيوان الناطق .
حيث جعله مصدراً للأعمال المتناقضة . والأفعال المتغابرة المتعارضة . فبينما
تراه يصعد إلى أجرام السماء وعوالمها . ويبحث بفكره في رسومها
ومعالمها . ويسير بعلمه في أنحائها ومناكبها . ويهتدي لحساب أقارها
وكواكبها . اذ تراه يعثر عثرة برجله . فيكون فيها منتهى أجله . أو
يكبو في طريقه . فيغصّ بريقه . ويهوى بإذن الله إلى مكامن الخلد^(٣) .

(١) جيلان معروفان (٢) الفتيان ، الليل والنهار (٣) الخلد ، العارة العمياء

وهو طامع في شجرة الخلد . فهو ذاك الذي كَبُرَ وصَغُرَ . وعَظُمَ وحَقُرَ .
وعَزَّ وذَلَّ . وكَثُرَ وقَلَّ . وصَعِدَ وهَبَطَ . وعلا وسقط . وصلح وفسد .
وعَرَفَ وجَحَدَ . وسَعَدَ وشَقِيَ . وقَيَّ وبَقِيَ . وسبحان القاهر فوق
عباده

ثم انتقلنا من التفكير . الى التفسير . وانبرى الباشا يكشف عن
ضميره . ويقول لنا في تعبيره :

(الباشا) - كنت أعتقد وأنا في سالف الأوان . ان هذه البتية
لمصر تاجها الذي تفاخر به التيجان . وأعجوبتها التي تباهى بها الأقطار
والبلدان . وشاهدتها الذي يشهد لها بالمدينة والعمران . ولكني أراها اليوم
بعد أن استضأت بنور العلم واهتديت بهدى العقل ، وبمحت في حقائق
الأمر ، أن لا مزية فيها ولا خير منها ، سوى أنها أحجار مرصوفة .
وجنادل مصفوفة . لا تمتاز عن جبل من الجبال . أو تل من التلال .
فهل تعلمان لها من معنى فامض التوى على فهمه . أو سر خفي عز
على علمه

(الصديق) - ليس لها على الحقيقة من سر خفي ولا من فائدة
بادية سوى أن بعض القدماء من أغبياء الملوك وطغاة الولاة كانوا
يعتقدون بالرجعة في هذه الدنيا بعد المات وأن أرواحهم تعود ثانية الى
أجسادهم بعد أن تنتقل مدة من الدهر في أجسام أخرى ، فكان همهم في
حياتهم مصروفًا الى حفظ أجسادهم من البلى بعد موتهم في قبور مشيدة

قائمة على الدهر لتعود إليها الأرواح بعد طول التنقل والتطور مثل هذه الأهرام وخلافها. والناظر في الآثار المصرية يحكم حكماً قاطعاً أن التقدم والتفنن في البناء والتصوير عند المصريين ينتهي أغلبه إلى المعابد والمقابر وكانت قصورهم وبيوت ملوكهم مبنية بلبن الطين كأدنى الأكواخ قاعين بذلك في جانب تسخير الأمة بأسرها في نقل الصخور ورفع الأثقال لا ببناء مثل هذا البناء واتخاذ قبراً لهم تُحفظ في جوفه أجسادهم بعد تحنيطها سالمة من البلي إلى الرجعة - ولكن إلى المتحف متحف الجيزة - فتسخير الأمة المصرية وتمطيل أعمالها وتزريق أبدانها وإهراق دماؤها وإزهاق أرواحها في بناء هذه الصخور إنما كان لفكر ساقط واعتقادٍ سخيف من ملك جاهل لفائدة له موهومة ، أو من عمل كاهن ما كره لمنفعة له معلومة . ومثل هذا لا يكون فيه من نخر لمفتخر ولا من عزة لمعتز ، وما هو إلا الظلم والغشم والضلال والجهل . وما لهذه المهرمين من معنى اليوم غير أنهما قائمان على الدهر شاهديّ عدلٍ على سابق الشقاء في الأمة المصرية وما كانت تقاسيه من فظاعة الذل والهوان ومرارة الاسترقاق والاستعباد . ولو كان لأولئك الملوك أدنى لمحة في ارتقاء المدنية والعمران لسكانت هذه الأحجار والصخور مرتفعة في بناء القناطر والجسور . وتالله لباني القناطر الخيرية مثلاً في نظر الباحث المدقق أحقُّ بالعزة والفخر من أولئك الملوك عبّاد الأوهام ومستعبدى الأنعام . وما أعلم لهذا الهرم من معنى آخر يُذكر سوى أنه صار يوماً من الأيام منبراً من المنابر اعتلاه جبار آخر فرنسيّ اسمه

نابليون نخطب من فوقه على جنوده بكلام يَهْزُ فيهم أَرْجِيَّةُ التفاخر والتباهي ويخدعهم به ليظلموا على العمى في طاعته يمارسون الحروب ويعانون أهوال الوقائع ويصبرون على الموت والقتل في هواه . وما لهذا البنيان اليوم من فائدة حاضرة إلاَّ كونه صار مورد رزقٍ لجماعة من العربان التهوا به عن ابتغاء الرزق من قطع الطريق على السابلة . ومما يحضرنى الآن من كلام بعض المؤرخين في شأنه : أن الملك الذي شيدته أمر أن يكتب على جدرانهِ عقب الفراغ منه هذه العبارة عن لسانه على جهة التحدى : « إني ابتنيتُ هذا البناء في ثلاثين عامًا فان جاء بمدى من الملوك مَنْ يدعى القوة والقدرة فليهدمه في ثلاثمائة عام » . ولو عقل المسكين أنه سيأتي عصر من العصور يمكن فيه لأحقار صملوك أن ينسف هذا البناء في لحظة واحدة فيجعله كالعهن المنفوش والهباء المنثور بمقدار قبضة اليد من بعض الأجزاء الكيميائية لما اغتر بسعة القوة والسلطان . ولما تحدى بشيء سلَّمه ليد الخدشان . وليس للحدثان من أمان . اللهم إني أدعوك لتعلم أنه عمل ضائع . من جهل ضائع . لا ينبغي للمصري أن يراه إلا بدمع منهمر . وقلب منقطر . لأنه الشاهد الأكبر على كبرياء كبرائه . وهوان أجداده وآبائه

قال عيسى بن هشام - وهنا رأينا أصحابنا قد أقبلوا ويدينهم تلك العاهرة الفاجرة فأشارت عليهم بالجلوس فاتخذوا لهم مجلساً في ظل من ظلال الأهرام وانبطوا على بساط الشرب والنقل . فقطعنا من بيتنا

حديثنا وانهينا الى جوارهم لنسمع ونرى من أخبارهم وأحوالهم ، فاذا العمدة يقول للتاجر متظاهراً أمام المرأة بمظهر الباحث المدقق والعالم المحقق

(العمدة) — هل لك علم أيها الصاحب بشيء عن أصل هذه الأهرام ونسب وضعها وتاريخ تشييدها

(التاجر) — كيف لا يكون لى علم بذلك وقد وقفتُ على قصتها تماماً وقرأتها مراراً في كتاب « قصص الأنبياء » عند الكلام عن سيدنا نوح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام بحيث يمكننى أن أقصها عليك حرفاً بحرف : ذلك ان الملك « سودون » كان ملكاً على مصر قبل الطوفان ، فرأى فى منامه رؤيا أفزعته فاستدعى السحرة والكهنة والمنجمين وقص عليهم انه رأى النجوم تنارت والقمرَ هاوياً الى الأرض فقالوا له ان هذه الرؤيا تدل على حدوث طوفان عظيم يغمر الأرض قريباً ولا يُبقى على شيء فيها ، فارتاع الملك واستشارهم ماذا يفعل للنجاة من من هذا الحادث العظيم فأشاروا عليه بابتناء هذه الأهرام حتى اذا حلّ الخطب انتقل اليها واستعصم بها مع أهله وحاشيته وذخائره وكنوزه ، فحشد الملك الألوف المؤلفة من الخلق وسخرهم لهذا العمل فأتَمَّوا له هذا البناء فى مائتين وخمسين عاماً ، ثم كساها بالديباج وفرشها بالحرير ونقل اليها من نفائس الجواهر وذخائر الكنوز مانع الناس فى حمله ونقله شهوراً كثيرة ، ثم إنه جمع السحرة فحُصِنوها له بالأرصاد والطلاسم ،

ولما قرب وقت الطوفان لجأ اليها بأهله وحاشيته وطغى الطوفان فلم ينبج منه الا أهل السفينة وعُوجُ بن عُتُق وهذه الأهرام . وعُوجُ بن عنق هذا هو حفيد آدم عليه السلام وُلد في زمن جدّه وأدرك موسى صلوات الله عليه ، وذكروا أن ذلك الطوفان الذى عَلَا الهضابَ والجبالَ لم يبلغ حدّ ركبته فكان يخوض فيه مع السفينة فاذا أحسّ بالجوع مدّ يده الى قاع البحر فأخذ الواحدة من السمك فيُدنيها من عين الشمس ويأكلها مشوية ، ولما انتضى الطوفان وعاد العمران الى الدنيا أخذ يعيث في الأرض فساداً دهرًا طويلاً حتى بعث الله موسى عليه الصلاة فشكا الناس اليه ما يفعله عوج بن عنق ، فدعا الله أن يكفيهم شرّه ، وكان عوج بن عنق قد حمل صخرة فوق رأسه لياقيها على أهل بلدة حلّ بهم غضبه فأرسل الله تعالى طيراً له منقارٌ من الفولاذ فاذا زال ينقر الصخرة من وسطها حتى ثقبها فسقطت في رقبة حاملها وصارت غلاً له يمنعه عن الحركة والانتقال فجاء موسى بمصاهُ وكان طوله عليه السلام أربعين ذراعاً وطولُ المصاهُ أربعين ذراعاً ، ثم إنه وثب في الهواء أربعين ذراعاً ، وضربَ عوجَ بن عنق ضربة فلم تتجاوز كعبيه ، ولكن قوة سيدنا موسى ألقته إلى الأرض لأنه من أولى العزم فوقع عوج بن عنق في النيل فخرّهُ عن أرض مصر سنة كاملة ووقعت الوحوش الضارية تنهش من رجله فكان إذا مرّ عليه مارٌ عند رأسه قال له : اذا وصلت بسلامة الله الى قدّمى فامنع عني ما يؤانى من هذا الذباب « يعنى الوحوش المفترسة ، وبقي على هذه الحال الى أن مات فاتخذوا من أضلاعه قناطر للنيل ، واتخذت

الوحوش من عينيه وأذنيه ومنخريه كهوفاً ومغائر تسكنها وكفى الله العباد شره وفساده »

(العمدة) - سبحان الخلاق العظيم ، أرجوك بالله يا أخى أن تشتري لى نسخة من هذا الكتاب أحملها معى الى البلد ليقرأها لنا إمام المسجد أو مأذون الناحية عند خلونا من الاشغال

قال عيسى بن هشام - وكان الخليع فى هذه الاثناء مشتغلاً بمحادثة المرأة متفرغاً لها ، يضاحكها وتضاحكه ويشاربها وتشاربه ، فلما انتهى التاجر من قصته أقبل الخليع على العمدة يلاطفه ويؤانسه ويقول له :
(الخليع) - هل رأيتَ بالله عليك يوماً أعظم أنساً وأتم سروراً وأجمع لأسباب الهناء والصفاء من يومنا هذا

(العمدة) - حقاً إنه يوم سعيد وأنس غير أنى كنت أود أن يكون هذا المجلس فى البيت لا فى الخلاء ، وتحت السقف لا تحت السماء . فانك ترى كثرة السياح والعربان من حولنا وفى ذلك من التضيق على حريتنا ما لا يخفى عليك

(الخليع) - لا نخش النام ولا تشغل نفسك بالخلق واغتم اللذات بكل جسارة وإقدام ، وليس للإنسان سوى ساعة الصفو إن لم يقتنها ترك الدنيا بصفقة المغبون . وأنا أقترح عليك الآن أن نعمل مثل عمل السياح فى الصعود الى الأهرام حتى لا يفوتنا شيء من أسباب التزه (التاجر) - دعنا من هذا الاقتراح فليس هو من شأننا ، وأية لذة

بأنه عندك في صعود الجبل واحتمال المشقة والتعب مع التعرض للخطر
في كل خطوة

(الخليع) — هذا أمر سهل جداً وقل من يزور الأهرام الا يصعد
فيها مسافة على قدر جهده ، وانظر الى هذه النسوة الأمريكيات
الصاعدات النازلات في أيدي العربان أمام عينك ، هل تراها تخشى خطراً
أو ترهب تعباً ، وهل يليق بنا معشر الفحول من الرجال أن نكون أدنى
من النساء جرأة وإقداماً ، وعلى كل حال فلا بد لنا من الصعود قليلاً
ليعلم من حولنا أننا جئنا مثلهم لزيارة الآثار لا للهو والخلاعة . والسيدة
توافقني على هذا الرأي

(العمدة) — وأنا اوافق عليه أيضاً . ارجو الله أن نعتز في
صعودنا على فص من الفصوص المتيقة التي طالما عثرت على مثلها في التل
الكُفْرِى بناحية بلدتنا . ولكن كيف نترك سيدتنا وحدها
(التاجر) — أنا أنتظر كما معها

(الخليع) — لا بل تصعد هي معنا أيضاً اقتداء بهذه السيدات
قال عيسى بن هشام — ويقومون للصعود ويتلصق التاجر في
أخرياتهم ويحاول التخلف عنهم فيدفعه العمدة بكل قواه ممازحاً له وساخراً
منه لشدة تخوفه وحذرهِ ، والخليع والمرأة يُفريانه به ويضحكان لضحكه
وما كادوا يصعدون قليلاً حتى حانت من العمدة التفاتة الى الأرض فهاله
ما بينه وبينها من الفضاء فامتقع لونه وارتعدت فرائصه ومال على الدليل

البدوى مستغيثاً به أن يُنْزله الى الأرض معتذراً أن الصفراء لعبت برأسه فلا يقوى على متابعة الصعود ، فيدركه الخليع فيسنده مع البدوى فيسقط من أيديهما فيحمله البدوى على ظهره وينزل به ، فما يبلغ الأرض الا ونسمع من المرأة صياحاً وعويلاً من فوق الهرم وهى تناديهن جميعاً أن يبحثوا لها عن فص الخاتم الذى وقع من إصبعها ، فيلحق بها الخليع فيبحث فلا يجد شيئاً فينزل معها فيتلقاها العمدة بالتخفيض والتهوين عند ما تتلقاه بالسكاء والعويل ، ويُغلب على ظن التاجر أن الفص ربما لم يسقط فى حال الصعود بل فى حال الجلوس ويطلب من العربان أن يدركوه بغربالٍ يغربل به الرمل عساه يجده فيه . هذا والمرأة لا ينخفض لها صوت ولا يرقأ لها دمع ولا تنتهى لها شكوى والخليع يُطَيَّب من خاطرها تارة ويميل على العمدة طوراً يظهر له الأسف من الحادث الذى كدَّر عليهم الصفو وأبدلهم بالأنس حزناً وأن هذه شيمة الدهر قلما يتم فيه صفاء أو يكمل فيه سرور ، وما من لذة الا وهى مشوبة بالألم :

فَسَدَ الزَّمانُ فَا لَدَيْدُ خالِصٍ

مما يَشُوبُ ولا سرورٌ كاملٌ

على أن المصيبة هينة ما دامت فى المال دون النفس ، ومن ذا الذى يدرى بما هو غنياً له فى الغيب ، والحمد لله على اللطف فى القضاء . ولا يزال الخليع بالعمدة حتى يتقدم الى المرأة ، ويُقَسِّم لها انها لا تبيت الليلة

الا ولديها فصٌ مثل الفص الضائع ، فتشكره وتقول له أُنِّي لها بمثل ذلك الفص وهو من الياقوت النادر المثل في لونه وصفائه ، فيعيد عليها القسَم بأنه سيأتيها في الغد بفصٍّ أثنى منه وأجل . ثم إنه يشدُّ على يدها توثيقاً للوعد فتشدُّ على يده للتقبيل فيعز عليه حينئذ أن يرى إصبعها بخاتم من غير فص فيخلع خاتمه الذى استخلصه من الرهن ويلبسها إياه حتى يأتيها بغيره . ويعودون الى مجالسهم ويأخذون فيما كانوا عليه من المسامرة والأنس ، ويقول العمدة بعد استقرار المجلس بهم

(العمدة) - ما أحسن المجلسَ وما أضيَّقَ الوقتَ وحبذا لو واصلنا

الليل بالنهار

(التاجر) - لعلك تريد أن نقضى ليلتنا مثل تلك الليلة الماضية في

ذلك الحان المنحوس

(الخليع) - وهل تظن أنه يمكن لنا التمتع بصاحبتنا في الحان

مثل ما تتمتع بها الآن وقد شاهدنا بأعيننا ما حوَّلَها هناك من المراحة والمخاصمة

(العمدة) - وما العمل حينئذ

(الخليع) - العمل اننى أكلفها أن تمارض هذه الليلة وترسل الى

صاحب الحانٍ يتعذَّر حضورها عنده

(العمدة) - نِعَمَ الرَّأى ما ترى

قال عيسى بن هشام - ويأخذ الخليع في استعطاف المرأة لقبول

هذا الطلب فتمتنع أولاً معذرة بما بينها وبين صاحب الخان من الشروط التي تقضى عليها بدفع عشرة جنيهات اليه تمويضاً عن كل ليلة تتأخر عن الحضور فيها . فيلتفت الخليع الى العدة ينتظر رأيه ، فيميل العدة على المرأة متعهداً لها بدفع هذا التعويض . ثم يتساءلون فيما بينهم كيف يقضون ليلتهم في الأتس والسرور . فيرى العدة قضاءها في البيت ، ويرى التاجر قضاءها في التنقل بالمرأة في « البارات » ، ويرى الخليع قضاء جانب منها أولاً في مشاهدة الرواية البديعة الجديدة التي تمثل في « التياترو » العربي . فيقع اتفاقهم على هذا الرأي الأخير فيسرعون بالقيام ليدركوا فسحة الجزيرة أولاً . وينصرفون على هذا العزم المؤكد . والميعاد المحدد . ويعين « للصديق » أن تتخلف عنهم . ريثما تنقضى فسحة الجزيرة بهم . وأن تقضى هذه المدة الوجيزة . في زيارة قصر الجزيرة . ثم تلحق بهم عند المساء في دار التمثيل والتشخيص . وديوان الروايات والأقاصيص

قصر الجيزة والمتحف

عن عيسى بن هشام - ووصلنا الى قصر الجيزة ومتحف الآثار .
ومُلتقى السيّارة من سائر الأقطار^(١) . فدخلنا روضة تجرّى الأنهار من
بينها . كأنها الجنة بعينها . ولما رأى الباشا مسالك الروض منضدة .
وطرقه مرصعة مزرّدة . حسبها أرضاً مفروشة . يبسط منقوشة .
وأشكال الأمر عليه . فهمّ بخلع نعليه . فقلت طريق مُعبّد^(٢) . لا فرش
منجّد . وحصباء ومزّو^(٣) . لا بساط وفرو . ثم شاهدنا قصرأ يكلّ عنه
الطرف . ويقصدونه الوصف . فسّرنا نرتاد خلاّله . وتنقياً ظلاله . فاذا
الأسود مقصورات في المقاصير . والأسود مكفوفات في القوارير^(٤) .
ورأينا النمر . في الخدور . والرئال^(٥) . في الحجال . والذئاب . في
القباب . والظباء . في الخباء . فقال الباشا لمن هذه الجنان . وكيف يسكنها
الحيوان . وما علمت من قبل أن الليوث الضواري . تسكن مغاني
الجواري . وأن أوابد^(٦) البيد^(٧) . تتحجب في خدور النيد . فقلت له
سبحان القادر العظيم . هذا بيت إسماعيل بن إبراهيم . طالما كانت حُجراته
مطالع للأقمار . ودرجاته منازل للأقدار . كانت إذا نادى صاحبه فيه
« يا غلام » . شقيت أقوام وسمعت أقوام . ولبيّ نداءه البؤس والندى .

(١) السيّارة ، القافلة وأصلها النمر يبرون
(٢) طريق مُعبّد ، أى مذل
(٣) المزو ، حجارة بيض رقق برافة
(٤) الاسود ، جمع أسود وهو العظيم من الحيات
(٥) الرئال ، جمع رأل وهو ولد العام
(٦) الاوابد ، جمع أبدة وهي لوش
(٧) البيد ، جمع بيداء وهي العلاء

بأسرع من رجع الصدى . وكان من احتسى بظل هذا الجدار . تحامته
غوائل الأزمان والأدهار . — هنا كان يفصل الأمر ويحكم . ويتقضى
الحكم ويبرم . — هنا كانت تنفرط فرائد القلائد . من أجياد الخرائد .
فتختلط بمنثور أزهاره . وتُرصع أجين أنهاره . — هنا كانت تتناثر الحلى
من قدود الحسان . قتشبه بأثمار الأغصان . — هنا كانت تصدح القيان
على المزاهر والأعواد . فتجيبها ذوات الأطواق فوق الأفنان والأعواد .
فأصبح اليوم حديقة مبتدلة عامة . وموطئاً لأقدام الخاصة والعامة .
وأصبحت أرضه تُكترى . وجنى أشجاره يُباع ويُشترى . ودوى
فيه صياح النسور وزئير الأسود . وامتلات أرجاؤه بمواء الذئاب
وهمهمة الفهود . وزال ما كان فيه من عزٍ وطول . ومجدٍ وصول .
وأيدٍ وحول ^(١) . وصدق الكتابُ فحقَّ عليه القول :

في هذه الدارِ في هذا المكانِ على
هذا السريرِ رأيتُ الملكَ قد سقطاً

وذكرت للباشا ما كان لصاحب هذا القصر . ومليك ذلك العصر .
من الجدِّ الصاعد . والبخت المساعد . وما صار اليه بعد ذلك من أقول
السعد . وما دهاه في الغربة الى أن سكن الاعد :

نالوا قليلاً من اللذاتِ وارتحلوا
برغمهم فاذا النعماء بأساء

ثم وقف الباشا هُدِيَّةً ففكر فيها واعتبر . وتلا : « ولقد جاءهم
من الأنبياء ما فيه مُزْدَجَرٌ حَكَمَةٌ بِالْفَقَةِ فَمَا تُغْنِي النُّذُرُ »

ثم إننا سرنا في وسط الحديقة . حتى انتهينا إلى دَارِ التحف العتيقة .
فدخلنا نشاهد ما أبرزته يدُ البحث من الخفاء إلى الظهور . وما أعادته
قوة التنقيب من البلى إلى النشور . وما صانته أُلحاد القبور . من يد الفناء
والدثور . وجمعتُه أحشاء الرُّموس . من العفاء والدروس . وما أجنَّته أرحامُ
المعابد والهياكل . من بقايا المواضي وخفايا الأوائل . وما انسدت عليه
سُجُوفُ الأحقاب . من ودائع الأسلاف للأعقاب . وما انشقت عنه
الأرض من مكنون الدفائن . ومكنوز الخزائن . وعجائب الفن الدقيق .
وبدائع الصنع الأنيق . بليت في اصطحابها جِدَّةُ الأيام والليالي . وانحنت
على احتضانها ظهورُ المصور الخواي . ومضت دول بعد دول . وذهبت
أولٌ في إثر أول . واندثرت مدائنُ ونشأت مدائن . وبادت مواطنُ
وقامت مواطن . واتقلبت الأغوارُ أنجادا . والأبحارُ أطوادا . وغدا
العمارُ خرابا . والغمارُ سرايا ^(١) . والسرابُ غمارا . والخرابُ عمارا .
وهي هي مصونٌ شكلها . كما تركها أهلها . لسانٌ صادق . وخبرٌ ناطق .
تنطق بالعبر . وتحدث عن غبر :

مَصَّتْ غُبْرَاتُ العِيشِ وَهِيَ غَوَابِرٌ ^(٢)

على الدهر مكتوبٌ عليها حَبَائِسُ

(١) النار ، جمع غمر وهو معظم البحر

(٢) غبرات ، غبر الشيء بقبته . وغوابر ، جمع غابر وهو الباقي والماضي ضد

وأقننا هناك نتنقل بين الأصنام والتماثيل . وتأمل في التصاوير
والتهاويل ^(١) . وتفكر في هذه العظام المنشرة . والرئات المنظرة .
بما عليها من الحلى والزينة . وتلك الأحجار الثمينة . كيف كانت ملوكاً
للأئمة . ثم بقيت على بلى الرسم . وتوالى القدم . في حال الوجود
مع العدم

ورأينا بجانبنا رجلاً من ذوى العمام . مع فتى من الطرز المتخاذق
المتعلم . ظهر لنا من أمرهما . وتبين من شكلهما . أن الرجل عين من
أعيان المدينة . وأن الفتى ابن له وزينة . وإذا هما يتناظران ويتحاوران .
فيما يريان ويُبصران . فدوننا منهما وأنصتنا إليهما :

(الابن) — أشهدت مشاهد عزنا، ورأيت معاهد فخرنا، وعامت
كيف كان مقدار مجدنا، وإلى أية رتبة بلغت بنا صناعة أجدادنا، فله
درهم ما كان أرقام في الفكر وأبدعهم في العمل، ولو أن نوابغ الأئمة
اجتمعوا اليوم اجتماع مفاخرة . ونزلوا الى ميدان المناضلة والمناظرة . لما
سبق المصرى منهم سابق . ولا تعلق بأثره لاحق . ولكان له من بينهم
الكعب الأعلى . والقِدْحُ المملّى . وهذه الآثار في يده يفاضل بها
ويفاخر . وينشد عليهم قول الشاعر :

هذه آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا الى الآثار

(الوالد) — ما أرى شيئاً في هذه الآثار التي تماجد بها وتفاخر

(١) التهاويل، زينة التصاوير والنقوش والحلى الواحد تهويل

يفوق ما يكون في السوق من البضاعة الكاسدة والسلع البائرة وما يتخرج
عن بيوت الناس من الأعراض الواهية والأمتعة البالية

(الابن) — كيف يكون منك هذا القول وهي بشهادة العالم
أجمع أئمن من كل ثمين وأنفس من كل نفيس لا تقويم لها ولا تقدير
إلا بالقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، وكيف غاب عنك تهافت
هؤلاء الغريبين أهل المدينة الحاضرة على اقتناء شيء منها بللّال الجمّ
تَنَافُسَهم في التمتع بمشاهدتها يتحملون لذلك الأسفار البعيدة ، والمتاعب
الشديدة ، ولا يُعقل وُهمهم ، أهل الهدى والعلم ، أن يشتغلوا بباطل ،
أو يجهدوا أنفسهم على غير طائل

(الوالد) — لكم دينكم ولى دين. وما أزال أكرّر القول لك بأننى
لا أجد في نفسى شيئاً مما تشعرون به في هذا الباب . وما أراه من هذه
الأحجار والتماثيل لا يساوى في نظرى إلا أنقاض بيوت عَفَتْ ، أو طولول
درست ، وإن صح ما يقال عن هذه التماثيل إنها أشخاص قديمة نزل بها
السخط والمسح ، كان التعلق بها والتمجيد لها مما يُغضب الخالق ولا يُرضى
المخلوق ، وأما قولك إن فيها منتهى نفرتنا ومجدنا لأنها من صنع آبائنا
وأجدادنا ، وإن آباءنا وأجدادنا هم من نسل هذه الرمم الفرعونية فإنه
لئنم ونكر أستعيز بالله منه « كَبُرَتْ كلمة تخرج من أفواههم إن
يقولوا إلا كذبا » ما كان أجدادنا وآباؤنا إلا أولئك العرب الكرام .
أهل الدين والاسلام . لا تفاخر إلا بفخرهم . ولا تنتسب لنير أصلهم .

وأما من جهة الصنعة في كل ما أراه هنا فإن صبيان الفلاحين اليوم يشتغلون بصنع مثل هذه الآثار والأحجار ويتفننون في تقليدها فتخرج من أيديهم وهم بين الروث والطين أتقن صنعاً من هذه المحجبة في القصور المصونة في البلور (الابن) — عَلِمَ اللهُ لو كان في لغتنا العربية من الكتب المؤلفة في مزايا هذه الآثار مثل ما في اللغات الأجنبية لعلت منها ما لم تكن تعلم، على أن مجرد النظر يكفي وحده لإثبات هذه الآيات والمعجزات في حسن الصنعة والدقة، أفلا تنظر الى هذا التمثال البديع تماشى شيخ البلد وهو قطعة واحدة من خشب الجميز، فأدق الصنع وأتقن العمل وما أكمل الشبه وأجمل الصورة

(الوالد) — نحن في كل يوم نشاهد مائة شيخ بلد من لحم ودم لا من خشب وحجر. فدعني على غباوتي وجهلى وبارك الله لك في علمك وعقلك

(الابن) بصوت خفى — «واغفر لاني إنه كان من الضالين» — (ثم يجهر بالقول) — لا لزوم حينئذ لطول إقامتنا هنا وهلم بنا فقد حل الميعاد المضروب بيني وبين ذلك السائح الذي زارنا بالأمس لتناول العشاء معه في «أوتيل شبرد»

(الباشا للصديق) بعد انصرافهما — ماذا تقول في هذه المناقشة وما دار من الكلام بين الولد والوالد

(الصديق) — ما عسى أن أقول غير ما قاله الله عز وجل :

« نَخْلَفَ مَنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا . » وماذا نرى هنا غير الذي رآه هذا الوالد الساذج . قبورٌ مقلوبة ، ورموسٌ معكوسة ، وأجدات منبوشة . فإن كان الغرض من عرضها العبرة او الموعظة فإن فيما هو أمامنا كل يوم من هبوط المملوك عن ذهب العرش . الى خشب النعش . ومن وسائد الحَبَر . الى مساند الحجر . ومن ظهور الصافنات الجياد . الى بطون الديدان في الأُكفان والأُحَاد . نَنِعَم الموعظة الحاضرة للنظر والحس . والحكمة البانعة للعقل والنفس (الباشا) — هذه هي الحقيقة بعينها في نظري الآن . وقد كنتُ أحسب أن لهذه الآثار شأنًا عظيمًا فيما مضى من دهرى عند ما كنت أرى تَهافتَ الغربيين عليها في زمن الولاة السابقين ولكن لعل شأنها عندهم وعلو قيمتها لديهم هو لأجل توغلها في البلى والقِدَم ومحملها من التاريخ وما تحمله منقوشًا عليها من أساطير الأولين

(الصادق) — نعم إن كان من وراء هذه الآثار والأشلاء قيمة عند الغربيين فانما هي كما تقول لتعلقها بمباحثهم في أخبار الأوائل وفلسفة التاريخ ، وزدْ على ذلك حبهم للاقتناء ولوعهم بالاختصاص بالنادر ، ولذلك عَلت قيمتها عندهم وارتفع قدرها بينهم ، وليس للمصريين منها أقل فائدة سوى الشهرة بأن في مصر آثارا تفوق في القِدَم مثلها من بقية المتاحف . ولو أنك عَرَضْتَ أهلَ مصر على هذه الآثار واحداً واحداً لما استنادوا منها شيئاً ولا أفادوك عنها شيئاً وكما وجدوا لها قيمة تُذكر

سوى النزر اليسير من المقلدين للغريبين ولم تجد بين عشرة الملايين اليوم
سوى شخص واحد يفقه لغة « الهيروغليف » أعنى لغة آبائهم وأجدادهم
كما يزعم الزاعمون مع كثرة الخبيرين بها من الامم الغربية ، والله أعلم
بمقدار علمه بها . ولو تمنيت الأمانى لقلت عسى الله أن يخفف بقيمتها
العالية بعض ما على الحكومة المصرية من أثقال الديون وما على المصريين
من أعباء الضرائب والمكوس . وبالنسبة المصريين يخرجون عنها لاعليهم
ولا لهم فانها تسكف الأمة المصرية نفقات على البحث عنها فى خبايا
الأرض وجمعها والتحفظ عليها ونقلها من أماكنها الى المتحف ، وناهيك
بنفقات المتحف التى أنفقتها الحكومة أولاً على متحف بولاق وثانياً
على متحف الجيزة وما تنفقه ثالثاً على المتحف الجديد بقصر النيل ، فانها
تعد بالملايين

(الباشا) — كنت أرى رأيك هذا وأتمنى أمنيتك لولا أن يقال
إن المحافظة على هذه الآثار والحرص على بقائها بمصر مزية أدبية لها قدر
عظيم يعرفه من عرف مقدار حرص أهل الممالك الأخرى على الآثار
والتحف وشدة صنمهم بها فلا يرغبون ألبتة فى بيعها والتخلّى عنها ويرون
فيها فخرهم ومجدهم ، فلا يليق بمصر أن تشذ عن هذا السبيل

(الصديق) — إن حرص أهل الممالك على ما فى متاحفهم من
الآثار وتفاخرهم بها هو لأنها علامة من علامات التغلب والانتصار
وإشارة الى المجد القديم والعز التليد ولكن أين علامة التغلب والانتصار

عند المصريين وما هي إشارة المجد والشرف في هذه الرمم البالية رمم أهل
الجهل والظلم من أغبياء الملوك الأقدمين — ولأن الغربيين في غير
حاجة الى قيمة أثمانها فهي عندهم من الكماليات . أما عندنا فالأمر بالعكس
ولم تأت هذه الآثار من جهة الفتح والنصر ، وإنما جاءتنا من طريق
النبش والحفر . والمصريون في حاجة الى المال لإيقاقه في ضروريات
المعيش ، وقلما يمر عام الا ويكشف المكتشفون في مصر من هذه الآثار
الشيء الكثير بحيث يوجد لكل نوع منها أشباه كثيرة ، فما ضرَّ
المصريين لو تخلّوا عن بعض هذا الكثير الزائد وعن تلك الأشباه المتعددة
وانتفعوا بقيمة أثمانها في بعض شئونهم العامة ، ويبقى في المتحف مع ذلك
من الآثار ما يكفي للفخفة والمباهاة ومباراة الأمم في تشييد المتاحف ،
وان كان قد جاز لحكام مصر السابقين أن يهادوا ملوك أوروبا وأميركا
بالجانب العظيم والقدر الجليل من هذه الآثار القائمة اليوم في الانحاء
المختلفة من أقطارهم وأن يعضّوا النظر عن الوافدين على الديار المصرية
لسلبها أو ابتاعها من أيدي الفلاحين بدرهم أو دينار فلم لا يجوز التخلّي
عن بعضها للانتفاع بأثمانها وهي على ما تراه — ما لا يساع فانه يُتَقَسَّمُ —
وجملة القول ان الانتفاع بها اليوم قاصر على الأجانب وحدهم إما
بمشاهدتهم لها في ديارنا أو بانتقالها مسلوقة الى ديارهم . وأيُّ عار على
الأمة المصرية أن تتصرف في بعض الآثار المتشابهة التي تنبئها لها
الكهوف والتلال في كل يوم لتنتفع بأثمانها في ترقية شأن المعارف وبث
الأدب بطبع تلك الكتب المخزونة للأرضة بدار الكتب المصرية في

المطبعة الأميرية التي طالما أفادت الناس بطبع الكتب النافعة في أيام
الحكومة السابقة حكومة الجهل والظلم . وخبروني ناشدتم الله أى
نفع وفائدة للامة المصرية الإسلامية في أن تُنشر بين يديها رمم الفراعنة
في الانتكخانة ، وتقبر أرواح العلماء والحكماء في الكتبخانة . وأى
الأمريين أعظم نفعا وأكثر رجحا أن يُعرض على أعيننا تمثال « لمبيس »
وصورة « إيزيس » وذراع « رعسيس » ونفخذ « امينوفيس » أو أن
تداول الأيدى كتابا للرازى ومقالة للفارابى وفصلاً لابن رشد ورسالة
للجاحظ وقصيدة لابن الرومى . ما تجرى الأُمور عندنا شهيد الله الا
على التناقض وما تسير الأ على خلاف المصلحة

قال عيسى بن هشام - وجاء أوانُ الخروج فقمنا نسعى . لنلحق
بأصحابنا في المنهى . ونشاهد ما يتم عليه حالهم . وينتهى اليه ما لهم

العمدة في الطهرى

قال عيسى بن هشام — وعُدنا الى المدينة وقد مدَّ الغروبُ حباله .
ليقتنص من الأصيل غزالتَه . فطارت نفسها شعاعاً^(١) . واضمحلت قرصها
شعاعاً . وجدَّت نافرةً الى كناسها . وهى تُصعدُ الشفقَ من أنفاسها . ثم
اختفت شقائقُ الشفق . تحت أكام الأفق . ولما أن اخضرَّ من الليل
جانبه . وطرَّ شاربه . وتوقدت مصاييح السماء . فى قباب الظلماء .
قصدنا دار التشخيص والتمثيل . وبيت التصوير والتخييل . فدخلنا مع
الداخلين نساءً ورجالاً . أجناساً وأشكالاً . واخترنا جلوسنا الكراسى
دون العُرف . لتيسر لنا المشاهدة من كل طرف . ثم جلسنا نمجد النظر .
فى مَنْ حضر . وإذا نحن بين أخلاط من الطبقات اختلفت أزياءُهم . واتفقت
أذواقُهم وأهواؤُهم . وعلاً ضجيجُهم وصياحُهم . وكثر لعبُهم ومزاحُهم .
سباً وشماً . ولكزاً ولكماً . ثم يتمايل بعضهم على بعض . ويضربون
بعضيهم وأرجلهم ظهر الأرض . رجالاً وغلماًنا . شيباً وولداًنا . متظاهرين
بملل الاصطبار . ومطالبين برفع الستار . ثم حوَّلتنا النظر الى أعالي الشرف .
وجوانب العُرف . فرأينا من بينها مقاصير عليها رقائق الستائر . تشفُّ
عن لوامع اللآلىء والجواهر . فى نحور الحور . من مكنونات القصور .
ويضأت الحدور . ولولا التأدب لتخيلناها من بنات الفجور . فهنَّ
يزحزن من الوشى والحبر . ويكشفن عن الطُّرر . تضىء بالغرر .

ضوء الليل تحت القمر . ويتراينَ ترآئِي الكواكب والنجوم . من خلل
السحب والفيوم :

وتنقبتُ بخفيفِ غيمٍ أبيضٍ
هى فيه بين تحفُّرٍ وتبرُّجٍ
. كتنفَّسِ الحناء في مِرآئِهَا
كملتُ محاسنها ولم تنزَّوجِ

والرجال من تحتها ينظرون ويتشوقون . ويتشوقون ويتلهفون .
لا تنثنى أبصارهم عن وجهها . ولا يحولون الوجوه عن قِيَمَتِهَا . فهم قائمون
على عبادتها عاكفون . لا ينفكون عنها ولا هم يستنكفون . وهنَّ
يُوالينَ الضحكات . ويُتالينَ الحركات . ويتبادلنَ معهم الغمز . ويتبادلون
معهم الرمز . ويتراسلون بمرآوحٍ تُثير مكنون الهوى والغرام . وبشIRON
بمناديلَ تنفى عن فصيح اللفظ والكلام . وقد خرَّقت الأصابعُ نسيجَ
الاستار . لتنفذ منها رسل الأزهار . وتقابلتَ بينهم المناظير بالمناظير .
تدنى البعيد وتكبر الصغير . وكل فتى يرى أنه المرمى دون سواه
بالنظرات . وأنه المعنى بتلك الإشارات . فيتصنع التجميل والتظرف .
ويتكلف التأنيق والتأطف . وفوق أعلى الشرفات أقوام وأئى أقوام .
متزاحمين أكواما على أكوام . كأنهم فى سوق من أسواق الأَنعام . لا
ينتهون فيه عن الشجار والخصام . وتفقدنا أصحابنا فى أنحاء الملهى .
فوجدناهم فى غرفة والعاهرة فى أخرى . وقد تزيتَ بزى الأجنيات

فنبذت الحمار والإزار . وتبدت في القُبَّة والزَّار . وهي تغاز العمدة بعينها . وتشير اليه بيديها . والخليعُ يكون تارةً في الفرفة عندها . وأخرى يظهر في غرفة بعدها . إلى أن دق الجرس بالدخول . وارتفع عن الملعب ستره المسدول . وظهر فيه أماننا طائفة من الممثلات والممثلين . ما بين ملحنين ومرتلين . على طريقة يَعْجَبُها السمع . ويعافها الطبع . وبكلام مبهم . وألفاظ لا تفهم كأنهم حُداة في مفازة^(١) . أو سعاة في جنازة . وهم في أزياء متعاكسة . وأشكال غير متجانسة . وثياب تنافرت ألوانها . على أشخاص تباينت أوطانها . وظلوا يعبثون بالأناشيد والتلاحين . ثم انصرفوا عنا بعد حين . ثم ظهر من بعدهم رجل مكتهل . مزجج الحواجب مكتهل . مصبغ الخد والجبين . بأحمر كالورد وأبيض كالياسمين . فأخذ يخطر ويتثنى . ويهتف ويتغنى . وبجانبه امرأة نَصَف . تتمايل وتنطف . لا تقل عنه شيئاً في باب التصبغ والتدهن . والتصنع والتلون . يقول لها في شكوى الغرام . وشرح الوجد بها والهيام :

« يا حبيبة الفؤاد . وغاية المراد . ما أطف هذا الشكل . فهياً بنا

نغتم الوصل »

فتجيبه : « قد يكون ذلك أيها الخل الوسيم . إذا ساعدتنا أمي نسيم .

فدبر أنت ما عليك . وها أنا ذاهبة لأرسلها إليك . »

ثم تنصرف الفتاة ويبقى الفتى في انتظار حضور الأم فتدخل عليه ،

وإذا هي عجوزٌ شوهاء ، وجلبانةٌ ورهاء^(٢) ، فيتصل بينهما الكلام وينتهي

(١) المفازة ، الفلاة لا ماء فيها (٢) الجلبانة ، المهذرة البثة الخلق ، والورهاء الخفاء

بالتبول والاتفاق، ويضع الفتى في يدها كيساً من الدراهم عند مفارقتها إياه، ثم يفرد متجولاً ينشد ويغنى مدة من الزمن، ثم يذهب لسبيله. وتأتى الأم ومعهما زوجها وإذا هو رجل قد أثقلت ظهره السنون ولم تقده التجارب شيئاً ففتحال عليه ليقبل زيارة الفتى وتردده على ابنته في بيته فيمتنع وبتملل بقوله: «حقاً أن ذلك الشاب. هو ألح من الذباب. وهو عندى أفسق من الشياطين. وأخبت من البراذين. لا يترك من النساء الدون. ولا العجوز الحيزبون»

فتجيبه بقولها: «لا تخف أيها الزوج الأفضل. فإكل الطيور تؤكل. وابنننا العاقلة الحلوة. لا يُخشى عايتها منه في الاجتماع ولا في الخلوة.» ثم يطول الكلام بينهما وينتهى بقبول الوالد ما دبره له كيد الوالدة. ثم يذهبان ويجتمع العاشق بالقتاة فيتمانقان ويتلاثمان وتقول له في حديثها: «الحمد لله أيها الشاب الأنيق. على التيسير والتوفيق. فقد سهلت أُمى لنا الطريق. ولم يبق أماننا إلا استرضاء الخادمة. حتى تكون لأسرارنا كاتمة» فيجيبها: «نعم وإن لم تطاوعنا فالها تصبح حزينة نادمة. لأننى أقسم يا بنت الكرام. بما بيننا من الحب والغرام. أننى أذيقها كأس الحُمام. بحدّ هذا الصمصام. إن امتنعت عن تسهيل الأرب. بقبول ما فى هذا الكيس من الذهب.» فتقول له: «آه يا حبيبي ما أطرب الجلوة. وما أطيب الخلوة. حيث نصبح فى بحر النشوة. وهياً بنا أيها الهمام. فانى أسمع صوت أقدام. وعندى الآن أن أحسن طريقة. أن نتنشق

نسيم الصَّبَا في زوايا الحديقة . فيقول لها : « حُفَظْتُ يا سيدتي ومولاتي .
ومنبع حياتي ومماتي . فالآن قد بزغت شمس سعودى . وعَطَّرَ الأَكْوَانُ
عَرَفُ نَدَى وعودى . »

ثم يذهبان ويحضر بعدهما غيرُهما فيتداول الكلام بينهما مرة عن
سرقة واحتيال . وخيانة واغتيال . وأخرى عن اجتراف واقتراف .
واختلاس واختطاف . ثم يملو بينهما الضجيج ويصيحون بغناء كأنه
ندب وعويل

وعلى هذا ينتهى الفصل الأول ويُرخى عليه الستار ويمجدُ الحاضرون
حينئذٍ في الصفير والتصفيق والتأوّه والشهيق كأنهم جميعاً في نوبة من
الصرع أو المسّ . ثم انهم يتناثلون الى الخروج لشرب الخمر والتدخين
ونقيم نحن جلوساً في مكاننا فيلتفت الى الباشا ويقول :

(الباشا) - لقد سئمتُ - عِلِمَ الله - ومللتُ من منظر هذه
المراقص والملاعب فما أشبه بعضها ببعض وما أجمعها لأشتات النقائص
والرذائل على اختلاف أوضاعها

(عيسى بن هشام) - ليس هذا المكان فى أصل وضعه بمرقص
ولا بملعب، هذا هو « التياترو » المعروف عند الغربيين بأنه أصل التثقيف
والتأديب ومنبع الفضائل ومحاسن الأخلاق يأمر بالمعروف وينهى عن
المنكر، وهو عندهم تَوَأمُ الجرائد، هذه تعظ بالخبر، وهذا يعظ بالنظر،
فيغرس فى النفوس صورة الفضيلة مجسّمة للأبصار بما يعرضه على

الناظرين والسامعين من تاريخ أهل الفضائل في الأزمان الغابرة أو الحاضرة ويفعل في النفوس مالا تفعله الرواية والخبر، وهى فى بطون القصص والسير، فيمثل لك محاسن الفعال، ومحمد الخصال، وما تأتى به عواقبها من الظفر بالمرغوب والحصول على المقصود وإن اعترضتك معها المصاعب، ونالتك المتاعب، ويشرح لك شناعة الرذيلة ويصور فظاعة النقيصة وما يكون فى عاقبتها من سوء وفى أثرها من المكروه وإن خلبتك بمنظرها ساعة وخدعتك بهرجها لحظة، فيجتمع لديك من الموعظة والعبرة ما عساه يردعك عن القبيح إن همت به ويردك الى الحسن إن تقاعدت عنه ويهديك الى الطريقة المثلى ويخرجها لك من الغيبة الى الشهود ومن القول الى الفعل فتجذب نفسك الى أنواع الفضيلة من شجاعة وشهامة، وكرم ومروءة، وأمانة ووفاء، وسماحة وسجاجة، وصبر وحلم، وينفر طبعك عما تجمعه الرذيلة من دناءة وجبن، وخيانة وغدر، وجهل وحق، وخش وفسق

(الباشا) - ان كان الأمر كما تقول فكيف تسنى للمصريين أن بقبلوا وضعه ويشينوا شكله ويحملوا هذا المكان على مثل حال الخان، فلا فرق عندى فيما أنظره هنا الآن وما رأيته فى الخانات الأخرى من الرقص والغزف ومعاورة الخمر ومغازلة النساء وتمثيل أحوال العشق بأعظم شكل يجرى به ويهيج من شهوات النفوس اليه . فاذا كان التشخيص على هذا النمط معدوداً بينهم باباً من ابواب الآداب وهم

محضرونه وبشاهدونه على هذا الاعتقاد فان شره عندى أعظم من شر
الملاعب والمراقص الأخرى، لأن الداخل اليه لا يرى على نفسه من لائمة
يتقيها في دخوله ولا ينكر على أدبه منكر فيه ولا يخشى انتقاداً عنده
فسترسل النفس في غيها ولا تجد منها لها رادعاً ولا وازعاً ، بخلاف
الحال في الداخل الى تلك الحانات فانه يدخلها وهو واثق بأنه قادم على ما
يلام عليه ويماع ، فيأتيه وفي نفسه من الخجل والحياء ما عساه يصرفه
يوماً عن غيه وجهله . والإقدام على المحرم الصراح فيه من تأنيب النفس
ما يزجر وينهى ، لكن الإقدام على تحليل الحرام وإباحة المنكر هو
الدهاية الدهياء ، والمصيبة العامة فلا وازع من الخجل والحياء ، ولا زاجر
من خوف الهلاك والعقاب

(عيسى بن هشام) - لا تأخذن ما تراه هنا من التقصير دليلاً على
أن هذا الفن غير مفيد للآداب فقد قدمت لك أنه فن غربي ووصفته
لك بمقدار ما وصل اليه من الإتقان لدى الغربيين وهو لا يزال هنا على
حال القصور والانحطاط لم يلتفت المصريون الى إتقانه وحسن وضعه
وجهل الناس أصل الغرض المقصود منه فحسبوه نوعاً من أنواع اللهو
والخلاعة على ما ترى . وعذر الذين يشتغلون بهذا الفن في تقصيرهم أنه
لا بد من مساعدة أهله بالمال ليتمكنوا من السعى في ارتقائه وإتقانه وهم
يلومون الحكومة المصرية في كل يوم حيث تبذل المال لمعاونة الممارسين
له من جماعة الغربيين أسوة ببقية الحكومات الغربية ثم إنها تحرم أهل
بلادها كل مساعدة من هذا القبيل

(الصادق) - قد سمعتُ مقالكَ وعندي أنه يجب على الباحث في الأمور المتعلقة بتربية الأخلاق وتهذيب الطباع أن ينظر أولاً الى تأثير التربة والإقليم والى تركيب الغرائز والفِطَر والى العادة والعرف . ولا يتحتم أن ما يكون ذائع عند الغربيين يكون له نفع عند الشرقيين لاختلاف ذلك كله فيهم وتفاوته بينهم . والشواهدُ كثيرةٌ جمة على أن ما يكون في باريس حسناً يكون في برلين قبيحاً ، وأن ما يكون في لوندرة حميداً يكون في الخرطوم ذمياً ، وما يكون في رومية حقاً يكون في مكة باطلاً ، وما يكون عند الغربيين جداً يكون عند الشرقيين هزلاً . ولست أرى أن هذا الفن لو تمَّ لأصحابه ما ينفونه من وفرة المال ومعاونة الحكومة أن يصلوا به الى حد الإتقان المطلوب ولا أن يكون له النفع المقصود في تربية الأخلاق وحسن الآداب لما فيه من المنافرة البينة لطبائع أهل المشرق وأخصَّ بالذكر منهم أهل الاسلام ، لا بل ربما كان منه الضرر البحث . ولا يغيب عنك أن هذا التشخيص والتمثيل قائم على أساس العشق يدور فيه بكل أدوار . ولا تخلو قصة من قصصهم التي يمثلونها عن ذكر العشق والغرام ، وما من رواية لهم الا والعاشقان يكونان فيها كالقائمة والخاتمة لها ، هو إن كان مقبولا عند الغربيين مسموحاً به لموافقة العادة عندهم ولو كونه شيئاً لا عيب فيه يجهر به فتياهم وفتياتهم بل هو أصل من أصول التزاوج بينهم لكنه غير مقبول عند الشرقيين ولا مسموح به في عاداتهم ولا يدخلونه في أبواب الفضيلة ومحاسن الآداب ، ولذلك كان شأنه الكتمان والتستر لا التجاهر به والتظاهر . ولقد جرى العشق في

بعض البلاد الشرقية مجرى العيب المحض والعار الفاضح ، وكان عند بعض قبائل العرب اذا اشتهر أحد فتيانهم بعشق فتاة منهم منعه عن الزواج بها لهذا السبب وربما رفعوا أمره الى السلطان إن شهَرَ بها في شعره فيهدر دمه . فهذا العشق الذى هو الركن الأكبر والسبب الأعظم في حصول الزواج عند الغربيين هو من أكبر الموانع في الزواج لدى الشرقيين . ثم إن تهذيب الأخلاق بهذا الفن لا يأتى الآمن الطريق المألوف والمسلك المعروف عند أهل كل بلد . فتشخيص هذه الأقايصير والروايات الغريبة الموضوعة على أخلاق أمة بذاتها لا يؤثر في أمة أخرى ، ولا بد أن يكون التشخيص والتمثيل بين الشرقيين مطابقاً لأحوالهم وظروفهم جارية على مقتضى عرفهم وتاريخهم ، وليس من المقبول عند حصول هذا التشهير والتمثيل في معيشة الأهل والولد وما تنسدل عليه الحجب والستور ، في البيوت والدور . وليس في الدين الإسلامى ما يسمح باشتراك النساء مع الرجال في تأدية هذا الفن لانه ينهى النساء عن التبرج بالزينة فضلاً عن الاختلاط بالرجال ويأمرهنّ بغضّ البصر فضلاً عن طموحه . ولا من أدب المسلمين أن يمثل بينهم تاريخ الإسلام وتاريخ خلفائه وصلحائه على أسلوب ينتدى بالعشق والغناء . وماذا ترى في أبى جعفر عاشقاً وأبى مسلم مغنياً وأبى الفوارس راقصاً كما يجترى عليه الآن أهل هذا الفن وذلك أكبر إهانة للأسلاف وأعظم خرف في التاريخ ، وإن أردت أن أكشفك بكل ما يجول في خاطرى قلت لك إن هذا الفن الذى تعالى الغربيون في إتقانه وارتقائه لم يقدم أدنى فائدة في

باب الآداب ، وضرره بينهم اليوم ظاهر ونفعه غير بادٍ ، لأنّ المعول عليه عندهم في هذا الفن أن يظهروا الفضيلة من خلل تمثيل الرذيلة ويبينوا عن العفاف بتصوير الشهوات الى حد المبالغة التي يذهب اليها خيال الشاعر ، فتوضيح الرذائل وتبيين الشهوات وعرضها على أصحاب الرذائل في القوالب المختلفة بما تنطوى عليه من وجوه الحيل والمكر والخداع والختل مدّرجة الى تعمق صاحب الرذيلة في رذيلته واقتناعه فيها بتلك الوجوه المتنوعة فلا يسبقه اليها سابق . وكـم تدرّب اللصوص ومهرة الأشقياء وبرّز أهل الفسق والفجور بحضورهم تمثيل الروايات فاكـتسبوا منها ما كان ينقصهم وأخذوا عنها ما كان يُعجزهم ، ومن تأمل قليلاً وجد أن الشرح والإسهاب في خفايا الرذائل التي يندر حدوثها ويقل وقوعها كان من الأسباب في انتشارها ، ولذلك قالوا إن توضيح الجرائم التي من هذا القبيل في القوانين مما لا يؤمن معه تيقظ المجرم اليها . وقد سئل الشارع الحكيم اليوناني عن سبب إغفاله عقوبة القاتل لأبيه في شريعته فقال : « ما كنت لأتصور أن يونانيا في الوجود يُقدّم على قتل أبيه » فكان قوله هذا أنفى لوقوع هذه الجريمة من تدوينه شدة العقوبة عليها . واكتساب صاحب الفضيلة من كشف الرذيلة لا يقوم بمقدار الضرر الذي يلحق بأهل الشر منها

قال عيسى بن هشام - ودقّ الجرس وعاد الناس الى مقاعدهم واشتدت بينهم الجلبة وعلا الصياح وزين السكر لأحدهم أن يقوم فيهم واعظاً خطيباً

فأزال يَهْدِي في القول حتى سقط على الأرض يتخبط في قيئه ورجيعه ،
لا في دمه ونجيعة . ثم ارتفع الستار عن منظر غابة يدور فيها ذلك الفتى
ويتغنى بفناء يشبه أذان المؤذن ومن ورائه عشيقته تلتفت وتتمتع . ثم
رأيناه قد ترك الغناء مرة واحدة وتقدم نحو الحاضرين يخاطبهم بالزجر
والتأنيب على جلبتهم وصياحهم ويشكو مر الشكوى من الانصراف عنه
في غنائه ، ثم إنه يعود الى ما كان فيه من الغناء ويأخذ بيد خليلته للهروب
فيدخل والدّها عليه في تلك الحال فيحول بينها وبين عشيقها ، فينبري له
الفتى بضربة حسام تلقيه على الأرض صريعا ، ويدركه قومه فيصوب الفتى
عليهم أسهمه ونصاله فيلجأون الى الفرار وتقع المرأة مغشيا عليها ويقع
العاشق باكيا تحت أقدامها ، وعلى هذا يُسدل الستار وينتهي الفصل
ويعود الناس الى مكان الشرب والتدخين ، فنتبع أثرهم ونجلس ناحية في
بعض زوايا الحان . واذا بالعمدة وصاحبيه وعاهرتيه جالسين جانبا أمام
إحدى المنافذ وأمامهم الراح والكؤوس مترعة ، واذا برجل عابس الوجه
بين الغلظة قد وقف أمامهم يقول للمرأة في كلامه : « أنظنين أن الهرب
وخُلف الميعاد يمنعك مني ويؤجل وفاء القسط المطلوب لي منك وأنالاً أزال
اقتني أثرك منذ الصباح الى الساعة وتحملت في البحث عنك تعباً عظيماً ،
والحمد لله اذ عثرت عليك في هذا المكان ولست أبرح من هنا حتى تعطيني
مبلغ القسط أو تردّي الى هذه الحلى التي يتزين بها صدرك أمام عشاقتك
وخلانك ، ويمد يده ينتزع الحلى من صدرها فيمنعه الخليع متوسطا بينهما
ويقول له ليس هذا وقته وليس هنا محل المطالبة وأمامك المحاكم . فلا

يرجع الرجل عن عزمه بل يقول « أنا لا أطالب بحق أمام المحاكم وأما
مالي في صدرها » ثم يمد يده ثانية فتقبض العاهرة على حليها وتميل على العمدة
تستغيث به وتستجير ، فتأخذ الحمية والنخوة فيدفع عنها الصائع بيده فيقول
له : « ان كان قد عز عليك يا حضرة العمدة مطالبة صاحبك فالشهادة تقضى
عليك بأن تدفع لي المبلغ من عندك لأن تدفعني عن حق يديك » فيسأله العمدة
عن مقدار المطلوب له فتقول له المرأة إنه لا يزيد عن عشرين جنيتها ،
فينقد الصائع الدراهم في الحال ويطلب منه ورقة الاستلام ، ثم يقدمها الى المرأة
بيده والكأس بيد أخرى فتقبل حافة الكأس شكراً له وحداً ، وينصرف
الصائع ضاحك السن قرير العين . ويعودون الى شربهم وحديثهم فيقترح
العمدة عليهم أن يغادروا هذا المكان الى سواه وأنه يفضل الذهاب الى
منزل صاحبة ، ويطلب من الخليلع أن ينظم له مجلساً هناك فوق سطح
المنزل في ضوء القمر ، وبينما هم في أخذ ورد إذا بصاحب الحان الذي
تشتغل فيه المرأة واقفاً على رأسها واضعاً يديه في خصرتيه يبكثها بقوله :
« أهذا هو المرض الذي تعتذرين به عن تأخيرك في هذه الليلة عن الشغل ،
وهذا هو المستشفى الذي تتعالجين فيه ، وأظن أن حضرة العمدة هو
الطبيب الماهر في هذا العصر الحاضر » ثم يجرها بيده لتذهب معه الى
مباشرة الشغل في الحان فيمسكها العمدة من أذيالها ويقول له : « ما هذه
الوقاحة وما هذا التهجم بعد أن أخذت منها عشرة جنيهات في نظير تأخيرها
عن الشغل في الحان ورضيت بهذا العوض لتكون على حريتها في هذه

الليلة » فيقول له : « إن كانت أخذت منك هذا المبلغ لدفعه الى فقد كذبت في دعواها وادّخرت الدراهم لنفسها فإما أن تردّ الى المبلغ وتمهد لي بأنك لا تجتمع بهذه المرأة في غير محلي وإما أن تستعد للقضية التي أقيمها عليك بطلب التعويض الذي لا يكفيني فيه دخل أطيانك » ويشد بينهم اللجاج والخصام فتبرى إحدى الممثلات الجالسات في الحان ممن انتهى دورهن فتستصرخ البوليس لإخراجهم ، فيأتي البوليس ويصم أن يسوقهم الى « القسم » جميعاً . ونخرج وراءهم لاتباعهم ، فيأبى الباشا ذلك كل الإباء وينفر عنه كل النفور ، ويقول أنا لا أتوجه الى « القسم » لا شاكيا ولا شاهداً ولا مراقباً ولا مستخبراً ، فقد جرّبت ما يقع فيه . وكفاني ما علمته من ظواهره وخوافيه . وقد شعرت بسأم في النفس . وصداع في الرأس . فلنذهب الى البيت لنتمتع بشئ ، من الراحة . ونخلص من رؤية هذه الحرّمات المباحة . فأجيبه بالطاعة والانقياد . وتركه الصديق على ميعاد

المرنية الفريية

قال عيسى بن هشام — وما وصلنا الى البيت حتى عمد الباشا الى غرفة نومه . يحاول أن يشتقي بالرقاد من غمه وهمه . فتركته في غرفته . ورغبت في النوم كـرغبته . وبيننا أنا غريق في المنام . أصبح في بحر الأحلام . اذ سمعت الباشا يناديني نداء متتاليا . فقمت اليه مسرعا وملبيا . فأخبرني أن طول التفكير نفي عنه الرقاد . وأورثه الأرق والسهاد . وطلب مني أن نحبي الليلة بالسمر . وأن أقتلها معه بالسهر . فجلسنا تتجاذب أطراف الحديث . من قديم في الزمن وحديث . الى أن صارت الليلة في أخريات الشباب . فاستهانت بالازار والنقاب . ثم دبّ المشيبُ في فودها ^(١) . وبأن أثر الوضع في جلدها ^(٢) . فعبثت بالعقود والقلائد . من الجواهر والفرائد . ونزعت من صدرها كل منشور ومنظوم . من درر السكواكب والآلى النجوم . وألقت بالفرقدين من أذنيها . وخلعت خواتيم الثريا من يديها . ثم انها مزقت جلبابها . وهتكت حجابها . وبرزت للناظرين عجوزاً شمطاء . ترتعد متوكئة على عصا الجوزاء . وتردد آخر أنفاس البقاء . فسترها الفجر بعلاءه الزرقاء . ودَرَجها الصبح في أرديته البيضاء . ثم قَبَرها في جوف الفضاء . وقامت عليها بنات هديل ^(٣) . نائمة بالتسجيع والترتيل . ثم انقلب المأتم في الحال عرس اجتلاء . وتبدل النحيب بالغناء . لإشراق عروس النهار . وإسفار مليكة البدور والأفكار .

(١) الفود ، معظم شعر الرأس مما يلي الاذن (٢) الوضع ، يفاض الصبح

(٣) بنات هديل ، الحمام

وما نشعر إلا وقد طلع الصديق علينا مع الشمس . للوعد الذي كان
 يثنا من أمس . فسألنا كيف أصبحنا . وهل نعمنا واسترحنا .
 فأخبرته بما كان . من اتصال السهر إلى الآن . وما كانت تجرى عليه
 المسامرة . وتدور به المذاكرة . وجلتها أن الباشا لا يزال يدهش مما
 يراه في رحلته . ولم يكن له أثر في أيام دولته . ويستخبرني عن سرعة
 هذا الانتقال . من حال إلى حال . وما الأسباب والعلل . في انتشار هذا
 الفساد والخلل . فذكرت له بعض ما حضرني منها . وما علمته عنها .
 وإنك لخليق أيها الصديق أن تكشف لنا عن وجه الحق الصريح . وتجبرنا
 بما عندك من السبب الصحيح

(الصديق) — السبب الصحيح في ذلك هو دخول المدنية الغربية
 بفتة في البلاد الشرقية وتقليد الشرقيين للغربيين في جميع أحوال معاشهم
 كالعميان لا يستنيرون يبحث ولا يأخذون بقياس ولا يتبصرون بحسن
 نظر ولا يلتفتون إلى ما هنالك من تنافر الطباع وتباين الأذواق
 واختلاف الأقاليم والعادات ، ولم ينتقوا منها الصحيح من الزائف
 والحسن من القبيح بل أخذوها قضية مسلمة ، وظنوا أن فيها السعادة
 والهناء وتوهموا أن يكون لهم بها القوة والغلبة ، وتركوا لذلك جميع ما كان
 لديهم من الأصول القوية ، والعادات السليمة ، والآداب الطاهرة ، ونبذوا
 ما كان عليه أسلافهم من الحق ظهريا فأنهدم الأساس ، ووهت الأركان ،
 وانقض البنيان ، وتقطعت بهم الأسباب فأصبغوا في الضلال يعمهون ،

وفي البهتان يتسكعون^(١) واكتفوا بهذا الطلاء الزائل من المدنية الغربية واستسلموا لحكم الأجانب يرونه أمراً مقضياً وقضاء مرضياً ، وخرّبنا يوتنا بأيدينا ، وصرنا في الشرق كأنا من أهل الغرب ، وإن بيننا وبينهم في المعاش لبعد المشرق من المغرب

(الباشا) — قد يكون ذلك ، ولكن لست أدري لأيّة علة أخذ

الشرقيون بباطل المدنية الغربية وارتدّوا بلباسها ولم يلتفتوا يوماً للرجوع الى سابق مدنيّتهم الصحيحة وعمرانهم القويم ، فهم أهل السبق في ذلك كله ، وغنم أخذ الآخذون وقتل المقلدون في كل زمان ومكان

(الصدّيق) — لا أعلم لذلك من علة الا ما أعقب العزة السابقة من

البطر والأثر وما يتولد عنهما من طول التواني والتواكل وسوء التراخي والتخاذل ففعلوا عن ماضيهم وذهلوا عن حاضرهم ولم يكثرثوا بمستقبلهم ، وقعدت بهم همتهم عن مشقة التكليف التي كان يتباهى أسلافهم باحتمالها . ويتفاخرون بممارستها . وراق لهم أن يأخذوا بهذا الطلاء الحاضر من مدنية الغربيين بلا مشقة ولا تعب ولا جدّ ولا كدّ ، فعظم مقدار أهل الغرب في أنظارهم وتوهموا أنهم من طبقة عالية فوقهم خضعوا وذلّوا ، وقهرّ الغريون وغلبوا

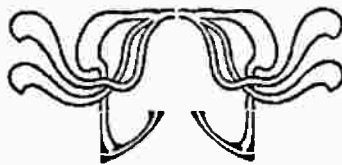
(الباشا) — ألا ليت شعري كيف يمكنني الوصول الى البحث والنظر

في أصول المدنية الغربية ظاهرها وباطنها وأن أقف على خافيتها وباطنها في أرضها وديارها . ولكن بعدت الشقة وعزّ المطلب

(١) تسكع الرجل ، تمادى في الباطل

(عيسى بن هشام) — لا تستبعد أيها الأمير حصول الفرض ونيل
المطلب في يوم من الأيام فانه لا يزال يدور في خاطري أن أرحل معك
رحلة الى البلاد الغريبة نبحثي منها ثمرات العلم والبحث ، فان كان هذا
العزم من غرضك أيضا فأنا أجهز له أمرنا
(الصديق) — وأنا ان شاء الله معكما

قال عيسى بن هشام — ثم قنا وقد عقدنا النية : على تحقيق هذه
الأمنية . ونسأل الله أن يسلك بنا سبيل الهداية . في المبدأ والنهاية



الرحلة الثانية

باريس

قال عيسى بن هشام — سبحان مَنْ لا تجرى الأمور الآ بتقديره . ولا تنفذ العزماتُ الآ بتيسيره . فقد يَسَّرَ اللهُ لنا الرحلة الى الديار الأوربية . لنشهد مظاهر المدنية الغريبة . وبلَغْنَا من سفرنا المدى . فألقينا بباريس العصا . وشرَعْنَا نجوب منها الطرقات الجامعة . والساحات الواسعة . فلا القبائل تُدعى وَتُهرَع . ولا الجيوش تُحشد وَتُجمع . ولا الموقى وهم يُنشرون . ولا الخلق وهم يُحشرون . يُضاهى ما القوم فيه من ازدهام واقتحام . واصطدام والتحام . متدققين في سيرهم تدفق السيل . تحت أضواء عت آية الليل فلا ليل . يُخشى فيها على الأبصار . أن تعشو من شدة الأنوار . وربما انخدعت بها الديكة فأخذت في الصباح . إيذاناً بانبلاج الصباح

فاذا نظرت الى الشارع من العلو . لم تُبالِ بالعلو . لأن قلت بحر مسجور^(١) . قام عليه شاطئان من نور . واذا أبصرتُه من أسفله . عند أوله . قلت أسراب الدو^(٢) . تصعد الى الجو . بين الكواكب الزهراء . من كرات الكهرباء . والبيوت عن حافتيه تُشارف جو السحاب . وتحاول أن تعلق من السماء بأسباب . فارعة بأسقة . متلاصقة متناسقة . كأنها في انتساقها سطور الخط . والأزهار على جدرانها شكّل ونقط . فأين منه ما بناه لفرعون هامن . وشاده جن سليمان لسليمان . ورقعه سِمَارُ للنمان .

(١) المسجور ، المرتفع الامواج (٢) الدو ، الفلاة

وأين شامخ ثبير^(١). من سنام البعير . ومعارض الجبال . من مدارج النمال .
لا بل أين البحر العباب . من لامع السراب . وأجرام الكواكب . من
بيوت العناكب

وشاهدنا المارة يتسابقون في هذا الموقف المتلاطم . والمأزق
المتزاحم . من كل شيخ وكهل . وصبي وطفل . وفتي وفتاة . بين ركبان
ومشاة . والألوف من صنوف العجل تحترق صنوف الناس . وتنفذ
بينهم نفاذ السهام عن الأقواس . طائرة بقوة الكهرباء أو البخار أو
الأفراس :

ولمالم يسابقن شيء

من الحيوان سابقن الظلالاً

وكل سائر منهم في اضطراب المصفور . وتلفت القطا المذعور .
إن خائنه لفتته . أدركته منيته . وإن عثرت قدمه . هربق دمه . وإن
شمخ شامخ بأنفه . وقع في حفته . فهم يلمسون شاكلي الطريق^(٢) .
كما يتلمس الشاطئ الفريق . والحوانيت على الجانبين متبرجة بسدائع
البضائع . ونفائس الصنائع . تغوي الزاهد فيشتهمها . وتغري الشحيح
فيشتريها . والحانات من بينها ممتلئة بالنفوس . مشحونة بالجلوس . في يد
كل واحد منهم كأس الصبأ . وفي الأخرى جريدة المساء . ونحن في
هذا الموقف تكاد تطيش منا العقول . من هول الدهش والذهول .
وتطير منا الأبواب . من شدة الوجل والاضطراب :

(١) الصماريح ، رؤوس الجبال ، ونير جبل معروف (٢) الناكسة ، الناحية والجانب

في ساحةٍ لو أنْ لُقمانًا بها

وهو الحكيمُ لكان غيرَ حَكيمٍ

ومال بنا طلب الراحة . الى حانٍ في تلك الساحة . فلم نجد به مكانًا خاليًا من الزحام . فعمقنا مدة واقفين على الأقدام . وكدنا نذهب عنه آيسين . لولا أن تحرك بمض الجالسين . فذهبوا لشأنهم . وخلفناهم في مكانهم . وجلسنا في هذا المأمن نتصفح وجوه الحاضرين . وأجناس المارين . فاذا عدد ربات الحجال . يربو على عدد الرجال . من كل ذات حسن وجمال . وتيه ودلال . وقدرة متأود . وخدرة متوردة :

تختال في مَقُوفِ الألوانِ

من فاقع وناصع وقانٍ

وهن يرفلن في الوشَى . ويُسرعن في المشى . ويتبارين في رفع الفضول . من الأطراف والذبول . ويضررن الأرض بأرجلهن . ويزحزن ما استطعن من حُلْدَيْن :

ويَسمَنَ عن دُرٍّ تَقْلَدَنَّ مثلهُ

كأن التراقِ وُشَحَّتْ بالمباسمِ

وينشرن من الأَرَجِ والطَّيِّب . مثل نَشْرِ الزهر في الغصن الرطيب . ويرسلن سهام العيون . فيحركن سواكن الشجون . ويُسلطن من اللعاظ القواطل . ما يَدْمِي حَبَاتِ القلوب الغوافل :

إشارة أفواهٍ وغَمَزُ حواجبِ

وتكسيرُ أجفانٍ وكَفٌّ تُسَلِّمُ

وأصناف الباعة يكثرون من الغدوّ والرواح . ويهيجون في النداء
والصياح . بمثل العواء والنباح . دائبين في الإلحاف والإلحاح
ولما أفقنا هنيهة أخذ الباشا كعادته في السؤال .^(١) «يَسْتَجِبِيْ مَنَاوَقَعَة
الحال . ويقول ما أشك في أن هذا اليوم يوم عيد . عند أهل هذا العالم
الجديد . أوهم في نظري سكان مهاجرون . أو جند قافلون . انتهوا من
حومة المنايا . بالفنائم والسبايا . فأقول له لا بل هي كما يصفها الواصفون .
ويُعرفها العارفون . تلك المدينة الفاضلة . أم المدينة الكاملة . مهبط
العمران والحضارة . ومظهر الزينة والنضارة . وموطن العز والمجد .
ومصدر النحس والسعد . بل هي تلك عندهم إرم ذات الممار . التي لم
يُخْلَقْ مثلها في البلاد . لو رآها صاحب الإيوان . كسرى أنو شروان .
لم يفخر على النهر . بإيوان ولا قصر . ولحُكِمَ بأن « المدائن » لديها
سَبَسَبُ قفر^(٢) . ولو نظرها قيصر الرومان لأقسم أن رومية وهي عنده
عاصمة الدنيا . قرية لديها من الطبقة الدنيا . مثل التي ذكرها في كشفه عن
طَمَاعِيَّتِهِ . قبل ولايته . اذ قال : أَفْضَلُ أَنْ أَكُونَ الْأَوَّلَ فِي أَدْنَى قَرْيَةٍ .
ولأكون الثاني في مدينة رومية . «ولو شاهدها أفلاطون حكيم اليونان .
لم يقل فيما دَبَرَ من الزمان : أحمد الله على نعم ثلاث يعجز عن حمدها اللسان .
ولا يقوم بحققها شكران . أن خلقتني من نوع الإنسان . لا من نوع
الحيوان . ومن جنس الرجال لا من جنس النساء : ثم جعلَ نسبتي الى

(١) العاد العادة (٢) السبب المفازة والارض البعيدة المدى

« أئتنا » عاصمة اليونان . دون سائر البلدان . ولو اطلع عليها هاروت
وماروت . لم يُمارِيا في أن بابلَ عندها فلاة سُبُوت^(١)

كجثة الخلد تَسُرُّ مَنْ رَأَى

فَتَرَدْرِ «الْخُلْدَ» و«سُرَّ مَنْ رَأَى»^(٢)

هذه هي اليوم بيت العلم والفضل . ودار السلام والعدل . ومعهد
الحق والانصاف . ومهد الاتحاد والائتلاف . — هذه هي المدرسة التي
يُشرق منها على العالم شمس الهدى والعرفان . ويتلقى الانسان عنها
حقوق الانسان . ويعرف منها وجوه الخير والإحسان . ولكل إنسان
وطن وهي لكل وطني وطن ثان . لولاها لم يدرك الإنسان لنفسه من
قَدَر . ولم يأمن في دياره من اغتيال أو غدر . فقد كَفَّتْ عن الناس
عاديَاتِ المظالم . وكَفَّتْهم باثقات المغارم^(٣) . وعَلَّمَتْهم كيف تُوقَى المكارم .
وُتَجَنَّبَ الأَوزار والمحارم . وكيف يعيش البشر في دار الشقاء . عيش
السعادة والهناء . تحت ظل « الحرية » و« المساواة » و« الإخاء » . اذا
ناداها المظلوم من أي جنس وأي قوم . أَجَابَتْهُ لِيُكَ مات الظلم فلا
ظلم اليوم

وهؤلاء أهلها كما تراهم يهجرون الرقاد . ويواصلون السهاد .
ويعصرفون الحياة في الجِد والعمل . ولا ينتهي بهم أمل الآلى الى أمل .
فليس على همهم شيء بمحال . في كل حال . يذيقون بعزائمهم صلب

(١) السبوت ، القنر (٢) الخلد ، قصر المنصور ، وسر من رأى ، بلدة شهيرة قرب بغداد .

(٣) البائعات ، جمع بائمة ، وهي الدامبة

الحديد . وتلين لإشارتهم صم الجلاميد . ويذيبون الهواء . ويكتبون
على الماء . ويفتلون الجبال . من الرمال . ويزيلون راسيات الجبال .
برائشات النبال . وينضبون الدأماء .^(١) يمتنع الدلاء . ويمحون آية الليل
فلا تبلغ فيهم أمدا . ويجعلون النهار دائماً عليهم سرمداً :

أوئلك الناسُ إنَّ عُدُّوا بأجمعهم
ومن سواهم فلفَّوْهُ غيرُ معدودٍ
والفرقُ بين الوري جمعاً وبينهمُ

كالفرق ما بين معدوم وموجودٍ

أقول قولي هذا وأبشأ بنصت ويتأمل . و « الصديق » يتبرم
ويتملل . فالتفتُ إليه استخبره الخبر . عن سبب هذا الضجر . فما
أتمتُ عليه أحرف السؤال . حتى انهال علينا في المقال . انهيال السيل
من مشرفٍ عال :

(الصديق) — تالله لقد سئنا ومللنا من سماع مثل هذه المبالغات
وتردادها على آذاننا في وصف هذه الديار ، ونحن في ديارنا ، السنين
والأعوام . وأولى ما يوصف هذا الوصف للغائب عنها لا للحاضر فيها .
وأنت رجل بجات نبأ^(٢) من دأبك استنباط الغوامض واستجلاء
البخائل ، وألزم ما يكون لنا الآن أن نجعل فكرنا مجرداً عن مثل هذه
الأوصاف والأخبار التي شحنت خيالنا زمناً طويلاً فننساها ولا نذكرها
ليكون حكمنا على المشاهدة والعيان خالياً من مقدمات سبقت على الغيب

(١) الدأماء البحر (٢) نبأ ، منقب

ورسخت في أذهاننا بالخبر . وقد علمت أن ذهن الإنسان يغلب عليه الانقباض عن الفحص والتحصيل ولا يباشرهما في الغالب الا مضطراً مقسوراً لما في التسليم المطلق والتصديق المعجل من راحة الفكر وسكون البال . وربما ارتسم في خياله أمر استحسنة بالخبر فيركن اليه ويرد كل ما يرد عليه من قبيله الى صحيفة الاستحسان والقبول في نفسه — والأذن تعشق قبل العين أحياناً — كما انه اذا هو استقبح أمراً كان الأمر على هذا القياس . ولذلك ترى العاشق يرد كل ما يصدر عن معشوقه الى الحسن وإن كان غير حسن في الواقع عند الفحص والتأمل ، للميل الأول والاستحسان السالف ، واستعداد لوح الرضا والقبول في نفسه لانتقاشه فيه ، ومن هنا جاء قولهم :

وعينُ الرضى عن كل عيب كليلَةٌ

كما أن عين السخط تُبدي المساويا

ولقد ترى الرجل الشاعر الأديب إذا أنت أنشدته بيتاً من الشعر لم يكن يعرفه ولم تُسمِّ له قائله ربما استهجنه ولم يستماحه ، فاذا سميت له أبا تمام مثلاً أو أبا الطيب ارتد الى الاستحسان وأخذ يتحمل لقائل البيت عذراً إن كان في البيت ما يُستهجن حقيقة ، وما كان ذلك إلا لما اطمانت عليه نفسه وتعودته من القبول والاستحسان لكل ما يصدر

عن هذين الشاعرين

ويمكن من هذا كله أن نستخرج معنى الحظ والسعد والاقبال الذي

يناله الإنسان في دنياه ان صادف عمله في النفوس صحيفة الاستحسان بين الناس ، ومعنى النجس والتعس والإدبار إن صادف ما يأتيه عندهم لوح الاستقباح ، والشاعر يقول :

إذا أقبل الإنسان في الدهر صِدَقَتْ
أحاديثه عن نفسه وهو كاذب

فما بالك بأحاديث الرواة عنه وحسن القالة فيه . وقد عهدنا الغربيين عموماً وهؤلاء الفرنسيين خصوصاً لا تتصفح لهم كتاباً ولا نسمع منهم حديثاً إلا بتمجيد مدينتهم ومباهاة الناس طرّاً بنظام معيشتهم ، وأنهم هم أرباب الخلق ومادة البشر ، وأن الهدى هدام ، والضلال فيمن عَدَاهُمْ ، وأنه أوحى إليهم من سماء مدينتهم أن يُخرجوا الناس من الظلمات الى النور ، فإما الإيمان بها وإما الحسام . وقد ذاعت فينا دعوتهم ، وأعانهم منا على نشرها مَنْ أعانهم ، فقبلنا مبالغاتهم بالتصديق والتسليم من غير بحث ولا نظر ، وصرفنا كل ما يأتونه الى وجوه الحكمة والصواب وبسطنا لهم صحيفة الاستحسان من النفس يرسم فيها كل ما يتخيلونه لنا ويعتقون به علينا

فالرأى لنا حينئذ أن نطرح عنا ما قالوا وما وصفوا وننظر اليوم الى الأمور في حقائقها ونحكم عليها بحسب قيمتها في ذاتها لا على حسب ما رسمه الوهم وسوَّله الخيال في نفوسنا . ومعنا الباشا يتنازل علينا والحمد لله بأنه كان بعيداً عن هذا العالم محتجياً عن هذه الدنيا الدهر الطويل ، فبقى

خالى الدهن مما شحن رءوسنا من هذه المدنية ، فحكمه اليوم على ما يشاهده بالعيان دون الخبر والرواية يكون أصح حكم ونظره أصدق نظر . وما علينا إلا أن نشاركه في صحة النظر مجردين عن الهوى حتى نقف على كنه الحق والباطل في نظام هذه المدنية وقوفاً تاماً

(عيسى بن هشام) — لك الله فيما تبدي وتعيد ! ! كأنك تريد ان تخالف الإجماع وتقابل الناس بغير ما ألفوه فننتقد لهم ما هو خالٍ عندهم من كل انتقاد بعيد من الدام والعار فيرموننا بغلظة الطبع وجفاء الفهم وسخف الرأي ثم لا يفوتك أن كثيراً من ذوى رأى يرون أنه ليس من أدب الدنيا أن كل حقيقة تُقال وكل صحيح يُروى

أو ليس من صواب رأى حينئذ أن نسير على أسلوب الذين سبقونا الى زيارة هذه البلاد فنرجع على أهل الشرق باللائمة عليهم في انخفاضهم وارتفاع أهل الغرب فوقهم ، وأن نصِفَ ما القوم فيه من القوة والمنعة ومظاهر العز والمعظمة في النعيم المقيم ، وأنها لا تزال راقدين رقادنا الطويل في كهوف التراخي والخلول ، يقولون فنسمع ، ويأمررون فنصدع ، ويقتسمون أرزاقنا فنشكر ، وينقصون من أرضنا فنحمد ، ويحتلون ديارنا فتقبل . أفلا أقل من أن نسهب في بيان الأسباب التي ارتقت بهم الى مرتبتهم في الوجود ونطلب في شرح القواعد والأصول التي أسسوا عليها بنيانهم لنحذو حذوهم ونعمل على شاكلتهم . أوليس الأليق بنا أن نحض قومنا لينفضوا عنهم غبار الكسل ويخلصوا عنهم

لباس الخمول ويهبوا الى تقليد هؤلاء المجتهدين في أنواع الكمالات .
أولست ترى من أفضل الأبواب في الحث والتحريض أن تفخم ما
استطعنا في وصف هذه المدينة ونمظمها في أعينهم ونكبرها في صدرهم
ونبكتهم بأحاديثها و نرفع من قدرها بقدر ما نخط من قدرنا ونعيرهم
بالمقارنة ليكون الحث والتحريض على المباراة أشد ، والإثارة الى اللحاق
بهم أبلغ ، ولو سكت الأستاذ عن تلميذه ولم يعيره بسبق غيره عليه
أكنت تراه يجد في الأخذ ويجتهد في التحصيل

(الصدق) - لا يعزب عن فطنتك بادىء الأمر أن جل هؤلاء
الذين تحكى عن طريقتهم ممن زار هذه البلاد من أقوامنا وعادوا الى بلادهم
فحدثوا عنها وكتبوا وقرروا وحكموا ، ينقسمون الى اقسام :

القسم الأول منهم : الطلبة الذين تلقوا في هذه البلاد دروسهم ،
وهؤلاء لما هم فيه من غلواء الشباب والافتتان بكل رائع يغلب عليهم
الأخذ بالظواهر ، ولا مدسع تمتّ عندهم للبحث والفحص ودقة التمييز
فيما هو داخل تحت حكم الفضيلة وداخل تحت حكم الرذيلة عند النظر في
معيشة أهل هذه المدينة الغربية ، بل هي تتجلى لهم في صورة معظمة
فيأخذونها على الجملة زاهية زاهرة حتى اذا انقلبوا الى أهلهم رويوا لنا عنها
مثل حديث المغرم عن معشوقه في أوقات نشوته ، وكان همهم أن يظهر
عليهم أثر من آثار تلك المدينة العظيمة مما تخف مؤنثه وتهون تكاليفه
ليخلقوا بأنفسهم شيئا من تلك العظمة التي بهرت خيالهم وبهروا بها
أعين الناس . ولسنا من أهل هذه الطبقة

والقسم الثانى : جماعة منا قصدوا هذه البلاد للنزهة والاسترواح لا سواهما ، فهم لا ينظرون الى هذه المدنية الاً من وحه تطبيق العيان على الخبر . ومن بحث منهم فأنكشف له فيها عيب كره تغيير الرأى ومخالفة المعبود لما فيه من المشقة والكلفة . ثم أضف الى ذلك ما يكون للاختصاص بمشاهدة المحاسن دون المعاييب والتبسط فى الحكاية عنه من الفضل على السامعين والمستخبرين . ولسنا من هذا الصنف

والقسم الثالث : طائفة من أرباب الوظائف فى الحكومة يفرون الى هذه البلاد من أسر الخدمة مسافة الشهر أو الشهرين فرار الأسير من القيد ، ومنهم من تلقى دروسه فيها ، وحكمه حكم الذين ذكرناهم فى القسم الأول . وفيهم من لم يتعلم فى أوربا فهم يسرون على نهج المباراة للمتعلمين فيها سائرين على نخطهم ليلتحقوا بهم ويحشروا فى زمرةهم ويرتفع عنهم بعض امتيازهم عليهم ، وحكمهم حكم واحد أيضا ، على أنهم ليس عندهم جميعا من سعة الوقت ما يفسح لهم مجال البحث والتدقيق فيما يرونه ، فان كل موظف منهم لا ينفك مدة زيارته مشتغل الفكر ، مقسم النظر ، بين أمرين : عين تنظر الى ما بقى فى صحيفة اجازته من الأيام ، وعين ترمق ما بقى فى كيسه من الدراهم . ولسنا من هذه الرتبة أيضا

وجميع هذه الأقسام كما تراهم مولعون بالمبالغة فى الوصف والغلو فى القول ، ولا غرو فالناس لا يرون لهم فضلا فى الرواية والنقل ما لم يضيفوا اليها الكثير المفترى من عندهم . ولحكاية الغريب ورواية العجيب لذة

في نفس الراوى وحلاوة في أذن السامع ، على هذا درَج الخلق منذ خلق
الله آدم الى اليوم ، ومنذ جرت أساطير الأولين عن الجن والعفاريت
والأنغوال والسعالى الى قصة « الف ليلة وليلة » و « سيرة عنترة »
و « خريدة العجائب » . وهناك قسم رابع ربما فُحص ودقق ووقف وعلم
ولكن له هوى خاصاً به يمنع من كشف الحقائق ويدفعه الى المبالغة
على القصد والغلو على العمد فلا يروى ما يرويه عن هذه المدينة الا
بالتشديد والتجديد باطلاً كان أم حقاً لينصر مذهباً له معيناً وغرضاً مضراً
فيدأب يتنا كالأجير للأجنبي يرفع لنا من شأن مدينته وقوة حضارته
ليرتفع معه بارتقاعه ويتسلط علينا بسلطانه وينتفع منه بتمكين جاهه فينا
وقدرته علينا . وفي هذا القسم من يرى أن في استيلاء المدينة الغريبة
على الشرق وتغييرها لقديم عاداته وأخلاقه انتصاراً لمذهب بعينه ، فهم
في إبادتهم بأمرها وتشيئهم لها وتبشيرهم بها كالمتشيعين لمذهب
والمبشرين بدين .

فقد تبين لك إذن اننا لسنا بمعدودين في قسم من هذه الأقسام ،
وقد خرجنا من ديارنا واصطحبنا في سفرنا على شريطة الفحص والتنقيب
والاعتراض والانتقاد ، وأن نتحدث عن هذه المدينة بما فيها من ضارٍ
ونافع ومُعَوِّجٍ ومستقيم على المشاهدة في منبت أرضها وتربة نشأتها .
وأنا رجل أميل الى أن كل حقيقة تقال وكل صحيح يُروى ، فدعنا
حينئذ من الغلو والإغراق واتركنا من التخيل في النعت وتعمُّل الشعر
في الوصف ، وخذ بنا فيما عهدناه على أنفسنا . وقد آن أن نسأل الباشا

وهو ينظر الى الأمور بنظر صادق مجرد عن الهوى ، عما وقع عليه من التأثير في نظراته الأولى عن هذا العالم الحديث عنده وعن جملة ما حصل منه في نفسه

(الباشا) — ما أراني أُمَيَّز شيئاً فيما رأيته من هذا الخلق المزدهم وهذه الحركة المشابهة لحركة الأسواق في هذا الدَّوَى المائل لدوَى الخلايا وهذه الأضواء التي يتأذى منها البصر، وجملة ما أنا فيه الدهشة والخيرة ولعل هذا هو الذي يمنعني من التمييز . وكنت أود أن يقع اختيارنا على ناحية ساكنة من المدينة خالية من مثل هذا الزحام حتى نألف الديار وساكنيها

(عيسى بن هشام) — ليس ما توده من هذا القليل بميسور لأن الزحام منتشر في جميع أرجاء المدينة . وهذه الحركة لا تنتهي الليل والنهار ولا جَرَمَ فإن عدد سكانها يُقَدَّر ببضعة ملايين . ولك أن تقول فيها أنها جملة بلاد متجمعة متشابهة يعمدونها مدينة واحدة

(الصديق) — وفي هذا من عظمة الملك ما لا يخفى على أحد !

(الباشا) — إن كان الامر كذلك فلا بد لنا من مرشد يرشدنا وهادٍ يهدينا فنقف منه على ما يخفى علينا فيها وما يغمض من حقائق الأمور

(الصديق) — ما إخالك واجداً لطلبتك ، فقلّ أن تجد في أهلها مَنْ لا يسلك السبيل المعروف في تشييد مجد قومه ونشر مفاخرهم بما نحن في غنى عنه ، ولنا نستفيد منه إلا كثرة اللغو وقلة المحصول

قال عيسى بن هشام — وجاء وقت الطعام ، فقمنا الى المطعم ، ولما أخذنا مقاعدنا على المائدة تبصّرنا أملنا ثلاثة أشخاص من أهل المدينة يتجادلون بينهم . فأنصتنا اليهم نتلقف من أفواههم ما يخوضون فيه ، أحدهم شاب ضئيل الجسم حسن الشّارة مخلوق اللحية والشارب ظاهر التكلف في زيه يتم شكله وحديثه على أنه أديب من كتّاب العصر . وثانيهم رجل بدين منتفخ البطن أحمر اللون ينبشك وجهه وقوله أنه من طائفة التجار . وثالثهم شيخ جميل المنظر في وقار السن ورزانة العلم ما يشك رائيه والسامع له في أنه رجل من أهل الفلسفة والحكمة . ولذّ لنا أن نجعل التفرغ لاستماع كلامهم سمر المائدة . فوجدناهم ينتقلون فيه من باب الى باب ومن شأن الى شأن ، حتى انتهى القول بهم في الأحوال الحاضرة الى حرب الصين فسمعنا « الكاتب » يقول وهو يضرب المائدة يديه والأرض برجليه :

(الكاتب) — لقد آن للمدينة أن تزيل الهمجية وتمحو الوحشية من الوجود ، وأن تقوم بنشر الرسالة التي سخرنا أنفسنا لتبليغها الى الناس فنصلح من شأن الإنسان في أى مكان كان ونغرس فيه أصول المدنية ونأخذه بتعاليمها لنصل بالعالم الإنسانى الى الراحة الدائمة والسعادة المطلقة في هذه الحياة . وإلا فامزية جهادنا في فنون الترقى والتقدم والتسابق في العلوم والفنون ، وما فائدة هذا الاختراع والابتداع في أبواب الصناعات والآلات . فان كان المقصود من المدنية أن تتقن هذه الآلات الحربية ونعدّ هذه القوى العسكرية ليقتل بها بعضنا بعضاً

ونخرّب بيوتنا بأيدينا فبُست العلوم والفنون وبُئس ماسخرنا له أنفسنا
وأضعنا فيه أعمارنا إذ تنقلب الغاية من تهذيب المدنية الى فظاعة الوحشية
ولقد كان الواجب على دول الغرب وأُممه أن تتحد بعضها ببعض
فتنصرف بكليتها وتندفع بجميع قواها التي شيدتها لها أفكار العلماء وذوى
المعارف منا الى تهذيب بقية أهل هذا العالم المقيمين على الجِهالة الى اليوم
لتتزعجها من حضيض المهجيرة الى مقام الرفعة الانسانية ، فيحق لكل
واحد منا بعد ذلك أن يفتخر على الطبيعة بأنه أصلح فسادها وسدّ نقصانها
(التاجر) — نعم هكذا يجب أن تكون سيرتنا، والآ فكيف يتسنى
لنا تصريف بضاعتنا وترويج صناعتنا التي تقوم عليها معاشنا وتضيّق بها
أرضنا اذا اجترأ أهل الصين على أن يقوموا في وجوهنا ويعطلوا
مصلحتنا . وكيف نُجهد أفرامنا في العلوم ونشقى وتعب وفي العالم أقوام
نيام على أرض من الذهب كالأرصاد فوق الكنوز لا ينتفعون بها ولا
يتركون الانتفاع بخيرات الطبيعة وطيباتها للذين استحقوها بكشف
أسرارها ورفع أستارها

(الحكيم) — ان كان الكلام بينكما عن المدنية الصحيحة التي تقوم
على الحرية والمساواة والإخاء حقيقة وتعم الخلق من غير استثناء بالعدل
والإحسان وتوفر لهم أسباب السلم والأمن في السعة والرخاء ، فلسنا منها
في شيء ان كنا نأنظنها مقصورة على إتقان الآلات وحشد الجنود والتفنن
في تشييد قوَى الحرب وإتفاق ثروة الامة في سبيل ذلك حتى تضيق

بنا الأرزاق في أرضنا فنعمل على طلبها في أنحاء المسكونة ونُسَلِّطُ على أهلها هذه القوى الحربية . ولسنا من المدنية في شيء أيضاً اذا كنا نعتبر انفسنا ملائكة الأرض وصفوة البشر وأرباب الخلق فنحتقر بقية العالم ولا نرضى منهم الا بتغيير أخلاقهم ونسخ عاداتهم وأن يفوضوا إلينا أمورهم ويسلموا إلينا مقاليدهم ونكون فوقهم كالأوصياء ، نصرهم إلى ما نحب ونسوقهم إلى ما نهوى . وليست المدنية أن نذهب إلى الصينى في أقصى الأرض وهو آمن مطمئن بين أهله وولده في عيش يرتضيه ونظام يألفه فنقول له : قُمْ فقد جئناك بالهدى والحق ، فهل فكسرتُ أصنامك واهدمتُ مناسكك واحرقُ كتابك وغير ثيابك وبدلتُ طعامك وارفعُ حجابك وكنُ أورياً في الصين القديم ، وغريباً في الشرق الاقصى ، فاذا قال لنا : لست أفقه شيئاً مما تدعونى إليه ، ولا أدري ما هذا الدين الذى تبلغوننى رسالته . قلنا له ليس هذا بدين ولا بمذهب وانما هى دعوة المدنية الغربية ندعوك إليها لتقرها وتلبس بها ، فيقول لنا : ان كانت لكم مدينة غربية فلنا مدينة شرقية أسسها فينا تجارب القرون المتراكمة وبقيت فينا نقيّة خالصة هذبها الدهور وأخلصتها يد الزمان ، وليس يبقى على الزمن من الأخلاق والعادات الا ما كان له أصل ثابت وجوهر نقي ، وأتم ان كنتم تؤرخون وجودكم في العالم بسبعة آلاف من السنين فنحن نؤرخ وجودنا بمئات الألوف ، وان كانت مدينتكم بنت قرن أو اثنين فان مدينتنا بنت عشرات القرون اصطالحنا عليها وألفناها وطاب لنا العيش بها طول هاتيك الدهور ، ومن دلائل المدنية الصحيحة أن

تعيش فيها بأمن وسلام لا يطمع أحد فيما ليس له ولا يُغير على حق للغير ،
وقد علمت أننا عشنا دهرنا الطويل لم نطمع في أرضكم ولم نُزح ربك لفتح ،
ومن دلائلها أنها لا تنتهى بأصحابها الى مفاصد الترف والنعيم فتضعف
الأجسام ويقل النسل ، وقد علمت أن بلادنا هي أكثر البقاع سكاناً
وأعظمها عمراًنا « فنقول له : ما أضلّ أحلامكم يا معشر الصينيين ألم تعلموا
بأن مدينتنا هي مدينة العالم كله لا سواها قامت على العلوم والمعارف
واستوت على أساس متين كان ينشده الخلق منذ القدم فازالوا يتخبطون
دون الوصول اليها حتى سمحت الطبيعة آخر الدهر فأنجبتنا لها فأخرجناها
للناس هدى ورحمة ، وعهدنا على أنفسنا دعوة الخلق اليها ليسعدوا بها
مدى الحياة ، بهذا وصانا أئمة المدينة فينا ورجال الدعوة منا

ان كانت هذه هي المدينة التي تفاخر بها ونساجل فلا بدع أن يعتقد
أهل الشرق أنها ليست الا وسيلة من وسائل الفتوحات لنيل المطامع
وبلوغ المآرب

قال عيسى بن هشام — وتأتى غادة هيفاء تنثنى بقوامها وتتكرس
في مشيتها فتخاطب « الكاتب » بالعتاب لأنه أهملها في الانتظار وجلس
لل كلام والجدال ، وتسوقه أمامها بعضا المظلة ويتبعهما التاجر ، ويبقى
الحكيم يرمى ثلاثتهم بالنظر الشرر وينعى عليهم سوء رأيهم وفساد نظرهم
ويلتفت الى « الصديق » فيقول لى : ما أغرب ما نرى من هذا
الشيخ الفرنسى فما أصله في قول الحق وما أجرأه على الجهر بالصدق

وما أولانا بمعاشرة مثله نستبصر به ونسترشد . فأرْفَع بيصرى الى الشيخ
فاذا هو يرمى بنظره الينا ويستمع لحديثنا بالعربية ويظهر نحونا البشر ،
فقابلته بابتسامة أخطب بها ودهُ ، فبادرنا بالحديث واتصل بيننا جبل
الكلام ، فسألنا عن أمرنا ، وسألناه عن أمره ، فتبين لنا أنه رجل من
أساتذة الفلسفة والحكمة ومن المستشرقين الذين يشتغلون بالشرق وأهله ،
وكشفنا له حقيقة أمرنا والغرض الذي رمينا اليه ، فاتفق معنا على المخالطة
والمصاحبة نحكى له عن الشرق ويحكى لنا على الغرب . ودعانا لزيارة المعرض
العام معه في القد . فقابلناه على ذلك بالشكر والحمد

المعرض

قال عيسى بن هشام — وانطلقنا نقصد عكاظ الممالك والأُمم. وسوق الأقدار والهمم. ومشهد النفائس والعظائم. ومظهر القوى والعزائم. وحلبة الابتكار والابتداع. وميدان الإنشاء والاختراع. ومعرض التبصر والاهتداء. في حسن التقليد والاقتداء. ولهذا المعرض خمسون بابا. تختلف ابتعادا واقترابا. فبلغناه من ناحية الباب المعظم. والمدخل المقدم. فاذا الباب قبة تقوم على ثلاث قوائم. تلامس بملوها الغمام. كأنها اليفاع^(١). في الانساع والارتفاع. ينحدر من تحتها الجيش المتراكب. فلا تماس فيه المناكب. وعلى كلا الجانبين سارية^(٢). تقارن الشُحْبَ غادية وسارية. يدور في رأس كل واحدة منهما نبراس وأُيَ نبراس. اذا اشتعل جعل خمة الليل قبسا من الأقباس. فكلتاها علم في رأسه نار. يستوى عندهما الليل والنهار. ومن لصخر الخنساء. أن يأتَمَّ بهما في ظلمة اليبداء. وهو المؤتمُّ به في آيات الرثاء:

وإنَّ صخرًا لتأتمُّ الهداةُ به

كأنه عَلمٌ في رأسه نارُ

فهما عمودا فجر. لا عمودا صخر. يكتنفان تمثال غانية غيداء. قائمة على رأس تلك القبة الشَّمَاء. وشيقة القد. بارزة النهْد. مكمورة لَفَاء^(٣).

(١) اليفاع، النل المرتفع (٢) السارية، الاسطوانة والعمود

(٣) المكمورة، المدجة الخلق، والفاء المثناة السافين

مجدولة عجزاء. قد خلعت الأزار والوشاح. وتبدت في «قيص الصباح». وهي تضمه يديها إلى صدرها. خشية أن يحاول النسيم هتك سترها. إذا عارض وجهها القمر. علا وجهه الكدر. ثم بان فيه الكلف والنمش. فاحتجب بالغمام وانكمش. وغارت منها الزهرة. غيرة الضرة من الضرة. ففارت في الدجون. وغابت عن العيون. لو قام نابغة بنى دُيان من قبره. لشهد أنها الدمية التي وصف بها المتجرّدة في شعره:

أَوْ دُميةٌ من مرمر مرفوعةٌ
بُنِيَتْ بِأَجْرٍ يُشَادُّ وَقَرَمَدٍ^(١)
أَوْ دُرَّةٌ صَدَفِيهِ غَوَاصُهَا
بَهَجٌ مَتَى يَرَهَا يَهْلٌ وَيَسْجِدُ
لَوَانِهَا عَرَضَتْ لِأَشْمَطَ^(٢) رَاهِبٍ
عَبَدَ الْإِلَآهَ صَرُورَةَ مُتَعَبِدٍ^(٣)
لَرْنَا لِرُؤْيَيْهَا وَحَسَنِ قَوَامِهَا
وَلِخَالِهَا رَشَدًا وَإِنْ لَمْ يَرْشُدِ

فقد أقامها الصنّاع آية الفن في التصوير والتشكيل. وشاردة الشوارد في الرسم والتثيل. يُخَيِّلُونَهَا «فرنسا» في ترحيبها بالزائرين والقاصدين. تَحْيِيهَا للواردين على المعرض والوافدين. والباب كله مرصع بحقائق من البلّور^(٤). إذا تَلَأَّ فيها شعاع النور. خِلَتْهَا أنوار الأزهار في أغصانها.

(١) القرمذ ، كل ما يطل به (٢) الاشمط ، الذي خالط سواد شعره يابض
(٣) الصرورة ، الذي لم يتزوج (٤) البلور ، بالضم لغة في البلور بالفتح

أو أذْيَال الطواويس في اختلاف ألوانها . بل قلائد منظومة من در
وجوهر . وعقود ياقوت من أحمر وأزرق وأصفر . لا بل فصوصاً منضدة
من الماس . يترأى فيها طيف الشمس بالانعكاس

ولما تجاوزنا الباب انتهينا الى سهل رحيب . ووادٍ عثيب . نبئت
أرضه بالقصور المنيفة . كما نبئت الروض بالأغصان الوريفة . تضل فيه
الحداة . وتحار الهداة . ولا بدع فالمدينة في اتساعها قطر من الأقطار .
وهذا المعرض في سرتها مصر من الأمصار . وما زلنا سائرين على أرض
ترهو فيها أغراس الجنان والبساتين . وأزهار الأغصان والرياحين .
يتخللها من الدُمى والتماثيل . ما يعرب عن الدقيق من المعاني والجليل .
فتكاد تبادرك بالخطاب . أو ترّد عليك رجّع الجواب . ولما امتلأت العين
من هذه المحاسن الشائعة . وجنّ اللب من هاتيك المناظر الرائعة . التفت
الى أصحابي أتلّس ما يجري في خواطرهم . وأتحسّ ما يدور في ضمائرهم .
فرايت الباشا يتأمل ويحدّق . ويمعن ثم يطرق . وإذا هو يقول في همسه .
وحديثه لنفسه . لله أبوهم ما أبعد شأوهم في التشديد . وأجل شأنهم في
الإنشاء والتجديد . وما أسبقهم في الجِد والاجتهاد . الى التوسع وحب
الازدياد . وما أشغلهم بما يكفي الانسان أقله وأدونه . ويكفل راحته
أصغره وأهوته . ولو يقن ابن آدم أن القبر غايته . لم تحفق على القصور
رايته . ولكان همه بحفر القبر . أعظم من همه بتشديد القصر . فقامه
هناك طويل . وبقاؤه هنا قليل . ولو علم أن هذه الأحجار المذهبة في

الشرفات العالية . لا تلبث أن تنتقل صفائح في القبور البالية . لم يعمل
عمل المخلدin . وهو بين أظفار المنايا رهين :
تَبْنِي المنازلَ أعمارٌ مهدمةٌ

من الزمان بأنفاسٍ وساعاتٍ

ووجدت « الصديق » في هذا الموقف على حال لا تتغير . وهيئة
لا تتأثر . ينظر الى ما نستعظمه نظرة الفلاح الى قريته . والبدوى الى
دِمتته . لا يعجبه شيء ولا يزدهيه . مما تحار أحلام الوردى فيه :

لا معني بكل شيء ولا

كل عجبٍ عنده بعجبٍ

الا أنه مع ذلك غير هادئ البال . ولا ساكن البلبال . كأنما هو
يعفوس على معنى يدق في الفهم . ويبحث في أمر يحل عن الوم .
ويستجمع لديه حواشي التفكير . ويلم أشتات التذكير . فاستخبرته عما
يشغله . وسألته عما يذهله . فلم يسعف بالجواب ولم يسعد . غير أن
سمعه يترنم وينشد :

ما أقلَّ اعتبارنا بالزمان

وأشدَّ اغترارنا بالأمان

وقفاتٌ على غرور وإقدا

مٌ على مزلق من الحدائين

إلتفاتاً الى القرون الخوالي

هل ترى اليوم غيرَ قرنٍ فإن

أَيْنَ رَبُّ السِّدْرِ^(١) فَالْخَيْرَةُ الْيَمِينُ
 ضَاءُ أَمِ أَيْنَ صَاحِبُ الْإِيوَانِ
 وَالسِّيُوفُ الْجِدَادُ مِنْ آلِ بَذْرِ
 وَالْقَنَاءُ الصَّمُّ مِنْ بَنِي الرِّيَّانِ
 يَكْرَعُونَ الْعُقَارَ فِي فَلَقِ الْإِبْدِ
 رِيزِ كَرَعَ الظَّمَاءُ فِي الْمُدَرَانِ^(٢)
 مِنْ أَبَاةِ اللَّعْنِ الَّذِينَ يُحْيَوْنَ
 نَ بَهَا فِي مَعَاقِدِ التَّيْجَانِ^(٣)
 تَنْزَاهُ الْوَفُودُ بَعِيدًا
 ضَارِبِينَ الصَّدُورَ لِلْأَذْقَانِ
 فِي رِيَاضٍ مِنَ السَّاحِ حَوَالِ
 وَجِبَالٍ مِنَ الْحُلُومِ رِزَانِ
 وَهُمْ الْمَاءُ لَذَّةٌ لِلْعَطَشَا
 نَ بَرْدًا وَالنَّارُ لِلْحَبِيرَانِ
 مَا تَنَزَّ عَنْهُمْ الْمَنُونُ يَدُ شَوْ
 كَاهُ أَطْرَافُهَا مِنَ الْمُرَّانِ^(٤)
 عَطَفَ الدَّهْرُ فِرْعَانَهُمْ فَرَاهُ
 بَعْدَ بَعْدِ الذُّرَا قَرِيبَ الْمَجَانِي

(١) نصران معروفان (٢) الفلق ، جمع فلقة بالكسر وهي القطعة
 (٣) أباءة اللعن ، اللوك الذين يخاطبون بأبيات اللعن (٤) المران ، الرماح

وَنَتْنَهُمْ بَعْدَ الْجَمَاحِ الْمَنَايَا
فِي عَنَانِ التَّسْلِيمِ وَالْإِذْعَانِ
لَيْسَ يَبْقَى عَلَى الزَّمَانِ جَرَى
فِي إِبَاءٍ أَوْ عَاجِزٍ فِي هَوَافٍ

ورأيت الشيخ «الحكيم» يهز كتفيه . وينظر في عطفه . ويقول
في التفاته إلينا . وانعطافه علينا . ما أشبه الآخر بالأوائل . في التفاخر
بالباطل الزائل . لا يظن ظاناً أن كل ما يراه من هذا المشهد الفخم .
ويستعظمه من البناء الضخم . بما أنفق عليه من الأموال الطائلة . وما
اقتضاه من المشاق الهائلة . سيدوم السنين والأعوام على الدهر . وإنما
يُعَدُّ بقاءه باليوم والشهر . وليس يمكث من كل هذا البناء والعمران .
الآهذان القصران . وأشار بيده إلى قصرين متقابلين . كأنهما في
ارتفاعهما ذروتا جبلين . وهنا أخذ الباشا يستفهم منه ويستعلم . وأنا أنقل
له وأترجم :

(الباشا) — وما مقدار الأموال التي أنفقت في تشييد هذا
المعرض ؟

(الحكيم) — اشتركت الحكومة في الاتفاق عليه بمشرين
مليوناً من الفرنكات وبلدية باريس بمشرين مليوناً وتألقت جمعية
اشتركت فيه بستين مليوناً أصدرت بها خمسة وستين مليوناً من التذاكر
لأيدي الناس تحت ضمانات البنك العقاري

(الباشا) — وما الغرض منه ؟

(الحكيم) — الأصل فيه الكسب والربح . والغرض منه عرض الأعمال والصناعات بما يُظهر مقدار المسافة التي تقطعها الأمة من حين لآخر في باب الإجابة والإتيان ليتضاعف الجهد والاجتهاد وتنسابق المهم في أسباب التقدم والارتقاء في مدارج المدنية

(الباشا) — وهل تظنه يأتي بربح عظيم ؟

(الحكيم) — كان أمل الربح منه عظيما ، ولكن خاب الظن فيه فان الشركة قدّرت عدد الزائرين والمترددين عليه بخمسة وستين مليوناً في مدة وجوده وهي مائتان وأربعة أيام ، ولكن لم يتردد عليه الى الآن سوى عشرة ملايين وقد مضى من المدة نصفها . وقد بلغ عدد الشركات التي اشتهر إفلاسها فيه سبعين شركة الى اليوم . وآخر شركة شاهدت إفلاسها أمس شركة « شارع القاهرة » ورأيتهم يبيعون « معروضاتها » وأثاثها بحكم المحكمة في ناحية من نواحي المعرض كانت الشركة أقامت لها فيه مكاناً فسيحاً جمعت فيه ما يكون في شوارع مدينتكم من لعب القُرود ، وألتياء الثعابين ، ورقص الزنوج ، وتسريح الجمال ، وسوق الحمر ، فرأيت الجمال وهي ثلاثة تباع بمائتين وخمسين فرنكاً وبيع الحمار من الأربعين حملاً بتسعة عشر فرنكاً . وكان من ينظر الى هذه الدواب وهي تُعرض للبيع بهذه الأثمان في غير بلادها يتخيل من أعينها كأنها تندب نحس طالعها ونحس قيمتها في غربتها ، ولا تسأل عن سوء الحال

التي كان عليها النساء والرجال المصاحبون لهذه الحيوانات ، وقد تداركهم
« مأمور التفليسة » فخصص لهم مقدارا من الدراهم يُنفق عليهم لإعادتهم
الى وطنهم . وعلى الجملة فالحسارة في هذا المرض عظيمة وأرى أنهم
أخطأوا كل الخطأ بالتوسع فيه وتكبير ساحته حتى لا تكاد تدرك الدورة
الواحدة فيه الا بقطع مسافة لا تقلّ عن عشرة كيلو مترات ، فوزعوه
وشتوه مع قلة الزائرين والواردين ، ولو أنهم اختصروا فيه لكاف
خيرا لهم

(الصديق) - أهذه الشركة التي تذكرها في كلامك هي « شركة
المعرض المصرى » الذى سمعنا به

(الحكيم) - لا ولكنها شركة أخرى فرنسية ، وليس من
الضرورى أن يكون أصحاب الشركة من أبناء مصر

(الباشا) - ولماذا لم تقدروا فى هذا المعرض حسابكم بما لكم فى
مختلف الأمور من الدقة وصحة النظر ؟

(الحكيم) - كانوا يحسبون ان أمم العالم ستهرع اليه من كل فج ،
وكانوا يعتقدون ان أكثر ملوكها يغدون على المعرض فينفقون فيه
خزائن أموالهم ودفائن كنوزهم فلم يحضره الا ملك السويد من ملوك
الغرب ، ولم يزره الا شاه العجم من ملوك الشرق ، وكانوا قد دعوا اليه
ستا وخمسين مملكة للاشتراك فيه فلم يجبههم سوى ثلاثين منها

قال عيسى بن هشام - وكنا وصلنا فى هذه الاثناء الى باب أحد

القصرين المشار اليهما بالبنان المعدودين لِعَرْض ما يسمونه بالقنون الجميلة وهو المعروف بالقصر الصغير ، فعولنا على البدء بزيارته . فدخلناه فاذا هو ببناؤه وتشيدده وزينته وزخرفته ونقشه ورسمه يفوق كثيرًا من قصور الملوك والقيصرة . وناهيك أنهم اتفقوا في إقامته اثني عشر مليونًا من الفرنكات . وقد عرضوا فيه نفائس المصنوعات مما حُفِظَ عن الأوائل منذ العصر الروماني الى القرن الثامن عشر من قطعة المعدن المضروبة الى تقوش أبواب الكنائس ، ومن أواني الفخار الى الحلى والجواهر ، ومن النعل المطرزة الى التاج المرصع . وهنا يعجز القلم عن الوصف والتمت ، والأحاطة بمثل هذه النفائس لا تأتي من طريق الخبر والنقل بل من جهة المشاهدة والعيان ، ولا يمكن أن يتجلى أثرها في نفس القارئ مثل أثرها في نفس الرائي . ولما فرغنا من دورتنا الأولى في القصر استوقف الصديقُ الباشا يسأله عما شاهد من التحف ورآى من الطرَف :

(الباشا) - ما أرى الا كثيرًا مما كان يوجد عندنا بعضه في الأسواق القديمة وبعضه في البيوت العظيمة

(الحكيم) - اعلوا أن ماترونه هنا هو أنفس الأشياء وأغلاها قيمة في العالم لا تتناول كنهها الظنون . مثال ذلك أن هذه الساعة التي بجانبنا ، ولم تلتفتوا اليها في وقوفكم عندها ، قد رغب في شرائها بعض الأغنياء فساومها بثلاثة ملايين فرنك فلم يسمح صاحبها بالبيع لقلة الثمن

وما هي إلا كرة محمولة على أيدي ثلاثة هياكل من الرخام . ولكن دقة الصنعة وقِدَمُ العهد أورتاها هذه القيمة العجيبة في الثمن

(الصديق) — حقاً إن التحفظ على التحف القديمة والآثار العتيقة

جسنة من حسنات أهل الغرب يُعَبِّطُونَ عليها ، فإن النظر إليها يورث إحساساً جليلاً في النفس وذكرأً جميلاً بمجد الأُمم الغابرة ودرساً مفيداً في التاريخ ، كما أن في ذلك من حفظ السلسلة في الصناعات ما يفيد الفكر ويساعد على الترقى في العمل . وقد أهمل أهل الشرق هذا الباب إهمالاً لا يُغتفر لهم حتى اندثرت المآثر واندرست ولم نَعُدْ نعلم من كيفيات المعاش عند المتقدمين إلا الأسماء التي غابت عنا مُسمياتُها . وقل لي بالله أى شيء يكون اليوم أجمل في العين نظراً وأجمل في القلب وقمّاً لو حفظنا ما ضيَّعه التفريط مثلاً من « دِرَّةَ عمر » و « صمصامة معدى كرب » و « قيص عثمان » و « درع علي » و « تاج الرشيد » و « راية المعز » . ولكنني أرى مع ذلك أن الغربيين تجاوزوا الحد وتغالوا في هذا الباب غُلُوّاً كبيراً ، وذهب بهم حب التنافس في اقتناء العتيق مذهباً يلامون عليه لحبسهم الأموال الطائلة على أثمان هذه المقتنيات التي لولاها لكانت من قسمة الأرزاق بين العباد ، وكم في هذا العالم المتمدين من الألوف الذين لا يجد أحدهم فرنكا واحداً لقوت يومه يَتَنَّا نرى أحد المولعين بالمقتنيات يعرض ثلاثة ملايين لاقتناء مثل هذه القطعة من الرخام

(الحكيم) — نعم لك الحق فيما تعتب به علينا من هذه المغالة

لمجرد التباهي والتفاخر مع حرمان الناس من أرزاقهم ، ولكن ليس

عندنا من الوقت الآن ما يكفيننا لبسط القول في نصرة المذهب
الاشتراكي

قال عيسى بن هشام — وأدركنا التعبُ والكلال . وإن لم يكن
يدركنا السأمُ والملال . واحتاج الجسم الى الراحة والسكون . ففادرنَا
القصر. وفي النفس منه بلابلُ وشجون

القصر الكبير

قال عيسى بن هشام -وزرنا القصر الكبير . بعد القصر الصغير .
أعنى الآية الكبرى . بعد المعجزة الصغرى . ناطقة بما لا يتصور من
جمال الوضع . وحسن الصنع . فيما احتواه هذان البناءان من الكنوز
التي لم تجتمع لأحد من قبل . ولم يظفر بمثلها ملك في الدهر ولا قيل .
ما كنوز قارون عندها الآمن التراب والحصى . ولا قرط « مارية » الآ
من الخرز أو النوى . وما طوق « عمرو » . الأ طوق أسر . وما أسلاب
الاسكندر لديها الآمن أطمار « المجاذيب » و « الأ ولياء » . ولا وشى
« داراً » الآمن فراء « العرفاء » والفقهاء . وما أعلام البلغاء . الا منازل
النساء . اذا هي حاولت في وصفها تسطيرا . ورامت لنتها تحبيرا .
وماذا تقول في خزائن المسكونة تسكن في دارين . وأفلاذ البسيطة
مبسوطة بين جدارين . لو توزع بعض ما اخترناه على الخلق . لم يكف
أحد بعدها في طلب الرزق . ولم يشك شاك من عيش الحرمان . ولم
يبك باك من بؤس الزمان . ولا أصبح المحروم بين الورى غنياً . وغدا
اسم الفقر في الدنيا خبراً مطويّاً . وتساوى الناس في الرتبة والقدر . ولم
يسلكوا فيما بينهم سبل الخل والغدر . نعم ولم يفرسالب على مسلوب .
ولم يفتك غالب بمغلوب . ولم تقترب في العيش المآثم والذنوب . ولم
يبق للنفوس في الدنيا من مشتى ولا مطلوب . فالقصران قائمان يفخران
على الدهر . بما ليس له به عهد من الثراء والوفر . وسرنا في أنحاء العرف

تأمل التحف والطرف . ومن أبدع ما اجتلاه النظر . بين تلك الدرر
والغرر . معرض التماثيل والصُور . فكم هناك من صُورٍ بَرَّاهَا الإِتقانُ
والإحكام . تُمثِّلُ للعقول والأفهام . مالا يمثله تأليف الكلام . وتشخصُ
لك حوادث التاريخ ومناظره . كأنك كنت حاضرةً وناظره . ويوضح
لك قلم الرسم والتصوير . ما يعجز عنه قلم الخط والتحرير . من مكنون
الآهواء والأشجان . بلفظ مبین من النقوش والألوان :

أراك المني فتَمَنِّيَهَا

وصاغ لك الطيف حتى انبرى

فما شئتَ فيها من أثرٍ يحلو صدأً الحس . ويرقق حواشي النفس .
فتولاك هِزَّةً الطرب لرؤيتها . وتعتريك نقحة السحر من هيئتها .
فتكاد تَنِيَّ للفارس المقتول . وتمطف على الواله المتبول . فتترحم على قتيل
الرمح والحسام . كما تستغفر لشهيد الهوى والغرام . وتستبيك الفتاة
الحسنة . والكاعب المذراء . فتصبر الى محبتها . وتطمع في موَدَّتِها .
لولا عيون الرقباء من أهلها . وهم ضاربون من حولها

وترى هناك صورة غادة باهرة الخاق . عريقة الحسن والعتق .^(١)
يتأتى على وجهها نور العفاف والصيانة . ويدعو على حياءها خصال الرزاة
والرَّكَّانة^(٢) . مع قوة الشكيمة . وثبات العزيمة . قد وطئت تحت أقدامها
غُولاً من الأغوال . لها مائة فم للنهش والاغتيال . وطعنتها بالرمح في
أحشائها . فأوردتها مَورِدَ فنائها . وعلى رأس الغادة فَوْجٌ من ملائكة النصر .

يُتَوَجُّوْنَهَا تاجَ العزِّ والفخر . - وتلك هي صورة « الفضيلة » . في مصارعها
« للرديلة » . وعن يمينها حُرَّةٌ بارة الجمال . بادية المهابة والجلال . ترمقها
بعين المستبشر بظفر حزبه . والمقنط بنبيل سوئه وإربه . - وتلك هي
« الحكمة » التي لا تُثَالُ الفضيلة الآبها . ولا تُدْرَكُ إلا بخالصها ولُبَّابها .
وعن شمالها حُرَّةٌ أُخْرَى يتلألُ في غرتها نور المعرفة واليقين . وقوة
الادراك والتمكين . تحمل على كتفها طفلاً في سن الرضاع . وتُمسِكُه في
يده شبهَ القلم أو اليراع . وهي تنظر الى « الفضيلة » نظر التوقير والتعظيم .
في موقف التبجيل والتكريم . - وتلك صورة « العلم » وفضله . وذلك
الطفل صورة الإنسان في جهله

وترى امرأةً نَصَفًا وضمت على كل ثدى لها طفلاً ترضعه وتغضمه .
وكأنها تقبله وتشمه . ومِنْ حَوْلِهَا أطفال عراة تجذبهم الى حبرها .
وتسترهم بفضل إزارها . وعلى حُيَّاهَا سِمَاتُ الغبطة والارتياح . وعلامات
الرضا والانشراح . فيكاد يلوح فيها ما طَوَّتهُ يد الزمان . من براعة الحسن
والافتتان . - وتلك صورة « الخير والإحسان »

ثم ترى صورة وليدة من حِسانِ الولاة . وخريدة من أبهى الخرائد .
كأنها المهابة في الخائل . والظبية في الشائل . يطول شعرُها فضلَ الإزار .
ويريك الليل في وَضَحِ النهار :

بَفَرَجٍ يُعِيدُ اللَّيْلَ وَالصَّبْحُ نَيْرٌ
وَوَجْهٌ يُعِيدُ الصَّبْحَ وَاللَّيْلُ مُظْلَمٌ

تَبَدَّتْ فِي مُلْتَفٍّ غَابَةِ أَغْصَانُهَا مِنَ الْعُودِ وَالنَّد . وَأَغْرَاسُهَا مِنَ
الْبَنْسِجِ وَالْوَرْد . فَالْأَرْضُ مَفْرُوشَةٌ بِمَشْثُورِ الْأَزْهَارِ . وَالسَّقْفُ مَعْرُوشَةٌ
مِنْ أَغْصَانِ الْأَشْجَارِ :

فَهِى تَحْتَالُ فِي زَبْرَجْدَةٍ خَضَ
رَاءَ تَمْذَى بِلَوْلُؤٍ مَشْثُورِ
وَعَدَّتْ كُلَّ رُبُوعَةٍ تَشْتَهَى الرِّقَـ

صَ بَشُوبٍ مِنَ النَّبَاتِ قَصِيرِ
وَقَدْ ثَرَتْ الشَّمْسُ عَلَيْهَا مِثْلَ نَثَارِ الْعُرَاسِ . بِدَنَانِيرَ تَعْبَى أَيْدَى
الْوَامِسِ . كَمَا عَمِيَ الْمُنْبِى بِمَثَلِهَا . مِنْ قَبْلِهَا . وَهُوَ يَحْتَازُ شِعْبَ بَوَّانِ .
وَيَصِفُ فِيهِ التَّفَافِ الْأَغْصَانِ :

فَسِيرْتُ وَقَدْ حَجَبْتِ الْخَرَّ عَنِّ
وَجِئْتُ مِنَ الضِّيَاءِ بِمَا كَفَانِي
وَأَلْقَى الشَّرْقُ مِنْهَا فِي ثِيَابِي
دَنَانِيرًا تَفَرُّ مِنَ الْبِنَانِ

وَالْأَطْيَارُ وَاقِفَةٌ مِنْ حَوْلِهَا عَلَى هَيْئَةِ التَّغْرِيدِ . وَتَرْدِيدِ النَّدِيدِ .
كَأَنَّهَا تَجَاوِبُ الْفَتَاةَ فِي سَوَّالِهَا . عَنْ أَوْبَةِ خِلِّهَا . بِأَنْ لِكُلِّ حَمَامَةٍ مِنْهَا
شَوْقًا يَنَازِعُهَا . إِلَى الْفِ بَضِيعِهَا . فَيَشْتَدُّ بِالْفَتَاةِ الْوَلَعُ وَالْهِيَامُ . وَتَشْتَرِكُ
فِي الْمَهْدِيلِ مَعَ الْحَمَامِ . — وَتِلْكَ هِيَ « الطَّبِيعَةُ » فِي جَمَالِ الْفَطْرَةِ .
وَجَلَالِ الْقُدْرَةِ

وترى «هُوميرُوس» آدم الشعر اليوناني وهو أعمى البصر . متلفعا
بالوشى والخبر . تضىء لحيته بنور المشيب . ويملا العين بالمنظر المهيّب .
متربعا على سرير الملك مُلك الأشعار . لا مُلك الأقطار . وسلطان
الأوزان . لا سلطان البلدان . وشعراء الجن يكلونهُ بأكايل الانتصار .
وشعراء الإنس بين يديه في موقف الإِعظام والإِكبار . من «هبرنون»
و «إسكيل» . و «هوراس» و «فيرجيل» . وعن يمينه أبطال الشجعان .
وفرسان الزمان . ممن رَوَى الشعر أنباءهم . وخَلَدَ النظم أسماءهم .
وهم على سمة الخضوع . وهيئة الخشوع . من «أشيل» و «اسكندر» .
و «إينيه» و «قيصر» . وعند رأسه كعبان . كأنهما اللؤلؤ والمرجان .
متفتتان في جمال الوجه والجسم . وإن اختلفتا في الشكل والرسم . هما
الفنان اللذان ابتكرهما في الشعر . منذ شبيبة الدهر . والشعراء في
وقوفهم كأنهم يتأدبون بأدبهما . ويتعمون بقربهما . والقيان من حولهما
صفوف . يضربن بالمزاهر والدفوف . ويوقعن النغم واللحن . على ذلك
النظم والوزن

ومنّ لنا بهذا الشاعر وأمثاله من الأولين الأقدمين . والسابقين
المقدّمين : يصورون بأشعارهم ما بين أيدينا من صور هذه الالواح
والمهاريق . فالتصوير شعر صامت والشعر تصوير ناطق

ولما افقنا قليلا من نشوة الإعجاب والازدهاء . واقتربت زيارتنا من
الانتهاء . اذا نحن برجل أمانارث الثياب . خلق الجلباب . كأنه المعنى
بقول القائل . من شعراء الأوائل :

أخوسفرٍ جَوَّابُ أَرْضٍ تَقَاذَفَتْ
به فلواتٌ فهو أشعثٌ أغبرٌ

وقد اختلط شعر جبهته. بشعر لحيته. فاختلفت بينهما مقاطعه وملاحه. وغمضت أساريره ولوائحه. ونحل جسمه نحول الشاة بالأجاذب^(١). وطالت أظفاره فتقوّست كالخالب. واختزن فيها الوسخ فصارت كالسكاحل علقت بها المرآود. أو كخطوط الحِداد على صفحات الجرائد. وهو يلحظ الداخلين والخارجين لحظة الزدري المحتر. ويذهب بنفسه ذهاب المبتدع المبتكر. والناس يقابلونه مع ذلك بالاحترام. ويواجهونه بالإكرام. فالتفت الباشا الى صاحبنا «الحكيم» يستخبره عن هذه الكتلة من الدّامة. والكؤومة من القُامة. وكيف راق لهم الجمع بين هذه المناظر الحسان. وبين منظر هذا الشيطان. فاشتبك بينهما الخطاب. وأخذت أترجم لهما في السؤال والجواب :

(الباشا) — أفأ كان ينبغي منع هذا الرجل وأمثاله عن هذه الاماكن النفيسة ليحفظوا لها رونقها واثلا يضيعوا بهجتها في نفوس الزائرين. ولكن لعلهم أرادوا بذلك صرف عين الكمال

(الحكيم) — هذا الرجل هو من كبار المصورين الذي نفتخر على العالم بصنع أيديهم مما ابتهج به نظرك في هذا القصر الذي أقيم لتفخيم هذه الصناعة وأنفق على تشييده أربعة وعشرون مليوناً من

الفرنكات ، ولا تعجب من تفاوت المنظرين فالذهب من التراب
والماس من الفحم

(الباشا) - وكيف جاز لكم أن تتركوهم على مثل هذه الحالة من
الفاقة وشظف العيش وتضنوا عليهم بما يصلح أحوالهم وينقذهم من هذه
الرئاسة التي يرى لها الناظر . وان كانت هذه الصناعة لا تدر الرزق على
أربابها فليَم هذا التشييد لها وشدة العناية بها

(الحكيم) - ان هؤلاء الذين تعطف عليهم هم بيننا أوسع الناس
رزقاً وأكثرهم بضاعة رائجة ، واللوح الواحد من صنعتهم يُقدَّر بالمئات
من الألوف وبالملايين ، وليست هيئتهم هذه عن حاجة أو فاقة وانما
هى ناشئة عن إهمال أنفسهم وذهول عقولهم ، وعذرهم فيها أن أرباب
الأعمال الدقيقة التي ينوص فيها الفكر وتجدد القريحة ويتوزع لها الدهن
في عالم الخيال قلَّ أن تتوازن فيهم قُوَى الدماغ ، فما تنمو قوة الآ
بضعف أخرى ، فيصيبهم من الفتور والذهول ما يقصر بهم عن النظر في
نظام اللبس والمطعم ولا يميزون في المعيشة الطيب من الخبيث فتختل
أجسامهم ونسوء أخلاقهم الى أن ينتهوا الى حال من الطيش والحماسة
لا تطاق معها المعاشرة مع الأقارب والأجانب ، ومنهم من يتصنع ذلك
كما يتصنع بعض أهل الدين التقشف والزهد ، وقد ألفَ الناس ذلك
منهم فاذا قيل لك هذا فلان الشاعر أو فلان الصانع أو فلان المثقف
غفرت له ما ساءك من منظره لما يسرك من مخبره ، وربما لم يكن عند
بعضهم من حسن الصناعة سوى قبح الهيئة ورئاسة المراءى

(الصديق) - انى لأعجب لقوم يعتمدون فى أعمالهم على رءوسهم
ثم يذهلون عن أبدانهم ، وقد علموا ان القريحة السليمة لا تسكن الا
الجسم السليم ، وكيف يصح البدن اذا لم تتمهده بالنظافة وطيب الغذاء
وحسن الرياضة وقضاء الفروض الطبيعية له ، ولقد يعرض للرجل المتفكر
وهو فى تجلّى قريحته أن يشم رائحة كريهة أو يبصر منظرًا رثينا فيضيق
فى الحال صدره وينقبض فكره ، فكيف بمن يجد ذلك فى نفسه ويحس
به فى جسمه ، وأخرى بمن ينقطع فى عمله للفنون النفيسة أن يكون نفيسا
فى ذاته ، فلا يعرف عجرفة الطبع ولا شراسة الخلق بما تولده فيه من
صفاء الحس ولطف الشعور وبما تورثه من حلاوة الشيم ورقة الطبع .
وعلى الوجه الأعم لست أدرى ما فائده العلوم والمعارف والفنون اذا لم
تكسب صاحبها بادية الأمر محاسن الأخلاق ومكارم الصفات فيكون
القدرة الحسنة لمن يقتدى بعلمه ويتأدب بأدبه ، والا فكيف تنبت الزهرة
من السبخة ويسطع النور من مهجور القبور

(الحكيم) - صدقت وأجدت ، ومن قصر فى تربية نفسه فكيف
يطمع فى تربية غيره

(الباشا) - وماذا يصنع هؤلاء الصنّاع بهذا الرزق الواسع والثراء
الوافر وحالهم فى سوء المعيشة على ما أسمع وأرى

(الحكيم) - يصنعون به ما يصنعه أهل الطيش والنزق من
أرباب المواريث فى الإسراف والتبذير ، وهم لشغفهم بالجمال الذى تستمد

صناعتهم منه حسنها ورونفها لا يفترون عن التولع بالنساء والافتتان
بمحاسنهن ، فترى ثمن اللوح الثمين يخرج من خزانة الغنى المتباهى ، الى يد
الصانع المفتون ، الى كيس الفاجرة الهلوك ، الى صندوق التاجر والصائع .
وعندهم أيضا باب لاتفاق عظيم على طائفة من النساء التى يطلقون عليها
اسم « المِثال »

(الباشا) - وما « المِثال »

(الحكيم) - « المِثال » هو المرأة التى يتخيرها المصور لياخذ فى
التصوير على مثالها لجمال وجهها أو لحسن تركيبها وتناسب أعضائها ،
فهذه لزندها ، وهذه لهدها ، وتلك لقوامها ، والأخرى لشكل ابتسامها ،
وهلم جرأ . فترى غرف المصورين ممتلئة بهاته « الامثلة » التى تختلف
أجورها باختلاف اقدارها . وقلما تدخل على مصور فى مصنعه إلا ترى
أمامه امرأة مكشوفة البدن عارية الجسم يقلبها كيف شاء ذات اليمين
وذاة الشمال حتى تصير على الشكل الذى يريد أن يملأ عينه منه
ويحصره فى ذهنه ليخرج الصورة على مثاله

(الباشا) - ما هذا الذى تحكيه من التبذل والتفضح

(الحكيم) - ليس هذا عندنا بعيب ولا نقص ، ولا غضاضة على
النساء منه فالأمر معدود بينهن كأنه صنعة من الصناعات الجليلة لا عار
فى مزاولتها ولا بأس على السمعة منها . وعندنا اليوم خلاف قائم هل
يجوز للمصور أن يمارس صناعته على هذا الشكل فى طريق الناس وفى

مسالك السابلة كما يفعل ذلك في داخل مصنعه ، فإن أحد المصورين عنَّ له
بالأمس أن يصوّر صورة انبعاث من القبور ، فقصد إحدى المقابر وجلس هناك
بأدوات صناعته وفيها امرأتان للمثال ، وأقامهما أمامه وهما عاريتا الجسد
وكان يقيم هناك في كل يوم الساعة والساعتين على هذه الحال يمعن بنظره
في الفتاتين ثم يخطط ويصور ، وكان بجانب المقبرة دار تُدعى قام على حائطها
البنّاءون فاشتمأوا من هذا المنظر ودفعم دفع الحياء الى مخاطبة المصور
ليعدل عن قبح ما هو فيه ، فلم يعبأ بهم ولم يبال بتأنيبهم واستمر على ذلك
أياماً ، فرفعوا الامر الى رجال الشرطة ثم الى قضاة المحاكم لمنع الرجل عن
هذا الفعل السيئ . ولا تزال الجرائد تتجادل في المسألة هل يجوز المنع أم
لا يجوز ، فبعضها يذهب الى وجوبه ارتكاً على نص القانون الذي
يعاقب من ينتهك حرمة الآداب العامة في الطرق ، وبعضها يرى الإباحة
لأن كل إنسان حر في صناعته ولا يجوز لأحد أن يحول بينه وبين ما
فيه إتقان صناعته وإجادة فنه

(الباشا) — نعوذ بالله من هذه البدع .

قال عيسى بن هشام — وانتهينا بالخروج من القصر بعد أن كدنا
نضل فيه لانساع أطرافه ونواحيه وتعدّد غرفاته وحجراته وهي كلها
خاصة بالصور والتماثيل . ثم وقفنا في الخارج وقفة الاجلال والإعظام
أمام هذين القصرين اللذين هما تاجا المعرض واكليلاً الصناعة ، وعاد
الباشا الى « الحكيم » يسأله :

(الباشا) — وماذا يكون شأن هذين القصرين بعد انتهاء
المعرض

(الحكيم) — يبقيان على حالهما دون أبنية المعرض لمعرض أعمال
أهل الصناعة والتصوير في كل عام

(الصادق) — اننى كلما نظرت الى هذه العناية الكبرى عندكم
بفن التصوير والغلو فيه الى هذا الحد ثم نظرت الى قلة العناية به عندنا
حرتُ في معرفة السبب ، فان كان ذلك ناشئاً عن الترقى في المدنية فانى
أراه فيكم قديماً منذ جاهليتكم الأولى كما أراه والمدنية مسفرة بينكم ،
وربما كان القديم أبعد من الحديث ، مع أن أهل الشرق على ما تعلمون
أوسع مجالاً في الخيال وأبعد شأواً في التصور ، فكيف نما هذا الفن فيكم
دون أن ينمو فينا

(الحكيم) — ان أهل الغرب كانوا قبل الدين المسيحيّ أهل عبادة
للأوثان والأصنام، فقضى الاعتقاد الدينيّ بإتقان الرسم والتصوير، واتسع
نطاقه على الأخص في الدولة اليونانية والدولة الرومانية حتى تعدّى
التصوير تماثيل الآلهة الى تماثيل الخلق ، فأقيمت التماثيل لكبراء الرجال
وعظماء الأبطال ، ووصل الغلو في ذلك أيام الدولة اليونانية انهم أحصوا
ثلاثمائة تمثال لشخص واحد في شوارع « أثينا » في حال حياته فلم تمكث
بعد وفاته ثلاثمائة يوم لأنه كان ممن نال الشهرة بالباطل وعلوّ الصيت
على غير استحقاق ، ومن ملح ما يروى في هذا الباب ان بعض الناس

قال لعظيم من عظمائهم جليل القدر كبير الخطر : انى لا عجب لأهل «أثينا»
يقيمون لمثل هذا الرجل ثلثمائة تمثال بغير حق ولا يقيمون لك تمثالاً
واحداً وأنت المقدم المفضل فيهم ، فقال له لأنّ يتعجب الناس مثلك
من أنهم لم يقيموا لى تمثالاً واحداً أفضل عندى من أن يتعجبوا لماذا
أقيمت لى التماثيل . ولما دخل الدين المسيحى على هذه الحال لم يحظرها
ولم يحرمها فاستمر الناس على ما ألفوه . وتناولوا الدين المسيحى نفسه بفن
النقش والتصوير وصوروا المسيح وأمة فى كثير من أطوار حياتها
ودوتوا به ما شاءوا من روايات التاريخ المقدس ، فبقيت العناية بذلك
متصلة قائمة الى اليوم ، بخلاف الدين الإسلامى عندكم فانه حظر التصوير
فكان هذا سبب تقلص هذا الفن بين الأمم الإسلامية ، والا فهو منتشر
فى الشرق انتشاره فى الغرب بين الأمم الوثنية كالصينيين واليابانيين
والمجوس من أهل الهند

قال عيسى بن هشام — وسرنا عن هذين القصرين تقصد سواهما
من المعاهد . وتقف على ما اشتهر فى المعرض من المرائى والمشاهد

الزهار والزهارة

قال عيسى بن هشام — ودخلنا معرض الأشجار . وبستان
الزهار . في قصر لم يُبنَ ببناء القصور والديار . ولم تُشدَّ أركانه بالشيد فوق
الأحجار . ^(١) ولم ترتفع بالآجر حجْرُه وغُرْفُه . ولم تُتخذ من الخشب
أبوابه وسُقْفُه . بل عُقدت له القباب والأبراج . من صقيل البلور وسبيك
الزجاج . فهو صرح ممرّد من قوارير ^(٢) . كأنه لجة يَمّ أو صفحة غدير .
لو دخلته « بلقيس » صاحبة العرش في الأيام الخالية . لكشفت عن
ساقينها مرة ثانية . جمعوا فيه أشات النبات الغض . من كل بقعة وناحية
في الأرض . مما ينبت بين ثنّيات الجليد . وتنشق عنه صمّ الجلاميد .
وما خضر في رُبا الصحراء . وأوراق في وهاد البيداء . وأزهر في الجمد .
وأينع في الومد ^(٣) . ومن حيث تجري الأنهار والجداول . الى حيث
تعصم الأراوى والأجادل ^(٤) . ومن حيث تشدو الحمامة الوراق . تحت
الظلال والأفناء . الى حيث تدور الحرباء . حول الغزالة في كبّد السماء ^(٥) .
ومن أدنى الشرق الى أقصى الغرب . ومن طرف القطب الى طرف
القطب . فما أردت هناك من جميع الأنواع . في متفرق البقاع . ما بين
مُلتفٍ ومنثب . ^(٦) ومتساقٍ منه ومتشعب . يفتّر بكل محمّر ومُبيضّ .

(١) الشيد ، ما حلى به من الجص وغيره (٢) ممرّد ، املى مصقول

(٣) الجمد ، الثلج ، والومد الحر

(٤) الاراوى ، جمع أروى وهو الوعل ، والأجادل ، جمع أجدل وهو السفر

(٥) السكبد ، وسط النىء ، والغزلة الشمس (٦) منثب ، ملف

ومذهب ومفضّض . ومشرق ومؤمض . وأين ابن الرومى يتأملها فيخلع
عنه رداء الفخر والته . ويُقرّ بعجزه في الوصف والتشبيه . ويحرق
ديوانه بكبريته المذكور . في تشبيهه المشهور :

ولازوَردِيَّةٍ تزهو بُرْقَمَا

بين الرياض على حمر اليواقيت^(١)

كأنها وضاعفُ القُضْبِ تَحْمَلُهَا

أوائلُ النارِ في أطرافِ كبريتِ

هناك تستبيك ألوان الأزاهر . بما يزرى بِلَمَعَانِ الجواهر . فما
الياقوت عندها والبرجد . وما الفيروز والزمرد . وما العقيق والجُمان .
وما الدر والمرجان ! وكيف يقاس الحجر . بالشجر . وتستوى الحصباء
اليابسة . بأكلام الأغصان المائسة . وكيف يُقدِّم الجامد الثابت . على
النَّاميّ النبات . وأين الحركة من السكون . والمنشور من المدفون . وأين
المنثور على ظهر الروضة الزهراء . من الملحود في بطن الغبراء . ولئن
انتظمت القلائد . بجواهر تلك الفرائد . في لَبَّاتِ الخرائد . وكان مكانها من
الحور . في المعاصم والنحور . لكانت هذه الزهور . بين الرثاء والصدور .
وكم أنعشتْ خامد النفوس والأرواح . بطيب الأنفاس وشَدَى الأرواح .
فوقفنا نستششق الأريج والنَّشْر . من أصناف ذلك الطيب والعطر . لو كان
معنا ضريب المرأة رَهْنُ المحبسين . لانقلاب منشراح الصدر قرير العين .

(١) الازورد ، معدن شفاف أزرق يقرب الى الحمرة

وَلَأَنسَ مِنْ وَحْشَتِهِ . وَذَهَلَ عَنْ فَاقَتِهِ وَخَلَّتْهُ . ^(١) وَعَلِمَ أَنَّ مِنَ الْمُسْكِرِ
 مَا هُوَ طَائِقٌ حَلَالٌ . وَلَمْ يَتْلَهَفْ عَلَى شَرْبِ الْمَعْتَقَةِ حَيْثُ قَالَ :
 تَمَنَيْتُ أَنْ الْحُمْرُ حَلَّتْ لِنَشْوَةِ
 تَجْهَلُنِي كَيْفَ اطْمَأْنَنْتِ بِيَ الْحَالِ
 فَأَجْهَلُ أَنِّي بِالْعِرَاقِ عَلَى شَفَا
 رَزَى الْأُمَانِي لَا أُنَيْسُ وَلَا مَالُ

وما زلنا في هذه الروضة الفناء . والجنة الفيحاء . نردد قول العبد
 الصالح الأواه :

« وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتِكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ » .
 ونكرر النشيد . لبيت التوحيد :

فَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ
 حَتَّى إِذَا أَنْ أَوَانَ الْأَنْصُرَافَ . خَرَجْنَا مِنْ بَيْنِ هَذِهِ الْجَنَّةِ الْأَلْفَافِ ^(٢) .
 خَرُوجَ أَيْنَا مِنْ دَارِ الْخُلُودِ وَالْبَقَاءِ . إِلَى دَارِ الْهَمُومِ وَالشَّقَاءِ . وَلَمَّا تَرَكْنَاهَا
 إِلَى نَوَاحِي الْمَعْرُوضِ ضَوْئِلٍ فِي أُعْيُنِنَا . مَا كَانَ يَرُوقُنَا وَيَزِدْهِنَا . وَصَفَرُ
 فِي أَنْفُسِنَا . مَا كَانَ يَخْلُبُنَا وَيُشْجِنَا . وَذَبَلُ أَمَامِنَا مَا كَانَ مِنَ الْمُنَاطِرِ نَاضِرَا .
 وَذَالَ مَا كَانَ نَخْفَا نَادِرَا ^(٣) . وَغَلَبَ ذَلِكَ الْمُنْظَرُ عَلَى كُلِّ بَدِيعٍ رَائِعٍ .
 مِنْ مُخْتَلَفِ الْفَنُونِ وَالصَّنَائِعِ . وَأَيْنَ قُدْرَةِ الْحَيَوَانَ النَّاطِقِ . مِنْ قُدْرَةِ
 الْمُبْدِعِ الْخَالِقِ . وَمَا تَسْوِيهِ آلَاتِ الْمَصْنَعِ . مِمَّا تَصُورُهُ يَدُ الْبَارِي الصَّانِعِ .
 وَكَادَ الْبَاشَاهِمُ بِالرَّجُوعِ مِنْ حَيْثُ أَتَيْنَا . وَيَقْتَصِرُ فِي يَوْمِهِ عَلَى مَا رَأَيْنَا .

(١) الخلّة ، الغامة (٢) الألفاف ، البستان المجتمع المعجر (٣) ذال ، بمعنى هان

لولا أن استوقفنا قول « الحكيم » للصديق في عرض كلامه . عن ترتيب
المعرض ونظامه :

(الحكيم) — نعم تنقسم أما كن المعرض الى قسمين : هذا
القسم الذى شاهدناه من نقائس الصناعة والطبيعة وهو مباح للزائرين
بغير أجر ، وقسم آخر أقاموه لترويح النفس واستجلاب الأنس
بالمشاهدات الغريبة والمناظر البديعة يدخله الداخلون بأجر معين

(الصديق) — لقد قرأت في الجرائد عن هذا القسم الأخير
ما يعجب ويدهش ، وأشد ما نشأت في نفسي لزيارته تلك « النظارة
المعظمة » الهائلة التى اخترعوها لمشاهدة القمر على بُعد متر واحد ، فتحيط
به المين فى زعمهم كما يحيط الجالس فى الغرفة بأجزاء جدرانها . فأين ذلك
المكان منا الآن

(الحكيم) — ليس هو بعيد ، وهم يسمونه « قصر الأضواء والمرآيا »
ولطالما أسهبت الجرائد كما قلت فى وصفه بما يهيج الرغبة الى زيارته ، ولم
زره بعد ، فهلم بنا نقصد قصده
(الباشا) — البدار ! البدار الى زيارته . فلو كان ما يقولونه عنه
صحيحاً لكان إحدى المعجزات

قال عيسى بن هشام — و سرنا جميعاً نلتبس هذا المكان حتى وصلنا
الى قصر مشيد قل أن يكون مثله لكبار الأمراء والملوك فى فخامته
وضخامته ، ووجدنا مكتوباً على بابه بين صور الكواكب والنجوم

هذه العبارة باللغة اللاتينية : من هنا يصعد الإنسان الى أجرام الكواكب ويتصل بالآلهائية . ولما دخلناه رأيناه مزدحمًا بالجموع ، فبدأنا معهم بالدخول في حجرة واسعة تبلغ خمسة عشر مترًا في الطول وعشرة في العرض وهي مقسمة بالمثلثات والأضلاع من زجاج المرايا القائمة يبلغ علو الواحدة منها مترين ونصفًا في عرض متر ونصف وقد تخللتها مصابيح الكهرباء ، فاذا نظر الإنسان بين تلك الأضلاع والمثلثات رأى صورته تتعدد بالمئين ، واذا مشى بضع خطوات ضلّ الطريق ولم يهتد السبيل ، وكلما ظن أنه وجد منفذًا للخروج منه اندفع اليه فيصطدم وجهه بزجاج المَرايا فتعلو أصوات الضاحكين وهم في حيرتهم وضلالهم ، ولا يزال على هذه الحال مدة من الزمن حتى يصل الى نهج الطريق من طريق الاتفاق . وما أوسع مجال الخيال هنا للشعراء في وصف أشكال الزائرات وانطباع صورة الواحدة منهنّ على صفحات المرايا ألف مرة كما تنطبع محبتها وهي واحدة ، على صفحات قلوب الرجال وهم أوف

ولما اهتدينا للخروج من هذه الغرفة التي يضل الداخل فيها كما يضل الراكب في الفيافي والقفار سرنا تقصد غيرها ، و«الحكيم» يقول « للصديق » في حديثه :

(الحكيم) — ان الفكرة في إقامة الأماكن والأبنية على أوضاع وأشكال يضل الداخل فيها ولا يهتدى للخروج سبيلًا شئ في قديم الوجود . وقد علمنا أن قدماء المصريين هم أول من شيد الأبنية للضلال والتهيه ، منها الهيكل الذي رآه « هيرودوتس » في زمانه ووصفه في

تاريخه ، وكان يحتوي على ثلاثة آلاف حجرة بعضها متداخل في بعض ،
 فمن دخل هذا المعبد ولم يكن معه دليله ضلّ فيه حتى يهلك بجوعا ؛ ولا يزال
 أثره باقيا عندكم الى اليوم بقرب بحيرة « موريس » أمام المدينة القديمة
 المعروفة بمدينة « التمساح » . وقد حذا قدماء اليونانيين حذو المصريين
 فأقاموا في مدينة « كريد » معبداً لآلهة ، ومما يذكر عنه في أساطيرهم أن
 غولاً من الغيلان كانت تفسد في الأرض وتعيث ثم تلجأ اليه فلا يدركها
 أحد ، وصمّ أحد المشهورين من شجعانهم على اتباع أثرها والفتك بها
 فلم يتوصل الى ذلك الا بالحصول على خيط معلوم دلّته عليه عشيقته
 فربط طرفه عند الباب قبل دخوله وسار به في طريقه فأدرك غايته وفتك
 بالغول واهتدى به في رجوعه . والفرق بين ما صنع القدماء في السالف
 وما صنعه المحدثون في الحاضر كما ترى أن بناء المتقدمين من الحجر وبناء
 المتأخرين من الزجاج

قال عيسى بن هشام — ودخلنا بعد ذلك غرفة في إثر أخرى ، وكلها
 على هذا النمط من انعكاس الأضواء في المرايا وتعدّد الصور ، فتخيّل هنا
 بئراً وهناك بحراً الى غير ذلك من وجوه التخيل . ثم اتهمينا الى تلك
 الغرفة المذنودة التي يرصد فيها القمر على بُعد متر واحد ، فما جاوزنا بابها
 حتى أطفئت في وجوهنا المصابيح وتخبّطنا في الظلام الدامس ، ثم سلطوا
 اشعة الكهروباء على قسم من الحائط فأضاءت عليها خريطة القمر
 مصنوعة بكيفية تبيّن فيها مرتفعات كرة القمر ومنخفضاته فتراءى لك
 الأولى بمقدار قلابة الظفر والأخرى بمقدار خروج الغربال ، ووقف

هناك رجل كالمُرشد يشرح للناس ما يشرحه عن هذا الرسم ويزعم انه صورة القمر بعينه على بُعد سبعين كيلو متراً كما يُرى في « النظارة » التي انتشر الإعلان عنها بأنها تُريكم على بُعد متر واحد وأسهب في مقالات الجرائد العلمية والسياسية مدة من الزمن قبل افتتاح المعرض . ثم خرجنا و« الصديق » يقلب كفتاً على كف من شدة الدهش والعجب ، ويسأل صاحبنا « الحكيم » عن كنه هذا الغش والكذب :

(الحكيم) — خَفِّضْ عليك ، فان أكثر ما تقرأ من التفتيح والتهويل لمثل هذه المسائل في الجرائد لا يُعَوِّل عليه ، فانها تعتمد ذلك لمصلحتها الخاصة لما تناوله عليها من الأجور ولمصلحة أبناء البلاد في ترغيب الناس الى زيارة المعرض ، وهي تستحل الغش والكذب في سبيلها . ولا تعجب إن قلت لك إن الذي باشر هذا المشروع هو أحد مشاهير المستعمرين من النواب عندنا فقد قام في المجلس خطيباً وطلب منه الموافقة على إقامة المعرض العام وأعلن أنه وجد عنقاء المعرض والآية الكبرى في ارتقاء الصناعة بإنشاء « نظارة معظمة » يرى الناظر فيها القمر عن بُعد متر . وما زال يحكي والجرائد تكتب حتى أنشأ شركة من بعض الفلكيين لعمل هذه « النظارة » التي يقولون عنها انها تُرى القمر على بُعد سبعين كيلو متراً ، وأقاموا هذا القصر بمنظاره لاجتناء الربح من تهافت الزائرين وإقبالهم عليه لرؤية المعجزة الكبرى . وعلى هذا تدور أكثر الأمور بين الناس في العالم من التهويل الباطل في أقوالهم والغلو الفاضح في وصف أعمالهم بمقدار الفرق ما بين المتر الواحد والسبعين كيلو متراً ،

والراجحُ فيهم من كان ماهراً في الغش والخداع والفائزُ فيهم مَنْ كان سبّاقاً
في المكر والاحتيال

قال عيسى بن هشام — وانصرفنا ونحن نعجب من هذا النائب
الذي لم يُكفِهِ الغش من طريق السياسة والاستعمار . حتى ترقى فيه الى
طريق الكواكب والأقار

المرآئى والمشاهد

قال عيسى بن هشام - وسرنا فى قسم المرآئى والمشاهد . ندخل
واحداً منها فى إثر واحد . فلا نجد فيه . عند ما نوافيه . مصداقاً ماسمعنا
من وصف واصفيه . بل ربما وجدنا ما يخالفه وينافيه . الى أن وصلنا
الى قصر مشرف منيف . يزهو على القصور بحسن التريض والتصنيف .
أعدّوه هناك لأنواع الرقص والغزف . وفنون القفز والقصف . منذ
عهد البداوة النابرة . الى عهد الحضارة الحاضرة . ومن عيش الخشونة
والشظف . الى عصر النعومة والترف . فما شئت من رقص الحماسة
والشجاعة . الى رقص الخلافة والخلاعة . فترى رجال البداوة يرقصون
بالسيوف . فى مواقف الختوف . وترى العذارى من ورائهم يضربن
بالدفوف . ويصفقن بالكفوف . تحريضاً لهم على الحرب وللهباب . ولإثارة
لهم على العدو وإغضابا . فتحلوا لهم مضاضة الإقدام . كما تحلوا لشاربها غضاضة
المدام . ويرتشفون كؤوس المنايا . كما يرتشف سواهم رُضاب الناي . ثم ترى
رقص الآيين من السفر . والقافلين بالنصر والظفر . بين عذارى الحى وجواريه .
وسبايا العدو ومأسوريه . بإشارات تبيى أيتها بيان . عن مكنون الهوى
والأشجان . فى صدور مأوها الغيرة والشمم . وقلوب حشوها الشهامة
والكرم . ونفوس تنزع لصولتها الوحوش الكواسر . وتفرق من هيبتها
الأسود الكواشر . لكنها تخضع لربات القدود والنهود . خضوع

العابد للمعبود . فتفرّق لديها أوزاعا . وتطير أمامها شعاعاً^(١) . ان
خَشِيتَ منها بادرة صيد وجفاء . أو حركة تقور وإياه . وهنّ يقابلن
حركات التذلل والتزلّف . بحركات التدلل والتعفف . ويحزّين على
التولع . بالترفع والتمنع . ويبدين لطيف التجنى . يبدع التثني .
ويغضّضنّ من أبصارهن . في جلائهنّ وإسفارهن . ثمّ يُسرعن الى
الالتفاف . ويسترن ما انحسر من الأطراف . فيرتدّ طرف الواله
حسيرا . وقلب المهائم كسيرا . وما أبدع الحياء في الوجه الجميل . كما
الفرند في السيف الصقيل . اذا عارض حياء الشجاعة في الفارس المغوار .
فلْ غَرَبَهُ عن ربة الحجل والسّوار . وكأنما الشجاع منهم في يد الغادة .
لايفتا ينشد قول أبي عبادة :

نحن قومٌ نُذِينَا الأَعينَ النُّجْ

لُ على أَنّا نُذِيبُ الحديدَا

طَوَّعُ أَيدي الغَرامِ تَقْتادُنَا البِي

ضُ وَنَقْتادُ بالطَمانِ الأسودَا

ثم رأينا أشكالا متفرعة من الرقص والحجلان . وأنواعا متعددة
من الدوران والخطران . مما هو شائع عند عبدة الأوثان . وسائغٌ مباح
في بعض الأديان . حتى يجد المشاهدُ حركة تلك الأبدان . ما يجده راكب
السفينة من الهیضة والغثيان . وكأنّ الأصل في ذلك إنهاك القوى
الجسمانية . لإضعاف الجواذب الشهوانية

(١) طار قلبه شعاعا ، تفرق من الخوف

ثم شاهدنا بعد ذلك ما في رقص المدينة والحضارة . من الفضاحة
والدمارة . فترى أفواج النساء . كأسراب الطباء . لا يستر أجسامهن
الآن غلالة كالقشرة . في لون البشرة . تنطبق على أعضائهن انطباق الغرقى
على ترائك الرئال . ^(١) وتلتصق التصاق القميص بجسد الصلال . ^(٢)
فهن عاريات للناظر . ككسيات في الخاطر . فيأتين في رقصهن أشكالا
تشرح في ساطع الضياء . مذاهب الأعصاب ومفاصل الأعضاء . فتارة
يكتنن . وطورا يتحنن . وآونة يدرن على أطراف أصابعهن . غير
منتقلات من مواضعهن . وفيهن من ترفع ساقها حتى تلطم في الخد سواد
الخال . بذهب الخللخال . وتلمس الجبين الوصاء . بطرف الحذاء .
والنظارة من أنحاء المكان يستعذبون ويستجيدون . ويصفقون
ويستعيدون . ثم ما لبث أن عُدن بنوع آخر من أحدث الأنواع . في
ضروب التفنن والإبداع . فتوشحت كل واحدة منهن بملاءة بيضاء .
متسعة الاطراف والانحاء . اذا استدرات فيها خلتها قطعة غمام . أطل
منها بدر التمام . أو زفة حمائم بيضاء ^(٣) . ترفرف ظمأ حول الماء . وفي
قبائهن مصباح الكهرباء يرسل أشعته من أعلى المكان . بمختلف
الأضواء والألوان . فتبدو الراقصة بالنعكاسها فيها كأنها طاقة أزهر .
أو قلاند جواهر . وكأنها في سرعة تلونها واهتزازها . زبد اللجج
هاجته السفينة في اجتيازها . فانعكست فيها أشعة الشمس المشرقة .

(١) الفرقاء ، الفسرة المتلفة بياض البيض ، والتركة ، بيضة النعامة ، والرأل ، النعامة

(٢) الصل ، الحية (٣) زفة ، جاعة الحمام

بألوانها السبعة المتفرقة . وفي يد كل راقصة منهن عصا جرداء . اذا هَزَمَتْها في الهواء . وقابلت بها شعاع الكهرباء . أزهرت بأزهار من نور . وأنبعت بأثمار من البلّور . يخالها كلُّ مَنْ يَرَى : — كعنقود ملاحية حين تَوَرّا — ^(١) لورآها سحرةُ فرعون وهامان . لا أقروا بفضل العصا في كل زمان ومكان

ولما توارت عن أعيننا هذه الأدوار . وانسدل عليها الستار . خرجنا ونحن في دهش وذهول . والتفت الباشا الى «الحكيم» يخاطبه ويقول :
(الباشا) — أرى أن للرقص عندكم معشر الغريبين شأننا نفخا كأنه من نفائس الفنون وطرائف الآداب ، وأنه لا بأس لديكم بهذه المناظر والأشكال التي يأبى الأدب انتشارها واشتهارها على أعين الناس بهذه الكيفية الفاضحة

(الحكيم) — إن شأنه عندكم أعظم وشكله فيكم أفضح ، ولا يزال كتابنا وأهل النقد منا يعيرونكم به ويستفظمون ذلك الشكل الذي يسمونه «رقص البطن» . وهذا المرض المصري هنا كل من دخل فيه وشاهد النساء المصريات حاسرات النهود عاريات البطون يحركن طياتها خرج يقطر وجهه خجلاً وتكاد تجيش نفسه غمياً من شناعة هذا المنظر في عينه فيحكم عليكم بخسة الآداب وقلة الاحتشام . ومن شاهد مواضع اللهو في بلادكم لم يجد لها حافلة بسواد ، فاذا عرضتم علينا آثاركم في ديارنا

كانت هذه الراقصات في أوائل ما تعرضونه ، لنفاسة قدرها بينكم وجمال موضعها فيكم

(الصديق) — ان الأمر على غير ما تتوهمه أيها الحكيم ، فان هذا الرقص ليس بمنشور في عاداتنا ولا معروف في بيوتنا ، وانما هو من عمل المواخير وبيوت الفاحشة يباشره العواهر فيما يباشرنه من أبواب الإنم والفجور في بيوتهن ولم يظهروا به على الملأ في الملاهي العامة إلا بفضل أصحاب الحانات من الأجانب الذين يرون وجوه الریح متساوية لا حطة فيها ولا تقيصة . والجمهور عندنا على استقباحه والنفور منه كما تنفرون . ولا يشهده عندنا سوى أهل البطالة والخلاعة ولا يأتيه من النساء إلا القواجر العواهر . وكلما حاولت الحكومة ، في محافظتها على الآداب ، حظره ومنعه اعترضتها امتيازات الأجانب وحریتهم المطلقة فيما يأتون ويذرون . أما الرقص عندكم فهو متأصل في عاداتكم وسنة متبعة بينكم لا يقتصر على الملاهي والأماكن العامة ولا ينفرد به النساء دون الرجال ولا يخلو منه بيت من بيوت السوقة ولا قصر من قصور الملوك ، ولا تقام عندكم وليمة من الولائم ولا يتم لكم احتفال في المواسم إلا والرقص ركن من أكبر أركانه ومظهر من أنفخ مظاهره ، والرقص عندكم من الفنون النفيسة يدرسه الرجال كما يدرسون العلوم ويتعلمه النساء كما يتعلمن الغزل والتطريز

(الحكيم) — ليس الرقص في أصله من المنكرات ولا مما يعاب شأنه كما تذهب إليه ، وهو حركة طبيعية في الإنسان يقتضيها تركيب

الجسد لرد الأعصاب الى ميزانها ونظامها عند ما تلحقها خفة الطرب وهزة التأثير، وهو قديم في الفطرة، وربما تجاوز نوع الإنسان الى بعض الحيوانات والطيور، وقاما خلقت أمة من أنواعه منذ البداوة الى اليوم. وهو ينقسم الى أربعة أنواع: نوع يستعمل في الحرب، ونوع يستعمل في الصيد، ونوع يستعمل في حكاية الهوى من طريق الإشارة والإيماء، والنوع الرابع في الشعائر الدينية. وقد اعتنى بأمره كثير من أمم الحضارة الغابرة، وبلغ عند قدماء اليونانيين مرتبة عالية، وكان كبرائهم وأمرأؤهم يمتازون بإتقانه ويتباهون بالتبريز فيه، وفيهم من انقطع له واشتهر به. ولقد كان السفير بين أهل «أثينا» وبين الملك «فيلبس» والد الإسكندر المكدوني رجلاً اسمه «توسْتِيدِيموس» من أكبر الاساتذة في هذا الفن، ثم إن هذا الملك نفسه تزوج براقصة معروفة اسمها «لَارِيسَا»، وكان سقراط أبو الحكماء يهوى الرقص ولا يستنكره. وكان «إبيأَمِينُونْداس» وهو من أشهر الفلاسفة راقصاً مُبرِّزاً في الفن. والأمر على ذلك أيضاً من جهة الرقص الديني في الدولة الرومانية عند نشأتها، ثم انتشرت فيها أنواعه انتشاراً عاماً الى أن دخل الدين المسيحي على الوثنية الرومانية فلم يستنكره في بادئ الأمر بأشكاله التي تفتن فيها الرومانيون على ما هو معروف فيهم من التناهي في الملاذ الفاضحة في أواخر دولتهم. ثم دخل في عادات الأمم الغربية فتمسكت به ولم يصدّها عنه بعد ذلك استنكار الرؤساء الدينيين له تارة بعد أخرى اذ كانت النفوس ألفتها واعتادت أن لا ترى فيه عيباً أو شيناً. وانما الذي شائته في

نظر كم اجتماع الرجال والنساء عليه في حفلاتهم ، وذلك ناشئ عن ارتفاع
الحجاب عندنا ووجوده فيكم

قال عيسى بن هشام — وقَطَعَ الحديثَ يَبتنا أن رأينا في طريقنا
مكانا يتزاحم عليه الناس وعلما انه أحد المرائى الشهيرة الذي قرأنا عنه
فصولاً متعددة في الجرائد العالية مثل « الديبا » و « الفيجارو » ووصفته
بان الداخل يركب فيه سفينة عظيمة تسير به في مياه البحر المتوسط فتمرُّ
به على الثغور فيرى ما فيها من البنيان ويشاهد حركة السكان . فدخلناه
بعد أن دفعنا الأجرة وصعدنا السلم حيث انتهينا الى هيئة سفينة كبيرة
فركبناها ، فاذا هي تميل بجانبها كما تميل كفة الميزان بالصعود والهبوط
في حركة مثل حركة السفينة عند اضطراب الأمواج ، ويحف بها من
الجانبين حائط من قماش نُقِشت فيه أمواج البحر وأشكال الثغور
الكبيرة مثل « نابولي » و « فينسيا » وغيرهما فيتخيل للراكب عند ذلك
ان السفينة تسير به في عرض الأمواج المرسومة والرسم متصل بالآلة
السفينة تديره بسرعة كبيرة . والسفينة في تمايلها كالأرجوحة لا تتحول
عن مكانها . فلم نر في الأمر ما يُستغرب له

ثم زرنا بعد ذلك العدد الكثير من قسم المرائى فرأيناها كلها على
هذا النسق من التعويه . وما برح « الصديق » يظهر التذمر لشدة
الفرق بين ما رآه من هذه المناظر التافهة وبين ما انتشر عنها في أنحاء العالم
من المبالغة في الوصف والغلو في البيان . ولم يخالفه « الحكيم » في ذلك وإنما

أشار علينا بأن نزور المنظر الوحيد الذى أعجبه حسنه من قسم المرائى كله- وهو منظر القرية التى أقامها أهل سويسرا فى المعرض يمثلون بها جبالهم وأنهارهم ومعيشة الأهالى فيها على حال الفطرة . ولما دخلناها تملَّكنا الطربُ وتولانا الابتهاج من جلاء المنظر وبهاء الهيئة وشاهدنا الجبال شائخة تسيل من قممها السيول الى قرار الوادى فتشعب منها الجداول والأنهار وتخلل البيوت والجدران ، وشاهدنا هناك الأبقار المشهورة فى تلك البلاد واقفة على مذاودها ومن حولها الولاثد والجوارى تتألق فيهن نضرة الشباب وتبرق أسرتهن بحسن البداوة :

حُسن الحضارةِ مجلوب بتطرية

وفى البداوة حُسنٌ غير مجلوبٍ

وهن يحتلبن ألبانها فى قُيوب من البلور ويُقدِّمنها برغوتها لمن يرغب فى استقائها من الزائرين ، ورأينا الرجال فى حوانيتهم يملئون العين حسناً وبهاءً واقفين وقفة التأدب يمرضون ما طاب وحلا من أثمار بلادهم وأزهار جبالهم . ولقد علمنا أنهم أقاموا فى تشيدها ثلاث سنوات وأنفقوا عليها ثلاثين مليوناً من الفرنكات . فأعجبنا المقام وقضينا هناك زمناً . نتناقل وتنفاكه ، وتتذاكر فى حديثنا فضل المعيشة الطبيعية فى سذاجتها . على المعيشة المدنية فى تصنعها وكلفتها

الافراء على الوطن

قال عيسى بن هشام— وفيما نحن ندور بين أقسام المعرض ونجول .
 اذ سمعنا صوت مزمار وطبول . فهاج منا الذكرى والشجن . وأذكى فينا
 الحنين الى الوطن . حنين أنضاء الثوق ^(١) . بلامعات البروق . تنبعث
 من أفق بلادها . وتنازعها الأشواق في أغوارها وأنجادها . فشخصت اليه
 الأحداق . ومالت نحوه الأعناق . فقصدنا منبعه . وأتمنأ مطلعته . عسانا
 نجد عنده من آثار مصر فضلا . ومن أشكال بلادنا شكلا . يملأ العينَ جمالا .
 والصدرَ جلالا . ويؤنسنا في وحشة الفراق . بما يخفف من لوايع
 الأشواق . ويكون لنا في المعرض موضعا للفخر والمباهاة . في باب المسابقة
 والمباراة . فوجدنا أخلاطا من الزُمرَ والجماهيم . حول الطبول
 والمزامير . ورأينا في وسطهم رجلا يعلوهم فظا في هيئته . كظا في
 طلعتة ^(٢) . لو استزاد من الغلاظة لم يجد له من مزيد . كأنه جامود صخر
 أو قطعة جليد . بوجه تنور منه الساجدة . ثورَ أن المجاجة . « وطربوش »
 عليه طوق مثل الدهن من العرق والوضر . لو لَجَّ فيه شعاع الشمس
 لاحتدم واستمر . وهو يعبجُ مثل عجيج الإبل في القلوات . ويصيح
 بصوت من أنكر الأصوات . دُونَهُ صوت الحمرُ الناهقة . أو الرعد
 بالصاعقة . وفي يده مروحة يتزود بها هواء للتنفس . خشية الاختناق
 من التهييج والتحمس . وهو يتأيلُ عجبا واختيالا . ويذهب في الخلقة

(١) أنضاء ، جمع نضو وهو التعب المتهوك (٢) رجل كظ ، عسر متعدد

يميناً وشمالاً . منادياً في الجمع . بألفاظ مكروهة في السمع . ترغيباً للرائح
والغادى . في دخول ذلك النادى . ليروا من أسباب الأُنس . ومُسْتَبْتَع
الحواس الخمس . ما يَنفَى بلباب الصدور . ويُجَلِّي بواعث السرور .
من كل منظر ليس له نظير . لا يحيط به التخمين والتقدير . مما بَدَتْ به
مصرُ سائر الأمم . وحلّت به في الفخر محل الذُّرا والقيَم . ولا غرو فهي
لا تزال في مضمارها منذ القِدَم . عالية الكعب راسخة القَدَم . وأن هذه
فرصة سانحة لا بدّ أن تُلتَمَس . وخلصة من الدهر يعقبها الندم ان لم
تُختلَس . فن لم يبادر إليها فقد أساء الاختيار . وأوقع نفسه في الخسار .
ولم يقف من المعرض على موضع حسنه وجماله . بعد أن يفقد النفيسين
من وقته وماله . ومن لم يشاهد صنعة « زهرة » و « معشوقة » . لم يشاهد
في الدهر معشوقة ولا موموقة . ولم يحصل إلا على الخيبة . في السفر
والأوبة . فدخلنا نستكشف الأثر . ونستشف الخبر . فتلقانا بالباب
رجل حسن الثوب والعمامة . في زى أهل التشيُّخ والإمامة . مشغول
اللسان بالترحيب واليد بالتسبيح . كأنه إمام مُصلّى أو سادن ضريح .
لولا أن تأملته فعرفته رجلاً من فوى الرتب بين التجار . مشهوراً بتجارة
الطيب والأعطار :

ذئبٌ تراه مُصلِّياً فإذا مرت به ركعٌ
يدعو وجلُّ دعائه ما للفريسة لا تقَعُ

فَهَنَّا ناً بالسلامة . وبالغ في الحفاوة والكرامة . وتقدم بنا الى ساحة

من ساحات اللهو والالعاب . و « مرسح » من مراسح الرقص والطرب .
وانكشف لأعيننا الستر عن بنات الفجور والعبر . فأخذن في « رقص
البطن » بتلك الحركات الشنيعة . والأشكال الفظيعة . حتى تخيلنا أننا
عدنا إلى أدوار تلك المدة . في مصاحبة « الخليع » و « العمدة » . فلوينا
أعناقنا نحو الباب . ونحن في حزن واكتئاب . وخرجنا نستر وجوهنا
بأيدينا خجلا . وتغينا ان لا ننسب الى بلادنا أصلا . لنخلص من وصمة
هذا العار . وما يحجره علينا من الازدراء والاحتقار . ورجعنا مهرولين
ابتعاداً عن هذا « المعرض المصرى » وما يحويه . من مثل هذا المشهد المغيب
والمنظر الكريه . وأقسمنا على ان لا نمر من هذه الناحية . مرة ثانية .
فأخذ « الحكيم » يهون علينا من وقع المصاب . ويخاطبنا في معرض العتاب :
(الحكيم) — لم هذا التسرع والتعجل . أما علمتم أن المعرض
ينقسم الى قسمين : قسم الصناعات والآثار وقسم المشاهد والمرأى . وقد
رأيتكم من « المعرض المصرى » القسم الثانى فدعوه الى سوء أدبه وقبح
أثره ، ولا يمنعنا ذلك من زيارة القسم الأول منه الذى هو قسم الجد
والعمل ، ولعلنا نجد فيه من محاسن الأعمال والآثار ما يصرف عنكم هذا
الذى اعتراكم من الهم والكدر

(الباشا) — ما أظن هذا القسم الا عنوانا للقسم الآخر . ومن
أساء الاختيار فى قسم المشاهدات فحدير به أن لا يحسن الاختيار فى
قسم الصناعات ، ومن بلغ به الانحطاط فى انتخاب مشاهد بلاده ومرائىها
الى عرض بطون النساء وخش العاهرات للرائع والغادى من أطراف

المسكونة في هذا المعرض فلا يُرجى منه حسن الاختيار في آثار البلاد وأعمال صنّاعها

(الصديق) - لقد أعمى الطمع في الربح مثل هؤلاء التجار عن قبح هذه المشاهد وغرم ولع السفهاء بها في مصر فحسدوا عليها أصحاب الحانات : ولم يكن من اللائق بهم أن يزاحمهم فيها ببلادهم فانهزوا هذه الفرصة للتفرد بها في بلاد الغرب، وظنوا أن الغربيين يقبلون عليها لإقبال الشبان في بلادهم فيفوزون بالربح وليس من يعير بقبيح وجهه في بلاد لا يعرفهم بها أحد ، فان فيهم مثل هذا التاجر الوجيه ذى الرتبة الثانية الذى لو دعوته لرؤية الرقص في مصر لغطى وجهه بحجّته ولوى عنقه يستعيز ويستغفر من هذا الإثم الذى ينهاه عنه دينه وأدبه . ولكن جاء الأمر على خلاف ما قدروه فلم ينالوا ربحاً ولم يستروا قبحاً ، فان أدب زوار المعرض على اختلاف أجناسهم ينهام عن مشاهدة هذه الفضائح فلم يقبل عليها أحد ، ولم يبق لأصحابها الا سخط المصريين عليهم جزاء تمير الأثم لنا بسوء رأيهم وقبح اختيارهم

قال عيسى بن هشام - ولما جاوزنا باب الملهى قليلا انثنا الى القسم الأول من هذا المعرض المصرى مطاوعة لرأى صاحبنا ، فوجدنا بناء شيداً مثل أبنية الجوامع والمساجد يفاجئك مدخله بحانة للخمر ذات اليمين تتخطر فيها شمطاه من عجاز باريس ومن حولها بناتها وحفدتها ، وعن ذات الشمال رجل معمم قد جلس متربهاً ، عريق في القبح والدمامة

تنطبق عليه القبة دون العمامة ، وأمامه منضدة عليها دواة وقرطاس وقد التفّ عليه جماعة من أجناس الناس ، يتقدم اليه الواحد بعد الآخر فينقده بعض الدراهم فيسأله عن اسمه واسم أبيه وأمه ثم يخط له بالعربية في ورقة معصفرة مزعفرة بعض الدعوات الصالحات ، وسمعنا بعض النظارة من الغربيين يقولون في انكبابهم عليه هلم الى شيخ المسلمين ليكتب لنا شيئاً من « قرآن محمد » فحزبنا الامر وانتظرنا قليلا حتى انقضّ الجمع عنه وأقبلنا عليه نسأله فانفضح لنا أمره عن لهجة سورية ، فزجرناه قياماً بواجب الدين الاسلامي الذي ينكر مثل هذه البدع السافلة على أبنائه فأخبرنا أنه استأجر هذا المكان من « شركة المعرض المصري » للارتزاق بهذه الوسيلة التي دفعته اليها ضرورة العيش . فتركناه وتوغلنا في داخل المكان وإذا برجل آخر معمم ومن حوله صبيان في أزياء المصريين التفتوا حلقة على الأرض كحلقة أولاد الكتاب حول الفقيه وهو يقرئهم آيات الكتاب بصوت عال ويروضهم على اهتزاز الجسم في أثناء التلاوة وفي يده قطعة من جريد النخل يهددهم بها ويؤدبهم ، والجمع من حولهم يسخرون ويضحكون من شكل التدريس في مصر وتعليم الدين بين المسلمين ، ولما سألنا هذا الفقيه عن أمره أيضاً وما فيه من المنكر تبين لنا أنه رجل مسلم من عامة المصريين اجتلبه أعضاء الشركة مع صبيانهم ليمثلوا به هذا المنظر ولم يستنكروه وفيهم بضعة من صلحاء المسلمين ، وأن طمع الربح سهل عليهم هذا الموقف . فكان إنكارنا لأمر هذا المسلم المتعبد ، أعظم من إنكارنا لحال ذلك المسيحي المتصيّد

ولما توسطنا ساحة البناء وجدنا بها سوقًا تشبه أسواق الموالد
وحوانيتها، فعن اليمين بائع « لب وحمص » وفول وترمس، وعن الشمال
بائع « عرقسوس وسحلب » وفي هذا الجانب بائع « حراير شامية » وفي
الجانب الآخر بائع « حلوى استامبولية » ومن دونهما بائع « أحذية
صفراء وطرايش حمراء ». ولما استخبرنا أهذه كلها آثار مصر والمصريين،
قالوا نعم ويزيد عليها « معروضات المصنوعات والمزروعات » في داخل
هذا المكان وأشاروا إليه، فدخلناه فإذا هو مكان متسع على شكل معابد
القدماء من المصريين ووجدنا حوانيته أشبه شئ. بحوانيت العطارين
انتقلوا منها إلى مساها وتركوا في أنحائها وزواياها بقايا من صنوف تجارتهم،
فهنا صرة فيها بذرة قطن، وهناك قطعة بها حبوب حلبة وذرة، وفي
صدر المكان صوان^(١) من زجاج به كسوة مطرزة بالذهب مما يلبسه
العداءون « القمشجية » أمام الخيول بمصر. فانتقلنا خارجين من « قسم
المزروعات والمصنوعات » على حال من النعم والحزن أشد وأدهى من
الحال التي خرجنا عليها من ملعب المغنيات والراقصات

وفزعنا إلى الهرب من هذا المرض المصري وسيئاته فعارضنا أحد
المروجين له، واستحلفنا ألا نتركه من غير أن نشاهد أعجوبة العجائب
فيه، فطاوعناه فدخل بنا غرفة مُحجَّبة وانكشف لنا الستار عن فتاة
مقطوعة الذراعين تغزل برجليها وتستعملهما استعمال اليدين في كثير من
الشؤون. فخرجنا لا نلتفت وراءنا وقد حان وقت الغروب حتى صرنا في

(١) صوان : هو المعروف في العامة بالدولاب

الشارع فرأينا مثل القطيع من النساء المصريات وبأيديهن الدفوف والشموع وفي وسطهن امرأة عليها زينة العرائس وهن يُنشدن حولها أناشيد الأعراس في زفاف المصريات . فعجبنا من تركهن لمكان اللعب والرقص الى خارجه في وسط الشارع . وبيننا نحن كذلك اذ بصر « الصديق » بأحد المصريين من أصحابه فاستوقفه يطارحه الحديث عن خبث ما رأى وسمع وينمى على المصريين سوء سمعتهم بين الأمم بهذا « المعرض المصرى » :

(الصديق) — ألا تخبرنى عن سر هذا التفضيح فانهم لم يكفهم ما يدور في داخل المعرض من كل مخجل معيب حتى انتشروا به في الشوارع على نحو ما تراه . لوقلنا إن جماعة من أعداء المصريين تألبوا على النكايه بهم وليظهروهم بأسوأ المظاهر بين الأمم فانتهزوا هذه الفرصة لتنفيذ مكيدتهم لما أخطأنا الصواب

(المصرى) — ليس الأمر كما ذهبت اليه ، وانما دفع أهل الشركة الشره والطمع واستجلاب الربح بكل سبيل كما تراه في تسير موكب الزفاف في أنحاء الشوارع للاعلان والترغيب في زيارة المعرض بقطع النظر عما يجلبه من العار على أهل مصر جميعاً ، ولكن الذى يقف على حقيقة هذا المعرض وتأليف شركته لا يلبث ان يهون عليه الأمر شيئاً ما لأنه لا ينتسب للمصريين بنسبة رسمية ، فقد امتنعت الحكومة المصرية عن إجابة الدعوة التى ارسلتها الحكومة الفرنسية اليها ولم تشارك فيه رسمياً

كما أعلتته في الجرائد، وليست شركة المعرض بالشركة المصرية لان الجانب
الأعظم فيها من الشرقيين المقيمين بمصر مع بعض من لا خلاق لهم
من المصريين

(الصادق) — وهل تظن أنهم يرجحون الشيء الكثير من هذا
المعرض وهو على ما تراه من حال الكساد والبوار
(المصري) — ما أظن الربح على هذه الحال بميسور، ولكن الشركة
لا تخسر شيئاً وإنما الخسارة على الذين اكتتبوا فيها، وهم يقدرون الخسارة
الى اليوم بثمانين الف فرنك، وعسى أن يستمروا على هذه الخسارة عبدة
لهم وتأديبا حتى لا يقدموا مرة أخرى على مثل هذه المشروعات التي
لا يسلمون فيها من الخسارة ولا يسلم المصري فيها من وصمة العار
قال عيسى بن هشام — وزودنا الرجل بالتحية والسلام . بعد أن
خفف علينا بعض ما بنا من الآلام

غيز الحمزية

قال عيسى بن هشام — وانتهى بنا التجوال في المعرض الى « أقسام الدول ». فرأينا فيها من مفاخر الأواخر ومآثر الأول ما يشهد لهن بالعلو والارتقاء . في أبواب الإبداع والإنشاء . وقد تبارين في ميدان المناضلة . وتسامين في مضمار المفاضلة . بما لا يُشق لهن فيه غبار . وتقتصر دونه الأبناء والأخبار . وكانت الدولة الألمانية من بينهن أسبقهن^(١) قدما . وأرفعهن علما . وأعز مكانا . وأعظم شانا . كأنها لم تقنع بالسبق عليهن في ميادين الحرب والطمان . فارادت أن تسبقهن أيضا في حلبة العلوم والعرفان . وأن تبتدئن في حالي الحرب والسلم . بشدة البأس وقوة العلم وينا نحن نمتع النظر بحسن الصنع . وجمال الوضع . اذ شعرنا بضجة والناس يتقاذفون بعضهم على بعض كالبحر اللجج . في الليل الدجوجي^(١) .

قد ركبوا رءوسهم من شدة الفزع . وطارت عقولهم من الهلع والجزع . وانتشر بينهم الصراخ والصياح . واشتد فيهم العويل والنواح فسألنا عن الخبر فقل لنا ان القنطرة القائمة على رأس المعرض هوت بمن فوقها على من تحتها ، فتوجهنا ناحيتها فوجدنا من المنظر الشنيع ما تنقبض له النفوس وتذرف العيون ، فمن جثث هامة وأجساد دامية ما بين فتاة وصبي وشاب وكهل من زوار المعرض يزيدون المائة ، والدماء تجري كالسيل والناس يترامون على الأرض ليتعرفوا بمن عسى أن يكون

بين المصايين من أقرابهم وأصدقائهم ، وما فيهم إلا كل متوقع للمصيبة
ومتربب للمكروه ، فالبكاء شامل والأعين عام ، والأطباء يضمّدون
ورجال الصحة يحملون . واشتد علينا الحال باشتداد الهول وتكاثرت
الزحام فضاق علينا التنفس كما ضاقت النفس عن احتمال هذا المشهد
الفظيع فجذبني « الباشا » اليه لنخرج من هذا المأزق فأسرعنا الى مطاوعته
وسار بنا وهو يقول :

(الباشا) — تالله ما يني كل ما رأيناه في هذا المعرض من بهجة
وسناء في ترويح النفس بمقدار ما اعترانا من الضيق والكرب أمام هذا
الموقف الهائل ، حتى لقد تخيلت اني أشاهد يوماً من أيام الحروب تتمزق
فيها الأعضاء وتتناثر الأشلأ

(الصديق) — صدقت ويزيد على ذلك أن هول الوقائع الحربية قد
يكون أقل في النفس وقمًا لأن للحروب رجالا استعدوا لها واستأنسوا
بها وغلظت أكبادهم ، ولست ترى من حولهم مثل هؤلاء الصبية والأطفال
وهاته النسوة اللواتي رقى النعيم أديمهن ورفّة الرغد أجسادهن يفزعن
من مس الابرة ويذعرن من لمس الوبرة ، فأصبحت الأوصال ممزقة تحت
الودم والأعضاء مذكوكة في الأتقاض . وهكذا صارت وقائع المدينة في
سلمها أشد من الوقائع في حربها

(الباشا) — لقد آن لنا أن نغادر هذا المعرض ولا نعود اليه مرة
أخرى ، فقد قطعناه طولا وعرضا واستوفيناه بحثا وتدقيقا ، وبدأ فينا
الملل من طول التردد عليه

(الحكيم) - ان كنتم عقدتم العزم على الانتهاء من زيارات
المعرض بعد اليوم فلا يفوتكم أن تحتموها فيه بروية العجيبة التي هي
في الحقيقة أم العجائب ومصدر هذه الطرائف والغرائب والأصل الذي
تتفرع عنه الفنون والصنائع والمنبع الذي تسيل منه مظاهر المدنية والمطلع
الذي تشرق منه شمس الرفاهة والحضارة

قال عيسى بن هشام - فشوقنا بكلامه الى متابعتة ، وسرنا وراءه إلى
حيث يريد ، فانتهى بنا الى بناء نخم من أبنية المعرض لم يكن وصلنا اليه
من قبل ، ولما دخلناه وقف بنا عند فوهة هاوية عميقة مظلمة يضطرب
البصر عند رؤيتها وتخلج النفس من هيئتها ، فدعانا للنزول فيها ودفعنا
لركوب آلة هناك للهبوط والصعود كأعظم ما يكون من الدلاء ، فهوت
بنا الى قرار بئر عميق وجبّ سحيق ، فتولاني من الهلع والذهول ما
أنساني كل شيء في ذاكرتي مما يحفظه أهل الدنيا الا ثلاثة آيات ، لم يبق
لى سواها ما أنا فيه من هذا الانحدار والهوى في ظلمات بعضها فوق
بعض ، قالها الفرزدق لما تعلق بحبال الفوانى من أعلى الجدران . فراراً من
صولة الثائر والغيران :

فلما استوت رجلاي في الارض نادتا
أحَيَّ رُجِّيَ أَمْ قَتِيلُ نَحَاذِرُهُ
قللت ارفعوا الأسباب لا يشعروا بنا
ووليت في أعجاز ليل أبادرُهُ

هُمَا دَاتَانِي مِنْ ثَمَانِينَ قَامَةً

كَمَا انْقَضَ بَارِ أَقْتَمُ الرِّيشِ كَاسِرُهُ

ولولا ان حسن العشرة وطول الخلطة مَكَّنَ الثقة من نفوسنا
 بالحكيم الفرنسيّ لقلنا إنه كاد لنا وأراد أن يحدد في عصرنا الحاضر
 ما فعله أبناء يعقوب بأخيه في عصرهم الغابر . ولما أفقنا من الإغماء في
 بطن الأرض سألناه أين نحن من الآخرة أو في أى طبقة من الطباق
 السبع ، فعلمنا أننا في مكان صوروه على نمط معادن الفحم الحجريّ تحت
 الأرض وكيف يستخرجه العمال في غياهب الجب . فأخذنا نحدق العيون في
 حنادس الظلماء عسانا نبصر شيئاً ، فتمثل أمامنا العمال يدأبون في عملهم
 على ضوء سراج معقود بناحية كل عامل كأنه نار الجباحب تنقدح بين
 الأشجار في ظلمات الليل البهيم . وأتت لأضواء السرج الكهربائيّة أن
 تشق عباب هذا الظلام الدامس وهو يكاد من تسكافته يُمسك باليد
 ويُقبض بالراحة ، وحسبك أنها لا تفيد في كشف الظلام وإضاءته ، وانما
 تزيد في بيانه وإراءته . ثم خطونا قليلاً وعثرنا كثيراً ، فرأينا من السرادب
 والكهوف ومن الأخاديد (١) ما تضل فيه الصلال بالتوائها وتنكمش
 دون انسيابها . ونظرنا في كل فجوة أشباحاً يتشكلون بأجسامهم على كل
 أشكال الصراع الذي يتفنن فيها المصارعون للتمكن من العمل في ثنايا
 الفجوات والمنعطفات ، وفي أيديهم ما ثقل ودق من أدوات القطع والحفر
 وأخشاب الإسناد يقيمون بها ما يريد أن ينقض من جدران المغائر

(١) الأخاديد ، جمع اخدود وهو الحفرة العميقة

والكهوف . ففهم الواقع في عمله على أصابعه والمضطجع على جنبه
والجائى على ركبتيه والمنكب على وجهه ، والمياه تسيل عليهم من الشاي
والشقوق ، هذا بعض ما تقاسيه الأجسام من المتاعب والمشاق ، والله
العليم بما يدور في القلوب والرؤوس من توقع الخطر وترقب الهلاك بما
شئت من أنواعه المتعددة انهياراً واندفاعاً ، وانفجاراً وانبثاقاً ، وغرقاً
واحتراقاً ، وارتداماً واختناقاً ، وهمهم الأكبر أن يراقبوا ما على نواصيرهم
من السُّرُجِ خشية أن تصاب برضة تنلهم فيها ثلثة فتتصل بفاز الفحم
المتسرب في المعدن تسرب الهواء فتميد الجدران وتندك الأحجار
وتخسف بهم الأرض . واهتدينا آخر الأمر الى منفذ نخرجنا منه وتركناهم
يعملون في ظلمات ثلاث بعضها فوق بعض :

فانفحم ظلام جامد ، والظلام فحم سائل ، وعيشهم أسود حالك ،
وكفانا الله شر المهالك

ثم درنا قليلاً في « معدن الذهب » بعد أن اتهمنا اليه من « معدن
الفحم » فلم نجد أرباب العمل فيه أسعد حالاً ، ولا متاعباً أهون احتمالاً ،
لا نصيب لهم من الاصفر الرنان ، مما يجلو عنهم صداً الكروب
والأحزان ، سوى أنهم صُفِر الأيدي من الفضة والذهب ، صفر الوجوه
من النصب والتعب :

وَالْعَيْسُ أَقْتَلُ مَا يَكُونُ لَهَا الصَّدَى

والماء فوق ظهورها محمول

وكادت الرطوبة في المعدن تعقد دماءنا في مجاريها فأسرعنا الى مكان الصمود فانتشرنا من بطن الأرض الى ظهرها ، وأقننا هنيئة نعالج بأيدينا غشاوة الظلماء عن الأبصار، عند مفاجأة ضوء النهار . وسرنا نتمتع بفضاء الارض لا ننطق حرفاً ولا نحسن خطاباً ، واذا بصاحبنا « الحكيم » يستوقف . أنظارنا الى « مسبك المدافع » الذى يمثل أعظم المسابك فى فرنسا نُطلُّ منه أعظم اسطوانة للمدفع فى العالم ، ويخاطبنا بقوله :

(الحكيم) — وهذا هو الثالث من أمهات المدنية وأقائم الحضارة ، فقد رأيتم الأتقوم^(١) الاول وهو الفحم ، والأتقوم الثانى وهو الذهب ، وهذا الأتقوم الثالث وهو الحديد

(الصدىق) — « وأنزلنا الحديدَ فيه بأسٌ شديدٌ ومنافعُ للناس »

(الحكيم) — نعم انهم يستخرجون الذهب ليشتروا به الفحم ليصهروا به الحديد فيصنعوا منه ما شاؤوا من آلات السلاح وأدوات الصناعة فيخرجوا للناس ما تشاهدونه من عجائب الصنع ، وان كل ما ترونه مما يبهز الأنظار ويستهوى القلوب راجع فى الأصل الى ذلك الفحم الأسود الذى هو اليوم الخبز الثانى للانسان فى عالم المدنية ، منه نعيمها ورفاهتها وبه بأسها وقوتها . تَباً للانسان فإعقَّ عمله وأقبح صنعه ! يهوى بالملايين من العمال الى أسفل طبقات الأرض فيخربون باطنها ليستخرجوا منه ما يخربون به ظاهرها . وتمسكاً له ! يزعم انه يعمل لسعادة الحياة وراحة العيش وهو يقضى عمره فى الشقاء والبلاء حتى يأتية حمامه

فيخرج من الدنيا باكيًا كما دخلها باكيًا بعد أن قضى فيها لحظة العمر على حال تقضُّلها حالة الحيوانات والحشرات ، وهو بزعمه أفضل المخلوقات !

(الباشا) — كم يكون عدد العمال الذين يستخرجون الفحم في فرنسا وما مقدار أجرة العامل في اليوم

(الحكيم) — يشتغل في معادن الفحم مائة ألف عامل ، ويبلغ ما يستخرجونه منه سبعة وعشرين مليونًا من الأطنان تباع بمائتين وستين مليونًا من الفرنكات . ويعمل العامل منهم في جوف الأرض على عمق المئات من الأمتار وفي وسط الأخطار التي لا تقل حوادثها في العام عن ألف وخمسمائة حادثة فتذهب بالمدد الجيم من القتل والجرحي . هذا غير ما يصيب العمال من الأدوية الصدرية والأمراض الرئوية لاستنشاق «الكربون» وفاسد الهواء ، ومنهم من يشتغل بالليل ومنهم من يشتغل بالنهار ومعهم أولادهم ونسائهم — كل هذا بأجرة تختلف من اثنين الى خمسة فرنكات في اليوم !

(الباشا) — وأين تذهب هذه المئات من الملايين من أثمان الفحم التي هي ثمرة كدكم ونتيجة تعبهم

(الحكيم) — تذهب الى فئة معينة من أرباب الشركات والامتيازات فينفقونها على شهواتهم أو يدخرونها في صناديقهم . ولا تظنن ان هذه الفرنكات التي يأخذها العامل أجرًا له في اليوم تصل الى يده . فان أكثر الشركات تبني بيوت السكنى للعمال في أحياء بجوار

المعدن وتقيم بجانبها الأسواق ، فيشتغل العامل في معدن الشركة ،
ويسكن في بيت الشركة ، ويشترى طعامه ولباسه من سوق الشركة ،
والشركة تخصم عليه من أجرته ، فاذا خرج آخر الشهر لا عليه ولا له
كان رضى الحال رضى البال

(الصديق) — من هنا نشأت المذاهب الاشتراكية ونحوها ،
فانه كيف يصبر الانسان على هذه الحال يعمل عمل الحشرات في باطن
الغبراء ، ليغني المقعدين في قصور العز والهناء

قال عيسى بن هشام — ووصلنا في مسيرنا الى البرج الشهير . برج
«ليفل» المهندس القدير . فأسندنا اليه ظهورنا نتفكر في أعمال الإنسان .
وما يأتيه من فنون الجنون في كل زمان . وهو يدعى أنه المخلوق الكامل .
والحكيم العاقل

المعجزة الثامنة

قال عيسى بن هشام - ووقفنا نشاهد ذلك البرج المنيع . والعماد
الرفيع . فهالتنا رفعتة . وأدهشتنا صنعته . فهو في باب المشاهد الفريدة
العصماء . والغرة الشهباء . والهضبة العليا . والقلة السماء . أعجوبة الصنائع
وضعا وإتقاناً . وبكر هذا المرض وإن كان فيه عوانا ^(١) . تنحني أمامه
الآطام والآكام ^(٢) . وتخرّ له الرُّبَا والأعلام . فأين من ارتقاءه الهرمان .
ومن علوه صرح هامان . لما أمره فرعون بقوله في كفره وعناده .
وجحوده والحادة : « يا هامانُ ابنِ لي صرحاً لعلّي أبلغ الأسبابَ أسبابَ
السمواتِ فأطّلعَ إلى إلهِ موسى وإني لأظنه كاذباً » . لو رآه فرعون
لهدم ما شاد وأعلى . ولم يقل أنا ربكم الأعلى . ولا ننحى على هامانه
فجَلَدَهُ أَلْفاً . وعَلَّقَهُ في الجذع شَتَقاً ^(٣) . وأين « برج بابل » من برج يشافه
بروج السماء . ويشارف الشِعْرَى الغُمَيْصَاء . إذا حوّم عليه نسر الجوّ صار
ثالث النّسرين . واتخذ وَكْرَهُ في منازل الفرقدين . وأنى خيال الشاعر
أن يملو في وصفه علوه . ويسمو سموه . لا جرّم أنه يضيق عليه نطاق
الوصف فيلجأ إلى تشبيهه إلا كبير بالأصغر . والأعظم بالأحقر . كما
شبهوا شمس النهار . بكأس العقار . والتريا بعنقود . والجوزاء بعمود .
وذَرَارَى النجوم . بالودّع المنظوم . والليل الدجوجي . بالعمد الزنجي .
والأشفاق . باللم المهرّاق . فلعله يقول إذا : إنه أَلِف الهجاء . في كتاب

التقدم والارتقاء . هزته رأيته التي تحقق . في صفحة الأفق . أو أول
العدد المرقوم . في جدول الفنون والعلوم . أو الإبرة التي تُعَرِّز في خريطة
الكرة الأرضية . لتعين مواضع المدينة . أو هو القلم الذي يخط في أديم
البدر . ما بلغته أمّ الغرب من علو الشأن والقدر . أو هو قرن الثور في
زعم البعض . نفذ الى ظهر الأرض

ولما فرغنا من الطواف حوله مرارا . وامتلات له نفوسنا إعظاماً
وإكباراً . سمعنا « الصديق » يتنهد ويصعد . ويميد في قوله ويردد :

(الصديق) — هذه سنة الدهر منذ القدم وعادة الزمن في أبنائه ،
كلما ترقّت أمة من الأمم في معارج المدنية شيدت لها أثراً يفوق سواه
من بديع الصنعة يقوم لها شاهداً بين الورى على ما بلغته من السمو
والقدرة في زمنها . ثم لا يلبث أن يححوه الدهر من صحيفته ليقوم مقامه
آخر ينتهي الى مثل نهايته . لا يزال الدهر هكذا في محو وإثبات ، ولا
يزال ابن آدم عن العبر في غفلة وسُبات ، اللهم إنه عمل باطل ، وظل زائل
(الحكيم) — لا تَعْلُ بنا في أفكارك علو البرج قبل أن نصعد

فيه ، ولا تشغلنا بأقوال الحكمة عن مشاهدته ، وهلم بنا الى الارتقاء .

قال عيسى بن هشام — ودخلنا من أحد جوانبه في غرفة للصعود
فارتفعت بنا من سطح الأرض الى عنان السماء في لحظة كلح بالبصر ،
فرست بنا في الدور الثاني منه وإذا هو سوق من أكبر الأسواق

اصطفت فيه حوائتُ التجار بأنواع البضائع ، والحاناتُ بأصناف الخمر ،
وفى وسطه مطعم نخم يزرى بمطاعم الأرض ، فأخذنا مجلسنا فى بعض
حافاته وجعل « الباشا » يسأل « الحكيم » إجمالاً وتفصيلاً :

(الحكيم) — يرتفع هذا البرج عن سطح الأرض بثلاثمائة متر ،
وهو من الحديد الخالص ، ويبلغ وزنه تسعة ملايين كيلوجرام ، وعددُ
قِطْعِهِ التى يتركب منها اثنا عشر ألف قطعة ، والخطاطيف فيه مليونان
ونصف ، وله من العمر عدة سنوات . وبلغ دخله من الصاعدين فيه فى
أثناء المعرض الماضى سبعة ملايين فرنك . ولو تم لأهل العصور الماضية
بناء مثله لكان الثامن للآيات السبع

(الباشا) — وما الآيات السبع

(الحكيم) — إن ذكرها ليطول

(الصديق) — نحن فى مجلسنا هذا وفى علونا عن الأرض وتفرغنا
عن العالم ما يبعثنا على جولان الفكر فى تاريخ البشر للمطابقة بين أعمال
الإنسان فى ماضيه وحاضره ، وأن اختلاف العصور ومرور الدهور لم يُغيّر
شيئاً من جِليّته ، فهو هو على عهده فى غرامه بالمعجب المدهش يبيع
نعيم الدنيا بشقاها فى سبيل ذلك ويشغل بما لا تقضى به الحاجة لمجرد
الزَّهو والعُجب والتَّباهى والتفاخر

(الحكيم) — نعم يحق لك هنا أن تذهب مذاهبك الحكيمية فى
تعليل أعمال البشر وطباع الخلق وأنت تنظر الى أهل العالم السفلى من

هذا العالم العلوى . كأنهم جموع النمل تغدو وتروح في سبيل أرزاقها ،
ولكن الفرق بين الجنسين أن النمل في تآزير وتعاون ، والناس في تضارب
وتقائل ، والمصير واحد والفناء شامل ، وعمل النمل حق وعمل
الانسان باطل

وإن أيتّم إلا أن أحدثكم حديث المعجزات من أعمال البشر فهي :
الآهرام ، والحدائق المعلقة ، وسور بابل ، وتمثال جوبيتير ، وصنم رودس ،
وهيكل إيفيز ، ومدفن الملك مؤزول
أما آهرام مصر فأمره مشاهد معلوم

وأما « الحدائق المعلقة » في أرض العراق فقد أقامها « بختنصر »
فوق الربوة التي تُعرف الآن بربوة « عمران بن علي » وهي في اتساع
أربعين فدانا شُيدت بالبناء على أشكال الجبال وعقدت فيها القباب على
عمد وأساطين أفرغوها وملأوها بالطين وغرسوا فيها الأشجار تنساق
جذورها في أصولها وتورق في رؤوسها ووضعوا فيها الدرّج يصعد منها
الصاعد إلى مثل رؤوس الجبال حيث تثمر الأشجار وتزهر الأزهار
وتمشب الأعشاب وتدور الدواليب لرفع الماء من مجرى الفرات الى أعلى
القباب ، ويقال ان السبب في إقامتها على هذا الشكل ان امرأة الملك
كانت تحن دائما إلى مناظر بلادها التي نشأت فيها فأنشأ لها الملك بالصناعة
ما يعوّضها به عن الطبيعة

وأما « سور بابل » فهو عدة أسوار متداخلة بعضها في بعض يتسع

محيطها للاحاطة بسبع مدائن مثل مدينة باريس ، وكان ارتفاعه ثمانية وأربعين متراً وعرضه سبعة وعشرين متراً ، ومن حوله خندق عميق ، وعليه أبراج متعددة ، وله مائة باب من حديد

وأما « تمثال جوبيتير » الإله الأكبر عند اليونانيين فقد صنعه لهم « فيدياس » النحات الشهير ، وطول قامته أربعة عشر متراً وهو جالس على العرش مكلل بورق الغار وفي يمينه تمثال « آله النصر » مصنوع من الذهب الخالص وسن الفيل وفي يسراه الصولجان منضد بكرائم الأحجار وفي طرفه نسر من الذهب ، والطيلسان والحذاء من الذهب أيضاً ، أما العرش فكان من الرخام وسن الفيل والأبنوس ، وكان موطى قدميه من العرش أسدين من الذهب ، وقد أجاد صانعه وأتقن في تناسب الأعضاء في هذا الحجم العظيم حتى عدّه القدماء أنفس ما في الوجود من الصنع ، وكان كل يوناني يعدّ نفسه ناقص الإيمان إن مات ولم يحجج إليه

وأما « صنم رودس » فهو تمثال « أبولون » آله الفنون عند اليونانيين أيضاً أقاموه في مواجهة المرفأ ، وكان ارتفاعه اثنين وثلاثين متراً وهو أكبر ارتفاع بلغته تماثيل القدماء ، وانتهى بأن أسقطته الزلازل وهشمته ، ونقلت العرب كثيراً من بقاياها في القرن السابع

وأما « هيكل إيفيز » (وهي مدينة من مدن اليونان) فهو معبد « ديان » إلهة الصيد والقصص ، ولم يكن له مثيل في البناء والنقش

والزخرف والتصوير بين معابد القدماء على الإطلاق . ومما يذكر للدلالة على أنه أعظم أثر عندهم : أن أحد أهل الشقاوة من المولعين بحب الشهرة ، على كل حال ، واسمه « إيروسطراط » بحث عن أكبر عمل يمتاز به في الوجود ويخلد ذكره على مدى الدهور فاحتال لإحراق المعبد ، فأكلته النار ، وأعلن الجاني عن نفسه انه هو الفاعل لتلك الفعلة الشنعاء ، فحكم عليه القضاة بالتعذيب حتى يموت ، وأدركوا غرضه من إحراقه فأمرؤا أن يلحق به كل من ذكر اسمه ، فكان ذلك داعية انتشاره لأن الناس اخذوا يهيمون به يلينهم حتى اشتهر وخلد ذكره بسوء فعلته الى اليوم . وكان حرقه في الليلة التي ولد فيها الاسكندر فلما بلغ من الملك ما بلغه عرض على اهل « إيفيز » ان يعيد لهم بناءه من ماله بشرط ان ينقشوا عليه اسمه ، فأبوا ذلك حتى لا يكون لأجنبي عنهم فضل عليهم في معبدهم وباشروا هم أنفسهم تجديد بنائه وزخرفته حتى تم لهم في مائتين وعشرين عاما . وما زال قائما حتى جاء « نيرون » القيصر الروماني فنهب ما فيه من الذخائر والكنوز ونقل الفسيفساء من أرضه فوضعها في قصوره بمدينة « رومية » . ثم انتهى الأمر بأن خرَّبه « الجرمانيون » في حروبهم وأما « مدفن الملك موزول » فهو مدفن أقامته له امرأته (وكانت أخته) بعد موته جمعت له مهرة الصنائع من سائر البقاع وخصت كل طائفة منهم بجانب من العمل ، وكان ارتفاعه اثنين وأربعين متراً وأساطينه من المرمر النقي نُقِشت عليها صور الحوادث التاريخية وكان غطاؤه صخرة من المرمر صوّرت فيه وقائمه الحربية . وبقي هذا المدفن سليما الى القرن

الرابع عشر ثم اندثر أثره في القرون الوسطى ، ونُقل جانب من أجزائه قريباً منه لبناء قلعة « بودرون » بالاناضول في القرن السادس عشر .
وبقي منه قِطْع من الرخام المنقوش لاصقة بأرضه الى أواسط هذا القرن فاشترتها انكلترا ووضعتها في متحف لو ندره

(الصديق) — ما أشبه الليلة بالبارحة ! وما أبعد ابن آدم من العبرة والتذكرة !

تراكت القرون وشاب فود الدهر وتغيرت الأرض واندثرت المعالم
في كل زمان ومكان ، والانسان هو هو لا يزال على غيه يعتقد لأعماله
البقاء ولاآثاره الخلود ، لا فرق في هذا الاعتقاد بين الآشوريّ عند برج
بابل والفرنسيّ اليوم تحت « برج إيفيل » ، كلاهما يتعب ويشقى ،
وكلا العاملين لا يدوم ولا يبقى . وما تبقى الا الأحاديث والذكر

كلُّ بيتٍ الى الهدم ما تَبَتَّنِي اُ
وَرَقَاءُ وَالسَّيِّدُ الرَّفِيعُ الْعِمَادُ
وَالْفَقِي ظَاغُنٌ وَيَكْفِيهِ ظِلُّ السَّدِّ
رِ ضَرْبَ الْأَطْنَابِ وَالْأَوَادِ

(الحكيم) — نعم صدقت ويحضرني في هذا الباب محاوره ابتكرها
أحد قدماء العلماء وأجراها في عالم الأموات على لسان « ديوجين »
الفيلسوف الزاهد القديم والملك « موزول » صاحب ذلك المدفن الشهير ،
وأذكر منها :

(ديوجين) — مالى أراك أيها الرجل الأسيوى مختالاً تياهاً في

اكفانك ! كأنك تريد أن تنزل هنا أيضا بين الأموات منزلة أشرف من منزلتهم ، وتحل تحت طبقات الأرض فوقهم مكانا عليا

(الملك) - وهل من شك في ذلك أو ارتياب ! ومتى تساوت الملوك بالسوقة ! وأنا أكبر الملوك ملكا وسلطانا ، وأحسن الخلق بهاء وجمالا ، وأعظم الفاتحين نصرة وجلالا ، وقد كنت في الحياة أرفع ذوى التيجان عرشا وقدر ، وأنا اليوم في الممات أعظمهم مدفنا وقبرا . وإن افترى مُقتر منهم انه كان يساويني في نخامة الملك فقد انقطعت ألسنتهم أن يكون لهم مثل هذا القبر ، فهو معجزة البشر في النقش والحفر ، وآية الدهر في المجد والفخر . فهل ترى بعد ذلك أيها المتكشف في الدنيا والمندثر في الآخرة أن ليس من حق التخایل والترفع !

(ديوجين) - ولكنى أراك أيها الملك العظيم الجليل لم يبق لك من سلطانتك وجلالك أكثر مما بقى لى ، وهذه ججمتك لا تمتاز عن ججمتى بشيء فكلتاها مثقوبتا العينين مفحورتا الأنف بارزة الأسنان ، وأما ذلك المدفن الفخم والصخور المزخرفة فوق رأسك فلا فائدة لك اليوم منها بعد أن تساويت فيه بمن دُفِنَ فى بلقع من الأرض ، وانما أصبحت فائدته للأحياء من أهل بلدكم يتباهون به على الوافدين اليه من الأقطار حيناً من الدهر ثم لا يلبث أن تندك أحجاره وتزول آثاره

(الملك) - ما هذا الذى أسمعه ، يارب الصواعق والرواعد ! !
أذهب كل ما أوْتيتُهُ من أسباب العز والمجد متاعا باطلاً وأصبح مساويا لـديوجين فيوسعنى تأنيبا وتبكيता

(ديوجين) - لا تقل أيها المخلوق إنك أصبحت مساوياً لى فستاناً ما يبنى وينك ، فانك لا تنفك تتحسر على ما كان لك فى الدنيا من الملك والسلطان وزخرف الحياة ، واما أنا فلا يحزننى شىء ولا يكدرنى الآن مكدر ، ولم أترك فى الحياة شيئاً أسف عليه ويوجعنى فراقه ، ولئن خطر الزنبيل الذى كنت أسكنه فى الدنيا على بالى يوماً لكان للاغتياب بأن مسكنى الآن فى بطن الأرض أوسع لى مجالاً وأحسن منزلاً ، ولكن لى فى قلوب أهل الدنيا ذكراً حسناً وأثراً من الفضائل خالداً لا تمحوه الأيام ولا يبلى بيلاء الزمن . فأين مكانك أيها المنور من مكافى وأين ذكرك أيها المفتون من ذكرى .

(الباشا) - ما أحكم الموعظة وأجلّ العبرة !!

(الحكيم) - ولو علمتم أن «السيو ليفيل» صاحب هذا البرج العظيم قد انتهى أمره بتهمة السرقة والاختلاس وسُجن فى قضية «بناما» الشهيرة - لا شتدّ بكم العجب فى نتيجة هذه الآثار وذهاب أصحابها بسوء السمعة والأخبار

والآن فقد احطم بمشاهد المدينة ومناظرها فى صنائها بآلاتها وأدواتها من بطن الأرض الى سطح البرج متجلية لكم فى هذا المعرض بأجلى مظاهرها وأسمى مراتبها ، فان كان من عزمكم العودة متمجلين الى بلادكم فقد كفاكم ما شاهدتموه مما يملأ الصدر مهابة والعيون حسناً ، وأودعكم مع الأسف الشديد لفراقكم فقد رأيت فيكم من حسن العشرة ولطف

الخلطة وذكاء القريحة ودقة الفكر ما لم أكن أتوسمه من قبل في كثير من أهل الشرق . وإن كان في نيتكم الإقامة زمناً بيننا وكان الميل فيكم شديداً لاستطلاع العالم الأدبي بعد العالم المادي في هذه الحضارة الغربية وأحييتهم الوقوف على ما تجرى عليه أحوال الجمعية البشرية وما تدور به المعاملات في المعاش والمرافق وما تنطوى عليه من الأخلاق والصفات ويتسلط عليها من الطباع والعادات - فأنا حاضر بين أيديكم لمصاحبتكم ومرافقتكم ، والفضل كل الفضل لكم فيما أجده من الأُنس بكم ولذة النفس في مباحثتكم ومناقشتكم

قال عيسى بن هشام - فحبب إلينا البقاء بكلامه . وحمدناه على حسن صنعه وإكرامه . وصادف رأيه لدينا حسن القبول . ففضلنا الإقامة على القبول . وبهذا انتهينا من زيارة معرض النفائس والأعلاق . لنبدأ بالنظر في معرض الأطوار والأخلاق

من القرب الى السُمرق

قال عيسى بن هشام — وأقمنا مع صاحبنا «الحكيم» نهتدى في سيرنا بهدية . ونستضيء بنور فكره ورأيه . وتبعه اتباع الإبل لحاديها . والرفقة لهاديها . ونحمد القدر الذى ساقه لمرافقتنا . وأنزله على موافقتنا . وقضينا معه الليالى والأيام . منذ انتهينا من المعرض العام وكأنها حلم من من الأحلام . ينتقل بنا فى الأندية الحافلة . والمجالس الآهلة . ويدور بنا فى اختبار الأخلاق والصفات . بين مختلف أهل الطبقات . فيعلو بنا تارة الى مراتب الخاصة والحامة ^(١) . ونسفل معه أخرى الى أدنى منازل السُوقَة والعامة . فاليوم مع كبار الرجال والأمراء . وغداً بين شراذم الصنّاع والأجراء . ثم تحول من محادثة أرباب القصور العالية . الى محاورة أصحاب الأكواخ البالية . ومن منابر الوعظ والخطابة . الى مجامع ذوى الدعارة والدعابة . ومن أروقة العلماء والفضلاء . الى أزقة الأوباش والسفهاء . ومن جمعيات العلوم والمعارف . الى حانات المراقص والمعارف . حتى لم يبق مجتمع تُختبر فيه الفضائل والريّاضات . وتُسبّر فيه الطباع بين الأعالى والأسافل . الا لدينا طرف من خبره . وعلم من أثره . باحثين فى العلل والأسباب . مُستشفيين لما وراء الحجاب . الى أن أدركنا الشتاء بخيله ورجله . وجليده ووجهه . ورعوده وبوارقه . وعواصفه وصواعقه . وتوارت الشمس عنا الأيام بعد الأيام . وانسدل على العالم

ستر الظلام . وأصبحنا نستضيء بمصاييح الكهرباء . من الصباح الى الى المساء . وانطلقت في الجو مداخن المعامل ومداخن الاصطلاء . فعمدت سحبا أخرى تحت سحب السماء . وتدفقت السيول والأمطار . طول كل ليل وكل نهار . حتى أغرقت الغدران والأنهار . فطنى المساء بمثل الطوفان . وسال في الأودية والبلدان . وامتد نهر المدينة فوصل الى أرض المنازل والمساكن . وقد يعلو الى الأدوار والأماكن . فازويدنا في الغرف والحجرات . تقضى بها جميع الأوقات . وكأننا نحن في العذاب نُعَذَّب تارة بنار الاستدفاء . وتارة بزمهرير الشتاء . وأقنأعا كفين على الحديث والسمر . بما وعيناه عن هذه المدينة من كل خبر وأثر . وكان « الصديق » يبتنا كعهده يرسل علينا القول إرسالا . ويذهب في حدة انتقاده يميننا وشمالا

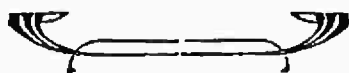
ويذكر من أسوء المدينة الغريبة ما يهول السمع . ويذرف الدمع . حتى استفز « الحكيم » للرد عليه . وتهوين ما ذهب اليه :

(الحكيم) « للصديق » — لقد أسرفت أيها « الصديق » في القول وغاليت في الوصف وان كان في بعضه الجانب الصحيح والحق الصريح ، ولكن لهذه المدينة الكثير من المحاسن كما أن لها الكثير من المساوىء ، فلا تغطوها حقها ولا تبخسوها قدرها ، وخذوا منها معشر الشرقيين ما ينفعكم ويلتئم بكم ، واتركوا ما يضركم وينافي طباعكم ، واعملوا على الاستفادة من جليل صناعاتها وعظيم آلاتها ، واتخذوا منها قوة

تَصُدُّ عَنْكُمْ أَذَى الطَّامِعِينَ وَشَرَّهَ الْمُسْتَعْمِرِينَ ، وَانْقَلَوْا مُحَاسِنَ الْغَرْبِ إِلَى الشَّرْقِ ، وَتَمَسَّكُوا بِفَضَائِلِ أَخْلَاقِكُمْ وَجَمِيلِ عَادَاتِكُمْ فَأَنْتُمْ بِهَا فِي غِنَى عَنْ التَّخَلُّقِ بِأَخْلَاقٍ غَيْرِكُمْ ، وَتَمَتَّعُوا فِي رِخَاءِ بِلَادِكُمْ وَسِعَةِ أَرْزَاقِكُمْ وَاحْمَدُوا اللَّهَ عَلَى مَا آتَاكُمْ

قال عيسى بن هشام — ولم يبق لنا بُدٌّ في هذه الحال . من السفر والانتقال . فاستخرنا الله في العودة الى ديارنا . والأوبة الى أوطاننا . والحمد لله باطنًا وظاهرًا أولاً وآخراً

﴿ وإلى هنا انتهى الحديث ﴾



بدأت هذا الكتاب بخير ما يبدأ به كتاب بعد اسم الله وذكر رسوله : رسالة الحكيم جمال الدين

لم أرم في ذلك - علم الله - الى التنبيه من ذكرى والتنويه بقدرى ، وأستغفره ثم أتوب اليه أن يكون الدافع الى نشرها هذا الغرض دون سواء وأنا أعلم أن مثل هذه الرسائل من كبار العلماء الى تلاميذهم إنما يكون مصدرها حث المتعلم على العلم والاغراء بالتمق فيه ، كالطفل توضع في يده قطعة العاج المنقشة عذالة يتعلل بها لتبث أسنانه ، بل كان نشرها لأنها أثمن الآثار يجب عرضه على النظر وتقاسة بما يحيطه ذلك القلم الجليل في أى قصد من المقاصد ومطلب من المطالب أن يبقى مطوياً في أدراج الأوراق وحقه أن ينشر على سائر الآفاق

وأختتمه على مثل هذه النية بخير ما يحتم به القول بعد حمد الله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم النبيين : هذه الرسالة التي شرفني بها مولانا الاستاذ الشيخ سالم بوحاجب شيخ العلماء وصاحب الافناء بالملكية التونسية بعد أن قرأ هذا الكتاب في طبعته الاولى . وناهيك بقدر هذه الرسالة بركة ويمناً وشرفاً وجلالاً بمن يمثل لك بالفعل ، ما يروى عن السلف الصالح بالقول ، ويشهد لك بسيرته في هذه الايام ، كيف كان العالم العامل في صدر الاسلام ، ويعيد لنا ذكرى البصرى في الزهد والتقى ، والكوفي في الرأي والحجى ، والمكي في الفقه والدين ، والمدني في العلم علم اليقين . هذا الى سعة في الاطلاع وتصرف في الافكار ودقة في البحث واستنباط للامور ، يؤلف الغابر بالحاضر ويتطابق بين أحكام ما قضت به الحكمة في سالف الأوان وما قضى به قواعد هذا الزمان :

أنفق العمر ناسكا يطلب العلم ثم بكشف عن أصله وانتقاد

فهو المثال التام الذى ينشده الاسلام ، منذ السنين والاعوام ، من بين العلماء الاعلام ، ليعود اليه مجده ويرتد اليه حقه ويعرف بهم قدره . ولو من الله بمن يأخذ بقدرته في سائر الاقطار ، ولو جرى العلماء على مثاله في كل مصر من الامصار ، لاستوى الأواخر بالأوائل في العلم والدين . ولعاد الاسلام الى ذلك العز القديم والنصر المين :

وهذا نص الرسالة الكريمة :

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

أيها الجهبذ النحرير . المتصرف في أحرار الألباب . ورقيق
الآداب . بالاسترقاق والتحرير . البالغ من رتب التهذيب أقاصيها .
المالك من بدائع الترية نواصيها . أما بعد تقديم التحية . اللاتقة بعزة تلك
الحضرة المحمدية المويحية . فقد وصل الى — واصل الله في مدارج
الإجادة ارتقاءكم . وأدام لحسن الافادة إتقانكم وانتقاءكم . كتابكم الجليل
الذى يقوم به على تقدمكم في حلبة العرفان . وبراعة البيان . وكمال ترية
الانسان . أوضح دليل . فَوَ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . ومنح خير خلقه جوامع
الكلم . إنَّ لقلمكم من السحر المبين . ما تخزُّ له سحرة البيان ساجدين .
وإنه ليحقق اللطيفة الموسوية التى لمح لتأهِّلكم لها كتابُ الاستاذ جمال
الدين . كما يتحقق ما يُتفاهل به عن اسناد مروياتكم لاسم عيسى . وإحياء
موتى الأفكار المؤسَّسة على حياة مَنْ كان فى الاحدرميسا . فيا لَهُ مِنْ
معلِّم قد علِّم منه كلُّ أناس مشربهم . وَوَجَدَ فِيهِ الْبَاحِثُونَ عَنْ وَسَائِلِ
الاستقامة مأربهم . فرجال الحكم مثلاً سواء أكانوا من الأمة الاسلامية
أم غيرها . يتعرفون منه ملائكة عز الأمة ونموخيرها ، بإسناد الوظائف
الى أهل المعرفة والفضل . والضنَّ بها عن غير الأهل . وإقامة منار العلم
والعدل . لتدارك ما تخرب بيد الجور والجهل . — والعلماء يدركون به
طرق النصيح فى التعليم . وعدم النفرة من الحديث لمجرد كونه لم يُعهد
فى القديم . ومع ما يلزم لهم فى اقتياد ذوى الجهالة والعماد من الملاحظات .

والتحذير مما يندس الشريعة المصونة من مُتَلَقِّ الخرافات - والحاكمُ
القاسم ينتهي بمطالعة بالكف والإعراض . عن كل ما يمس المروءة
ويندس الأعراض - والمنشئ يعلم منه كيف يسحر العقول بهيمنة
لفظه . ويستلب القلوب بحسن إرشاده ووعظه ، وكيف ينتحل الأديب .
مهارة الطبيب . فيشرح النصائح بأسلوب عجيب . لا يتطرقة إنكار أو
تكذيب ، وقد يجد المريض من حلق الطبيب عذوبة التعذيب ، -
ثم يسترشد به الوالد في تربية أبنائه . ويدعوهم الى حفظ مجد البيت
والثروة بعد فثائه . ويعينهم على استثمار دوحه البذور . وينقذهم مما يُفْضَى
اليه سوء السيرة من الأسواء والشرور .

ملا الله أوقات الجميع بالسرور . ولا زال يرينا من أعمالكم كل أثر
مشكور . واذا كان لا يتيسر لغيركم رعاكم الله أن يصل بقلبه الى منتهى
آماله . فحسبنا أن تقنع في أداء الواجب بإجماله

هذا ما حملت عليه محاولة القيام ببعض الواجب . من متيم ودمكم

سالم بو حجاب

وأدبكم :

فهرس

(كتاب حديث عيسى بن هشام)

صفحة	صحة
٢٥٤ العمدة في المجمع	٢ اهداء الكتاب
٢٦٦ العمدة في المطعم	٤ كتاب السيد جمال الدين الافغانى للمؤلف
٢٧٨ العمدة في الحان	٦ خطبة الكتاب
٢٩١ العمدة في المرقص	٧ العبرة
٣٢٣ العمدة في الرهن	١٤ الشرطة أو البوليس
٣٣٧ العمدة في الاهرام	٢٣ النيابة
٣٤٨ قصر الجيزة والمتحف	٣٣ المحامى الأهلى
٣٥٨ العمدة في الملهى	٣٧ المحكمة الأهلية
٣٧١ المدنية الغربية	٥٤ لجنة المراقبة
٣٧٥ الرعدة الثانية	٦٢ محكمة الاستئناف
٣٧٧ باريس	٧٦ الوقف
٣٩٥ المعرض	٨٢ أبناء الكبراء
٤٠٦ القصر الكبير	٨٨ كبراء العصر الماضى
٤١٨ الاشجار والازهار	١٠١ المحامى الشرعى
٤٢٦ المرائى والمشاهد	١١٠ الدفترخانة الشرعية
٤٣٤ الافتراء على الوطن	١١٩ المحكمة الشرعية
٤٤٢ خبز المدينة	١٢٨ قصر حفيد الباشا
٤٥٠ المعجزة الثامنة	١٣٩ الطب والاطباء
٤٦٠ من الغرب الى الشرق	١٥١ الطاعون
٤٦٣ خاتمة بقلم المؤلف	١٦٠ الوباء
٤٦٤ رسالة شيخ العلماء وصاحب الافتاء	١٦٩ العزلة فى العلم والادب
بالمملكة التونسية الاستاذ الشيخ	١٨٢ الاعيان والتجار
سالم بوحاجب للمؤلف	١٩٥ أرباب الوظائف
تمت	٢١٠ العرس
	٢٤٢ العمدة فى الحديثة